سلسلة كنوز الحضارة

تـــاريخ حضارة العرب القديم

إعـــداد

د. عصام محمد فكري علي   د. إبراهيم جابر السيد

دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دار الجديد للنشر والتوزيع

٩٠١.٩	علي ، عصام محمد فكري .
ع ٠ ع	سلسلة كنوز الحضارة / عصام محمد فكري علي.{واخ}.-ط١.- دسوق: دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، دار الجديد للنشر والتوزيع.
	٤٨٠ ص ؛ ١٧.٥ × ٢٤.٥سم .
	تدمك : ٦ - ٦٥٩ – ٣٠٨ – ٩٧٧ – ٩٧٨
	١. الحضارة – تاريخ .
	أ – علي ، عصام محمد فكري (معد مشارك) .

رقم الإيداع : ٢٨٨٣ .

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دسوق - شارع الشركات- ميدان المحطة – بجوار البنك الأهلي المركز

هاتف- فاكس : ٠٠٢٠٤٧٢٥٥٠٣٤١ محمول : ٠٠٢٠١٢٧٧٥٥٤٧٢٥-٠٠٢٠١٢٨٥٩٣٢٥٥٣

E-mail: elelm_aleman٢٠١٦@hotmail.com & elelm_aleman@yahoo.com

الناشر : دار الجديد للنشر والتوزيع

تجزءة عزوز عبد الله رقم ٧١ زرالدة الجزائر

هاتف : ٢٤٣٠٨٢٧٨ (٠) ٠٠٢٠١٣

محمول ٦٦١٦٢٣٧٩٧ (٠) ٠٠٢٠١٣ & ٧٧٢١٣٦٣٧٧ (٠) ٠٠٢٠١٣

E-mail: dar_eldiadid@hotmail.com

تنويه:

الفهرس

مقدمة

التاريخ العربي القديم من فروع علم التاريخ ويقصد به فترة ما قبل الإسلام، ويقوم على أساس المكتشفات الآثرية من نقوش وأختام ومباني قديمة. وقد أهتم علماء الغرب بدراسة التاريخ القديم للعرب وجمعوا العديد من النقوش والمخلفات الآثرية من جزيرة العربوأطرافها.

ويعد المستشرق الدانماركي كرستنس فون هافن، أستاذ اللغات السامية في جامعة غوتينغن الألمانية،أول من وجه الأنظار إلى الكشف عن عاديات بلاد العرب الجنوبية، إذ أقنع ملك الدنمرك سنة ١٧٥٦م بتكوين بعثة علمية تطوع هو للاشتراك فيها.

أيقظت هذه الرحلة فضول المستشرقين والرحالة، فتتالت البعثات الأثرية إلى اليمن وشمال الجزيرة العربية. ولقد أهتمت الجامعات السعودية مؤخرا بهذا العلم، فقامت جامعة الملك سعود بعدد من الاكتشافات الأثرية في منطقة الفاو عاصمة دولة كندة على يد الدكتور عبد الرحمن الأنصاري.

الفصل الأول

نبذة عن العرب قبل الاسلام

أولاً: الأحوال السياسية:

تمثل القبيلة عند العرب في الجاهلية جوهر كيانهم السياسي، كما تمثل أيضاً مصدر قوتهم وأساس توحدهم. ويذكر ابن خلدون أنه كلما احتفظت القبائل ببداوتها وعصبيتها كلما ظلت قوية متماسكة، فاختلاط القبائل بأسباب التحضر يفضي إلى زوال خشونتها وعصبيتها.

والعصبية القبلية عند العرب نوعان: عصبية الدم وهي أساس القرابة في البيت الواحد، ومصدر الترابط الوثيق بين أفراد القبيلة. أما النوع الثاني فيعرف بعصبية الانتماء، أي الانتماء إلى أب بعيد أو جد مشترك والذي من نسله تكونت القبيلة أو القبائل المنتمية إليه، وعلى هذا فالوعي السياسي لم يتجاوز حدود القبيلة أو حدود القبائل المنتمية إليها.

والقبيلة في البادية بمثابة دولة صغيرة، تنطبق عليها مقومات الدولة باستثناء عامل واحد، وهو المكان أو الأرض التي تقيم عليها نفوذها السياسي، فمعلوم أن أبناء القبيلة دائمو التنقل والترحال وراء مصادر الماء والعشب.

وكان النظام القبلي أيضاً دعامة الحياة السياسية في الممالك والإمارات التي قامت في جنوب جزيرة العرب، وفي حواضر الحجاز وفي الإمارات العربية على تخوم الشام والعراق، فلم تنصهر القبائل التي نزلت في هذه المدن

والحواضر في شعب واحد، كالشعب الروماني أو الشعب الفارسي، وإنما ظلت تحتفظ بتنظيمها القبلي، على الرغم من اختلاط أنسابها وتداخل شعوبها بحكم اختلاطها بغير العرب ممن لا يعتبرون المحافظة على النسب في بيوتهم وشعوبهم.

وكان رباط العصبية يفرض على كل فرد في القبيلة تلبية نداء قبيلته إذا دعته إلى نصرتها أوقات الحروب، فينصر أبناء قبيلته سواء كانوا ظالمين أم مظلومين ولهذا، وعلى هذا الأساس تقرر مبدأ جاهلي في هذا الشأن وهو "أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً."

وكان لكل قبيلة مجلس حكم يرأسه شيخ يختارونه من بينهم، وكانوا يسمونه بالرئيس أو الشيخ أو الأمير أو السيد. وكان أساس اختياره أن يكون من أشراف رجال القبيلة، وأكبرهم سناً، وأقواهم عصبية، وأكثرهم مالاً، وإضافة إلى ذلك كان لابد أن تتوافر فيه بعض الخصال الحميدة التي تتناسب وهذا المنصب الخطير، كالشجاعة والكرم والحكمة والحلم.

وكان على شيخ القبيلة أن يعين الضعفاء من أبناء قبيلته ويدفع عنهم الديات، كما كان حكمه نافذاً على جميع أفراد القبيلة. كما كان له العديد من الامتيازات بحكم منصبه، كحقه في المرباع (أي ربع الغنيمة)، والصفايا (أي ما يصطفيه شيخ القبيلة لنفسه من الغنائم قبل قسمتها)، والحكم (أي إمارة الجند)، والنشيطة (أي ما أصيب من المال قبل اللقاء).

وكان للشاعر شأن كبير في حياة القبيلة، فكان إذا نبغ في إحدى القبائل شاعر أتت القبائل فهنأتها به. وكان شاعر القبيلة يتفرغ لحفظ أنساب القبيلـة ومآثرها، وكان أيضاً رهن تصرف القبيلة للذود عنها إذا ما هجيت أو هجـي رئيسها من قبل القبائل الأخرى).

ثانياً: الأحوال العسكرية وقيم الحرب في الجاهلية:

لم تكن لدى العرب البدو جيوشاً منظمة مدربة، فجميع أفـراد القبيلـة يستنفرون للحرب عن طريق نداء شيخ القبيلة مدفوعين حيال ذلك ببواعث العصبية القبلية. وكانت النساء يشاركن في هذه الحروب، وذلك بقصد بعث الحمية والحماسة في قلوب الرجال، كما فعلت نسـاء شـيبان وبكـر بـن وائـل وعجل في يوم ذي قار، **فأنشدت امرأة منهن:**

إن يظفـروا يحـرزوا فينـا الغـرل أيهـا فـداء لكـم بنـي عجـل

أما في الممالك والإمارات، فقد كان الاعتماد فيها على الجيوش الدائمة، يضاف إليها ما كانت تقدمه القبائل التابعة لها وقـت الحـروب، فكـان لملـك الحيرة مثلا كتيبتان إحداهما فارسية، وأخرى عربية. ومن نظم الحـرب التـي عرفها العرب نظام الكمائن والتي أخذوها عن الفرس، وقـد تمكنـوا بفضـل تمكنهم من هذا النظام أن يهزموا الفرس في موقعة ذي قار. كما عرف العرب كذلك هيكلة الجيش إلى ميمنة وميسرة أثنـاء الحـرب، **وفي هذا يقول عمرو بن كلثوم:**

وكنـــا الأيمنـــين إذا التقينـــا وكـــان الأيســـرين بنـــو أبينـــا

ومن وسائل العرب في الحروب استخدام العيون والجواسيس، لترصد العدو وكشف أحواله، كما فعل أمريء القيس عندما أرسل عيونه إلى بني أسد.

هذا وقد استخدم العرب نوعيات عديدة من الأسلحة في حروبهم، كالسيوف المشرفية نسبة إلى مشارف الشام، والهندية نسبة إلى الهند. ومن آلتهم في الحروب أيضاً الرماح وأجودها الرماح اليزينية نسبة إلى الملك ذي يزن، والرماح الخطية نسبة إلى خط وهو موضع بالبحرين. ومن آلاتهم كذلك القسي والسهام، والنبال وهي سهام مريشة ذات سهام، والكنانات وهي حافظة النبال. وهناك أيضاً الدروع وهو عبارة عن حلقات متصلة من الحديد تغطي الظهر والصدر. ومن أدوات الحرب عندهم كذلك "البيضة" أو "المغفر" وهو الخوذة التي توضع على الرأس للوقاية من ضربات السيوف، ومنها أيضاً "المجانيق" وهي أداة لقذف الحجارة.

ومن ناحية أخرى كان أسرى المعارك والحروب يساقون عبيداً عند الغالبين، إلى أن تفتديهم قبيلتهم بالمال، والفداء يكون عادة بعدد كبير من البعير، ويتفاوت قدرة بحسب منزلة الأسير في قومه. وقد يتعرض الأسير للقتل كما فعل المنذر بن إمريء القيس مع أسرى بكر بن وائل وهو من الأمور المستقبحة عند العرب، وقد يكتفي بجز ناصية الأسير وإطلاق سراحه على سبيل الإذلال والمهانة، ويحتفظ الغالب بناصية الأسير رمزا

لانتصاره أما في حال أسر الشاعر فكانوا يربطون لسانه بنسعة حتى لا يهجوهم، فالهجاء في الجاهلية كان أشد وطأة على الأعداء من وقع الرماح والسيوف.

أما عن حال الأسيرات من النساء فكن سبايا والأولاد الذين تكون هذه أمهم يلحقهم العار مدة حياتهم. وفي بعض الأحيان كن يتخذن زوجات، وأحياناً أخرى يكن أمهات لأبنائهن دون الاعتراف بهن كزوجات .

أما عن الثأر فكان إذا قتل رجل من قبيلة رجلاً من قبيلة أخرى، كان لزاماً على قبيلة القتيل أن تطلب الثأر من القاتل وتطالب بتسليمه للقصاص، ولكن عصبية القبيلة جعلت من تسليم القاتل بمثابة عار على القبيلة، كما أن قبول الدية من قبيلة القاتل كان يعد عاراً على قبيلة القتيل. وقد تقبل بعض القبائل دفع الديات، وكانت دية النفس عند عامة القبائل مائة من الإبل، أما دية الملوك والأشراف فكانت تصل إلى ألف بعير.

كانت الحروب والمعارك التي تنشأ بين العرب قبل الإسلام تحكمها قيم خاصة، ودوافع متباينة، فقد كان حب القتال مغروساً في نفوس العرب في الجاهلية، حتى تحول إلى شغف بالسيطرة والغلبة، ومن ثم ترسخ لديهم اعتقاد بأن الحق لا يمكن الوصول إليه إلا بالبغي والعدوان والظلم، **وفي هذا يقول زهير بن أبي سلمى في معلقته:**

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

وفي سبيل التوصل إلى الحق استعذب العربي في الجاهلية الموت للوصول إلى حقه، وفضله على الخنوع والرضا بالذل.

وعن أسباب قيام الحروب بين العرب في الجاهلية فكانت لأسباب عديدة، فأحياناً تكون بواعثها سياسية لتتخلص من أجنبي عليها كالحرب التي قامت بين ربيعة واليمن لتتخلص الأولى من تبعية الثانية. وأحياناً أخرى تنشب لأسباب نفسية كالحروب التي قامت في يثرب بين الأوس والخزرج من أجل الاستئثار بالسيادة والرفعة وعلو المكانة. وقد يكون الهدف الاقتصادي هو من عوامل قيام هذه الحروب في بعض الأحيان فضيق أسباب الحياة في الجزيرة العربية نتيجة الجدب وقلة المطر جعل معظم القبائل في حالة حركة مستمرة طلباً للماء والمرعى، وصل في كثير من الأحيان إلى حد التنافس والاقتتال بينها، للاستحواذ على هذه المواطن.

ولكثرة سفك الدماء اتفق العرب على تحديد أشهر أربعة حرّموا فيها القتال عرفت بالأشهر الحرم، وهي : ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب، وبالرغم من ذلك فقد ظهر تحايل واستهانة على هذه الأشهر من خلال ما عرف بـ "النسيء"، فقد كانوا ينسئون الشهور أي يؤخرونها ويحلون مكانها أشهراً يحل فيها القتال، وأول من نسأ الشهر واحدا من بني الحارث بن مالك بن كنانة ويدعى بـ "حذيفة بن عبد فقيم"، **وفي هذا يقول أحدهم:**

ثالثاً: الأحوال الاجتماعية:

كانت في العرب أوساط متنوعة تختلف أحوال بعضها عن البعض من الناحية الاجتماعية، ففي جانب أشراف القبيلة كانت علاقة الرجل بالمرأة على درجة كبيرة من الرقي، حيث كانت المرأة مصونة تسل دونها السيوف، وربما كانت المرأة إذا شاءت جمعت القبائل للسلام، وإن شاءت أشعلت بينهم نار الحرب والقتال، ومع هذا كله فقد كان الرجل يعتبر بلا نزاع رئيس الأسرة، وصاحب الكلمة فيها، وكان ارتباط الرجل بالمرأة بعقد الزواج تحت إشراف أوليائها، ولم يكن من حقها أن تخالفهم.

بينما كانت هذه حال الأشراف، كان هناك في الأوساط الأخرى أنواع من الاختلاط بين الرجل والمرأة، لا نستطيع أن نعبر عنه إلا بالدعارة والمجون والسفاح والفاحشة. روى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها أن النكاح في الجاهلية كان كلى أربعة أنحاء: فكان منها نكاح الناس اليوم، يخطب الرجل إلى الرجل وليته فيصدقها ثم يتزوجها. ونكاح آخر كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمسها، أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إن أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد من الذكور، وكان هذا النكاح يسمى نكاح الاستبضاع. وهناك نكاح آخر صورته أن يجتمع الرهط دون العشرة فيدخلون على المرأة

كلهم يصيبها، فإذا حملت، ووضعت ومرت ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم، فلم يستطع الرجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، فتقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت، وهو ابنك يا فلان، فتسمي من أحبت منهم باسمه فيلحق به ولدها. ونكاح رابع وفيه يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها، وهن البغايا، كن ينصبن على أبوابهن رايات، تكون علماً لمن أرادهن دخل عيهن، فإذا حملت فوضعت حملها جمعوا لها، ودعوا لهم القافة، ثم ألحقوا ولدها بالذي يشبهه شكلاً فينسب إليه ولا يمتنع عن ذلك، فلما بعث الله محمداً ﷺ حطم نكاح أهل الجاهلية كله، إلا نكاح الإسلام اليوم.

ومن المتعارف عليه في الجاهلية التعدد دون بين الزوجات من غير حد، كما كانوا يجمعون بين الأختين: وكانوا يتزوجون بزوجة آبائهم إذا طلقوها أو ماتوا عنها ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [سورة النساء: الآية ٢٢ - ٢٣]، وكان الطلاق بيد الرجل وغير محدود بعدد.

□

وكانت فاحشة الزنا سائرة في جميع الأوساط: لا نستطيع أن نخص منها وسطا دون وسط، إلا أفراداً من الرجال والنساء الحرائر الذين أنفت نفوسهم أن تقع في هذه الرذيلة. ويبدو أن الأغلبية الساحقة من أهل الجاهلية لم تكن تحس بعار في الانتساب إلى هذه الفاحشة، روى أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قام رجل فقال: يا رسول الله إن فلاناً ابني، عاهرت بأمه في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: "لا دعوة في الإسلام، ذهب أمر الجاهلية".

وكانت علاقة الرجل مع أولاده على أنواع شتى، فمنهم من يقول: "إنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الأرض". ومنهم من كان يئد البنات خشية العار والإنفاق، ويقتل الأولاد خشية الفقر وقد أشار القرآن إلى ذلك في مواطن عديدة، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [سورة التكوير: الآية٨- ٩] وقال تعالى ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [سورة النحل: الآية٥٨- ٥٩]

غير أن ذلك لم يكن من الأخلاق المنتشرة السائدة، حيث كانوا أشد الناس احتياجاً إلى البنين ليتقوا بهم العدو.

رابعاً: الأحوال الدينية:

كان الغالبية العظمى من عرب شبه الجزيرة العربية يعبدون الأصنام، ويكاد يجمع المؤرخون على أن عمرو بن لحى، فقد أخبر النبي ﷺ أنه:

"كان أول من غيَّر دين إسماعيل..". فيقال أنه كان قد خرج إلى أرض الشام، في بعض أموره فلما قدم مآب من أرض البلقاء، رآهم يعبدون الأصنام، فقال لهم : ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ قالوا: هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا. فقال لهم: ألا تعطوني منها صنماً فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه، فأعطوه صنماً يقال له: هبل، فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه.

وبمرور الوقت انزوى دين إبراهيم عن وجدان عرب الجزيرة، وأضحى الشرك أصلاً لديهم، فجبلت عقائدهم عليه، ومسخت فطرهم لتألفه. وكانت هذه الأصنام على أشكال متنوعة، فمنها ما كان على صورة الإنسان، ومنها ما كان على هيئة الحيوان، كما كانت تصنع من مواد مختلفة، فبعضها يصنع من الخشب، وبعضها من الحجارة، والبعض الآخر من مواد شتى.

وأشهر أصنام العرب، "ود" الذي كانت تعبده قريش، و "سواع" الذي كانت تعبده هذيل، و"يغوث" الذي كان يعبد في بلاد مذجح وهوازن.وإلى جانب هذه الأصنام عبد العرب بعض مظاهر الطبيعة، واعتقدوا في السحر والكهانة.

أما عن الديانتان اليهودية والمسيحية، فقد وجدتا مراكز لهما في جنوب وشمال الجزيرة العربية، إلا أنهما عجزتا عن أن تنهضا كطوق يحول دون عبادة العرب لهذه الأصنام، فالمسيحية أصابها الانشقاق الكنسي والاضطهاد

المذهبي نتيجة الاختلاف في تحديد ماهية ذات المسيح، واليهودية عبثت بشريعتها أيدي التحريف والنزعة العنصرية والإغراق في العزلة والذاتية.

غير أن المصادر تخبرنا عن أن ثمة محاولات جاءت من قِبَل طائفة "الحنيفية"، للتنقيب عن شرائع دين إبراهيم عليه السلام، غير أنها باءت جميعها بالفشل، فهيهات أن يلتمس مثل هذا الأمر بطريق بشري، بعد أن اندرست معالم هذا الدين على مدار دهور وأزمنة مديدة، صحيح إن بقايا من هذا الدين ظلت حاضرة في واقع الحياة الدينية للعرب، إلا أنها جاءت مخلوطة بمفاسد الشرك ونجس الوثنية.

من هنا كان لابد أن يُنتظر الاصطفاء الإلهي للنبي الخاتم، ليُبعث على يديه هذا الدين صفياً نقياً حسبما بشرت بذلك التوراة والإنجيل. وبالفعل لم تلبث أن تحققت البشارة وأن يقع الاصطفاء على النبي محمد ﷺ، ليأتي من قبل الله ﷻ بالحنيفية السمحة، وليتمم مكارم الأخلاق، فيغيّر بذلك واقع مجتمعه بل واقع البشرية، ليرقى بها من ظلمات الشرك والجهالة إلى نور التوحيد والهداية.

- القبيلة هي جوهر الكيان السياسي عند العرب.
- وكان رباط العصبية يفرض على كل فرد في القبيلة تلبية نداء قبيلته إذا دعته إلى نصرتها أوقات الحروب.

- وكان لكل قبيلة مجلس حكم يرأسه شيخ يختارونه من بينهم، يلقب بأسماء عديدة، وله العديد من الامتيازات، كما كان عليه العديد من الحقوق حيال قبيلته.
- وكان للشاعر شأن كبير في حياة القبيلة اجتماعياً وسياسياً.
- لم تكن لدى العرب جيوشاً منظمة مدربة، باستثناء مناطق الممالك والإمارات.
- ومن نظم الحرب التي عرفها العرب الكمائن، والجواسيس.
- استخدم العرب نوعيات عديدة من الأسلحة في حروبهم، كالسيوف والنبال والدروع والمنجانيق.
- كانت تحكم العرب بعض الأعراف والقيم في شأن أسرى الحرب، والأخذ بالثأر.
- استحدث العرب نظام النسيء، لتأجيل الأشهر الحرم عن وقتها.
- كانت علاقة الرجل بالمرأة في وسط أشراف القبيلة علاقة يسودها الاحترام.
- ساد بين العرب أنواعاً عديدة من الزيجات، كما مارسوا التعدد من غير حد، والطلاق من غير حد، إضافة إلى وأد البنات.
- كان الغالبية العظمى من عرب شبه الجزيرة العربية يعبدون الأصنام قبل الإسلام.

- عمرو بن لحى هو أول من بدل دين إسماعيل.
- اعتنق العرب اليهودية والمسيحية، في جنوب وشمال الجزيرة العربية.
- ظهرت في الجزيرة العربية طائفة "الحنيفية"، والتي كانت تعنى بالبحث عن شرائع دين إبراهيم.

الفصل الثاني
مساكن العرب القديمة

التي درجوا منها إلى سائر الأقطار أعلم: أن مساكن العـرب في ابتـداء الأمر كانت بجزيرة العرب الواقعة في أواسط المعمور واعدل أماكنه وأفضل بقاعه حيث الكعبة الحرام وتربة أشرف الانام نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وما حول ذلك من الأماكن وهذه الجزيرة متسـعة الأرجـاء ممتـدة الأطـراف يحيط بها من جهة الغرب بعض بادية الشام حيث البلقـا إلى أيلـة ثـم القلـزم الآخذ من أيلة حيث العقبة الموجـودة بطريـق حجـاج مصرـ إلى الحجـاز إلى أطراف اليمن حيث طي وزبيد وما داناهمـا ومـن جهـة الجنـوب بحـر الهنـد المتصل به بحر القلزم المقدم ذكره من جهة الجنوب إلى عدن إلى أطراف اليمن حيث بلاد مهرة من ظفار وما حولها ومن جهة الشرق بحر فارس الخارج من بحر الهند إلى جهة الشمال إلى بـلاد البحـرين ثـم إلى أطـراف البصرـة ثـم إلى الكوفة من بلاد العراق ومن جهة الشمال الفرات آخذًا من الكوفة على حدود العراق إلى عانة إلى بالس بلاد الجزيرة الفراتية إلى البلقا من برية الشام حيـث وقع الابتداء.

والحاصل أن السائر على حدود جزيرة العرب فيـه مـن أطـراف بريـة الشام من البلقا جنوبًا إلى أيلة ثم يسير على شاطئ بحر القلزم وهـو مسـتقبل الجنوب والبحر على يمينه إلى مدين إلى ينبع إلى البروة إلى جدة إلى أول الـيمن إلى زبيد إلى أطراف اليمن من جهة الجنوب ثم يعطف مشـرقًا ويسـر إلى

ساحل اليمن وبحر الهند على يمينه حتى يمر على عدن ويجاوزها حتى يصل إلى سواحل ظفار من مشاريق اليمن إلى سواحل مهرة ثم يعطف شمالًا ويسير على سواحل اليمن وبحر فارس على يمينه ويتجاوز سواحل مهرة إلى عمان من بلاد البحرين إلى جزيرة أوال إلى القطيف إلى كاظمة إلى البصرة إلى الكوفة ثم يعطف إلى الغرب ويفارق بحر فارس ويسير والفرات على يمينه إلى سليمة إلى البلقا حيث بدأ.

ودور هذه الجزيرة على ما ذكره السلطان عماد الدين صاحب حماة في تقويم البلدان سبعة أشهر وأحد عشر يومًا تقريبًا بسير الأثقال فمن البلقا إلى الشراة ثلاثة أيام ومن الشراة إلى أيلة نحو ثلاثة أيام ومن أيلة إلى الحجاز وهي فرضة المدينة المنورة النبوية نحو من عشرين يومًا ومن الحجاز إلى ساحل الجحفة نحو ثلاثة أيام ومن ساحل الجحفة إلى جدة وهي فرضة لمكة ثلاثة أيام ومن ساحل جدة إلى عدن نحو من شهر ومن عدن إلى سواحل مهرة نحو من شهر ومن مهرة إلى عمان إلى البحرين نحو من شهر ومن هجر إلى عبادان من العراق نحو من خمسة عشر يومًا ومن عبادان إلى البصرة نحو يومين ومن البصرة إلى الكوفة نحو اثنى عشر يومًا ومن الكوفة إلى بالس نحو عشرين يومًا ومن بالس إلى سلمية نحو سبعة أيام ومن سلمية إلى مشاريق غوطة دمشق نحو أربعة أيام ومن مشاريق غوطة دمشق إلى مشاريق حوران نحو ثلاثة أيام ومن مشاريق حوران إلى البلقا نحو ستة أيام.

واعلم – أن الجزيرة في أصل اللغة ما ارتفع عنه الماء آخذًا من الجزر الذي هو ضد المد ثم توسع فيه فأطلق على كل ما دار عليه الماء ولما كان هذا القطر يحيط به بحر القلزم من جهة المغرب وبحر الهند من جهة الجنوب وبحر فارس من جهة المشرق والفرات من جهة الشمال أطلق عليه جزيرة واضيفت إلى العرب لنزولهم لها ابتداءً وسكناهم فيها.

قال المدائني: وجزيرة العرب هذه تستمل على خمسة أقسام: تهامة ونجد والحجاز والعروض واليمن فتهامة هي الناحية الجنوبية عن الحجاز. ونجد هي الناحية التي بين الحجاز والعراق. والحجاز: هو ما بين تهامة ونجد. وتهامة: جبل يقبل من اليمن حتى يتصل بالشام وسمي حجازًا لحجزه بين نجد وتهامة.

والعروض: هي اليمامة ما بين تهامة إلى البحرين ويدخل في جزيرة العرب أيضًا قطعة من بادية الشام كما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى ثم في كل قطر من هذه الأقطار مدن وبلاد مشهورة.

فأما الحجاز: ففيه من البلاد المشهورة المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام وقيل هي من نجد وفيه أيضًا من البلاد خيبر والطائف.

وأما تهامة: ففيها من البلاد المشهورة مكة المشرفة وقيل هي من الحجاز وفيها أيضًا من البلاد ينبع.

وأما نجد: فقد قيل أن المدينة النبوية منها والراجح أنها من الحجاز على ما تقدم. وأما العروض: فيشتمل على ناحيتين.

الناحية الأولى: اليمامة وقيل هي من الحجاز وهي مدينة دون مدينة النبي صلى الله عليه وسلم في المقدار بينها وبين البصرة ست عشرة مرحلة وبينها وبين الكوفة أيضاً مثل ذلك وهي أكثر نخلاً من سائر بلاد الحجاز وبها كان مسيلمة الكذاب الذي ادعى النبوة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وقتل في زمن أبي بكر رضي الله عنه.

الناحية الثانية: بلاد البحرين وهي قطر متسع مجاور لبحر فارس كثير النخل والثمار والمشهور به من البلاد هجر بفتح الهاء والجيم وهي التي كانت قاعدة البحرين في الزمن المتقدم فخربها القرامطة عند استيلائهم على البحرين وبنوا مدينة الاحساء ونزلوها وصارت هي قاعدة البحرين وهي مدينة كثيرة المياه والنخل والفواكه وبينها وبين اليمامة نحو أربعة أيام إلى غير ذلك من البلاد المتسعة.

وأما اليمن – فهو اقليم عظيم متسع الارجاء متباعد الأطراف وكانت قاعدته القديمة مدينة صنعاء وهي مدينة عظيمة تسبه مدينة دمشق في كثرة مياهها وأشجارها وهي في شرقي عدن في الجبال وهواؤها معتدل وكانت في الزمن المتقدم تسمى أزال وهي الآن بيد إمام الزيدية باليمن داخلة تحت طاعته هي وما حولها وقد استحدث عليها حصن تعز فصار منزل لبني رسول ملوك اليمن الآن وهو حصن في الجبل مطل على النهائم وأراضي زبيد وفوقه منتزه يقال له – صعدة – قد ساق إليه صاحب اليمن المياه من الجبال التي فوقها وبنى فيها أبنية عظيمة في غاية الحسن في وسط بستان هناك وفرضة اليمن المشهورة في القديم والحديث عدن ويقال عدن ابين سميت

بذلك باسم بانيها وهي مدينة على ساحل بحر الهند جنوبي باب المندب بميل إلى المشرق مورد وحط واقلاع لمراكب الهند ومصر وغيرهما وبينها وبين صنعاء ثلاث مراحل وهي في ذيل جبل كالسور عليها وتمامة سور إلى البحر ولها باب إلى البر وباب إلى البحر إلا أنها قشفة يابسة ينقل الماء على ظهور الدواب واليمن مدن كثيرة من مشاهيرها.

زبيد – بفتح الزاي المعجمة – وهي قصبة التهايم وموضعها في مستوى من الأرض والبحر منها على أقل من يوم وبها مياه ونخل كثير وعليها سور دائر وفيها ثمانية أبواب وبينها وبين البحر خمسة عشر ميلًا.

ومن مشاهير بلادها نجران: بفتح النون وسكون الجيم وهي بلدة ذات نخيل وأشجار على القرب من صنعاء وهي بين عدن وحضرموت في جبال وهي من بلاد همدان بين قرى ومدائن وعمائر ومياه وبها كان أفعى بن الأفعى الجرهمي المعروف بأفعى نجران الذي تحاكم إليه مضر وربيعة وأياد وأنمار أولاد نزار بوصية من أبيهم.

ومن مشاهير بلاده ظفار: بالظاء المعجمة المشالة والفاء. وهي مدينة على ساحل خور يخرج من بحر الهند ويطعن في الشمال نحو مائة ميل وهي على طرفه وبينها وبين صنعاء أربعة وعشرون فرسخًا وعلى شمالها رمال الاحقاف التي بها كانت عاد وهي قاعدة بلاد الشجر ويوجد في أرضها كثير من النبات الهندي مثل الرايخ والتنبل ولها بساتين وأسواق وفي سواحلها يوجد العنبر إلى غيرذلك من البلاد المتعددة.

□

وأما بادية الشام: ففي جزيرة العـرب منهـا مدينـة تـدمر. بفـتح التـاء وضم الميم وهي بلدة قديمة ببادية الشام من أعمال حمص وهي عـلى شرقيهـا وأرضها سباخ وبها شجر ونخيل وزيتون وبها آثـار قلعـة عظيمـة أزليـة مـن الأعمدة والصخور ولها سور وقلعة وبينها وبين حمص نحـو ثـلاث مراحـل وكذلك عن سلمية وبينها وبين دمشـق تسـعة وخمسـون مـيلًا وبينهـا وبـين الزحمة مائة ميل وميلان وهي منزل عرب آل ربيعة ملوك العـرب بالشـام إلى الآن وكذلك من بادية الشام تيماء وهي حاضرة طي وبهـا الحصـن المعـروف بالأبلق الفرد المنسوب إلى السمؤل بن عاديا وتبوك وهـي بلـدة عظيمـة بـين الحجر أرض ثمود وبين الشـام وبهـا عـين مـاء ونخيـل ويقـال أن بهـا كـان أصحاب الأيكة الذين بعث الله اليهم شعيباً عليه السلام.

قلت ومنها مدين: وكانت بها منازل العرب العاربـة مـن عـاد وطسـم وجديس وأميم وجرهم وحضرموت ومن هم في معناهم ثـم انتقلـت ثمـود منها إلى الحجر بكسر الحاء المهملة وهي إلى الجنوب من دومـة الجنـدل وهـي من أرض الشام فكانوا بها حتى هلكوا كما ورد به القرآن الكريم.

وهلك من هلك من بقايـا العـرب العاربـة بـاليمن بمـدين مـن عـاد وغيرهم وخلفهم فيه بنو قحطان بن عابر فعرفوا بعرب مدين إلى الآن وبقوا فيه إلى أن خرج منه عمرو بن مزيقياء عند توقع سـيل العـرم ثـم خـرج منـه بقاياهم وتفرقوا في الحجاز والعراق والشام وغيرها عند حدوث سيل العـرم وكانت أرض الحجاز منازل لني عدنان إلى أن غزاهم بخت نصر ونقـل مـن نقل منهم إلى الانبار من بلاد العراق ولم يزل العرب بعد ذلك كلهم في التنقل

عن جزيرة العرب والانتشار في الأقطار إلى أن كان الفتح الاسلامي فتوغلوا في البلاد حتى وصلوا إلى بلاد الترك وما داناها وصاروا إلى أقصى المغرب وجزيرة الاندلس وبلاد السودان وملأوا الآفاق وعمروا الأقطار وصار بعض عرب اليمن إلى الحجاز فأقاموا به وربما صار بعض عرب الحجاز إلى اليمن فأقاموا به وبقي من بقي منهم بالحجاز واليمن على ذلك إلى الآن ومن تفرق منهم في الاقطار منتشرون.

الفصل الثالث
ممالك العرب القديمة

مملكة تدمر:

إن الشهرة التي اكتسبتها مدينة **تدمر** (تذمر) في أيام كتبة أسفار "أخبار الأيام" هي التي حملتهم على إضافتها إلى أعمال "سليمان"، لأنها "بمباني سليمان" أليق وأنسب من موضع صغير هو "تامار"، فأضافوا هذه المدينة المشهورة إليه، لتدل على شهرته وعلى مدى بلوغ ملكه في أيامه وقد أضيف إلى ملك سليمان على هذا النحو من الإضافات ما لا تصح إضافته إليه، وبولغ ملكه وحكمه في الأيام القديمة التي تلت أيامه، لأنه كان من أشهر ملوك "بني اسرائيل"، حتى صارت أخباره من قبيل الأساطير.

وذهب المؤرخ اليهودي "يوسفوس فلافيوس" هذا المذهب أيضاً، فنسب بناء "تدمر" إلى "سليمان". أخذ رأيه هذا من هذا الموضع من التوراة بالطبع، ومن الروايات التي وصلت إليه وكانت قد ظهرت قبله، للسبب المذكور.

أما الروايات العربية، فهي لا تفيد علماً ولا تصلح أن تكون دليلاً، فهي روايات متأخرة دخلت إلى المسلمين من أهل الكتاب، أشاعها وروّجها أمثال، "ابن الكلبي" بين الأخباريين، فأخذوها بغير تحقيق ولا تدقيق، وقد ذكر " ياقوت الحموي"إن قوماً" يزعمون أنها مما بنته جنّ سليمان، وأن أهل" تدمر" يزعمون أن ذلك البناء قبل سليمان بزمان.

ولدينا أبيات نسبت إلى "النابغة الذبياني" تتضمن أسصوا رة بناء جنّ سليمان لتدمر، امتثالاً لأمره الذي أصدره اليها، فقد نسب إليه قوله:

إلاّ سليمانَ إذ قال الإلهَ له قم في بريةَ فاحْددها عن الفندَ

وجيش الجنّ اني قد أمرتهمُ يبنون تدمرَ بالصفاح والعمد

ولا يصلح شعر النابغة ولا أمثاله من شعراء الجاهلية أن يكون حجة في بناء "سليمان" لتدمر. فمن الجائز أن يكون النابغة أو غيره، قد أخذ فكرته هذه من أهل الكتاب، ومن الجائز أن يكون هذا الشعر من وضع الوضاعين نسبوه إليه. وقد وضعت أشعار في الإسلام ونسبت إلى الجاهليين، والى آدم وهابيل وقابيل والجن وابليس وبين الأخباريين من ينسب بناء "تدمر" إلى "تدمر بنت حسان بن أذينة ابن السميدع بن يزيد بن عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح".

وذكروا قصة تفيد عثورهم على قبر "تدمر بنت حسان". وقد أعجبوا ببنائها ووصف الشعراء صورتين جميلتين من بقية صور كانت فيها. وقد حاصرها خالد بن الوليد ثم ارتحل عنها فبعث أهلها رسلاً وصالحوه على ما أدوه له ورضي به. أما قصة العثور على قبر في تدمر ووجود جثة فيه، فأمر ليس ببعيد ولا بغريب. وأما قصة "تدمر بنت حسان" ونسبها والكتابة التي على قبرها، فهي من وضع الأخباريين والقصاص ولا شك.

وقد أشار بلنيوس (بلينيوس) إلى مدينة Palmyra ، وهو أول كاتب كلاسيكي عرض لها، فذكر أنها مدينة شهيرة، ولها موقع ممتاز، أرضها خصبة، وبها ينابيع وعيون، تحيط بحدائقها الرمال. وقد عزلتها الطبيعة عن

العالم ببادية واسعة الأطراف، بعيدة المسافات، وتقع بين انبراطـوريتين عظيمتين ا نبراطورية "رومة"، وامبراطورية "الفرثParthia، ولهذا وخيس استرعت أنظارالدولتين. وورد اسمها في كتب الكلاسـيكيين الـذين عاشـوا بعد بلينيوس مما يدل على ازدياد شهرة هذه المدينة بعد الميلاد.

ويعـود الفضـل في حصـولنا عـاى معارفنـا التـأ إيخيـة عـن تـدمر إلى الكتابات التدمرية التي درسها المستشرقون وترجموها الى لغاتهم وشرحوا مـا جاء فيها، وهي يالإرمية واليونانية ثم اللاتينية والعمرانيـة، نشرـت في كتـب خاصة وفي كتب الكتابات السـامية وفي ثنايـا المجـلات، والى كتـب المـؤلفين اليونان واللاتين والسرـيان. مـن هـذه المـوارد الرئيسـية اسـتقى المؤرخـون معارفهم عن تأريخ هذه المدينة، تضاف اليها مـوارد ثانويـة ذكـرت "تـدمر" عرضاً لوجود منـا سـبة دعـت إلى ذلـك مثـل سـجلات المجـامع الكنيسـية والتلمود.

أما تأريخ المدينة فلا نعرف من أمره شيئاً يذكر يعود إلى ما قبل المـيلاد. وآخر ما كتب عن مدينة "تدمر" يعود إلى ما بعد الميلاد.

وكان غالبية أهل **تدمر** برغم كتابة أمورهم بالإرمية وبـالقلم الإرمـي من العرب على رأي أكثر الباحثين، شأنهم في ذلك شأن نبط " بطـرا". وهـم يرون إن القبائل العربية التي أخذت تستولي على المناطق الخصـبة الواقعـة في شرقي أرض كنعان، بعد سقوط الدولة البابلية، كتبوا بالإرمية، لأنهـا كانـت لغة الكتابة والثقافة في المنطقة الواسعة الواقعة غربي الفرات. وتظهر في بعض

الكتابات بعض المصطلحات والكلمات العربية الأصيلة،.كما نجد فيها أسماء أصنام عربية مع أصنام إرمية. وبالجملة فإن في "تدمر" ثقافة هي خلاصة جملة ثقافات: عربية وإرمية ويونانية ولاتينية" وأقدم كتابة عثر عليها فيها لا يتجاوز تأريخها سنة ٣٠٤ من التأريخ السلوقي، أي سنة ٩ قبل الميلاد.

كانت تدمر عقدة من العقد الخطيرة في العمود الفقري لعالم التجارة بعد الميلاد تمر بها القوافل تمحل اثمن البضائع في ذلك الوقت. كانت على اتصال بأسواق العراق وما يتصل بالعراق من أسواق في ايران والهند والخليج والعربية الشرقية، كما كانت على اتصال بأسواق البحر المتوسط ولا سيما ديار الشام ومصر، كما كانت على اتصال بالعربية الغربية وبأسواقها الغنية بأموال افريقية والعربية الجنوبية والهند. إن هذه التجارة هي التي أحيت تلك المدينة كما إن تغير طرق المواصلات بسبب تغيرالأوضاع السياسية هو الذي شل " جسم تلك المدينة فأقعدها عن الحركة بالتدريج.

لقد كانت القوافل الذاهبة من العراق إلى بلاد الشام والقادمة من بلاد الشام إلى العراق، تمر بمدينة **تدمر**. وكان الموضع الذي تحط فيه قوافل **تدمر** هو موضع Vologesias= Vologesokerta على نهر الفرات. ومن هذا المكان تنقل التجارة إلى الجهات المقصودة في العراق، ومنه تحمل تجارة العراق بالبر إلى **تدمر** فدمشق.

ويظهر من كتابة عثر عليها في احدى المقابر أن القوافل التجارية كانت تمر في حوالي سنة مئة قبل الميلاد بمدينة **تدمر** في أثناء أسفارها بين مدينة **دورا** Doura والشام. وبين الطريق القديم وهذا الطريق، تسكن قبائل عربية من سكان الخيام، أي من النوع المعروف باسم سكينيته Skenita عند الكلاسيكيين.

الرومان بهم في جيوشهم، فاستخدموهم في حروبهم في شمال إفريقية. وقد عز على كتابات أثبت انهم كانوا في جملة القوات الرومانية التي كانت في بريطانية. واشتهر التدمريون بفرسانهم كذلك، فقد ألف "أذينة" قوة من القوات الراكبة لمحاربة أعدائه، جهزها بأسلحة واقية من دروع ومن صفائح من المعدن يلبسها الفارس من أعلى رأسه إلى أسفل قدمه، فلا يستطيع عدوّ ه أن يناله باذى، كما درعت الخيل والجمال بصفائح الوقاية، على نحوما كان يفعله الفرس في قوافلهم الراكبةّ في أثناء القتال. وقد اكتسبت هذه القوّ ات شهرة واسعة في حروبها مع الفرس والرومان.

وكان أهل تدمر خليطاً من تجار ومزارعين. أما أطرافها وحواليها، فكانوا أعراباً ورعاةً. وكانت مدينة يونانية ولكنها لم تكن مثل المدن الأخرى المتأثرة بالهيلينية في الشرق، ولم تخضع لنظام المدن اليونانية Greek Polis، وكانت خاضعة للرومان وبها حامية رومانية، ولكن خضوعها كان في الواقع صورياً، كما أن الحامية لم تكن شيئاً تجاه أهل المدينة والقبائل المحيطة بها. كانت المدينة بالرغم من الطابع الهليني- الروماني الذي يبدو عليها، مدينة شرقية، الحكم فيها في يد الأسر ذات السلطان في البلدة تحكمها في السلم

والحرب لقد خلقت الاضطرابات السياسية التـي حـدثت في الشرـق لضعف الحكومات الكبرى وانحلالها وانقسامها إلى "ملوك طوائف". جماعة مـن الحكـام السـادات Tyrannies تزعمـوا القبائـل أو المـدن، وشـاركوا الحكومات في الحكم.

ومن هؤلاء الأسرة التـي حكمـت "تـدمر". والأسرة التـي حكمـت حمـص Emesa=Hemesa وكانـت في تـدمر جاليـات يونانيـة ورومانيـة، أقامت فيها وفضلت السكنى فيها على المواضع الأخـرى. أقامـت بـين أهـل المدينة حتى صارت من سكان المدينة، كما كانت فيها جاليات يهودية نزحـت اليها في زمن لا نستطيع تعيينه بالظبط، قد يكون قبل سقوط القدس في أيدي الرومان بأمد للاتجار، قامت بأعمال التبشر بين.السكان، فتهوّ د أناس مـنهم، ورحل قسم من هؤلاء.المتهودين إلى القدس،ُأقاموا فيها قبل خراب الهيكـل بأمدا.

تمكنت هذه المدينة الصحراوية من رفع منزلتهـا مـن منـزل منعـزل في البادية تنزل به القوافل إلى مكانـة مدينـة مـن الدرجـة الأولى، ومركـز دينـي خطير لعبادة الأصنام يحج إليه أعراب البادية،وسوق للتجـارة تكلسـت فيـه أنفس البضائع وأثمنهـا وتجمعـت فيـه رؤوس الأمـوال والـذهب والفضـة والجواهر ولا سيما بعد سقوط "بطـرا" بأيـدي الرومـان، وذهـاب ملكهـم، فانتقلت اسواقهم الي أيدي للتدمريين. وتولت قوافل **تدمر** نقل البضائع بـين العراق والشام مخترقة البادية إلى المرافىء العراقية عـلى الفـرات. وقـد عـادت هذه القوافل على المدينة بخيرعميم من أجور الوساطة في البيع والعشراء

ومن الضرائب التي تجبيها عن البضائع التي تمر بها أو تباع فيها، والتي يحددها مجلس سادات المدينة. وتتبين مظاهر هذه الثروة في المباني الجميلة المنقوشة والتي تتحدث آثارها عنها، وفي بقايا الهياكل والأعمدة المرتفعة الجميلة المصنوعة من الحجر الصلد المصفوفة على جانب الشارع الكبير من قوس النصر المقام عند المعبد الكبير إلى نهايته في مسافة لا تقل عن ١٢٤٥ ياردة.

ولما كانت **تدمر** مدينة حياتها الأساسية بالتجارة، صار للتجار وأرباب القوافل ولزعماء القوافل شأن خطير في الحياة الاجتماعية للمدينة، حتى أشير اليهم في الكتابات، حيث كثر فيها ورود ذكر زعيم القافلة وزعيم السوق. ومدينة مهمة لها مال وثروة وليس لها جيش ضخم قوي ولا مجال لتكوين هذا الجيش فيها،لا يمكن أن تبقى في مأمن ومنجاة من مطامع الطامعين. ولو كانت في بقعة منعزلة وفي بادية بعيدة. فقد كان لعاب الدول القوية يسيل عند سماعها بوجود شعوب صغيرة أو حكومات مدن أو مواضع ذات ثراء ومال، فتكتب اليها إما باغطاء ما عندها اليها، وإما بدفع جزية ترضيها،راضية مرضية، وإما أن تمتنع فتنرحف جيوشها عليها عندئذ فيكون كل ما يصل إليه يدها حلالاً طيباً، ويكون الناس لها عبيداً وخولاً، لا نستثني **تدمر** من هذا الولع. الانساني بالحصول على الثراء السهل بالطبع. لذلك طمع فيها الطامعون من شرقيينو وغربيين. طمع فيها أهل العراق، وطمع فيها الفرس، وطمع فيها لليونان والرومان والبيزنطيون. وكان أول طامع فيها وصل خبره الينا من الفاتحين الأقوياء هو الملك تغلت فلاصر (تغلات برليزر Tiglath–Pilezer) الأول تلاه جملة غزاة ورثوا الحكم والملك

والتسلط في أرض الشرق الأدنى.

واذا عرفنا أن تغلت فلاصر الأول (١١١٧ - ١٠٨٠ ق. م.)، كان قد استولى عليها، فإن ذلك ينفي ما ورد في أخبار اليهود من بناء سليمان لتلك المدينة على نحو ما ذكرت. فقد جاء حكم "سليمان" بعد حكم هذا الملك الاشوري بنحو قرن، وقد كانت المدينة قائمة قبل ذلك الملك بالطبع. وقد صارت "تدمر" في جملة الأرضين التي أخضعها "الاسكندر" الكبير لحكمه. لحكم تلك الامبراطورية التي أراد آن يكوّ نها في ذلك العالم، ليوحد فيها الأجناس والأديان، وليقيم مملكة واحدة على هذه الأرض. ومن عهد الاسكندر ظهر اسم **تدمر** الأجنبي، أي بالميرا Palmyra بين اليونان واللاتين. ولما انقسمت دولة "الاسكندر" قسمين، صارت **تدمر** من نصيب السلوقيينعلى ما يظهر. وْلكننا لا نعلم شيئاً عن عهد استيلائهم عليها، ولا عن مدة بقائهم فيها. وقد حاولت **تدمر** أن تقف موقف الحياد بين الفرث والرومان، وتمكنت من ذلك أمداً، اذ كان من مصلحة الدولتين المتنافستين وجود محل منعزل محايد، كي يتمكن تجار الدولتين من الاتجار فيه ومن التسوق منه.وقد قام أحد القادة السلوقيين ببناء حصن ليضم إليه الجنود المقدونيين في مدينة **تدمر**. فعل ذلك سنة "٢٨٠" قبل الميلاد. ولعلّ هذا الحصن، هو واحد من سلسلة حصون أقامها السلوقيون في المواضع المهمة ذات المكانة الخطرة من الوجهة السياسية والعسكرية والتجارية لحماية مصالحهم فيها ولا يعرف تأريخ خضوع تدمر للرومان معرفة أكيدة.وقد

ورد في تأريخ أفيفانوس أن مرقس أنطو نيوس القائد الروماني بعـد أن حارب الملوك الأرشكيين، ودارت عليه الدوائر،توجه إلى الشلم عائـداً مـن ثم إلى رومة. فلم قرب من **تدمر** أوفد إلى أهلها رسـلاً يخـبرونهم أنـه قاصـد مدينتهم ليريح فيها جنوده من أتعاب الحرب ومشقة الطريق. وكـان يريـد في نفسه الاستيلاء عـلى المدينـة وأخـذ مـا فيهـا مـن أمـوال ونفـائس. فـأحس التدمريون بالمكيدة، وبادروا إلى نقل أموالهم وما يملكون مـن أشـياء ثمينـة، فتعقبهم الرومان حتى أدركـوهم فـاقتتلوا قتـالاً شـديداً تهانـت الغلبـة فيـه للتدمريين.أما المدينة نفسها فقد حلّ بهاالخراب وأصبحت ركاماً، وكان ذلك فى حـــوالي ســـنة **٤١** قبـــل المـــيلاد، وفي أيـــام القيصرـــ طيبـــاريوس (طبريوس ١٠٧ - ١٤ Tiberiusم) كانت **تدمر** في جملة الأرضين التابعة لحكم الرومان.

ونجد بين الكتابات التي عثر عليها في هـذه المدينـة قـوائم "كمركيـة" تبين بعض الرسوم التي كانت تجبى عن البضائع وأثمانها باليونانية والتدمريـة يعود تأريخها إلى سنة ١٧ بعد الميلاد ويظهر من قائمة الضرائب التي وضعت في أيام جرمـانيكوس Germanicus (١٩ – ١٧م) لجبايتهـا عـن البضـائع التي ترد دوائر "كمارك" المدينة، وفي أيام "دوميطيوس كو ربولو (٦٦ – ٥٧ م)" أن مدينة **تدمر** كانت في نفوذ وحكم "رومة" في العصـر الأول للميلاد. وقد كانت تابعة للرومان في أيام الأنبراطور " فيسبسـيان (٧٩-٦٠م). غـير أن هذا لا يعني أنها كانت خاضعة للرومان خضوعاً تاماً، وأن الإشراف على

شـؤون المدينـة كـان كلـه بأيـدي مـوظفي "رومـة"، بـل كـان ذلـك إشرافاًعاماً، أما الادارة، فكانت بأيدي أهل المدينـة. وأن الحكـم الرومـاني لم يتدخل في أمورها تدخلاً فعلياً. حتى إن الرومان سمحوا للمدينة الاحتفاظ بحامياتها Militia التي كانت لها في الخارج في مثـل موضـع Vologasia وفي مواضع أخرى.

وقد زارها الامبراطور هدريانوس(١ ٣٨ - ١ ١ ٧م) سـنة ١٣٠ بعـد الميلاد،ومنحها لقب هدريانا بالميرا Hadriana Pamyra وهديريا نوبـوليس Hadrianopolis، وعثر فيها عـلى كتابـة مدوّنـة بالإرميـة واليونانيـة يرتقـي تاريخها إلى سنة ١٣٧ بعد الميلاد، أي إلى أيام هذا الامبراطور، جاء فيها أشياء تخص الأحوال التجارية في هذه المدينة أصدرها مجلس سادات المدينة لتنظـيم التجارة، وتثبيت الضرائب، وكيفية الجباية وما إلى ذلك من أمور. وهـي مـن الكتابات المهمة الطويلة التي ترينا ناحية خطيرة من نواحي حياة تدمر.

وقد بذل هدريانوس عناية كبيرة ب **تدمر**، حتى قيل فيـه أنـه مؤسـس المدينة الثاني. واعتنى عناية خاصة بحمايـة الطـرق البريـة التـي تصـلها بنهـر الفرات الذي كان شرياناً مهماً من شرايين التجارة العالمية في ذلك العهد، فقد كان يقوم بالمهمة الني عهدت إلى قناة السويس، فيما بعد. ولأهمية هـذا النهـر الذي هو الممر المائي الذي يوصـل تجـارة ذلـك المحـيط الغاليـة الى المـوانىء الواقعة عليه، سـعى لتحسـين صـلاته بـالفرس وبالمحافظـة عـلى الأمـن في البادية، لتتمكن القوافل من المرور منها بأمن وسلام. وأوصل حامياته إلى

شواطىء الفرات الغربية، بل يقال أنه أنشأ أسطولاً فيه،وان التجار التدمريين أقاموا في مدينة "Vologasia" وأقاموا لهم معبداً هناك، ليتعبدوا فيه لإلهَهم الذي منحهم الخير والرفاه.

وقد منحت **تدمر** درجة مستعمرة رومانية عليا، فاكتسبت بذلك حق الامتلاك التام والاعفاء من الخراج، والحرية الكاملة في ادارة سياسة المدينة. ونالت الحقوق الايطالية "Jus" "Italici Juris" "Colonia Juris Italici" Italicum".

منحت هذه الدرجة في أيام هدريانوس على رأي أو في أيام سبتيميوس سويروس على رأي آخر. وكانت تتمتع بهذه المنزلة في ايام كراكلا (١٢١ - ٢١٧م) كذلك. ولكن منحها درجة مستعمرة لا يعني أنها صارت مقاطعة رومانية مئة بالمئة، بل كانت في الواقع حكومة مستقلة ذات سلطة واستقلال في ادارة شؤونها خاضعة خضوعاً شكلياً لحكم الرومان.

وقد استفادت **تدمر** من سياسة هدريانوس المنطوية على الميل إلى السلم ومجانبة الحرب، ومن سياسة انطونينوس بيوس (١٦١ - ١٣٨م) الذي نشر ألوية السلم والطمأنينة، فوسعت تجارتها، وزادت في عدد قوافلها، وحصلت على ثروة طائلة. وتعدّ المدة المنصرمة بين سنة ١٣٠ و٢٧٠ بعد الميلاد من أحسن أيام هذه المدينة. فالى هذه الأيام ترجع معظم النصب والآثار العظيمة التي ما برحت تشاهد بقاياها في جملة ما يشاهد من أشلاء المدينة وجدثها المهشم بين الأتربة والصخور.

وقد كانت في تدمر حامية رومانية أيام ماركوس أوريليوس (ماركوس أوريليوس Marcus Aurelius ١٨٠ – ١٦١ م)، على طريقة من سبقه من الحكّام في وضع حامية رومانية في هذه المدينة.

ولسلطان رومة على تدمر، استفاد الرومان من المحاربين التدمريين وكونوا منهم فرقاً وكراديس لحماية الطرق ومصالحهم الممتدة في البوادي، فأودعوا أمر الدفاع عن "دورا" "Doura" "إلى الكردوس الستدمري العشرين ."Xxth Cohore Palmyrenorum" وتركوا مهمة حراسة الفنادق Funduq التي أقامها الرومان على الطريق إلى كراديس الرماة التدمريين لحماية القوافل من لصوص الطرق والسالبين.

وقد تأثرت **تدمر** بأصول اليونان والرومان وطرقهم في إدارة الحكم، فكان للمدينة مجلس شيوخ Senatus له سلطة سن القوانين والتشريع، وله رئيس وكاتب وجملة أعضاء. ويشرف على السلطة الاجرائية شيخان Archontes وديوان يتألف من عشرة حكام. أما السلطة القضائية فينظر فيها بعض الوكلاء Syndices وغيرهم من العمال.

ويحمل موظفو المدينة عناوين يونانية تشر إلى أثر التنظيم اليوناني فيها، وإلى أنها كانت تنفذ النظم الإدارية اليونانية في أعمال الشعب. فالرئيس هو Proedros والكاتب أي السكرتير هو Grammateus، وهنالك عناوين وظائف أخرى هي Archontes : و Syndicus و Dekaprotoi، وهي المجالس المحلية التي يتألف كل مجلس منها من عشرة أعضاء. جرى هذا التنظيم على وفق نظام المدن اليونانية في حماية الإمبراطورية الرومانية ودعيت

السلطة التنفيذية، المؤلفة من أعضاء مجلس الشيوخ، وكذلك الشعب بـ Strategoi وهي تعادلDumviri (Duumviri) عند الرومان. وتحمل التدمريون الذين حصلوا على حقوق "مواطن روماني" بأسماء رومانية مثل (سبتيميوس Septimius) و(يوليوس أوريليوس Julius Aurelius) وضعوها في مقدمة أسمائهم النبطية أو العربية. وقد فعل ذلك قبلهم العبرانيون ونبط "بطرا" وسكان بلاد الشام وغيرهم من الضعفاء الذين يظنون أنهم سيكتسبون بهذه المحاكاة الاحترام والتقدير. والضعيف انما يتشبه بالأقوياء ليخفي ضعفه.

✓ أسرة "أذينة":

كان للانقلاب الذي وقع في مملكة الفرث. أثر كبير في حياة مدينة تدمر، وأعني بهذا الانقلاب ثورة "أردشير بن بابك بن ساسان" على الملك "أرطبان" الخامس ملك الفرث، وتأسيسه حكومة جديدة هي دولة الساسانيين ٢٢٦م. فكان من نتائج ظهور الدولة الساسانية تجدد الحروب بين الرومان والفرس ووقوع معارك بين الدولتين.

وقد أحسنت أسرة عريقة من أسر **تدمر** الاستفادة من هذه الحروب، وجر المغانم اليها، والحصول على مركز عال لدى الرومان. وزعيم هذه الأسرة هو أذينة من بني السميدع، ينسبه الطرفي إلى هوبر العمليقي، العملقي من عاملة العماليق، فهي من بقايا العماليق. على رأي الأخباريين. و "أذينة" من أسرة قديمة معروفة، تولى رجالها رئاسة تدمر والزعامة عليها، واستطاعت بفضل تأيدها للرومان وتقربها اليهم أن تكتسب ودّ القياصرة

وعطفهم عليها والانعام على أفرادها بالألقاب والأوسمة وبالمال في بعض الأحيان، وبالقوة والمعونة وهي غاية كل سيد قبيلة وأمنية كل رئيس في مجتمع قبلي يقوم النظام السياسي والاجتماعي فيه على مفهوم الحكم القبلي في كل زمان ومكان. ولم يتعرض الرومان لحكم أفرادها على المدينة اذ كانت أحكامهم لا تعارض أحكام "رومة" ولا تصطدم بها. فتركوهم يديرون شؤونها على وفق السياسة الرومانية وادارة القياصرة وأوامرهم التي يصدرونها إلى المشيخة، فكانوا يعدّ ونهم Procuratores لدى قياصرة الرومان.

ووردت في الكتابات التدمرية أسماء نفر من رجال هذه الأسرة، منهم "نصور–Naswar – Nasores نصر– ناصور"، وقد جد "أذينة" واسمه يشير إلى اسم عربي الأصل هو "نصور" أو " ناصر" أو "نصر" تحول إلى "نصرو" ليلائم النطق النبطي. وهو والد "وهبلات" "وهب اللات " Vahballatat"و"وهب اللات"، هو والد ولد اسمه "خيران" "حيران" Airanes"و"حيران" "خيران"، هو والد "أذينة".

و "نصور" إذن هو أقدم من وصل إلينا اسمه من أسماء الأسرة التي حكمت مدينة تدمر. وهو شخص لا نعرف عنه شيئاً ما. وقد يكون من سادات الفبائل في الأصل من جاء إلى هذا المكان فاستقر فيه، وتولى نسله أو هو الحكم فيه. وقد يكون لهذا الاسم صلة ب نصر الذي ينسب أهل الأخبار ملوك الحيرة إليه، فيقولون انهم من آل نصر وكان سبتيميوس خيران، على رأس مجلس المدينة، ولقبه الرسمي الذي عرف به عند أهل مدينته رأس تدمر

"رش تذمور" إضافة إلى لقبه الذي لقبه به الرومان.وقد تمكن من تثبيت سحكم أسرته ومن الهيمنة على شؤون المدينة ومن توسيع تجارتها، فاكتسب بذلك منزلة كبيرة عند أهل تدمر، وعند الرومان. ورافق سبتيميوس مويروس (١٩٣ – ٢١١ م) في حروبه مع الفرث وتقرب إليه، ولقب نفسه بـ سبتيميوس، فصار اسمه سبتيميوس خيران (سبتيميوس حيران).

وقد عثر على كتابة يرجع الباحثون زمان كتابتها إلى حوالي السنة ٢٣٥ للميلاد، أو بعد ذلك بشيء قليل، ورد فيها اسم "أذينة بن خيران بن وهب اللات ابن نصور". وقد لقب "أذينة" فيها بلقب " سقلطيق Skiltyk. وقد كان يحمل لقب عضو في مجلس "الشيوخ" الروماني وقد نعت "سبتيميوس أذينة" ب "سقلطيقا "Skiltyka" في الكتابة التي دونت لتكون شاخصاً لأحد القبور. وقد حصل على لقب عضو مجلس الشيوخ، ثم لقب نفسه بلقب ملكRex، وذلك في حوالي سنة ٢٥٥ للميلاد.

وجمع الناس عليه، فأدرك الرومان ما وراء هذه الدعوة من خطر على مصالحهم، فأوعز القيصر إلى "روفينو Rufinus باغتياله، فقتل وتخلص الرومان منه. ومن ولد أذينة، سبتيميوس خيران "حيران "Septimius Hairanتولى رئاسة تدمر بعد مقتل أبيه. وقد ذكر اسمه في كتابة دونت سنة ٢٥١ للميلاد، ولم يصطدم بالرومان. وقد كان مثل أبيه بدرجة Senator كما لقب أيضاً بلقب "رش تدمور"، أي "رأس تدمر" "رئيس تدمر". ولقب بلقب Exarkus.

ولما مات "سبتيميوس خيران"، خلفه "أذينة Odenatus" على شؤون المدينـة. ولم يـرد نسـبه في النصـوص، فـلا نـدري أكـان ابنـا أم شـقيقاً لــ "سبتيميوس خيران". وقد ذهب بعضهم إلى أنه كـان اخـاه. وكـان شـجاعاً فارسًا ألف حياة البداوة جريئاً، محباً للصيد ولا سيما صـيد الـذئاب والفهـود والأسود. تولى قبل انتقال الحكم إليه قيادة الجيش والقوافـل ورئاسـة قبائـل البادية،فكانت له مؤهلات خاصة وكفايات حسنة مكنته من رفع شأن **تـدمر** في أعين الرومان، ومن تكوين اسم لها عند رجال الدولتين المتزاحمتين.

وقد تبين من كتابه دونت سنة ٢٥٨ للميلاد ومن كتابتين أخـريين أنـه كان يحمل درجة قنصل Vir Consularis في عهد القيصـر "فالريانوس"، كما كان يحمل لقب "مرن"، أي "سـيدنا"، وهـو اللقـب الـذي يسـتعمله أهـل "تدمر"، وهو يعادل لقب "Exarchos" في اليونانية.

وقد ذكر بعض المؤرخين أن "أذينة" الذي نتحـدث عنـه كـان ابنـاً لــ "أذينة" ابن "خيران" ووالد "سبتيميوس خيران"، وأنه كـان قـد هـرب إلى الجبال وألف حياة البداوة والربى منذ صغره لينتقم من الرومان الذين اغتال قائدهم "روفينوس" أباه. فلما انتقل الحكم إليه، عمل جهده على الأخذ بثـأر أبيه، فراجع " فالريانوس" "والريانوس" شاكياً إليه مـا فعلـه "روفينـوس" بأبيه، طالباً منه انزال العقاب به. أما القيصرـ، فلـم يأبـه لهـذه الشـكوى، ولم يحسب لها حساباً، فغاظ ذلك "أذينة" وأزعجه وحمله على التفكير في الاتصل بأعداء الرومان،وهم الفرس. فلما بلغه نبأ زحف "فالريانوس" عـلى الفـرس في عام ٢٥٩ بعد الميلاد وخيانة قائده "مكريانوس" وسقوط القيصر أسيراً في

أيدي الفرس على مقربة من "الرها"، أرسل رسلاً إلى "سابور" حملهم هدايا كثيرة وكتاباً يتودد فيه إليه ويظهر رغبته في مصالحته ومحالفته فلـما بلـغ الرسل معسكر الملك، وطلبوا ملاقاته لابلاغه الرسالة، استكبر عليهم وتجبر وأظهر عجبه من تجاسر" شيخ" على الكتابة إليـه، ومخاطبتـه مـع أنـه "ملـك الملوك"، وهو رئيس مدينة في بيداء قفرة لا قيمـة لهـا ولا أهميـة ومـن يكـون أذينة؟ هذا الرجل، الذي دفعته حماقته إلى التجاسر عل سيده بالكتابـة اليـه؟ فإن كان له أمل في عقوبة خفية فليأت إلي ويـداه مغلولتـان إلى ظهـره أوإن لم يفعل، فليعلم بأني سأهلكه وأهلك أسرته وأنزل الدمار بمدينتـه؟ ثـم مـزَّ ق الرسالة، ورمى بالهدايا تحت قدميه. فعاد الوفد كاسف البـال خائفـاً ممـا قـد يقوم به هذا الملك المغرور الطائش من عمل تجاه مدينة خسرت الرومـان، ولم تحظ بالاتفاق مع الساسانيين.

ولما رجع الرسل إلى تدمر وأعلموه بما جرى، قرر الأخذ بثأره من هذا الملك المتغطرس الطائش، فجمع القبائل بظاهر. تدمر وجعلها تحت امرة ابنه "هروديس"، وضم اليها فرسان تدمر بقيادة "زبدا" كبـير قـواده، وقوّاسـيها بقيادة "زباي"، وهما من "آل سبتيميوس" أي من أقرباه أذينة، وحشد معهم بعض الكتائب الرومانية وفلول جند "والريـانوس" وسـار عـلى رأس هـذا للجيش قاصداً المدائن للانتقام من "سـابور" الـذي كـان قـد انشـغل بغـزو الأنحاء الشمالية، ولانقاذ القيصر مـن الأسر وفي أثنـاء زحـف "أذينـة" عـلى المدائن، وصلته أنباء تغلب القائد الروماني "كاليستوس" على الفرس،

وتشتت شملهم وهربهم، فغير اتجاهه وأسرع اليهم لملاقاتهم، وقد أدركهم قبل تمكنهم من عبور نهر الفرات،فالتحم بهم وتغلب عليهم،وولى "سابور" مع فلول جيشه مذعوراً تاركاً أمواله وحرمه غنيمة في أيدي التدمريين.ولم يتمكن الفرس من عبور نهر الفرات الا بعد تعب .ولما عبروه هنأ بعضهم بعضاً على السلامة والنجاح. اما أذينة، المنتصر الظافر، فكتب إلى "غاليانوس ابن والريانوس" "كاليانوس بن والريانوس" يخبره بهزيمة الفرس، وباخلاصه للامبراطورية، ففرح القيصر بالطبع بخبر النصر فرحاً عظيماً، وأنعم عليه بدرجة قائد عام على جميع عساكر المشرق "Dux Romanorum"، وحثه على مواصلة الحرب لانقاذ "والريانوس" والده من الأسر.

وقد أشار المؤرخ "ملالا" "ملالس" إلى ملك دعاه"Enath" ، ذكر أنه كان ملك العرب "السرسين Saracens" الأجلاف الغلاظ وحاكم "العربية" وحليف الرومان، وذكر أنه هاجم ملك الفرس "سابور" في أيام "والريانوس" وكان قد سار إلى حدود الإمبراطورية الساسانية، وتوغل فيها وأوقع خسائر بالفرس. وقد قصد به الملك "أذينة" هذا الملك الذي نتحدث عنه.

ويظهر أن "أذينة" كان يتحبب إلى الرومان، فأنعموا عليه بالألقاب،ومن ذلك لقب "Vir Concularis" الذي كان يحمله في عام ٢٥٨ للميلاد. وقد منح قبل هذه السنة على ما يظهر. ولعلّ ضغطه المتزايد على الفرس هو الذي حملهم على ترك "دورا Doura" "Dura" "ففسح بذلك

المجال لعودة الحامية الرومانية إلى هذه المدينة، فرقع ذلك من شـأنه في أعين الروسان. وتمكن "أذينة" من تحرير الجزيرة من الفرس، وفتح "نصيبين "Nisibis" "Nicibis"و"حرّان" فاستقبل هو وجنوده استقبالاً عظيماً. وكـان الناس يذكرون بازدراء "غاليانوس" الذي تركهم فريسة للفـرس. ثـم سـأر بجيوشه إلى Ktesiphon"م، فخاف سابور وأمـر بجمـع كـل مـا عنـده مـن قوات للدفاع عن عاصته، غير انهـا لم تـتمكن مـن وقـف زحـف التـدمريين فوصل "أذينة" إلى "المدائن" وحاصرها، ونصـب المجـانيق وآلات الحصـار لفتحها، وكاد " سابور" يلتمس منه الأمان لولا حدوث حـادث أكـره أذينـة على تـرك الحصـار والتراجـع، هـو خـروج " مكريـانوس "Macrianus" " "Macrinus"القائد الذي كان السـبب في وقـوع "والريـانوس" في السصر على القيصر "غاليانوس" وتنصيبه نفسه قيصراً عـلى آسـية الصـغرى ومصر وفلسطين والشام. فاضطر هـذا الانقـلاب "أذينـة" إلى الرجـوع إلى مدينتـه بسرعة، لاتخاذ موقف حاسم تجاه هذا الوضع السياسي الجديد.

لم يكــن "أذينــة" مطمئنــاً إلى "مكريــا نــوس "Macrianus" " "Macrinus"كـان يكرهه ويخشى أن يستولي على ملكه إن تمكـن واسـتأثر في الحكم، فقرر منازلته قبل منازلة " مكريانوس" له. وبينما كـان يهـمّ بـالزحف عـلى "حمـص "Emisa "Emissa"جـاء نبـأ مقتـل، "مكريـانوس"، فـأعلن السـوريون ولاءهـم لأذينـة وخـروجهم عـلى "كيـاثوس بـن مكريـانوس" وساروا مع التدمريين لمحاصرة "كيـاثوس" في مدينـة "حمـص". ولمـا اشـتد الحصارعلى المدينة وطال، قتل "كاليستوس" سيده "كياثوس." ورمى برإسة

من فوق السور تحت قدمي "أذينة" ثم فتح له أبواب المدينة والتمس منه الأمان، فمنحه إياه ودخل المدينة في سنة "٢٦٢" للميلاد.

ولم يكن استسلام أهل "حمص" للتدمريين أمراً سهلاً عليهم فقد كانت بين الفريقين شحناء وبغضاء. نظر أهل حمص إلى أهل تدمر نظرة ازدراء وغضاضة.، إذ كانوا يرونهم ناساً أجلافاً، ليس لهم حظ من حضارة وثقافة، أهل بادية حفاة جفاة. وقد يكون لاتصال حدود "تدمر" بحدود حكومة "حمص" وغارات أعراب تدمر على أرض حمص يد في خلق هذا النزاع. وقد لاقت حمص من استيلاء أهل تدمر عليها عنتاً شديداً إذ،حل بها حمار وخراب لرفضها الاستسلام ل"برابرة تدمر". لقد سقطت حمص في أيدي التدمريين، بالرغم من تضرع أهلها وتوسلهم بالإلهة "الشمس" لتنصرهم على أعدائهم وتنزل بهم خسائر فادحة. وقد كانوا من عبادها المخلصين. ولكن أهل تدمر كانوا يتعبدون للشمس كذلك، وقد توسلوا وتفرعوا اليها تتنصرهم على أعدائهم أهل حمص. لقد كان موقف "الشمس" موقفاً حرجاً. فالطرفان المتخاصمان، من عبادها. وقد أقام كل منهما معبداً ضخماً فخماً لعبادتها، زوقت أبوابه وذهبت قبابه، وكل منهما يتوسل اليها، فأي طرف تؤيد إذن ؟ والظاهر إن اختيارها وقع على تدمر إذ انتصروا على أهل حمص، ودخلوا المدينة ظافرين.

وسرّ "أذينة" ولا شك من هذه النتيجة، فقرر بعد استراحة جنوده بضعة أيام أن يسير نحو الشمال للقضاء على المنشقين. وبينا هو في طريقه، تلقى أنباء تمرد "كاليستوس" وخروجه عليه واعلان نفسه ملكاً، فأمر نفراً

من رجاله بالذهاب إلى معسكر "كاليستوس" لاغتياله، فـذهبوا إليـه، وتمكن فارس من الدخول إلى خيمته وقتلـه. عندئـذ تحسـن موقفه،فسـار إلى الجزيرة، وتعقـب الفـرس فقـبض عـلى عـدد مـن "المرازبـة "Satrapen" " وأرسلهم إلى "رومة"، وأظهر اخلاصه وطاعته لقيصر، فرضي عنه واطمـأن إليه، وأعطاه منزلـة رفيعـة هـي "Imperator Totius" "Dux Orientis" : ودعاه انبراطوراً على جميع أنحـاء المشرـق، أي عـلي الشـام والجزيـرة وآسـية الصغرى عدا "بتينية" وبضع نواح شمالية، " ٢٦٤ م". وضربت نقود باسمه صور عليها أذينة ووراءه بعـض أسرى الفـرس. وجعـل تحـت امرتـه جميـع القوات الرومانية المعسكرة في المشـــرق. وكلفـه القضـاء عـلى فلـول جـيش "مكريانوس" وتطهير المقاطعات الرومانية منهم.

واختار أذينة لنفسه لقباً آخـر حبيبـاً إلى نفـوس الشـــرقيين هـو لقـب "ملك الملوك (ملك ملكا٣) ، لعله فعل ذلك محاكاة لملوك الفرس. ومنح لقباً آخر هو "أغسطس "Augustus" "لقب قياصرة الرومـان. والانسـان متـى أبطرته النعمة مال إلى اتخاذ أمثال هذه الألقاب وفي رواية أن مجلـس الشـيوخ الروماني منحه لقب "أغسطس"، فصار مساوياً للقيصرـ، وأنـه أمـر بوضـع صورته مع صورة الانبراطور على النقود التي أخذت غنيمة من الفرس.

وعرف "أذينة" ب "متقنا دي مدنحا كله"، "متقنا متقنانوتا"، وتقابل معنـى "Reparator Totius Orientis" أو "Utriusque" "Correctores Italiae" "Italiae, Italiae Regionis Transpadanae، وتقـا بـل درجـة "Correctores" منزلة رئيس، أي رئيس مقاطعة من المقاطعات.

وقام "أذينة" باصلاحات جمة أظهر فيها أنه لم يكن قائداً قـديراً فقـط، بل كان إلى ذلك رجل إدارة وسياسة وتسامح أيضاً. فمنع تعصـب الـوثنيين على النصارى واضطهادهم لهم، ومنح كل طائفة حريتهـا في ممارسـة شـعائر دينها، وخوّ ل النصارى حق بناء الكنائس حيثما شاؤوا. وتعقـب اللصـوص وقطاع الطرق من الجنود الهاربين والمسـرحين من الخدمة والصعاليك الـذين وجدوا في الاعتداء على الامنين ومهاجمة القوافل والقرى والمدن خير مصـدر للحصول على الكسب والمغانم والمال، وقتل "كاليستوس" زعيم الصعاليك الذي اسمال من لا عمل له إلاّ الفتنة والاعتـداء عـلى النـاس، وبـذلك أراح أذينة نفسه وأراح المقاطعات الرومانية من اثر هـؤلاء، واطمـأن النـاس عـلى أنفسهم، وعـادوا إلى أمـاكنهم التـي اضـطروا إلى تـركهم لهـا بسـبب تلـك الاعتداء ات التي قام بها من أطلق عليهم الكتاب اسم "الظالمون."

وصمم "إمبراطور الشرق" و "ملك الملوك" بعـد هـذه الأعـمال عـلى انتزاع القيصر "والريانوس" من أيدي الفرس، ومحاربـة خصـمه المتغطـرس المتلقب بلقب "ملك الملوك" كذلك. قد يكون حباً في اذلال من اسـتهان بـه فمزق رسالته أمام أعين رسله، وقد يكون تقرباً للرومان وتودداً إلى القيصـــر "غاليانوس". والشرقيون مبالغون ويا للأسف في اكرام الغرباء، متزلفون إلى القوي منهم، ولو كان في ذلـك هـلاك الـوطن والرعيـة. عـيّن ابنـه البكـر " سبتيميوس هيرودس "Septimuis Herodes من زوجته الأولى نائباً عنـه في ادارة شؤون الملك، وأخذ هو جيشه وسار به لمحاربة الفرس في أوائل عـام " ٢٦٥" بعد الميلاد. سار به إلى "طيسفون" عاصمة "سابور" فحاصرها أمداً،

ويظهر أن "سابور" أظهر استعداده لعقد صلح لولا اشتراط "أذينـة" فك أسر "والريانوس"، وهو شرط كان في نظر الفرس جدّ عظيم.

ووقع حادث مهم اضطر "أذينة" إلى تبديل خططـه العسـكرية وتـرك حصار"طيسفون". ذلك هو انتهاز "القوط" فرصة محاصرة "أذينة" للمدائن وابتعاده عن آسية الصغرى وبلاد الشام، فعبروا بحـر "بـنطس Pontus"أي البحر الأسود ونزلوا بميناء " هرقلية Heraclea" ثم زحفـوا عـلى "بتينيـة" و"فريجية" و"غلاطية" و "قيادوقية"، وكانوا يقصدون من وراء زحفهم هذا التوسـع والاسـتيلاء عـلى آسـية الصـغرى وبـلاد الشـام وكـل مـا يمكـن الاستيلاءعليه من بلاد الشرق. فلما علم "القوط" بمجيء "أذينة" هربوا إلى ميناء "هرقلية" مسرعين، ومنه ركبـوا الى بلادهـم التـي جـاءوا منهـا. فقـرر عندئذ الرجوع إلى العراق لفتح "طيسفون". وبينما كان "أذينة" في "حمـص" لاراحة الجند، أعد وليمة كبيرة تذكاراً ليـوم مـيلاده حضرـها قـواده وكبـار القوم. فانتهز "معنى "Maeonius" ابن أخيه "خيران" هذه الفرصة، فقتـل هو وعصابته عمه "أذينة" وابن عمـه "هـيرودس Herodus" ، لاغتصـاب عمه منه ملكه الذي ورثه من أبيـه. ونـادى بنفسـه ملكـاً عـلى المملكـة التـي أنشأها وكوّنها "أذينة" القتيل، وبذلك استرجع حقه من المقتول. ولكن حياة القاتل كما يقول المثل الشرقي لا تطول، وذلك قولهم: "بعثر القاتل بالقتـل"، فما كاد يتربع على العرش أياماً حتى انتقمت منه سـيوف "حمـص"، وألحقتـه بالعالم الواسع الذي ذهب إليه القتيلان "٢٦٦ – ٢٦٧ م".

مأ أعجب الحياة في مدة قصيرة ظفر فيها رجل "تدمر" مـن رئـيس في مدينة صحراوية إلى ملك على عرش مملكة، فقائد كبـير في أعظم،انبراطوريـة في عالم ذلك الزمن، ومنافس للقيصر وملك على الشرـق، وفي لحظـة واحـدة انتقل فيها هذا القائد الملك من هذا العالم إلى عالم القبر. إنها الحياة لا بد لها من نهاية مهما بلغ الإنسان من منزلـة ومكانـة، لا تعـرف قـوة وصـولة ولا فقـراً وضعفاً، الجميع إلى هـذه النهايـة منتهـون، وللفيلسـوف أن يسـتخرج منهـا حكمة الحياة. هل قتل "معنى" عمه لاغتصـابه حقـه الطبيعـي في الملـك؟ أو قتله لأسباب أخرى وهل كان لأحد مثل الملكة "الزباء" ضـلع في الحـادث؟ وهل كان للرومان يد في هذه الجريمة ؟ وهل كان للحزب الوطني التـدمري الذي كان يكره اليونان والرومان وكل سيطرة غريبة يد في هـذا الاغتيـال لما عرف عن "أذينة" من دفاعه عن الامبراطورية الرومانية وحماسـته في الـدفاع عنها؟ هذه أسئلة سألها المتعمقون في تأريخ "تدمر" والباحثون فيـه، وأجـابوا عنها أجوبة مختلفة. فمنهم من رأى إن الجريمـة هـي انتقـام شـخس بسـبب اغتصاب "أذينة" حق القاتل الذي ورثه من أبيه، ومنهم من رأى انها مسـألة مسيرة مدروسة وان للزباء يـداً فيهـا. ومـنهم مـن رأى إنهـا بتـدبر الرومـان وعلمهم، فعلوها للتخلص من رجل أخذوا يشكّون في اخلاصه، ويرتـابون منه ومنهم من رأى عكس ذلك: رأى انها فاجعـة للرومـان وخسـارة كبـيرة لسياستهم في الشرق، وانها من أعمال الوطنيين الذين رأوا في ملك تـدمر أداة طيعة مسخرة في ايدي سادة"رومة" فقرروا لذلك الانتقام منه، أما نحن

فنرى أن من الصعب البت في سرّ قتل "أذينة" وابنه، فالأخبار الواردة في هذا الموضوع غامضة، والأدلة غير متوفرة، ومبايعة الجيش وقواده للقاتل في سرعة ومن غير كلام أو قتال، ثم قيام أهل حمص بقتل القاتل بعد أيام، وتولى الملكة "الزباء" بعده وبسرعة هي قضايا فيها نظر. ولهذا تعددت الآراء، ولن تتفق ما دامت الروايات المقدمة إلينا على هذا النحو من التعقد والأمور.

أظهر "أذينة" مقدرة فائقة جديرة بالاعجاب، استطاع أن يكوّ ن جيشاً قوياً يخيف الفرس ويلحق بهم الخسائر ويكتسب تقدير الرومان واحترامهم في مدة قصيرة، واستطاع أن يكوّن من القلعة الصغيرة المبنية في البادية مملكة كان لها أثر خطير في النزاع السياسي العسكري بين الرومان والفرس. لقد قام بعمل عسكري عظيم في محاولاته الحربية لانقاذ القيصر "والريانوس" محاولات لم يقم بها سيد "رومة" وابن القيصر الأسير ولا أتباعه الرومان. لقد "أرسلته الشمس اسداً مخيفاً مرعباً".

لقد وقعت في ايام "أذينة" أحداث خطيرة عظيمة في الشرق الأدنى من المعسكرين: المعسكر الشرقي وهو معسكر الفرس، والمعسكر الغربي وهو معسكر الرومان يساعدهم التدمريون. كانت انتصارات الفرس في سنة ٢٦٠ بعد الميلاد، ثم أسر القيصر "والريانوس"، وغزو بلاد الشام، وقيام " أذينة.، بالهجرم على الفرس، وطردهم من الأرضن التي احتلوها من الأمور الخطيرة التي وقعت، في ذلك العهد، أفادت الرومان ولا شك كثيراً، ولكنها لفتت أنظارهم في الوقت نفسه إلى الخطر الجديد الذي أخذ يتهددهم من

ظهور قوة "تدمر"، وتدمر في بلاد الشام. وقد تزعم الحركات الوطنية المعادية للرومان في الشرق،، فتكون كارثة على "رومة". ونجد أخبار "أذينة" وأعماله خاصة بعد معركة "الرها Edessa ."في تأريخ " سوزيموس Zosimus.

ولا بد لي في هذا الموضع، وقد انتهيت من الحديث عن لذينة، من الإشارة إلى رجل كان له شأن وذكر في أيام "أذينة"، وكان أقوى شخصية في تدمر إلا وهو " ورود Worod الذي ورد ذكره في عدد من الكتابات، أقدمها الكتابة المدونة بشهر نيسان من سنة "٢٦٢" للميلاد وقد لقب فيها بـ ""Procurator Ducenarius"، كما لقب بلقب "مرن" الذي تلقب به "أذينة" أيضاً، أي "سيدنا" و "أمر نا"، وبألقاب أخرى، مثل "Cursus Honorum" و"قائد القافلة" و "شريف المستوطنة" وغيبر ذلك من نعوت حملها "أذينة" نفسه، مما يحملنا على الاعتقاد بأنه كان الرجل الثاني في تدمر بعد "أذينة"، ومن الغريب إن اسمه اختفى مع اسم أذينة في السنة التي قتل فيها الملك نفسِها، فلم نعد نقرأه في الكتابات.

وكان "ورود" يقوم مقام "أذينة" بأعباء الحكم عند غياب "أذينة" عن عاصمته. ويرى بعض الباحثين إن اسمه الكامل هو " يوليوس أورليوس سبتيميوس ورود "Jolius Aurelius SeotimiusWord "وانه كان من الطبقة " الأرستقراطية"، وهو من أصل فارسي روماني. وقد نال أعلى الألقاب المعروفة في أيامه، حتى ضاهت الألقاب التي لقب بها "أذينة". والظاهر انه كان شخصاً كفؤاً حازماً لذلك نال مركزاً لم يبلغه أحد غير "أذينة"، إذ كان الرجل الثاني في تدمر بعد الملك.

ولا نعرف شيئاً كثيراً عن المكانة التي حصل عليها بعد مقتل "أذينة" وتولى"الزباء" اعباء الحكم نيابة عن ابنها "وهبلات"، والظاهر انه لم ينل عند الملكة المنزلة التي بلغها عند "أذينة"، وان عينّته الملكة نائباً عنها في بعض الأوقات، وكل ما وصل إليه عندها هو منصب "مستشار"، فقد كانت تستدعيه عند الحاجة لاستشارته في بعض الأمور الخطرة. وقد كان لها جماعة مستشارين تستعين برائهم في ادارة الحكم وفي تنظيم الأمور المالية،ولا سيما الجباية من التجارة و التجار.

ولم يشر "الطبري" ولا غيره من المؤرخين المسلمين إلى حروب "أذينة" مع "سابور" على أهميتها وبلوغ ملك "تدمر" فيها العاصمة "طيسفون". وهذا أمر يدعو إلى العجب حقاً اذ كيف يهمل المؤرخون والأخباريون هذا الحدث الخطير ؟ فلا بد أن يكون هنالك سيب. ورأيي إن سببه الموارد الأصيلة التي اعتمد عليها المؤرخون المسلمون والأخباريون واخذوا منها، وهي موارد فارسية الأصل متعصبة للفرس، أو موارد عراقية ميّالة الهم.

وقد أخذ المؤرخون المسلمون لّأريخ الفرس من موارد فارسية، أما تأريخ الرومان واليونان، فقد أخذوه من موارد نصرانية سريانية في الغالب، ولكنهم أخذوه بقدر، ولم يتوسعوا في الطلب، لذلك كان تأريخ الرومان واليونان مختصراً جداً وضعيفاً يالقياس إلى ما دوّ ن عن تأريخ الفرس، عبارة عن جريدة بأسماء القياصرة جافة في.الغالب، ونتف وقطع مبثوثة هنا وهناك في الفصول المدوّ نة عن تاريخ الدول الفارسية ذكرت في المواضع التي تكون

لها صلات بتأريخ الفرس، ولذلك أيضاً أدمج أكثرما دون عن تـأريخ الغساسنة وعرب الشام في الأوراق التي دونـت عـن تـأريخ الحـيرة وعـرب العراق. وقد انتزعت من مـوارد فارسـية- عراقيـة، ففيهـا تعصـب للفـرس وللعراق على الروم والرومان وبلاد الشام.

وأظن إن الموارد الأولى الني نقل منها الأخباريون والمؤرخون كلامهم عن تاريخ الفرس لم ترقها الاشارة إلى انتصارات ملك كوّ ن مملكة في الباديـة بنفسـه، عـلى "سـابور" صـاحب انبراطوريـة واسـعة تتبـاهى بنفسـها عـلى الرومان، فأهملت الكلام عنها بداقع العاطفة والنزعات القومية. فلما ترجمت تلك الموارد إلى العربية أو نقـل منهـا، لم يجـد الأخبـاريون والمؤرخـون شـيئاً يقولونه عن انتصارت "أذينة" على "سابور"، وإلا ذكروه كما ذكروا حـادث أسر سابور للقيصر والريـانوس في أثنـاء كلامهـم عـن سـابور. وقـد ذكـره الطري فقال: "وأنه حـاصر ملكـا كـان بـالروم يقـال لـه الريـانوس بمدينـة انطاكية، فأسره وحمله وجماعة كثيرة معه وأسكنهم جنديسابور."

- ✓ الزباء:

انتقل الملك بعد مقتل "أذينـة" و"معـن" إلى "وهبلـت" و"هـبلات" "وهب اللاث"، وهو ابن "أذينة" من زوجه "الزّباء" ويعرف في اليونانية بـ "اتينودورس Athenodrus ".

وكان لوهبلات اخوة هم: "حيران" "خيران" و " تيم الله" مـن أذينـة "أذينة" وامه "الزباء". وكان قاصراً، لذلك تولـت الوصـاية-عليـه وتأديبـه بأدب الملوك حتى يبلغ سن الرشد، فعلّمتـه "اللاتينـة" والفروسـية، وهيأتـه ليكون ملكاً. كبراً كقياصرة الرومان أو أكاسرة الفرس وسعت هي لتهـذيب الدولة وتوسيعها وبسط نفوذها على أماكن واسعة لم تكـن خاضـعة لتـدمر، لذلك كان لا بد من حدوث احتكاك وتصادم بينها وبين الرومان.

وللإخباريين احاديث واقاصيص عن الزباء، واسـمها عنـدهم "نائلـة بنت عمرو ابن الظرب بن حسان بن أذينة بن السميدع بن هوبر العميلقـي" "العملقي" من العماليق. و"الزباء بنت عمرو بن الظرب بن حسان بن أذينـة بن السميدع ين هوبر" على زعم، و"ليلى" في زعم آخر. وزعـوا إن لهـا اختـاً اسمها "زبيبة" بنت "الزباء" لها قصر حصين على الشـاطئ الفـرات الغـربي، وكانت تشوعند اختها وتربع ببطن النجـار، وتصـير الى تـدمر. كـما كـان لهـا جنود هم نظرهم بقايـا مـن العماليـق والعاربـة الاولى، وتزيـد وسـليح ابـن "حلوان بن عمران ابن الحـاف يـن قضـاعة" ومـن كـان معهـم مـن قبائـل قضاعة. وذكر "ابن خلدون": إن ملك العرب بأرض الحيرة ومشارف الشام كان.لعمرو بن الظرب،و.كان جنود الزباء من بقايا العمالقـة مـن عـاد الأولى ومن نهد وسليح ابني حلولن ومن كان معهـم مـن قبائـل قضـاعة، وكانـت تسكن على شاطىء الفرات وقد بنت هنالك قصراً، وتربع عند بطن المجـاز، وتصيف بتدمر، أخذ قوله هـذا مـن. تـأريخ الطـبري وتصرّـف فيـه بعـض التصرف. أما الأصل، فخبر من أخبار الأخبارين، واما النقل فحكمه حكم

الأصل بالطبع. وأما ان جنود "الزباء" من بقايا "العمالقة"، فهو أمر مقبول في نظر اصحابنا الأخباريين، و لم لا ؟ أن "الزباء" في رأيهم من بقايا العمالقة، اي من العرب الأولى فلم لا يكون جنودها إذن من أولئك لقوم؟ وزعم بعض الأخباريين إن "الزياء" من ذرية "السميدع بن هوثر" من "بني قطورا" اهل مكة، وهي بنت " عمرو بن أذينة بن، الظرب بن حسان". ويبن "حسان" و"السميدع" آباء. وزعم آخرون أن "عمرو بن الظرب" كان على مشارف الشام والجزيرة، و كَان منزله بين " الخابور" و"قرقيساء"، فوقعت بينه " وبين "مالك بن فهم" حروب هلك "عمرو" في بعضها، فقامت بملكه من بعده ابنته "الزباء". وقد استمرت الحرب بين "مالك" و "الزباء" إلى إن ألجأها إلى اطراف مملكتها. وكان " مالك" على ما يصفه الأخباريون رجلا قديراً يغير على ملوك الطوائف حتى غلبهم على كثير مما في ايديهم. وهو في نظرهم أول من ملك من "عرب الضاحية". وكان منزله مما يلي "الأنبار"، ثم ملك بعده أخوه "عمرو بن فهم". فلما هلك تولى من بعده "جذيمة الأبرش" الشهير في تأريخ الحيرة.

والذي حارب "عمرو بن الظرب" على رواية منسوبة إلى "ابن الكلبي" ذكرها " الطبري" هو "جذيمة الأبرش"، وكان جذيمة على هذه الرواية قد جمع جموعا من العرب سار بها يريد غزاة "عمرو"، وأقبل "عمرو" بمجموعة من الشام فالتقوا فاقتتلوا قتالاً شديداً فقتل "عمرو بن الظرب" وانفضت جموعه. فأجمعت الزباء رأيها لغزو "جذيمة" للاخذ بثأر أبيها، ولستعدت لذلك.غير إن اختاً لها هي " زبيبة"، وكانت ذات رأي

ودهاء وأدب، نصحتها بـترك الحـرب، فـإن عواقبهـا غـير مضـمونة، فاستجابت لنصيحتها، وعمدت إلى طرق المكر والحيل فراسلته واسـتدرجته إلى عاصمتها في قصة معروفة مشهورة لا حاجة بي إلى إعادتهـا، فغـدرت بـه وقتلته. وطلب "قصير بن سعد بن عمرو ابن جذيمة بـن قـيس بـن ربي بـن نمارة بن لخم"، وكانْ ارياباً حازماً أثيراً عند "جذيمة ين الأبرش" من "عمرو بن عدي" خليفة " جذيمة" على الحيرة الخروج لقتال "الزباء"، فأحجم فلـما رأى ذلك منه، صمم على أن يأخذ هو بالثأر، فذهب إليها مدعياً أنه مضطهد ممقوت لتهمة نسبت إليـه هـي أنـه سـاهم في - قتـل "جذيمـة" فوثقـت بـه واطمأنت إليه وهي لا تعلم ما في يخفي لها، ثم طلب منها أن يعـود إلى بلـده ليعود بأمواله ونفائس ما لديه فسمحت له وأعطتـه تجـارةً لتصريـفها هنـاك، فباعها وعاد بأرباح طائلة وبأموال كثيرة، فزادت ثقتها به وتكرر الحال، حتى إذا ما وثق من اطمئنانها إليه عاد في المرة الأخيرة برجال أشداء من بني قومـه ومعهم "عمرو بن عدي"، وضعهم في جوالق كبيرة فلما توسطوا في المدينـة، أنزلت الجوالق وخرج الرجال منها، فوضعوا سيوفهم في رقاب أهلها، فلـما رأت الزبّاء ذلك. أرادت الهرب من نفق حفرته لمثل هذه الأيام، اطلع قصـير عليه، فوضع "عمرو بن عدي" على بابه. فلـما رأتـه الزيـاء مصـت خاتمهـا، وكان فيه سم، قائلة: "بيدي لا بيدك يا عمرو"، وتلقاهـا عمـرو بـن عـدي بالسيف فجللها به وقتلها، وغنم كثيراً، وانكفأ راجعاً إلى العراق.

وهي قصة محشوة بالأمثال المنسوبة إلى أبطالها: جذيمة وقصر والزباء وعمرو ابن عدي، وفيها على عادة الأخباريين في رواية أمثال هذا القصص شعر نسب بعضه إلى هؤلاء الأبطال، ونسب بعضه الآخر إلى شعراء أقحمت أسماؤهم في القصة ليؤكد واضعوها ولا شك صدق حديثهم،وليلوّ نوا كلامهم بعض التلوين. ونجد قصة الزباء وجذيمة وقصير المطالب بالثأز في شعر ينسب إلى "عديّ بن زيد العبادي"، **جاء فيه**:

ألا أيها الملك المرجيّ — ألم تسمع بخطب الأولينا

فطاوع أمرهم وعصى قصيراً — وكان يقول لو تبع اليقينا

دعا بالبقَّة الأمراء يوماً — جذيمة عصر ينجوهم ثبينا

ثم يستمر في نظم القصة شعراً حتى تنتهي. وقد ختمت بنصح للإنسان ليتعظ بالحوادث والمنايا، التي لا تعرف أحداً مهما كانت درجته ومنزلته، إلا أخذته، ثم صيرته أثراً بعد عين.

وذكر أهل الأخبار أن "الزبّاء" كانت تأتي الحصون، فتنزل بها، فلما نزلت ب "مارد"، حصن دومة الجندل، وبالأبلق، حصن تيماء، قالت تمرد مارد وعز الأبلق، فذهبت مثلاً.

ولم يبخل الأخباريون على الزباء، فمنحوها أبياتاً زعموا أنها قالتها، وجعلوها أديبة في العربية بليغة إلى أعلى درجات البلاغة. لها حكم وأمثال بهذه العربية، عربية القرآن الكوريم. ولا غراية في ذلك، فالذي ينسب شعراً

عربياً إلى آدم وابليس ويرويه مشكَّلاً مضبوطاً على وفق قواعد النحو والصرف، لا يعجز عن رواية شعر ينسب إلى "عمرو بن الظرب" والى ابنته الزباء.

وذكر إن معاوية ذكر في أحد مجالسه "الزباء" وابنة "عفزر"، فقال: "اني لأحب إن أسمع حديث ماوية وحاتم، فقال رجل من القوم: أفلا أحدثك يا امير المؤمنين؟ فقال: بلى، فقال: إن ماوية بنت عفزر، كانت ملكة وكانت تتزوج من أرادت."

ويذكر أهل الأخبار أن "ابنة عفزر" قينة كانت في الدهر الأول، لا تدوم على عهد، فصارت مثلاً. وقيل: قينة كانت في الحيرة، وكان وفْدُ النعمان اذا اتوه لهوا بها. وذكر أن "عفزر" اسم اعجمي، ولذلك لم يصرفه "امرؤ القيس"في قوله:

أشميمُ بروق المُزنِ أين مصابُهُ ولا شيء يشفي مناك يا ابنة عفزرا

ولم تشأ الكتابات التدمريه الإعلان عن اسم ملكة تدمر، بل ذكرتها على هذه الصورة: "بت زباي" أي " بنت زباي". و "زباي" هو اسم والد الملكة، حذفت كلمة "بت" وهي "بنت" في العربية، وقلب الحرف الأخير وهو الباء من كلمة "زباي" وْصيّر همزة، فصار " زباء"، وعرفت ملكَة تدمر عند العرب باسم "الزباء".

وقد ذكر المؤرخ "فلافيوس فوبسكوس Flavius Vopiscus "إن والد "الزباء" رجل من تدمر اسمه "اخليو Achilleo"، هو "انطيوخس Antiochus"في رواية اخرى.

وقد أثنىَ عليها المؤرخ "تريبليوس بوليو Trebellius Pollio" ووصفها وصفا جميلاً، واشار إلى مقدرتها وقابليتها، وذكر أنها كانت تتكلم اليونانية وتحسن "اللاتينية"، وتتقن اللغة المصرية وتتحدث بها بكل طلاقة، وتهتم بشؤون المملكة، وتقطع المسافات الطويلة سيراً على الأقدام في طيعة رجال جيشها، إلى غير ذلك من كلام فيه ثناء واطراء على هذه الملكةْ.

وقد بلغتنا روايات تفيد إن الملكة ادعت أنها من مصر، من سلالات الملوك وأنها من صلب الملكة الشهيرة "قلبطرة" "كليوبطرة Celopatra"، وأنها كانت نفسها تتكلم المصرية بطلاقة، وأنها ألفت كتاباً كتبته بخط يدها اختصرت فيه ما قرأته من تواريخ الأمم الشرقية ولا سيما تاريخ مصر، وأنها استقدمت مشاهير رجال الفكر إلى عاصمتها، مثل الفيلسوف الشهير " كاسيوس ديونيسيوس لونجينوس – ٢٢٠ "" "Cassius Longinus " ٢٧٣م" بعد الميلاد. وكان فيلسوفاً على مذهب الأفلاطونية الحديثة ومن أصدقاء الفيلسوف " فرفوريس Phorphyrios"، استقدمته الملكة إلى عاصمتها واستضافته عندها وجعلته مستشاراً لها، فأخلص لها في مشورته،فكان ذلك سبباَ في قتله. فقتله القيصر "أوريليانوس Aurelianus" ، لإتهامه أنه كان يحرض الملكة على الرومان.

ومثل الكاتب المؤرخ "كليكراتس الصوري"، و "لوبوكوس" البيروتي اللغوي الفيلسوف، و "بوسانياس" الدمشقي المؤرخ، "ونيوكوماخس Nicomachus" من زمرة الكتّاب المؤرخين، المتضلعين بالإغريقية،ومن الفلاسفة، وقد تولى الكتابة باللغة الإغريقية، وصار من مستشاريها كذلك. ولذلك أمر به القيصر "أورليانوس" فقتل بعد محاكمته بمدينة حمص، في الوقت الذي حوكمت فيه الملكة والفيلسوف "لونجينوس"، الذي قطع رأسه بعد إن مثّل به. وفي حشد هذا النوع من الرجال دلالة على ميول الملكة الفلسفية الأدبية وثقافتها العالية ولا شك.

وملكة شأنها هذا، لا بد إن تكون حرة الفكر، متساهلة مع اصحاب العقائد والاراء. وهذا ما كان. ففي مدينة "تدمر" الوثنية عاشت جالية كبيرة من اليهود يمتعت بممارسة شعائرها الدينية بكل حرية، ونالت حقوق المواطنة التي كان يتمتع بها التدمريون، جاءت إلى المدينة مهاجرة من فلسطين خاصة،بعد خراب القدس على ايدي القيصر " طيطوس" "تيتوس " "Titus"في سنة "٧٠" بعد الميلاد. فاشتغلت فيها بالتجارة، فحصلت على أرباح طائلة جداً، وصار لها في المدينة اسم وشأن حتى إن مجلس المدينة والشعب اقام تمثالاً في سنة "٥٦٩" السلوقية المقابلة لسنة " ٢٥٧" الميلادية ليهودي يدعى " يوليوس أورليوس شلميط "Julius Aurelius Schalmath" "قائد القافلة، لأنه ترأس القافلة، وأنفق عليها من ماله.

وقد بالغ المؤرخين في عدد اليهود الذين كانوا في "تـدمر" أيـام حكـم الزباء فزعم أنه بلغ نصف عدد سكان المدينة، وهـو زعـم يحتـاج إلى اثبـات. وزعم القديس "أثناسيوس "St.Athanasius" "إن ملكة تدمر كانت تـدين باليهودية ولكنها مع تهودها لم تهب أبناء دينهـا الكنـائس لتكـون لهـم مجـامع ومحافل.

وذهـــب إلى هـــذا الـــرأي المـــؤرخ "فوتيـــوس"Photius"."وذكـــر "فيلاســـتريوس ""Philastrius" إن الـــذي هـــوّ د الملكـــة هـــو "بـــولس السميساطي "paulus Samosatius" "وهو أسقف كـان مقربـاً إلى الزبـاء، وله منزلة عالية لديها. ونسبت إليه آراء في المسيح وفي بعـض الأمـور الدينيـة الأخرى دعت إلى محاكمتـه في مجمـع "أنطاكيـة" الـذي انعقـد في سـنة ٢٦٤ للميلاد، فوجد المجمع إن تعاليمه تشبه تعاليم "اًرتاماس" "أرتامون" الـذي حكم عليه قبلا، فحرموا آراءه كذلك، ثم حكم عليه في "انطاكية" سنة ٢٦٩ بعزله عـن الأسـقفية، ولم تتـدخل "الزبـاء" في القّراراتـالتي اتخـذها رجـال الكنيسة تجاه بولس، كما أنها لم تنفذ قراراتهم بحقه، بل أبقته في مركزه وتركتـه على ما كان عليه.

ويرى بعض المؤرخين أن خبر تهـود الملكـة خـبر مختلـق، وضـعه آبـاء الكنيسكة للاساءة إلى سمعه "بولس السميساطي" والطعن فيه والحـط مـن تعاليمه وللتأثير في نفوس أتباعه. وقـد لاقـى "بـولس" مـن خصـومه عنتـا شديداً. ولا يعقل بالطبع أن يعمد رجل كنيسة إلى تهويد شخص مهماً كان

مذهبه ورأيه في طبيعة المسيح واللاهوت، بل المعقول أن يعمد للتـأثير فيه وادخاله إلى مذهبه. ولدينا خبرآخر أراه من جنس خـبر "فيلاسـتريوس" ذكره "تيودوريت"Theodoret"، خلاصته: أن الأسقف "بولس" أخذ رأيـه في "الثالوث" من آراء الملكة المتأثرة باليهودية، وأنه كان قد تأثر بـالمرأة حتـى سقط إلى الحضيض. ولايخفى ما في هذا الخبر من طعن في عقيدة الرحل الذي أبدى رأياً فِي " الثالوث" سبب غضب الاباء عليه.

ولم نجد في الآثار اليهودية التي بين أيدينا ما يفيد تهود "الزبـاء"، نعـم ورد في التلمود خبر يفيد حمايـة " الزيـاء" للأحبـار، غـير أنـه وردت أخبـار أخرى تفيد أن اليهود كانوا ناقمين على "تدمر" حاقدين عليها يرجـون مـن الله أن يطيل في عمرهم ليروا نهايتها. هذا الحبر الكبير "يوحانان" "يوخانان Jochanan"رئيس "أكاديمية" "طبريـة" و المعـاصر لأذينـة والزبـاء، يقـول: "مخلد وسعيد من يدرك نهاية أيام تدمر". و لو كانت الملكة على دين يهود، لما صدرت هذه الجملة من فم ذلك الحبر ولا شك. ويفهم من بعض الروايـات المروية عن فقهاء اليهـود وأحبـارهم في فلسـطين في ذلـك العهـد، أن الملكـة اضطهدت اليهود وعذبتهم. وهي روايات. لا يمكن التسليم بصحتها أيضاً، ويجوز أنها ظهرت على أثر توسع.الملكة في الأرضين التيّ كانت تحت سسِطرة الرومان ومنها "اليهودية" غير أن هذا الاستيلاء لم يكن أمده طويلاً.

ووردت روايات أخرى تشير إلى كراهية يهود منطقة الفرات لتدمر، ورد إن الحبر "يهودا "R.Juda" "تلميذ الحبر "صموئيل "Samuel" "تحدث عن تدمر، فقال: "سيحتفل الاسرائيليون في أحد الأيام بعيد، أنه عيد هلاك ترمود Tarmud"، أنها ستهلك كما هلكت تمود "Tarmud" وقد هلكت. وورد إن الحبر "آشة "R.Asche" "ذكر "ترمود Tarmud" فقال: ترمود مثل تمود، انهما شيئان لأمر واحد، إذا هلك أحدهما قام الثاني مقامه.

ويراد ب "ترمود" مدينة "تدمر". وقد اشترك عدد كبير من اليهود في صفوف أعداء الزباء، واشتركوا مع الفرس في حروبهم مع تدمر كما اشتركوا مع الرومان. وقبض على عدد من الأحبار أحضروا إلى الملكة كانوا يحرضون الناس على التدمريين.

أما "تمود"، الذين هلكوا قبل هلاك "ترمود"، فهم قوم ثمود. ويظهر أنهم حلت بهم نكبة أدت إلى هلاكهم حتى صار هلاكهم مضرب الأمثال.ولم يشر إلى زمن حلول تلك النكبة.ولكن ذلك كان قبل سقوط "تدمر" في أيدي الرومان على كل حال، كما يفهم من كلام الحبر "يهودا" المتوفى سنة ٢٥٧ للميلاد.

أما أسباب هذا البغض، فلم تذكر. ويظهر إن هنالك جملة عوامل دعت إلى ظهوره، منها آراء الملكة الفلسفية وآراء الفلاسفة والكتاب الذين كانوا يحيطون بها، وكانوا يبثونها في تدمر وفي البقاع التي استولى عليها التدمريون، فنفقت نفاقاً كبيراً بين يهود "تدمر" ويهود "الكالوتات" على نهر الفرات، فأثارت هذه الاراء "الالحادية" عند اليهود حقد الأحبار والمتدينين.

ومنها الزواج المختلط الذي انتشر في تدمر بين اليهـود وغـير اليهـود، ونشوء جيل جديد من هذا الزواج أضاع الـدين وتقاليـد الإسرائيليين.وهـو أمر نهى عنه اليهود. ومنهـا الحالـة السياسـية التـي نشـأت مـن أسر الفـرس للقيصـر "والريانوس"، وهجوم أذينة عـلى الفـرس ومـا أعقـب ذلـك مـن حروب ألحقت ضرراً كبيراً بالجاليات اليهودية الكبـيرة التـي كانـت تسـكن شواطيء القرات، ومعظمها من التجار الذين كـانوا يتـاجرون مـع الفـرس والروم، ويبن العراق وديار الشام، فأصيبت هذه"الكالوتات" اليهودية التـي كانت تتمتع بشبه استقلال بـأضرار كبـيرة، وفقـدت اسـتقلالها خـلال مـدة استيلاء التدمريين على شواطى الفرات. فلهذه الأسباب كانت نقمـة اليهـود على التد مريين.

وحرص بعضى المؤرخن على ادخال الملكة في زمرة النصارى فزعمـوا. أنها كانت على دين المسيح. وتساهل آخرون بعض التساهل فقالوا أنها لم تكن نصرانية أصيلة ولكنها كانت قريبة منها ميالة إليها، وجحد حجـج مـن قـال بتهود الملكة وسخفها. وتوسط آخرون فقالوا أنها لم تكن يهوديـة محضـة، ولا نصـرانية خالصة، إنما كان دينها وسطاً بين الدينين: كانت تعتقد بوجـود الله، وترى التوحيد، ولكنها لم تكن على اليهودية وعلى النصرانية، بل رأت الخالق كما يراه الفيلسوف.

وللمؤرخين آراء في أصل "الزباء" ونسبها وأسرتها، فمنهم من ذهـب إلى أنها مـصرية، ومنهم من ذهب إلى أنها من العماليـقْ ومـن هـؤلاء المـؤرخ "آيشهورن "Eichhorn". وقد أخذ هؤلاء آرامهم من الكتب العربية على ما

يظهر. وذهب المؤرخ اليهودي "كـريتس Graetz " إلى أنهـا "ادوميـة" مـن نسـل "هـيرودس واأنهـا يهوديـة الـدين. ورأى "رايـت Wright" و"أوبردك Oberdick" وآخرون أنها من أب عربي ولكنها من دم مصري مـن ناحية الأم. والذي عليه أكثرهم. أنها عربية الأصل.

وقد ذكر "المسعودي" إن بعض المؤرخين كانوا يزعمون أنها "رومية" تتكلم العربية.

أظهرت "الزباء" مقـدرة فائقـة في إدارة شـؤون الملـك، فخـاف منهـا الرومان، وعزم "غاليانوس" بتحريض من شيوخ "رومة" على القضاء عليها قبل استفحال أمرها، فأرسل جيشاً إلى الشـرق تظاهر أنه يريـد مـن إرسـاله محاربة "سابور" غير أنه كان يربد في الواقع مهاجمـة تـدمر واخضـاع الملكـة. فبلغ خبره مسامع "الزباء" فاستعدت لمقابلته وخرجت له، والتحمـت فعـلاً بكتائب الرومان،وانتصرت عليه انصاراً باهراً، وولت هاربـة تاركـة قائـدها "هرقليانوس Heraclianus" قتيلاً في ساحة الحرب.

ورأت الملكة الحذر من الفرس، وذلك بتقوية حدود مملكتها، فـأمرت بانشاء حصن "زنوبيا Zanobia" على نهر الفرات، ليقف أملم الهجمات التي قد يوجهها الساسانيون عليها من الشـرق. ويقول "بروكوبيوس" أنه سـمي بهذا الاسم نسبة إلى الملكة مؤسسته.

وقد اتبعت "الزباء" بعد مقتل زوجها سياسة عربيـة، سياسـة تعتمـد عـلى التقـرب مـن الأعـراب والتـودد الـيهم والاعـتماد علـيهم في القتـال والحروب. وذلك بعد أن رأت إن الرومان هم أعداء تدمر، وأنهم لا يفكرون

إلا في مصالح الرومان الخاصة. وبهذه السياسة تقربت أيضاً إلى العناصر العربية المستوطنة في المدن، وأخذت تعمل على تكوين دولة عربية قوية واحدة بزعامتها، وخاصة بعد أن أدركت إن الأعراب قوة لا يستهان بها، وأنهم لو نظموا واستغلوا استغلالا جيداً، صاروا قوة يحسب لها كل حساب، فأخذت تعمل لتكوين هذه القوة، ولكن الرومان كانوا أسرع منها، فقضوا على مآربها قبل أن تتحقق، فاستولوا على تدمر وأزالوا مملكة ملكة الشرق.

وجهت "الزباء" أنظارها إلى مصر، ووضعت الخطط للاستيلاء على هذا القطر، بعد أن مهدت لنفسها الدعوة فيه بإعلانها أنها مصرية وأنها من نسل الملكة "كليوبطرة" "قلبطرة" فلها إذن فيه ما يسمح لها بالتدخل في شؤونه، وأخذت تترقب الفرص وتتحين الأسبالب، فلما قتل القيصر "غاليانس" سنة ٢٦٨ للميلاد، وانتقل الحكم إلى "أوريليوس فلوديوس ٢٧ ٥ – ٢٦٨م"، وجدت الجو صالحاً للتدخل،كان الألمان "Alemannen"قد هاجموا حدود الإمبراطورية في مطلع هذا العام، وكان "الغوظ" "القوط "Goths" " Gothen" قد أربكوا الدولة. وكان أثر الخسارة التي ألحقتها الملكة في الجيش الروماني، ومقتل "هرقليانوس" بالغاً في نفوس الرومان، يتجلى في صياح أعضاء مجلس الشيوخ بصوت واحد سبع مرات في أثناء مبايعة القيصر ـ الجديد: "ياقلوديوس أغسطس نجنّا من فكتوريا ومن زنوبيا، ياقلوديوس أغسطس أغثنا من التدمريين". وفي

للرسالة المؤثرة للتي وجهها القيصر إلى مجلس الشيوخ ومدينة "رومة" وهو في طريقه لتأديب المهاجمين، وفيها "إن جبيني ليندى خجلاً كلما تذكرت أن جميع الرماة بالقسي هم في خسمة زنوبية" فانتهزت الملكة هذه الفرصة المؤاتية وأرسلت جيشها لاحتلال مصر.

كان القيصر قد أمر عامله. على مصر المدعو "بروبوس Probus" بالخروج على رأس أسطول الاسكندرية إلى عرض البحر: لمطاردة "الغوط" "القوط "Goths" ولمنعهم من الهرب عبر المضايق فخرج علي رأس قوة كبرة من الرومان لمطاردتهم فانتهز الوطنيون والمعارضون لحكم الرومان - وعلى رأسهم "تيماجينيس Timagenes" وهو رجل يوناني الأصل مبغض للرومان - هذه الفرصة، فكتبوا إلى الملكة يحضونها على تحرير مصر من حكم "رومة" وتولى الحكم فيها. وأظهر "فيرموس Firmus" وهو رجل ثري جداً، استعداده لمساعدة الملكة بالمال وبكل ما ينبغي إذا أرادت الاستيلاء على مصر. فأمرت "الزباء" قائدها "زبدا" بقصد مصر على رأس جيش قوامه سبعون الف رجل. وقد قاتل الجيش الروماني الذي كان مؤلفاً من خمسين ألف مقاتل وتغلب عليه، ثم قرر العودة إلى تدمر تاركاً في مصر حامية صغيرة من خمسة آلاف رجل، ويظهر أنه تركها تحت إمرة "تيماجينيس" الذي عيّن نائباً عن الملكَة على مصر. فلما سمع "بروبوس" بهجوم التدمريين وتغلبهم على الرومان، أسرع عائدا إلى مصر، فألف جيشاً من المصريين الموالين للرومان، وزحف على الاسكندرية وأخذ يتعقب التدمريين، وأعمل فيهم السيف، فلما سمعت "الزباء" بذلك، أمرت قائدها بالعودة ثانية الى مصر، فجرت معارك بين الطرفين انتهت بانتصار التدمرين على "بروبوس"

عند "بابلون" أي "الفسطاط"، وكتب النصر لجيش الملكة في مصر.

وقد ساعد عرب مصر من سكان الأقسام الشرقية من مصر، جيش تدمر مساعدة كبيرة، ولا سيما فيما جرى من قتال حول حصن "بابلون Babylon"الذي عرف ب "الفسطاط" فيما بعد. ويظن بعض الباحثين أن "تيماجينسTimagenes" الذي وصفه المؤرخ "زوسيموس "Zosimos" Zosimus" بأنه مصري، كان في الحقيقة عربياً، واسمه عربي أخذ من "تيم اللات"، أو من "تيم جن". وكان من المبغضين للرومان.

ولم تتحدث الموارد التاريخية عن الحوادث التي جرت في مصر بعد هذا النصر ولا عن موقف الرومان من هذا التطور الذي وقع في منطقة خطيرة من مناطق الإمبراطورية. ويظهر إن الملكة تراضت مع "رومة" وعقدت اتفاقية معها، وافقت "رومة" فيها على بقاء جيوش تدمر في مصر، مع اعتراف "تدمر" بسيادة الرومان على وادي النيل. وقد عقدت هذه الاتفاقية في أواخر أيام حكم قلوديوس.

كما يتبين ذلك من خبر ذكره " تربيليوس بوليو Tebellius Pollio" ما له حلف المصريين يمين الولاء والاخلاص للقيصر. وقد دام هذا الاتفاق في أوائل سني حكم القيصر اورليانوس ٢٧٥ - ٢٧٥ م" أيضاً كالذي يتبين من نقد ضرب في الإسكندرية في سنتي ٢٧٥ و٢٧١ للميلاد، وقد ضربت على أحد وجهي النقد صورة مزدوجة لوجه القيصر "اورلبانوس Aurelianus " حاملاً لقب "أغسطس Augustus " مع وجه " هبلات"، وقد نعت ب : "Vir Consularis Romanorum" Imperator Dux Romanorum ويشير إلى

اللقب الذي تلقب به أيام حكمـه. وأمـا ازدواج صـورة القيصرـ مـع صورة "وهبلات"، فيشير إلى الحكم المزدوج على مصر.

ولم يدم هذا الاتفاق بـين الرومـان وبـين الملكـة طـويلاً، فقـد ضـغط سادات "رومة" على الإمبراطور بأن ينقـذ الامبراطوريـة مما حـاق بها مـن تصدع في أوروبة وفي الشرق. وفي جملة هذا التصـدع ظهـور ملكـة "تـدمر" وأطماعها في مصـر وفي الأرضين الأخرى من بلاد الشـام وآسـية الصـغرى. واضطر القيصـر "اوريليانوس" بعد الانتهاء من فتنة "رومة" ومـن تأديـب الجرمان إلى التدخل والعمل للقضاء على عصيان العصاة وطمـع الطـامعين. وبلغ سمع الملكة من أصدقائها و مخبريها في "رومـة" عـزمُ الانبراطـور عـلى القضاء عليها، فقررت القيام بعمل سريع قبـل مباغتـة القيصرـ لهـا، فألغـت الاتفاق المعقود مع الرومـان في ايـام "قلوديـوس"، وأمـرت بمحـو صـورة "اوريليانوس" من النقود لتبرهن على قطع علاقتها بالقيصر، وعدم اعترافها بسيادة "رومة" الاسمية عليها، وأمرت بضـرب صورة "وهبلات" وحـده، مع اللقب."الإمبراطوري" المخصـص بقيـاصرة "رومـة" وذلـك في السـنة الخامسة من حكمه. وقد تلقبت الزبـاء نفسـها بهـذا اللقـب في النقـود التـي ضربت باسمها في الخارج. أما نقود "تدمر"، فقد لقبت فيها بلقب "ملكـة"، ولقبـت في مصـــر هـــي وابنهـا بلقـب "أغسـطس". وهـو لقـب القيصرـ "أوريليانوس". وفي هذا التحدي الصـريح، دليل واضح على ما حدث مـن نزاع شديد في العلاقات السياسية بين تدمر ورومة.

وتفاوضت الملكة "الزباء" على رواية مع الملكة فيكتوريا Victoria عاهلة إقليم "الغال"، لتوحيد الخطط في مهاجمة القيصرية الرومانية واقتسامها، وأمرت جيوشها بالسير إلى "بيتينية Bithynia" فاستولت عليها، وظلت تتقدم دون ملاقاة معارضة تذكر حتى بلغت "خلقيدون" بازاء " القسطنطينية". ويقال إن الملكة كانت قد أمرت بصنع عجلة فاخرة للدخول بها في موكب الظفر إلى عاصمة الرومان.

واضطرت الملكة لتنفيذ خطتها هذه إلى سحب القسم الأعظم من جيشها المعسكر في مصر معتمدة على دفاع المصريين انفسهم إذا هجم عليهم الرومان. فانتهز "اوريليانوس" هذه الفرصة فأرسل مدداً إلى "بروبس"، وكان القائد "زبدا" قد وصل إلى مصر لمساعدة "فيرموس" نائب الملكة على صد الرومان. فوقعت معارك بين الفريقين كاد يكون النصر فيها للتدمريين لولا استمالة "يروبس" جماعة من المصريين، فآزروه ودحروا جيش "زبدا" في سنة ٢٧١ للميلاد. واضطر التدمريون إلى ترك مصر إلى أعدائهم، فكانت هذه أول نكبة عظيمة تنزل بالزبّاء. ومنذ ٢٩ أغسطس من سنة ٢٧١م انقطع في الاسكندرية ضرب النقود التي تحمل صورة الزباء ووهبلات.

ولا نعرف اليوم شيئاً من الموارد التأريخية عن الأثر الذي تركه انتصار "بروبس" في مصر على التدمريين. ولكننا نستطيع أن نقول أنه وقع وقعاً عظيماً على الملكة "الزباء". فخسارة مصر على هذه الصورة، كانت خسارة كبيرة عليها، ولا بد أن تكون قد أثرت فيها، فقد مكنت الرومان من القضاء على سلطان الملكة في تلك البقعة المهمة وجعلت في امكانهم تهديدها من

الجنوب، كما إن موقف جيشها عند " خلقيدون"، وعدم تمكنها من الإستيلاء على " نيقية" وتوقف خططها العسكرية الهجومية، ثم اتخاذها خطة الدفاع ثم التراجع ومجيء "أورليانوس" بقوات كبيرة نحو الشرق، كل ذلك قد يكون نتيجة من نتائج هذا الاندحار الذي مني به جيش الملكة وأحزابها الموالية لها بمصر، فأضعف معنويات التدمريين ومن كان يواليهم وشدّ من أزر الرومان ومن كان يناصرهم.

قاوم أهل "خلقيدون" التدمرين، وأبوا التسليم لهم، وأرسلوا إلى القيصر لينجدهم ويظهر إن الملكة عرفتّ حراجة وضعها العسكري، وعدم استطاعتها التقدم، فقررت التراجع إلى مواضع جديدة تدافع فيها عن نفسها إذا هاجمها الرومان. وقد هاجمها الرومان فعلا، اذ عبر القيصر مضيق "البسفور" وفاجأ التدمريين في "بيثينية" في أواخر سنة ٢٧١م أو أوائل السنة التالية، وأجلاهم عنها، ثم سار إلى "غلاطية Galatia" و"قفادوقية Cappadocia"حتى بلغ "أنقرة Ancyra "، فسلمت له. وأخذ الرومان يتقدمون بسرعة إلى بلاد الشام.

أفزع تقدم الرومان السريع الزباء ورجالها ولا شك، وأخذت المدن التي كانت تساندها تشكُّ في تمكن الملكة من الدفاع عن نفسها، وشاعت بين الناس قصص عن نهاية تدمر وخرابها بايدي الرومان وعن سقوطها لا محالة، أثرت مع وصول أنباء اعتزام القيصر القضاء على حكم الملكة واخضاع "تدمر" لحكم الرومان. ومن يدري؟ فلعل الرومان وأنصارهم وأعوانهم

وجواسيسهم هم الذين صنعوها وأذاعوها بين الناس لإماتة همة جيش الملكة وأعوانها، والإيحاء إليه أنه مغلوب لا محالة وإن إرادة الالهة قد قضت بذلك ولا رادّ لها. فكان من بين ما أشيع إن معبد "الزهرة" في "أفقة Aphca"أنبأ الحجاج التدمريين الذين حجّوا قبل سنة من سقوط مدينتهم، يستفتون "الزهرة" فيما سيحل بهم في السنة المقبلة بمصير سيئ سيلحق بتدمر، وإن كارثة ستنزل بهم، أنبأهم بذلك على عادة المعبد في موسم الحج الذي يلي الموسم الذي سئل فيه السؤال.

وكان من بين ما أشيع تخرّصات زعم أنها صدرت من معبد "أبولو Apollo" تنبئ بزوال دولة التدمريين ومشيئة الآلهة بانتصار "أورليانوس" على الزباء، وتخرصات تزعم أن الحبر " يهودا R.Juda " تلميذ الحبر "صموئبل Samuel" تنبأ بها عن تدمر، إذ كان قد قال: "سيحتفل الاسرائيليون في أحد الأيام بعيد، إنه عيد هلال "ترمود Tarmud"، إنها ستهلك كما هلكت "تمود Tamud" وقد هلكت. وورد إن الحبر "أشه R.Asche " ذكر "ترمود Tarmud" فقال: "ترمود مثل تمود، أنهما شيئان لأمر واحد، اذا هلك أحدهما قام الآخر مقامه". ويراد ب "ترمود" مدينة "تدمر".

إلى غير ذلك من تخرصات أوحت بها دعاية الرومان، وأعداء الملكة من يهود ومن قوميات أخرى قهرتها "الزباء" فأذاعتها بين الناس، لإفهامهم أن من العبث مقاومة القيصر وجنوده، وأن من الخير ترك المقاومة

والاستسلام، وأن اليوم الذي ستحرر فيه تلك الشعوب من حكم الملكة آت قريب، لأن إرادة الالهة قضت ان يكون ذلك، ولا رادّ لأمر الآلهة: نعم، لم تصدق الملكة العاقلة الحكيمه بهذه الخرافات، فحاربت. ولكن عقول العامة لم تكن على شاكلة عقل الملكة، لقد أثرت فيها هذه الدعاية، وقضت على معنويات التدمريين الوثنيين الذين يدينون بهذه الخرافاتَ ويؤمنون بها، وما زال من طرازهم خلق كثر في القرن العشرين الميلادي هذا.

تهيأت الملكة "الزباء" لملاقاة "أورليانوس" عند مدينة "انطاكية Antiochia"، وكانت هي على رأس الجيش فارسة تحارب في الطليعة. أما القيادة، فكانت لقائدها "زبدا". وفي الوقعة الأولى هجم فرسان تدمر على الكتائب الرومانية فشتتوا شملها، فأمر القيصر جنوده بالرجوع إلى مسافات بعيدة، ليوهم التدمريين أنه قد فرّ، فإذا ساروا في أثرهم وابتعدوا عن قواعدهم باغتهم بالهجوم، فلا يتمكن فرسان تدمر من الهزيمة لثقل أسلحة الفرسان ومعداتهم وبطئ خيلهم بالقياس إلى خيل الرومان. وهو ما حدث. فقد خُدع التدمريون وظنوا رجوعهم هزيمة، فتعقبوهم إلى مسافات بعيدة، وفجأة انقَلبت الكتائب الرومانية على التدمريين، وأطبقوا عليهم، وأعملوا فيهم السيوف وانهزموا هزيمة منكرة إلى مدينة "انطاكية". وفي هذه المدينة قرَ رأي الملكة على ترك أنطاكية والارتحال عنها بسرعة لأسباب، منها وجود جالية يونانية كبيرة فيها كانت تفضل حكم الرومان على حكم الشرقيين عليهم، وقد كان لها النفوذ والكلمة في المدينة. ومنها نفرة النصارى من الملكة

بسبب موقفها من "بولس السميساطي" الذي قـرر مجمـع "انطاكيـة" عزله من وظيفته، فلم تنفذ الملكة قـرار المجمـع، وتركتـه يتصرـف في أمـوال الكنيسة، ولم تكتف بذلك بل عينتـه "عـلى Procurator Decenarius عـلى المدينة، أي أنها جعلته الرئيس الروحي والدنيوي على الانطاكيين. أضـف إلى ذلك كره اليهود الذين في المدينة للتدمرين. وقد نفذت الملكة هـذا القـرار في اليوم الذي دخلت فيه جيوشها المدينـة، فـأمرت قائـدها بتركهـا والسـير إلى "حمص" فِوراً. وفي اليوم الثـاني دخـل أورليـانوس. تلـك المدينـة وأعطاهـا الأمان.

وتعقب القيصر أثر الملكة ففتح جملة مدن حتى بلغ "حمـص Emisa"، وهناك وجدها على رأس جيش قوامه سبعون الفاً في مفازة عريضة تقع شمالي المدينة.

فاشتبك الرومان والتدمريون في معركة حامية ربـح فيهـا التـدمريون. الجولة الأولى، فولى الرومان مدبرين مذعورين تفتك فيهم سـيول تـدمر.غير إن القيصــر حزم رأيه، وأدرك وجود ضعف في خطة قتال الملكة، سببه ابتعاد فرسان تدمر عن مشاتهم في أثناء تعقب فرسان الروم، فأمر جنـوده بـالهجوم على مشاة التدمريين، ولم يكونوا في التدريب والقابليـة مثـل مشـاة الرومـان، فمزقوا مشاة الملكة كـل ممـزق وحلـت هزيمـة منكـرة عامـة بجـيش الزبـاء اضطرتها إلى ترك "حمص" وتفضيل الرجوع إلى عاصمتها تدمر للدفاع عنها، فلعل البادية تعصمها منه وتمنعه من الوصول اليها. ودخـل القيصــر مدينـة "حمص"، فتوجه بالشكر والحمد إلى إلهَ "حمص" "الشمس" قاطعاً على نفسه

عهداً إن يوسع المعبد ويجمله ويزينه أحسن زينة، مقدماً له نـذوراً هـي أكثر ما غنمه من الغنائم من التدمريين.

أدرك القيصـر إن النصر الحقيقي لن يتم له الا بالقبض عـلى "الزبـاء" وفتح "تدمر"، وأنه لن يدرك هذا الا اذا سار هو بنفسه على رأس جيشه لفتح تلك المدينة. لذلك قرر الزحف إليها بكل سرعة قبل أن تـتمكن الملكـة مـن تحصين مدينتها ومن الاتصال بالفرس وبالقبائل العربية الضـاربة في الباديـة، فيصعب عندئذ الاسـتيلاء عليها.فسـار مسـرعاً حتـى بلـغ المدينـة. بـرغم الصعوبات والمشقات التي جابهت الكتائب "اللجيونات" الرومانية في أثنـاء قطعها الصحراء، وألقى الحصار على "تدمر" القلعـة الصـحراوية الحصـينة، غير إن المدافعين عنها قابلوه بشدة وصرامة برمي الحجارة والسهام والنيران على جيشه وبالشتائم والسخرية والهزء ترسل إليه من أعالي السور. ويظهر أن "رومة" سمعت بذلك فسـخرت مـن عجـز القيصـر عـن احـتلال مدينـة صحراوية، ومن التغلب على امرأة، فساء "أورليانوس" ذلك كثـيراً، فكتـب إلى مجلس الشيوخ يقول: ".قد يستضحك منيبعض الناس لمحاربتي امرأة.... فاعلموا إن الزباء "Zenobia" إذا قاتلت كانت أرجل مـن الرجـال ٠٠٠٠".
وبعثت سخرية أهل تدمر وهزؤ أهل "رومة" منه في القيصـر عزمـاً جديـداً على فتح المدينة ودكَها دكاً مهما كلفه الأمر، ليمحو عنه هذه الوصمة المخجلة التي لحقت به.فكاتب الملكة طالباً منهـا التسـليم والخضـوع للرومـان لتنـال السلامة وتستحق العفو، فيسمح لهـا بالاقامـة مـع أسرتهـا في مدينـة يعينهـا مجلس الشيوخ لها. أما جواب الملكة، فكان: " إن ما التمسته مني في كتابك لم

يتجاسر أحد من قبلك أن يطلبه مني برسالة. أنسيت إن الغلبة بالشجاعة، لا بتسويد الصفحات. إنك تريد أن أستسلم لك. أتجهل أن كليوبترة "كليوبطرة" قد آثرت الموت على حياة سبقها عار الدّبرة. فها أنا في منتظرة عضد الفرس والأرمن والعرب "Saracens" لفل شباتك وكسر شوكتك. وإذا كان لصوص الشام قد تغلبوا عليك وهم منفردون، فما يكون حالك إذا اجتمعتُ بحلفائي على مقاتلتك. لا شك أنك ستذل وتخنع لي فتجرد نفسك من كبريائها التي حملتك على طلب المحال كأنك مظفر منصور في كل أين وآن.

لم ينجد الفرسُ ملكة الشرق، ولم يرسلوا اليها مدداً ما. فقد كانوا هم أنفسهم في شغل شاغل عنها. توفي "سابور" الأول في عام ٢٧١ للميلاد، فتولى "هرمز Ormidus" الملك من بعده، وكان رجلاَ ضعيفاً خائر القوى، فعزل بعد سنة قضاها ملكاً. وظهرت فتن داخلية بسبب ذلك لم تسمح للفرس وهم في هذه الحال أن يرسلوا قوة لمساعدة ملكة البادية عدوّة "أورليانوس" قيصر الروم وأما القبائل، فأمرها معروف، إنها مع القوي ما دام قوياً، فإذا ظهرت عليه علائم الضعف، صارت مع غيره. تحرش قسمٌ منها بجيوش الرومان المحاصرة للمدينة وهاجمتها، غير أنها منيت بخسائر فادحة، فتركت التحرش بالمحاصرين. ورأى قسم منها الاتفاق مع القيصر، ففي الاتفاق الربح والسلامة. وما الذي يجنيه سادات القبائل من ملكة محاصرة، لم يبق من ملكها غير مدينة في بادية وثروة سيستولي عليها الرومان.

وإن بقيت لها فلن يصيبها منها ما يصيبهم من القيصـر من مـال كثـير. ومن لقب وجاه يأتيهم من حاكم مدني قوي. وقد عرف القيصـر فـيهم هـذه الخصلة فاشترى أنفس الرؤساء بالمال. فأمن بذلك شر القبائـل، وسـلم مـن عدو يحسب لعداوته ألف حساب.

ولما رأت الزبـاء إن مـا كانـت تأملـه مـن مسـاعدة الفـرس والقبائـل والأرمن لم يتحقق، وإن ما كانت ترجوه من مساعدة الحـظ لهـا بإطالـة أمـد الدفاع لاكراه عدوها على فك الحصار والرجوع لم يتحقق نحلك، وان وضع القيصر قد تحسن بوصول مدد عظيم إليه من الشام وبوصـول مـواد غذائيـة اليه كافية لإطالة مدة الحصار، قررت ترك عاصمتها للاقدار، والتسلل منهـا ليلاّ للوصول بنفسها إلى الفرس علهم يرسلون لها نجدة تغيّر الموقف وتبـدل الحال، ودبرت أمر خطتها بكل تكتم وهربت من مدينتها مـن غـير إن يشـعر بخروجها الرومان، وامتطت ناقة اتجهت نحو الفرات، ولعلها كانت تقصـد الوصول إلى حصنها " زنوبية" ومنه إلى الفرس. على كل حال، فقـد حالفهـا الحظ في أول الأمر، فأوصلها سـالمة إلى شـاطئ النهـر، عنـد " الـدير" "ديـر الزور" قريب من "زليبيـة "Halebiya "ثـم خانهـا خيانـة فظيعـة. فلـما علـم "أورليانوس" بنبأ هرب الملكة، أيقـن إن أتعابـه سـتذهب كلهـا سـدى إن لم يتمكن من القبض عليها حية. لهـذا أوعـز إلى خـيرة فرسـانه وأسرع رجالـه باقتفاء أثر الملكة والقبض عليها مهما كلفهم الأمر. وقـال الحـظ كلمتـه. أنـه سيكون في جانب القوي مـا دام النـاس في جانبـه. نقـل فرسـان القيصرـ إلى موضع وجود الملكة على الشاطىء، في اللحظة الدقيقة الفاصلة الحاسمة بين

الموت والهلاك والدمار وبين العز والسلطان واسترجاع ما ذهب من ملك. كانت الملكة تهم بوضع نفسها في زورق لينقلها إلى الشاطئ الثاني من نهر الفرات. ولو عبرت لتغير إذن كل شيء. وإذا بالفرسان ينقضون عليها ويأخذون "ملكة الشرق" معهم مسرعين الى معيد الشرق للرومان : Recepto Orientis، وهو على رأس جنوده يحاصر هذه المدينة العنيدة التي أبت الخضوع لحكمه والتسليم له.

من الباحثين من يرى إن الملكة هربت من نفق سري يصل معبد المدينة بالخارج يمر من تحت السور له باب سري خارج الأسوار أعدّ لمثل هذه المناسبات، أو من أنفاق أخرى، اذ يصعب تصور خروج الملكة ليلا من مدينتها ولو بحفر نفق في السور دون أن يشعر بذلك الرومْان. ويستشهدون على صحة رأيهم هذا بالسراديب والقنوات التي ترى بقاياها تحت أسوار تدمر وقلاعها إلى اليوم.أحضرت الزبآء أمام القيصر، فقال لها: "صرت في قبضتنا يا زينب، ألست أنت التي أدت بك الجسارة إلى أن تستصغري شأن قيصر روماني". فأجابت: "نعم، إني أقر لك الان بكونك قيصراً، وقد تغلبت علي". وأما غاليانوس وأورليوس وغيرهما، فلست أنظمهم في سلك القياصرة. وإنما بارني فيكتورية في السلطنة والعز، فلولا بعد الأوطان لعرضت عليها أن تشاركني في الملك". فأثرت كلمات الملكة في نفس "اوريليانوس"، فمنحها الأمان. وقد أثر أسرها في نفوس التدمريين المتحصنين في بلدتهم، فرأى قسم منهم الاستمرار في الدفاع وعدم تسليم المدينة مهما كلف الأمر، ورأى قسم آخر فتح الأبواب والتسليم، وصاحوا

من أعلى الأسوار في طلب الأمان، وفتحوا له أبواب المدينة في بدء السنة ٢٧٣ للميلاد. فدخلها دخول الظافرين، فقبض على حاشية الملكة السابقة ومستشاريها ومن كان يحرض على معارضة الرومان، واستصفى أموال الملكة وجميع كنوزها، وأخذ الزباء ومن قبض عليهم معه وتوجه بهم إلى "حمص".

وتذكر بعض الروايات أن القيصر كان أول ما فعله عند دخوله إلى المدينة أن توجه إلى معبد الإلهَ "بعل Bel"، فشكر الإلهَ وحمده على توفيقه له ونصره له على أهل تدمر. ثم.اختار له قائداً نصبه على "تدمر" اسمه Sandarion"على رواية وAspaeus " على رواية أخرى، ليحافظ على الأمن ويحكم المدينة. وجعل في إمرته حامية فيها ستمائة من الرماة، ثم غادر تدمر تاركاً أمرها إلى هذا القائد.

في حمص كما زعم المؤرخ: "زوسيموس Zosimus" حاكم القيصر الملكةَ وأصحابها "استحضر القيصر سلطانة تدمر وأشياعها فلما مثلت بين يديه، جعلت تعتذر إليه وتتنصل وتدافع عن نفسها مدافعة الداهية حتى قرفت كثيرين من اصحابها بأنهم أصلوها بسوء نصائحهم وورطوها في الغرور. وكان من جملة الذين وشت بهم عند القيصر "لونجينوس".فحكم عليه القيصر من ساعته بالموت بعد أن مثّل به. فكابد لونجينوس العقاب بشجاعة وصبر جميل حتى أنه عند وفاته كان يعزى أصدقاءه وأقاربه. وكذلك نكّل بكل من تجرمت زينب عليه".

وقد اختلف الباحثون في صحة رواية هذا المؤرخ، فمنهم من شك فيها ومن هؤلاء "الأب سبستيان رتزفال" الذي نقلت ترجمته العربية لرواية "

زوسيموس" فقد استبعد صدور الوشاية والخيانة من ملكة كانت على جانب عظيم من سموّ الأخلاق والثقافة. ومنهم من اعتقد بصحتها وسلّم بها ولام الزباء على صدور مثل هذا العمل الشائن منها، ومن هؤلاء المؤرخ الألماني "مومزن Mommsen" الشهير في تأريخ الرومان.

وغادر "أورليانوس" مدينة حمص إلى "رومة" ومعه "الزباء" وأبناؤها وعدد من الأسرى أراد إلحاقهم بموكب النصر الذي سيقيمه عند دخوله العاصمة ليتفرج عليهم الناس. وفي أثناء عبور "البسقور" غرق عدة من أصحاب "الزباء" في جملتهم "وهبلات" على رواية المؤرخ "زوسيموس". وبينما كان القيصر في "تراقية Thrazien" إذ جاءته الأخبار تنبئ بثورة أهل تدمر على قائد المدينة "سنداريون "Sandarion " "الذي عيّنه القيصر اكماً على تدمرْ، وبظهور ثورة أخرى في مصر بطلها "فيرموس Firmus " الثري الشهير. وكان هدف الثورتين واحداً، هو التحرر من حكم الرومان والحصول على الاستقلال، فأنفق " فيوموس" وهو من كبار رجال المال في العالم في ذلك الحين أموالاً كبيرة على الجمعيات الوطنية المناهضة لرومة، وألفّ جيشاً تمكن به من الاستيلاء على الاسكندرية، وجمع حوله أشياع "الزباء" في مصر، ولقب نفسه بألقاب القياصرة، وأخذيتفاوض مع التدمريين في توحيد الخطط والعمل بجد في تقويض الإمبراطورية الرومانية في الشرق.

وقرر القيصر الاسراع في العودة إلى الشرق لمعالجة الحالة قبل فوات الوقت، فوصل إلى "تدمر" بسرعة كبيرة أذهلت المدينة الثائرة، فلم تدرِ ما تصنع. كانت قد قتلت القائد "سنداريون" "سوداريون Sandarion"، وفتكت بالحامية الرومانية، ورفعت راية العصيان في الشرق وتزعمت الحركة الوطنية المعادية للدخلاء وتبنتها، فبأي وجه ستقابل "أورليانوس" القيصر المتغطرس الجبار وماذا سيكون موقفه منها؟ وهي في وضع حرج لا تأمل الحصول على مساعدة لا من الفرس ولا من المصريين. وتداعت المدينة بسرعة حينما مثل أمامها الرومان وسلّمت نفسها للقيصر، فسلّمها هو غنيمة إلى جنده يفعلون بها ما يشاءون بغير حساب.

عفا القيصر "أنطيوخس" عن أقارب الزباء، وكان التدمريون أقاموه ملكاً عليهم. ولم يعف عن الرعية فتناولتهم سيوف الرعاع من جنود "رومة" وخناجرهم من غير تمييز في العمر أو تفريق في الجنس. أباح القيصر لجنوده تهديم أبنية المدينة، فدكّت الأسوار وهدمت الأبراج وقوضت الأبنية، حتى إن القيصر نفسه رق قلبه على من تبقى حياً من المدينة، فكتب إلى "Cerronius" قائد المدينة أن يصفح عنهم، وأن يعيد بناء هيكل الشمس إلى ما كان عليه، وكان جنود "اللجيون" الثالث قد نهبوه وخربوه، وأمر بالانفاق عليه وبتزيينه وتجميله من الأموال التي استصفيت من خزائن "الزباء". وطلب من مجلس الشيوخ في "رومة" إرسال كاهن ليدشن المعبدْ. وأرسل بعض نفائس الهيكل إلى عاصمته لتوضع في معبد الشمس الذي أقامه هناك، ومنها أعمدة مصورة غير أن ما أفسده الدهر لا يصلحه العطار. ولم يتمكن القيصر

من اصلاح ما أفسده السهر على يديه، فلم يعد المعبد معبداً كـما كـان، ولم تعد "تدمر" تدمر الزباء.

وقبل أن يرحل "اوريليانوس" عن أرض تدمر، غزا الفرس ويظهر أنه غزا قوة كانت قد أرسلت لمساعدة "تدمر"، فأرجعها على أعقابهـا، ثـم عـينّ قائده المحنك " ساترنينوس "Saturninus بدرجة "Dux" قائداً عـلى الحـدود لحمايتها من الفرس، وتوجه إلى مصر للقضاء على ثـورة "فيرمـوس"، فكـان الحظ فيها حليفه و احتل الإسكندرية وقبض على التاجر الحاكم، الذي لقـب نفسه قيصـراً، فأمر بمعاقبته بعقـاب السرـاق واللصـوص، أي بصـلبه عـلى الصليب. وبذلك أعاد معيد الشرق إلى الرومـان الشرـق المنفتـل مـنهم مـرة أخرى إلى الرومان. بعد هذه الانتصـارات وانتصـارات أخـرى أحرزهـا في غالية، عاد إلى عاصمته في سنة ٢٧٤ للميلاد في موكب قيصري عظيم وصفه المـؤرخ "Flavius Vopiscus" وصـفاً رائعـاً، اشـترك فيـه ١٦٠٠ مصـارع وعدد غفير من الأسـرى من مختلف الأقوام، ومن بينهم الملكة الزباء ومعهـا أحد أبنائها، وقيل كلاهمـا، وبعـض رعاياهـا، وثلاثـة عجلاتملكيـة: عجلـة "أذينة" زوج الزباء وهي مزينة بالذهب والجواهر، وعجلة أهداها "هرمز بن سابور" إلى القيصـر، وعجلة "الزباء" الخاصـة التـي أعـدتها لتـدخل فوقهـا منتصرة عاصـمة الرومـان. وتقـدم الموكـب عشرـون فـيلا وعـدة وحـوش وحيوانات جيء بها مـن فلسـطين وليبيـا ومصرـ وأمـاكن أخـرى. سـار إلى "الكابيتول" ثم إلى قصر "الإمبراطـور". واحتفـل الشـعب في اليـوم الثـاني احتفالاً خاصاً كانت فيه ألعاب مختلفة وكان فيه تمثيل وسباق مختلف الأنواع.

كان هذا الاحتفال نهاية فصل وبداية فصل جديد، قضى على الملكـة أن تقبع منذ نهايته في بيت خصـص بهـا في "تيبـور Tibur" مـع أولادهـا، وأن تعتزل السياسة والشرق. عاشـت في عزلـة في هـذه البقعـة مـن ايطاليـة، ولم يتحدث عنها مؤرخو عصـر "أورليانوس" شيئاً بعد أن صـارت مـن سـواد الناس. ويظهر أن ما ذكره.بعض المؤرخين اليونان عن زواج الزباء بعض من أعضاء مجلس الشيوخ هو أسطورة من الأسـاطير العديـدةالتي راجـت بعـد ذلك عن حياة ملكة الشرق.

وأما أولاد الملكة، فقد ذكرتُ قريباً إن بعض المؤرخين أشـار إلى غـرق "وهبلات" في أثناء عبور القيصر مضيق "البسفور". وأشار آخـرون إلى أنـه نقل مع أمه إلى "رومة". وأما "تيم الله Timolaus"، فأسكن مع أمه أيضـاً في "تيبور". وزعم في رواية أنه مات مع أخيه "خـيران (حـيران Herennanus) في أثناء الاحتفال بموكب النصر. وزُعم أيضاً أنه عاش وصار خطيباً مصقعاً من خطباء اللاتين. وروي أيضـاً أنهـا زوجـت بناتهـا بأعيـان مـن الرومـان. وروى المؤرخ تربيليـوس بوليـو Trebellius وهـو مـن رجـال القـرن الرابـع للميلاد حوالي سنة ٣٥٤ م، إن ذرية الزباء كانت في أيامه. وذكر إن الأسقف الشهير القديس زنوبيوس Zenobius أسـقف مدينـة "فلورنسـة" ومعـاصر القديس أنبروميوس Ambrosiusكان من نسلها أيضاً.

ولم تكن تدمر في عهد "ديوقليطيانوس" "ديوكليتيانوسDiocletian" ٢٨٥ - ٣٠٥م سوى قرية صغيرة وقلعة من قلاع أسود لحمايتهما من هجمات القبائل وغزوها للمدن القريبة من البادية. ويخبرنا المؤرخ "ملالا" أن "ديوقليطيانوس ابتنى Castra فيها، وذلك بعد عقده الصلح مع الفرس، ورمم بعض ابنيتها. ويرى "الأب سبستيان رتزفال" أنه اضطهد نصارى تدمر كما فعل في سائر الاقاليم.

وفي حوالي القرن الخامس. للميلاد ٤٥٠ م كانت تسمر مقاطعة تابعة لولاية "فينيقية" وقد عين "تاودوسيوس" "تيودوسيوس" "ثيودوسيوس" الثاني ٤٠٨ - ٤٥٠م فرقة من الجند لحراسة "تدمر". والظاهر أن وظيفتها كانت حماية الحدود من هجمات رجال البادية. أما الكتيبة الرومانية التي عسكرت فيها في حوالي سنة ٤٠٠ بعد الميلاد، فهي "اللجيون الألـيري Illyrianالأول.

وذكر الراهب إسكندر Alexander the Acoemete المتوفى في حوالي سنة ٤٣٥ للميلاد أنه في أثناء سفره من الفرات إلى مصر قابله الجنود الرومان المعسكرون في القلاع بكل ترحاب وقدموا له ولمرافقيه كل المساعدات الممكنة، وانه وجد قلاعاً مقامة على طول حدود الفرس والروم على مسافات تتراوح من عشرة أميال إلى عشرين ميلاً رومانياً. وقد قطع الحدود هذه حتى بلغ مدينة "سليمان"، ويقصد بها مدينة تدمر.

وأمر القيصر يوسطنيانوس (جستنيانوس٥٦٥ - ٥٢٧ م) في أوائل تبوئه الحكم٥٢٧م أرمينيوس Armenius بالذهاب إلى تدمر لترميم ما تهدم من المباني وإعادة المدينة إلى ما كانت عليه. وأمده بالأموال اللازمة لهذا المشروع، كما أمر بتقوية حامية المدينة، وأن تكون مقر حاكم "Dux" مقاطعة فينيقية لبنان "Phoenice Libanesia" وذلك لحماية الحدود خاصة حدود الأرض المقدسة، وذكر المؤرخ بروكوبيوس Procopius إن القيصر المذكور قوى أسوار المدينة وقلاعها وحصنها تحصيناً قوياً، وحسن موارد مياهها. ولا تزال آثار هذا العهد باقية حتى الآن.

وقد كانت مدينة "تدمر" على الحدود الداخلية "Limes Interior" للإمبراطورية في أيام يوسطينيانوس. ويسكن في المناطق التي بين هذه الحدود وبين الحدود الخارجية "Limes Exterior" القبائل المحالفة للرومان. ومن هذه المنطقة تغزو القبائل الحدود. وقد كان سلطان الروم وقواتهم العسكرية أقوى في الحدود الداخلية منها على الحدود الخارجية التي كان يقوم بالدفاع عنها رجال القبائل الحليفة بالدرجة الأولى بأجور ومخصصات تدفعها الحكومة إلى رؤسائها لضمان حماية تلك الحدود.وقد كانت القبائل العربية قبل الميلاد وبعده تقلق راحة سكان الحدود وتزعج الحاميات الموكول اليها أمر سلامتها، وتكون مصدر خطر دائم للحكومات. وكان من الصعب الاطمئنان اليها ثم إن البادية كانت تصدّر لهم بين حين وآخر بضاعة جديدة منها، وموجة عنيفة تزعج القبائل القديمة والحدود معاً، "فكان على تلك

الحكومات مداراتها واكتساب ود القوية منها، ويقال إن القيصر دقيوس ٢٥١-٢٤٩م في زمانه من هذا الوضع وبرم به، ففكر في إدخال الرعب في نفوس هذه القبائل وقهرها، فجاء بأسود اصطادها من افريقية في البادية لتتناسل وتتوالد ولتكون مصدر خطر ورعب للإعراب.

وقد اتخذ بعض ملوك الغساسنة تدمر منزلاً لهم ومحل إقامة. ولم تزل على هذا الشأن حتى فتحها المسلمون سنة ٦٣٤م. غير أنها منذ تركتها الزباء لم ترجع إلى ما كانت عليه. وقد أثر تحول الطرق التجارية في مركز هذه المدينة كثيراً ولا شك.

وانتهت الينا أسماء عدد من أساقفة مدينة "تدمر" مدونة في سجلات الأعمال الكنسية، منهم: الأسقف "مارينوس Marinus" وقد حضر المجمع النيقاوي "Nicaea" "Nicaa" الذي انعقد سنة ٣٢٥ للميلاد، والأسقف "يوحنا" ٣٥٧ م وقد ورد اسمه في سجلات أعمال مجمع "خلقيدون Chalcedon" المنعقد عام ٤٥١ م، و يوحنا الثاني المشهور في أيا "انستاس" "أنسطاس" "نسطاس" القيصر ٤٩١ - ٥٨١م. وكان نفي في عهد "يوسطينوس" خليفته لدفاعه عن "المجمع الخلقيدوني" ولقوله بطبيعتين في المسيح سنة ٥١٨م. ويستدل من وجود أساقفه في تدمر على انتشار النصرانية في هذه المدينة.

وفي "تدمر" في الزمن الحاضر ثروة تاريخية مطمورة تحت الأنقاض ستفيدنا ولاشك فائدة كبيرة في تدوين تاًريخ المدينة وتأريخ صلاتها بالخارج. لقد عثر فيها على كتابات آفادتنا كثيراً في تدوين تأريخ المدينة، ولكن ما سيعثر عليه منها مما هو مطمور سيفيدنا ايضاً، وقد يفيدنا أكثر في كتابة تأريخها. وقد قام علماء بالتنقيب في مواضع منها، للكشف عن المواضع المهمة منها، وكتبوا عنها. غير إن المدينة لا تزال في انتظار من يكشف عنها.

ووردت في الكتابات التدمرية أسماء أصنام عديدة عبدها التدمريون، بلغ عددها زهاء اثنين وعشرين صنماً، منها ما هو معروف ومشهور عند العرب، وأسماؤها أسماء عربية. ومنها ما هو إرمي، وعلى رأس آلهة تدمر الإله "شمش" "شمس". وقد اتصفت دياناتهم بمزايا النظام الشمسي الذي تركزت عليه ديانة عرب الشمال. ومن هذه الأصنام "بل"، أي "بعل"، و"يرح بل" "يرح بول" "يرح بعل"، و"عجل بل" "عجل بول" و"عجل بعل" و"الت" أي "اللات"، و"رحم" "رحيم"، "اشتر" أي "عشتار"، و"عثتر" عند العرب الجنوبيين، و"ملك بل" "ملك بعل"، و"عزيزو" "عزيز."

و "سعد"، و "اب جل"، و "اشر"، و "بل شمن" "بل شمين" "بعل شمين"،أي "بعل السماوات" "رب السماوات" و "جد" وغيرها.

وعثر في تدمر على مقابر عديدة خارج أسوار المدينة على التلال المشرفة عليها تذكِّر الأحياء عبّاد المال بالمصير المحتوم الذي سيواجه كل حي غني أو فقير أو متوسط، تضم رفات من تستقبلهم ثم لاتسمح، لهم بالانتقال منها إلى دار أخرى.

إنها دور الأبدية والاستقرار، وقد أجاد أهل المدينة كل الإجادة باطلاقهم "بيت الأبدية" على القبر. ضمت بيوت الأبدية هذه رفات الآباء والأبناء إلى الأبد: بعضها على هيأة أبراج ذوات غرف تودع فيها الموتى، وبعضها على هيأة بيوت ذوات غرفة واحدة مزينة بالنقوش وأنواع الزخرفة كتبت على جوانبها أسماء ساكنيها في الأبدية ورسمت صورهم عليها. هذه هي مدينة الأموات تشرف على مدينة الأحياء وتضحك منها.

✓ حصن زنوبية:

لم تفكر "الزباء"، على ما يظهر، في نقاط عاصمتها إلى موضع آخر، وقد عملت على تقوية "تدمر" وتحصينها وتجميلها، ومعظم الاثار الباقية فيها هي من أيامها. ولو إن كثيراً من الأبنية التي كانت فيها قبل أيام الملكة قد صيّرت باسمها، غير انها عُنيت عناية فائقة بتحسين عاصمتها ولا شك. وابتنت مدينة على نهر الفرات لحماية حدودها من المشرق عرفت ب "زنوبية" وهو اسمها باليونانية. ويظهر إن هذه المدينة هي التي أشار اليها "الطبري" بقوله: "وكانت للزباء أخت يقال لها زبيبة، فبنت لها قصراً حصيناً على شاطىء الفرات الغربي"، فجعل المدينة قصراً، وصيّر اسم المدينة وهو "زنوبية" "زبيبة" وجعله اسم أخت للزباء. وذكر "المسعودي" إن مدائن الزباء على شاطىء الفرات من الجانب الشرقي والغربي، "وكانت فيما ذكر قد سقفت الفرات وجعلت من فوقه أبنية رومية، وجعلته أنقاباً بين مدائنها". وذكر أيضاً انها حفرت سرباً منتحت سريرها وبنته حتى خرج من تحت

الفرات إلى سرير أختها. وقد أشير إلى هذا النفق في قصة مقتلها. وذكر "ابن الكلبي" إن أبا الزبّاء اتخذ النفق لها ولأختها، وكان الحصن لأختها داخل المدينة.

وذكر "البكري" إن المدينة التي بنتها الزباء على شاطىء الفرات هي "الخانوقة"، وزعم إن "الزبّاء" عمدت إلى الفرات عند قلة مائه فسكر، ثم بنت في بطنه ازجاً جعلت فيه نفقاً إلى البرية وأجرت عليه الماء، فكانت إذا خافت عدواً دخلت إلى النفق وخرجت إلى مدينة أختها الزبيبة". وسمى "ياقوت الحموي" تلك المدينة "الزباء"، قال: أنها "سميت بالزباء صاحبة جذيمة الأبرش". ودعاها في موضع آخر "عزان" وقال: إنّ في مقابلها على الضفة الثانية من الفرات مدينة تدعى "عدان"، وهي لأخت الزباء.

ويظهر إن هرب "الزبّاء" سراً من نفق سري، يمر من داخل المدينة من معبدها أو من قصر الملكة ومن تحت السور إلى الخارج، هو الذي أوحى إلى أهل الأخبار قصة ذلك النفق الطويل الذي زعموا أن الملكة بنته تحت الأرض من قصرها إلى نهر الفرات، حيث مدينتها الثانية، وهو نفق يجب أن يكون طوله مئات من الأميال. وقد عثرعلى بقايا سراديب وقنوات. تحت أسوار تدمر وقلاعها تشير إلى وجود أنفاق للهرب منها عند الاضطرار، ولكنها لا يمكن أن تكون على شاكلة نفق أهل الأخبار بالطبع.

ولا يستبعد احتمال وجود نفق في حصن "زنوبية" على الفرات أيضاً، ساعد وجوده في تثبيت هذه القصة في رواية الأخباريين.

ويرى هرتسفلد E.Herefeld: "أن هذه المدينـة هـي الموضـع الـذي يعرف اليوم باسم "الحلبية"، ويقابله في الضفة الثانية من النهر موضـع آخـر يسمى "الزليبية". وهو يعارض رأي من يدعى أن "الزليبية" هي المدينة التي بنتها الزباء. وينسب بناء موضـع "حلبيـة" "الحلبيـة" إلى "الزبـاّء" كـذلك. ويرى بعض الباحثين احتمال كون "الحلبية" القصر الثاني الذي نسـب بنـاؤه إلى الزبآّء، وذكر في الروايات العربية. وذهب بعض آخر إلى أن "زنوبية" هي مدينة "السبخة" الحاليهَ.

ويرى موسل: أن "الحلبية" هي دور كربـاتي Nibarti (Dur Karpati) Aschur التي بنيت بأمر آشور نصربال الثالث Asurnazirpalعام ٨٧٧ قبـل الميلاد، وأنها عرفت ب "زنوبية" ثم "الزبّاء" فيما بعد.

ويعزو "سبستيان رتزفال" سيب بناء مدينة "زنوبيـة" الى عـزم الملكـة عـلى اذلال مدينـة "فلوغيسـية "Vologasia"Vologesias المعروفـة في الكتابات التدمرية باسم "ألجيسيا Ologesia" (ألجاشيا)، وهي في نظر بعض الباحثين "الكفل" على نهر الفرات في لواء الحلة بالعراق، بناهـا "فلوجـاس" (فلوكاس) من ملوك "إلأرشيكيين" "بنو أرشك" حوالي سنة ٦٠ للمـيلاد. وذلك لاستجلاب التجارات الواردة عن طريق نهر الفرات من أقاصي الهنـد والشام وآسية الصغرى. فـرأت "الزبّـاء" منافسـة هـذه المدينـة ببنـاء مدينـة جديدة تقع في منطقة نفوذها على نهر الفرات.

وكانت قوافل "تدمر" تتاجر مع هذه المدينة العراقية "ألجاشيا"، تحمل اليها بضائع أهل الشام وسواحل البحر المتوسط، وتنقل منها إلى "تدمر" بضائع الهند وايران والخليج والعراق. يقود هذه القوافل زعماء شجعان خبروا الطرق وعرفوها معرفة جيدة، ولهم في المدينة مقام محترم. وطالما عمل لهم رجال القافلة والمساهمون في أموالها، التماثيل، تقديراً لهم وتخليداً لأسمائهم وكتبوا شكرهم لهم على الحجارة، ولدينا نماذج عديدة منها. من ذلك كتابة دوّنها رجال قافلة لزعيمهم وقائدهم "يوليوس أورليوس زبيد بن مقيمو بن زبيدا عشتور بيدا"، لأنه أحسن اليهم حين قاد قافلتهم وأوصلها سالمة الى "الجاشيا" في العراق. وكغاية أخرى دوّنها جماعة قافلة تولى قيادتها زعيم اسمه "نسى بن حالا" لمناسبة توفيقه في حمايتهم وحماية أموالهم في أثناء ذهابهم وعودتهم إلى "الفرات" وإلى "ألجيسيا "Ologesia" "وقد صنعوا لذلك تمثالاً له في شهر "نيسان" من سنة ١٤٢ للميلاد تخليداً لاسمه.

قد استولى "خسرو" الأول في حوالي سنة ٥٤٠ بعد الميلاد على "زنوبية" فدّمرها. فلما استرجعها "يوسطنيانوس (جستنيانوس) – ٥٢٧ ٥٦٥م، أعاد بناء ما تهدّم منها. وقد عثر على بقايا المباني التي تعود الى أيامه، وبعضها من عمل معماريه "يوحنا البيزنطي" وأزيدوروس الملطي Isidoros" "Miletusحفيد البنّاء البيزنطي الشهير "أيا صوفيا Hagia Sophia" كلفهما القيصر إنشاء تلك العمارات. غير إن إصلاحات هذا القيصر لم تضف الى حياة المدينة عمراً طويلاً، لقد كانت نوعاً من أنواع الحقن المقوية، تقوّم الجسم الى حين ولكنها لا تمنحه الأبْدية. ففي سنة ٦١٠ للميلاد. وفي أيام القيصر "فوقاس Phokas" هاجمها "خسرو" الثاني وأنزل فيها الخراب

والدمار. فقد عبر "شهربراز Shahrvaraz"نهر القرات في اليوم ألسادس من شهر أغسطس من عام ٦١٠ للميلاد، واستولى على مدينة "زنوبية ."Zenobia" "وأخذ نجمها منذ ذلك الحين في الأول، فلم يسمع عنها شيء، حتى انها لم تذكر في أخبار الفتوح، ويدل هذا على أنها لم تكن شيئاً يذكر في ذلك الحين ويحدثنا المؤرخ "بروكوبيوس" أن الأيام أثرت في مدينة "زنوبية "Zenobia" "مدينة "الزباء"، فأنزلت فيها الخراب، وتركها أهلها، فانتهز الفرس هذه الفرصة ودخلوها وتمكنوا بذلك من الولوج في الأرضين الخاضعة للروم دون أن يشعر الروم بذلك، ولذلك أعاد "يوسطنيانوس" بناء هذه المدينة وأحكم حصونها وجدد قلاعها وأنزل الناس فيها، وأسكن فيها حامية قوية جعلها تحت امرة قائد، وأقام لها سدوداً من الحجارة لحمايتها من فيضان الفرات، وقد كانت مياه الفيضان تصل اليها فتلحق بها أضراراً جسيمة.

وذكر المؤرخ "بروكوبيوس" أن الفرس والروم ابتنوا قلاعاً بنيت جدرانها باللبن لحماية كورة "قوماجين "Commagene وهي الكورة التي كانت تعرف قبلاً بأسم "كورة الفرات"Euphratesia" "، وحماية حدود الانبراطورية الفارسية الواسعة المشرفة على البادية من الغزو أيضاً، ومن جملة هذه الحصون ثلاثة حصون أمر القيصر "ديوقلطانوس" "ديوقليتيانوس " ""Diocletianus"ببنائها، منها حصن "Mambri" "Mabri" الذي أصلحه القيصر "يوسطنيانوس" "جستنيانوس "Justinianus" "ورممه، ويقع على مسافة خمسة أميال رومية من "زنوبية ."Zenobia" "و"Mambri" ، هو خرائب "شيخ مبارك" على مسافة سبعة كيلومترات من "الحلبية."

ولم يبق من آثار عهد "تدمر" في "الحلبية" إلا مقابر خارج أسوار المدينة. وهي على هيأة أبراج تتألف من طابقين أو ثلاثة طوابق وأهرام بنيت على الطريقة التدمرية في بناء القبور، غير أنها دونها كثيراً في الصنعة وفي الفن. وتشاهد بقايا قبور مشابهة لهذه القبور في المدن الواقعة قي منطقة الفرات الأوسط، أي المنطقة التي خضعت لحكومة "تدمر."

ويلاحظ انتشار هذا النوع من القبور في المناطق التي سكنها العرب في أطراف الشام والعراق في العهد البيزنطي، خاصة في "تدمر" وفي "حمص" و "الرها "Edessa" "وفي "الحضر" كذلك. بل وفي "بطرا" أيضاً حيث نجد شبهاً كبيراً في أشكال القبور المنحوتة من الصخر على هيأة أبراج ذوات رؤوس تشبه الهرم في بعض الأحيان. ولانتشار هذا النوع من القبور في مناطق سكنتها أغلبية من العرب المتحضرين، نستطيع أن نقول انها نمط خاص من أنماط بناء القبور كان خاصاً بالعرب المتحضرين.

وذكر "بطلميوس" أسماء عدد من المواضع جعلها في عداد أماكن "كورة تدمر Palmyrena، وهي Resapha : و Cholle و Oriza و Putea و Adaba و Palmyra و Adacha و Danaba و Goaria و Aueria و Casama و Admana و Atera و Alalis و Sura و"Alamatha، وتقع هذه المواضع الثلاثة الأخيرة على نهر الفرات. أما"Palmyra" ، فهي "تدمر" العاصمة. و أماResapha، فهي "الرصافة" وهي مدينة قديمة ورد خبرها في النصوص المسمارية فدعيت فيها ب "Ra-sap-pa" ومن ذلك نص يعود إلى سنة "٨٤٠" قبل الميلاد، وقد اشتهرت بوجود ضريح القديس "سرجيوس St.Sergius" بها، المقدس عند الغساسنة.

و أما Cholle، في "الخو لة" "الخلة". وأما "Oriza" ، فهـي "الطيبـة"، وتقع هذه المواضع على السكة الرومانية الممتدة من الفرات إلى "تدمر."

ويرى "موسل" أن"Putea" ، هو "Beriarac" ، وهو موضـع "بيـار جحـار"، ويقـع عـلى السـكة الرومانيـة المـارة مـن "تـدمر" إلى موضـع "Occaraba".

أما المستشرقان "ميلر Muller" و"موريتس Moritz"، فقـد ذهبـا إلى أنه "أبو الفوارس" الواقع على مسـافة سـبعة كيلـومترات في غـرب جنـوب غربي تدمر. وذهب "موريتس" أيضاً إلى احتمال كونه "القطـار"، وهـو عـلى مسافة خمسة وعشرين كيلومتراً إلى الشمال الشرقي من "تدمر."

أما موضـعAdada فكـان حصـناً رومانيـاً كـذلك، يعـرف في الـزمن الحاضر ب "الحير"، ويقع على أربعة عشر كيلومتراً الى الجنوب الشـرقي مـن "الطيبةOriza" ، وعند الحافات الغربية لمرتفع"Adidi"، وهـو اسـم قريـب مـن "Adaba" وقـد ذهـب "ميلـر" إلى أنـه الموضـع المسـمى ب "خربـة العاشجة" "خربة العاشقة" الواقع على الحافات الشمالية لهضبة تدمر.

ويرى "موسل" أن في كلمة Adacha بعض التحريـف، وأن الأصـل الصحيح هوArcha وHarac وهو "أرك" "رك" الواقـع عـلى طريـق تـدمر وفي الشمال الشرقي من المدينة.

وأماDanaba، فيقـع عـلى طريـق "دمشـق" "تـدمر"، وهـو موضـع خرائب "البصيري" على رأي "موسل."

وأشار المؤرخ "اصطيفانوس البيزنطـي" إلى Goaria كـذلك، ذكرهـا على هذا الشكل Goareia. ويظهر أن هذه المدينة كان لها شأن في تلك الأيام، وإذ أطلق اسـمها عـلى منطقـة واسـعة دعيـت باسـمGoarene ويظـن إنـما "البخراء" وهي في زمننا خرائب تقع على ستة وعشرين كَيلومتراً إلى الجنوب من "تدمر". وقد عرفت ب "Goareia" عند بني إرم "الآراميـين". وذهـب "ميلر" و"بينتزنكر "Benzinger""الى إن "Goaria" هو الموضع المسمى ب "Cehere"على الخارطة الرومانية لأيام الإمبراطوريـة. وهـو رأي يعارضـه "موسل"، ويرى أن "Cehere" هو المكان المسمى ب "خان عتيبـة" الواقـع على مسافة تزيد على مئة كيلومتر في جنوب غرب "البخراء.

ويظهر إن"Aberia" "Aueira" "Aueria"، هـو موضـع "Eumari" "Euarius" "Euhara" في مؤلفات أخرى، وهو موضع "الحوارين."

وأمـا"Casama" ، فهـو عـلى طريـق دمشـق المـؤدي إلى تـدمر، وهـو خرائب خان "المنقورة" على رأي "موسل". وأما "Odmana" "Admana" "Ogmana"، فهــو موضـع "Ad-Amana" في الخارطــات الرومانيــة للانبراطورية على ما يظهر، وهو موضع "خان التراب" عـلى رأي "موسـل" كذلك.

وأمـاAtera، فالظاهر انه موضع "Adarin" عـلى الخارطـة الرومانيـة، وهو موضع "خان الشامات" "أبو الشامات" "خان أبو الشامات" على رأي "موسل". أما "ميلر" فـيرى انـه موضـع "ديـر عطيـة"، وهـو رأي لا يقـره "موسل"عليه.

وموضـع "Sura" هو "سورية" على رأي "موسـل". وأمـا "Alalis" فيقع في غرب "Sura" عنـد "بطلميـوس". ويظـن "موسـل" أنـه يقـع بـين موضعي"Sura" و "Alamatha" في مقابل "طابوس."

✓ عانة:

ذكـرت أن التـدمريين كـانوا قـد وضـعوا حاميـات لهـم في مدينـة "Anatha"، أي "عانة". وهي لا تزال موضعاً معروفاً حياً على نهـر الفـرات في العراق وعرفت "عانـة" ب "Anat" و "An-at" و-A-Na" "A-na-at" "Ti" في الكتابات المسمارية. وعرف موضعها ب "خ -نا "H-na" "و "خا-نا -ت "Ha-na-at" "في النصوص البابلية القديمة. وقد تكونت مملكة صغيرة بهـذا الاسـم أمتـدت رقعتهـا إليالخابور،وعرفـت المدينـة ب "Anatha" في مؤلفات "الكلاسيكيين."

ويشك المستشرق "أدور ماير Eduard Meyer" في وجـود صـلة بـين اسم الإله"Anat" "Ana-tu" ، واسم مدينة "An-at"، أي "عانة."

ومركز "عانة" الجزر الواقعة في النهر، وهي خصـيبة، وفي مـأمن مـن غارات الأعراب. وقد تمكن أصحابها بفضل مـوقعهم هـذا مـن الـتحكم في القبائل المجاورة لها ومن أخذ الجزية منها. ولهذا السبب استعمل الآشوريون في الغالب رجالاً من أهلها لحكم منطقة "سوخي Suhi". وفيهـا كـان يقـيم "ايلو ابني Ilu Ibni"حاكم "سوخي" الذي دفع الجزية الى الملـك "تـوكلتي أنورتا الثاني "٨٨٩ - ٨٨٤" "Tukulti Enurta" "قبل الميلاد.

قد ذكَر اسم "عانة" و "الحيرة" في الكتابة المرقمـة برقم "Littmann" ويرجع تاريخها إلى شهر أيلول من سنة "٤٤٣" مـن التـاريخ السـلوقي، أي شهر "سبتمبر" من سنة ١٣٢ للميلاد، وورد فيها اسم الإلـهَ "شـيع القـوم" حامي القوافل والتجارات. ويظهر إن المراد ب "حيرتـا" الحـيرة الشـهيرة في العراق. فإذا كان ذلك صحيحاً، دل على إن نفوذ تدمر قد بلـغ هـذا المكـان، وان للقصص الذي يرويه الأخباريون عن ملوك الحيرة والزباء أصـلاً تطـور على مرور الأيام فتكونت منه قصة "جذيمة" والزباء.

وصاحب هذه الكتابة رجل اسمه "عبيدو بن غانمو بـن سـعدلات"، من قبيلة "روحو" أي "روح"، وكان فارسـاً في حاميـة مدينـة "عنـا" وهـي "عانة". وقد دوّن كتابته هذه بمناسبة تقديمه مذبحين إلى الإلهَ "شيع القوم" الذي لا يشرب خمراً، وهو حامي القوافل. ويلاحظ أن أكَثر الكتابـات تـذكر جملة "الذي لا يشرب خمراً" بعد اسم هذا الإله. وهي تعني أن هذا الإلهَ كان يشرب الخمر ولا يحبها، فعـلى أتباعـه تجنبهـا. ويظهـر أن طائفـة مـن النـاس حرّمت عليها الخمرة، ودعت إلى مقاطعتها، واتخذت "شـيع القـوم" حاميـاً لها. وهـي عـلى نقـيض عبـاد الإلـهَ "دسره" "دشرة "Dussares" "أي "ذو الشرى" الذين كانوا يتقربون إلى إلههم هذا بشرب الخمر.

ولا نعـرف متـى اسـتولى الرومـان عليهـا. ولم يـرد ذكرهـا في قائمـة "ماريوس مكسيموس "Marius Maximus" التي عثـر عليهـا في "Dura" والتي يعود تأريخها إلى سنة "٢١١" للميلاد في ضمن المخافر الرومانية التـي كانت في المناطق الوسطى لنهر الفرات. ويظهر منها أن "عانة "Anath" "

كانت في ذلك الوقت في أيدي "الفرث"Parthians" "، وأن الرومـان دخلوها بعد ذلك. قد يكون في أثناء حملة "اسكندر سويرسAlexander" " "Severusكما ذهب "روستوفستزف "Michael Rostovtzeff" إلى ذلـك، أو في أيدي "غورديانوس "Gordianus" "كما ذهـب "اولمستيـد "A.T.Olmstead" إلى ذلك.

وقد ذكـر "عانـة "Anatha" "المـؤرخ "أريـان" في أثنـاء حديثـه عـن أسطول "تراجان" الذي مرّ بهـا. وورد اسـمها "Anath" في خـبر "معـين " "Ma'ajn"أحد قواد الملك "سابور الثاني" "٣٠٩ - ٣٧٩ م"، وكان قد اعتنـق النصرانية وبنـى جملـة ديـارات، ونصـب القـس عـلى"سـنجار" "شـجار " Schiggar"ثم لم يكتـف بـذلك، فـذهب إلى "عانـة"، فبنـى عـلى شـاطىء الفرات وعلى مسافة ميلين منها ديراً استقر فيه سبع سنوات.

وفي سنة ٣٦٣ للميلاد حاصرها الـروم، وألحقـوا بهـا أضراراً كبـيرةّ. وأجلوا السكان عنها. ولما أرسـل "فـاراموس "Varaious" "Varamus"في عام ٥٩١ للميلاد قوة على "عانة" لمناوشة " كسرـى "Chosroes" "وصـدّه عن الرجوع الى فارس، قتل الجنود قائـدهم، وانضـموا إلى "كســرى". وفي القرن السابع للميلاد، كان مقر أسقف قبيلة "الثعلبية" في هذه المدينة.

مملكة حضرموت:

قد ورد اسم "حضرموت" في الكتابات العربية الجنوبية، كما عثر على كتابات حضرمية ورد فيها أسماء عدد من ملوك حضرموت، وأسماء اسر حضرمية ومدن كانت عامرة زاهية في تلك الأيام. وبفضل هذه الكتابات حصلنا على معلومات لا بأس بها عن مملكة حضرموت وعن علاقاتها بالدول العربية الجنوبية الأخرى. ولما كانت أكثر هذه الكتابات قد عثر عليها على وجه الأرض، أو هي من نتائج حفريات لم تتعمق كثيراً في باطن العاديات، فإننا نأمل أن يقوم المستقبل باقناع المحبين للتأريخ العربي، بالقيام بحفريات علمية منتظمة وعميقة في مواطن الاثار، لاستنطاق ما فيها عن تأريخ العرب الجاهليين، وأنا على يقين من أن في باطن الأرض وبين الأتربة المتراكمة على" هيأة أطلال و تلول أسراراً كثيرة ستغير من هذا الذي نعرفه اليوم عن تأريخ حضرموت وعن تأريخ غيرها من حكومات، وستزيد العلم به اتساعاً.

لقد قامت بعث بريطانية صغيرة بأعمال الحفر في موضع يقال له "الحريضة"، فاكتشفت فيه آثار معبد الإلَه "سين"، وهو يرمز إلى القمر، وعثرت على عدد من الكتابات تبين أن بعضها سبئية، كما عثت على قبور عثر فيها على عظام في حالة جيدة تمكن من دراستها، وعلى أواني ومواد من الفخار والخرف وخرز ومسابح يظن إنها من القرن السابع أو الخامس قبل

الميلاد.وعثر في خرائب "شبوة" وفي "عقلة" وفي مواضع أخرى على عدد من الكتابات الحضرمية، كما استنسخ نفر من السياح صور بعض الكتابات التي نقلها الناس من مواضع العاديات إلى المواضع الحديثة جث استعملوا حجارتها في البناء.

وتشاهد في مباني "الحريضة" الحديثة، وهي لا تبعد كثيراً عن الموضع القديم، أحجار مكتوبة أخذت من تلك الخرائب، شوهت بعضها أيدي البنّائين وقضت على أكثرها معاولهم، ومحت آلاتهم كثيراً من تلك الكتابات، ولا يستبعد وجود عدد آخر من الأحجار أوجهها المكتوبة في داخل البناء، فلا يمكن الوقوف عليها، أو إنها كسيت بطبقة من "الجبس" أو مادة أخرى تجعل الجدران صقيلة مُلْساً.

ولم تتوصل جهود من بحث في الآثار التي استخرجا من معبد "سن" "سين" في "الحريضة" إلى نتيجة قطعية لتأريخ هذا المعبد، ويظن إن المقابر التي عثر عليها وبعض واجهات المعبد تعود إلى أواسط القرن الخامس فما بعد إلى القرن الرابع قبل الميلاد، وان قسماً من بناء المعبد يعاصر العهد "السلوقي". ويعرف موضع الحريضة في الكتابات الحضرمية باسم "مذب" "مذبم" "مذاب"، وفي هذه المدينة الحضرمية القديمة، معبد خصص بعبادة "سين"، وموف عندهم باسم معبد "سن ذ مذبم" "سين ذو مذاب"، كان الناس ينذرون له النذور، ويتقربون إليه، ليمنحهم العمر الطويل والخير والبركة.

وليس علمنا بأحوال حكام "حضـرموت" بأحسن من علمنا بأحوال حكام الحكومات العربية الجنوبية الأخرى، مثل معين أو قتبان أو سـباً، فـلا نزال لا نعرف شيئا يذكر عن حكامها الأول وعن عددهم وعن مدد حكمهم وعن أمور أخرى من هذا القبيل، ولا نـزال نجـد البـاحثين في أحوالهـا غـير متفقين لا على مبدأ قيـام حكومـة حضرـموت ولا عـلى منتهاهـا وسـقوطها فريسة في أيدي السبئيين، ثم لا نزال نراهم يختلفون أيضاً في عدد الحكـام وفي مدد حكمهم.

والحكام الذين يذكر العلماء أسماءهم ليسوا بـالطبع هـم جميـع حكـام حضرموت، بل هم جمهرة الحكام الذين وصـلت أسـماؤهم إلينـا مدونـة في الكتابات، ولذلك لا نستبعد إن تزيد أسماؤهم في المستقبل، زيادة قـد تكـون كبيرة، وهي ستتوقف بالطبع على مقدار ما يعثر عليه من كتابات.

لقد تبين من بعض الكتابات الحضـرمية إن عدداً من المكربين حكمـوا شعب حضرموت، وذلك قبل أن يتحول هذا الشعب إلى مملكـة. و قـد ذكـر "فلبي" بعضهم في آخر القائمة التي رتبها بحسب رأيـه لحكـام حضرـموت. ومن هؤلاء المكربين المكرب "يرعش بن أبيشع"، "يـرعش بـن أب يشـع"، "يهرعش بن أب يشع" "يسـكر ايـل يهـرعش بـن أب يسـع" "يشـكر ايـل يهرعش بن أبيع" الـذي ورد اسـمه في كتابـة سـجلها "شـكمم سـلحن بـن رضون" "شكم سلحان بن رضوان"، والظـاهر إنـه كـان مـن المـوظفين أو الأعيان البارزين في حكومة حضرموت. وقد كلفه المكرب بناء سـور وبـاب وتحصينات لحصن "قلت" الذي يهيمن على واد تقطعه الطريق القادمة من

مدينة "حجر" والمؤدية إلى ميناء "قانه" "كانه" "قنا"، كما كلف إنشاء جدر وحواجز في ممرات الوادي المهمة لحماية منطقة "حجر" والمناطق الأخرى من المغيرين ومن كل عدو يريد غزو حضرموت، ولا سيما الحمريين الذين صاروا يهددون المملكة، ويتدخلون في شؤونها. وقد وضع تحت تصرفه موظفين و معماريين للإشراف على العمل، وعمالاً يتولون أعمال البناء الذي تم في خلال ثلاثة أشهر تقريباً، وكان ذلك في السنة الثانية من سني "يشرح آل" "يشرح ايل" من آل "عذذ" "ذ عذذم"، ولسنا نعرف اليوم هذا التقويم: "تقويم يشح آل" الذي أرخت به الكتابة.

وقد أنجز "شكم سلحان" "شكم سلحن" العمل الذي كلف انجازه، فبنى الجدار والباب لحصن "قلت"، وبنى الحواجز والمواقع الأخرى للمواضع الخطيرة الرئيسية الواقعة في ممرات الوادي ومعابره، لتصد الأعداء والغزاة عن عبوره، وأنشأ استحكامات ساحلية لحماية البر مهن الهجوم الذي قد يقوم به العدو من جهة البحر. ويظهر إنه أقام حصوناً على لسانين كانا بارزين في البحر، فحمى بذلك الخليج الذي بينهما، كما حصن المنفذ المؤدي إلى وادي "أبنة" والى مدينة "ميفعة"، حيث بنى سوراً قوياً لها، وبرجين هما برج "يذان"، وبرج "يذقان"، وباب "يكن"، وأماكن حماية يلتجئ أليها الجنود إذا لزم الدفاع عن المدينة فضلاً عن بناء المواقع المذكورة وقد قام بهذا العمل الجنود بدليل ورود كلمة "أسدم" في النص، ومعناها الجنود.

وتوجد اليوم في "وادي لبنة" "لبنا" بقايا جدار كان يسد هذا الـوادي في أيام مكربي حضرموت. ويظهـر إن بانيـه هـو "شـكم سـلحن" "شـكيم سلحان" المذكور، يبلغ ارتفاعها زهاء سبعة أمتـار، وقـد أقـيم مـن أحجـار مكعبة، قطعت من الصخر، ونحتت نحتاً جيداً، ونضد بعضها فـوق بعـض ووضعت بين سُوفها مادة من نـوع السـمنت، وفي وسـط الجـدار آثـار بـاب عرضه خمسة أمتار لمرور الناس والقوافل منها. وقد بنـي هـذا الجـدار ليمنـع المغيرين القادمين من الجنوب من الاتجاه نحو حضرموت، وذلـك في ضـمن الخطة العسكرية التي رسمت يومئذ لتحصين المدن المهمة و إحاطتها بأسـوار وجدر قوية في الممرات المهمة والطرق المؤثرة من الوجهة الحربية لمنع الأعداء من الزحف على حضـرموت. ويرى بعض الباحثين إن إنشاء هذا الجدار كان في نهاية القرن الخامس قبل الميلاد.

ويرى بعض الباحثين إن الكتابة التي دوّنها "شكم سـلحن" "شـكيم سلحان" ووضعت على جدار "لبنا" وعثر عليها في مكانها، هي أقـدم كتابـة حضرمية وصلت إلينا حتـى الآن، وتليهـا في القـدم الكتابـة التـي عليهـا في "عقبة عقيبة" وتخص ممـر "همريـان"، شرق "شـبوة" ويرجـع هـؤلاء زمـن كتابة الكتابة الأولى إلى القرن ا الخامس أو أوائل القرن الرابع قبل الميلاد.

لقد كانت الغاية من سدّ الأودية بإقامة جدر قوية حصـينة بـين طـرفيَ الوادي بحيث تمنع الناس من المـرور في الـوادي إلا مـن بـاب يشـرف منه الجنود عليها، هو حماية حضرموت من غزو حمير. وكانت مساكن قبائل حمـير إذ ذاك تجاور حضرموت. ولهذا صار الحميريون خطراً على حضـرموت.

ويفهم من إحدى الكتابات إن جدار "قلت" وحصنه إنما أقيما لصد غارات الحميريين وغزوهم المتوالي لأرض حضرموت. وقد جددت تلك الجدر والحصون ورممت مراراً وقوّيت بالحجارة الصلدة التي قدت من الصخر، إذ لم تتمكن من الوقوف أمام سيل غزاة حمير. والظاهر إن غزوهم كان مستمراً في أيام المكرب المذكور، فاضطر إلى بناء تلك العقبات والحواجز لمنعهم من تهديد شعبه.

لقد كانت مواطن الحمريين في هذا العهد في الجنوب وفي الجنوب الشرقي من "لبنا" "لبنه" ومدينة "ميفعة". ولم ينتقل الحميريون نحو الغرب إلى المواضع التي عرفت بأسمهم إلا في القرن الثاني قيل الجلاد، أو قبل ذلك بقليل. أما دولة حمير في أرض يافع وفي رعين وفي المعافر، فقد قامت في نهاية القرن الثاني قبل الميلاد، واستمرت هجرة حمير إليها إلى ما بعد الميلاد. وقد أطلق "الهمداني" على أرض "يافع" اسم سرو حمير."

ويرى "فون وزمن" إن حمير كانت قد استولت على ميناء "قنا" "قانه" في أيام هذا المكرب. وهذا الميناء هو الميناء الوحيد لحضرموت الصالح للاتجار بحراً مع الهند و إفريقية، أخذته من حمير، وكانت تتحكم - على رأيه - بطول الساحل بين "عدن" و "قنا". ولها أسطول من السفن للاتجار مع الساحل الإفريقي الذي ربما كان خاضعاً لها في ذلك الزمن.

وورد في إحدى الكتابات التي عثر عليها "فلبي" اسم مكرب آخر من مكربي حضرموت يسمى "علهان بن يرعش" "علهن بن يرعش". ويظهر إن "يرعش" والد "علهان" هذا، هو "يرعش" المكرب المتقدم. وقد

دوّن نـص "١٠٣ Philby" لمناسـبة إنشـاء طريـق في مطـر "همربـان Hamraban"الذي يقـع شرق "شـبوة". وقـد انهـم أنشـئت هـذه الطريـق لتسهيل وصول القوافل إلى العاصمة، ولأسـباب عسـكرية قـد يكـون منهـا تسجل مسيرة الجيش إلى مقر الملك للدفاع عنه.

وقد زهد آخر "مكرب" من مكربي حضـرموت في لقبه هذا، فتركه إلى لقب آخر يتسمى به، يدل على الحكم الدنيوي وحده وعلى السلطان والملـك، وهو لقب "ملك" فتسمى به. وانتقلت حضـرموت بذلك من طور إلى طور، وصار النظام فيها نظاماً ملكياً، و إذا سألتني عن اسم هذا المكرب الذي أبدل لقبه، فصار ملكاً، وصار بذلك آخر مكرب وأول ملك، وأول جامع للقبـين في حكومة حضرموت، فإني أقـول لـك إن علمـي بـه لا يزيـد عـلى علمـك به،وأن العلماء الباحثين الذين آخـذ علمـي مـنهم، لا يزالـون في ذلـك عـلى خلاف، بل إن علمهم به لا يزيد، ويا للأسف، على علمك وعلمي به.

لقد وضع "فلبي" الملك "صدق آل" "صـدق ايـل" "صـديق اي ل" طليعة ملوك مملكة حضرموت، وجعل زمـان توليـه العـرش في حـدود عـام ١٠٢٠ ق م، أما "البرايت"، فوضع اسم الملـك "يـدع آل" "يـدع ايـل" في رأس القائمة التي رتبها لملوك حضرموت، وجعلـه معـاصراً لــ "كـرب آل" "كرب ايل" أول ملوك مملكة سبأ، وقد حكم على رأيه في حـوالي سـنة ٤٥٠ ق. م، ثم ترك فراغاً بعد هذا الملك يشير إلى إنه لم يهتد إلى معرفـة مـن حكـم بعده، وذكر بعد هذا الفراغ اسم الملك "صدق آلـ" "صدق ايل" الذي كان

ملكاً على حضـرموت ومعين. وقد ذكـر أنـه حكـم في أواخـر القـرن الخامس قبل الميلاد. والفرق كما ترى، كبير جداً بين تقـدير "فلبـي" وتقـدير "البرايت."

وقد وضع "هومل" الملك "صدق آل" "صدق ايل" على رأس قائمـة ملوك حضرموت، وعلى هديه سار "فلبـي" في ترتيبـه لملـوك هـذه المملكـة. وكان على رأيه يعاصر الجماعة الثانية من جماعات ملـوك معـين. وذكـر بعـده اسم ابنه "شهر علن" "لشـهر عـلان"، ثـم "معـد يكـرب بـن اليفـع يثـع" "معدكرب بن اليفع يثـع" ملـك "معـين". وكـان ل "معـد يكـرب" ابنـان هما:"هوف عثت" "هو فعثت"، و "أب يـدع يثـع" "أبيـدع يثـع"، لم يتوليـا عرش حضرموت بعد أبيها، والظاهر إن حضرموت اندمجت بعد وفاة "معـد يكرب" في مملكة "معين" مدة لا نعرف مقدارها بالضبط. ويرى "فلبى" إنها زهاء ثلاثة قرون إلى نحو سنة "٦٥٠ ق. م."

ولدينا كتابة حضرمية من أيام "معد يكرب"، ورد فيهـا اسـمه واسـم "شهر علن بن صدق آل" ملك حضرـموت، واسـم "أب يـدع يثـع" ملـك معين. وقد تقرب فبها صاحبها إلى الإلَه "عثتر ذ قبضم" "عثـتر ذي قـبض" ببناء يرج موضع "حرف"، وتيمن فبها أيضـاً بـذكر الآلهـة: "عثـتر شرقـن" "عثتر الشارق" و "ود" و "نكرح"، وتشر هـذه الكتابـة إلى الـروابط المتينـة التي كانت بين العرشين: عرش حضرموت وعرش معين. فقـد كـان "معـد يكرب" ملكاً على حضرموت، على حين كان شـقيقه ملكـاً عـلى معـين. ولا ندري إلى متى دام حكم هذه الأسرة التي جمعت بين عرشي المملكتين.

وقد عثر على هذه الكتابة في "معين" وقد طمست منها كلمات واردة قبل اسم "اب يدع يثع"، ولم يبق منها غير ". خي. شو"، فلم يعرف المقصود بهذين المقطعين الباقيين. أيقصد بهما ابن أخيه "أب يدع يثع"، أم يقصد بهما أخاه "أب يدع يثع"؟ أم مؤاخيه وحليفه "أب يدع يثع"؟ ويعود الضمير في هذه الجملة إلى "معد يكرب" صاحب هذه الكتابة. وقد ذهب "هومل" إلى أن المقصود بذلك "ابن أخيه". وعلى هذا يكون "أب يدع يثع" الواردُ في هذا النص الملك "أب يدع يثع بن اليفع ريام" شقيق "معد يكرب" ملك معين، وهو ابن أخي "معد يكرب" ملك حضرموت.

ولورود جملة: "ملك معين" بعد اسم "أب يدع يثع"، وهي جملة ترد في النصوص بعد اسم كل ملك للدلالة على أنه كان ملكاً - نستنتج أن "أب يدع يثع" كان ملكاً على معين زمن إلى تدوين هذه الكتابة - نعني أنه كان هو ملكاً على معين في الزمن الذي كان فيه "معد يكرب" ملكاً على حضرموت، وهذا يبدو غريباً ما ذهب إليه "فلبي" من أن "أب يدع يثع" حكم في حدود سنة "٩٣٥ ق. م." وأن "معد يكرب" حكم في حوالي ٩٨٠ ق. م. وأن مملكة "حضرموت" لم يكن عليها ملك في حدود عام ٩٣٥ ق. م بل كانت تتبع ملكة معين، فإن هذا الرأي يخالف ما جاء في النص المذكور من تعاصر الملكين.

وقد ورد في كتابة معينية وسمت بـ٥٢٠ Halevy اسم "معد يكرب ابن اليفع"، وذكرت بعده جملة: "ملك معين"، فذهب العلماء إلى أن "معد يكرب" هذا هو "معد يكرب" ملك حضرموت الذي نتحدث عنه، وجعلوه

ملكاً على معين وعلى حضرموت. ولكن هذا الرأي يخالف ما ذهبوا إليه في ترتيبهم لأسماء ملوك معين، وقولهم إن ملك معين كان في هذا العهد الملك "أب يدع يثع"، وهو ابن الملك "اليفع ريام بن اليفع يثع". وأعود فأكرر ما قلته مراراً من أن ترتيب الملوك يمثل آراء العلماء ويختلف باختلاف هذه الآراء، فلا مندوحة من الوقوف منها موقف المتفرج الباحث في هذا العهد.

وقد سجله هذه الكتابة لمناسبة بناء برج "ذو ملح" في مدينة "قرنو" عاصمة مملكة معين، وبرج آخر في مدينة "يثل" المعينية. وقد ورد في النص اسما مدينتي "يفعن" "يفعان" و "هرن" "هران" من مدن المعينين كذلك، كما ورد فيها اسم معبد الإلهَ "عثتر ذو قبض."

ويظهر إن هذه الكتابة قد كتبت في زمن مقارب لزمن الكتابة المعينية المعروفة"Glaser ١١٥٥" ، التي تحدثت عن حرب نشيت بين "مذي" و "مصر"، فصاحبها "عم صدق بن حم عثت" "عمصديق بن حم عثت"، من "ذ يفعن" "آل يفعان"، ورجل آخر اسمه "سعد بن ولج" من "ذ ضفجن" "آل ضفجان". وكانا "كبيرين" في حكومة معين. وقد ورد فيها اسم "اب يدع يثع" "أبيدع يثع" ملك "معين" و "معد يكرب بن اليفع". وأصحاب كتابتنا المتقدمة المعروفة ب "Halevy ٥٢٠" ثلاثة، هم: "عم صدق" و "عم يدع" و "عم كرب" أبناء "حم عثت" من "آل يفعان" "ذ يفعن". فأحدهم، وهو "عم صدق بن حم عثت" اسهم مع صاحبه "سعد بن ولج" في تدوين الكتابة الأولى وأسهم مع اخوته في تدوين هذه الكتابة

الثانية التي ورد فيها اسم "معد يكرب" ابن "اليفع" ملك معين، وقد كان معاصراً كما رأيت للملك "أب يدع يثع" ملك معين، ويكون زمن حكم "معد يكرب" في هذا الزمن الذي وقعت فيه تلك الحرب أو قبل ذلك. وقد ورد في أحد النصوص اسم "سعد" من "آل ضفجن"، و لم يذكر معه اسم أبيه، وكان "كبيراً" على "معين مصران"، وذلك في أيام الملك "أب يدع يثع" و "وقه آل ريمم" "وقه ايل ريام" ملك معين. ويلاحظ إن هذا النص قدم اسم "أب يدع يثع" على اسم "وقه آل ريام"، مع إن المعروف إن "أب يدع يثع" هو ابن "وقه ايل ريام" شقيق "معد يكرب" فهل يدل ذلك على إن "أب يدع يثع" كان شقيقاً للملك "معد يكرب" و ل "وقه ايل ريام" كما ذهب إليه بعض الباحثين ؟ وقد ورد في النص اسم مدينة "قرنو" أي عاصمة معين، و قبيلة "ضفجن" و "مزود معين"، وان "سعداً" أنشأ "مذاب" وعملها ؟. وقد تيمن في النص بذكر أسماء آلهة معين. واسم "وهب آل بن رثدال" "وهب المجل بن رثد ايل" من "آل يفعان."

ويظهر من الأسماء الواردة في هذا النص، ومن مضمونه، ومن اسم ملك معين الوارد فبه، أن صاحب هذه الكتابة، "سعد" من "ضفجن" "ضفنكن" هو "سعد بن ولج" الذي اشترك مع "عم صدق بن حم عثت" وكان كبيراً مثله في الكتابة التي مر الحديث عنها. وقد رأيت أن "عم صدق" كان من "يفعان"، وقد ورد اسم "يفعان" في هذا النص فهو لذلك من نصوص هذا العهد.

وأشار "هومل" إلى الملك "يدع أب غيلان" بعد إشارته إلى "يدع ايـل بين" "يدع آل بين" و "السمع ذبيان" ملكي حضرموت، وذكر أن الحميريين كانوا هم أصحاب الحل والعقد في ذلك الزمان. وذكر إن الذي تولى بعده هو "العز يلط" "العذيلط"، ولكنه لم يجزم أنه كان ابن "يـدع أب غـيلان". فأمـا "فلبي"، فقد جعله ابنه، غير إنه لم يضعه في هذا المكان.

وتطرق "هومل" إلى ذكر الملك "يدع آل" بعد الملـك "معـد يكـرب" وقد جاء اسمه في النص الموسوم بـي "Glaser ١٠٠٠" الـذي دوّن في مدينـة "مرواح" وكان معاصراً للمكرب "كرب ايل وتيها" مكرب سبأ. وتحمـل في نظره إن يكون "يدع ايل" هذا هو الملك "يدع ايل بين" الذي ذكـر اسـمه في الكتابة الحضومية المعروفة ."SE ٤٣" وهو ابن "سمه يفع"، وقد ذكـر معـه اسم الملك "السمع ذبين" "السمع ذبيان"، وهو ابن "ملك كـرب" "ملكـي كرب" "ملكيكرب."

و "غيلان" هو أول من تولى حكم حضرموت بعد هذه الفـترة التـي لم تعرف من حكم فيها بعد "معد يكرب" على رأي "البرايت". وقد حكم من بعده ابنه "يدع أب غيلان". وذكر "البرايت" إن اسم هذا الملك قـد ذكـر في كتابة عثر عليها في "وادي بيحان"، وهو يرى إن المحتمل إن يكون هو "يدع أب غيلان" الذي كان حليفاً ل "علهن نهفن" "علهـان نهفـان" ملـك سـبأ، وقد حكم على تقديره في حوالي سنة "٥٠ق. م".

وذهب "فون وزمن" إلى إن "يدع أب غيلان" المذكور كان معاصراً ل "علهان نهفان"، وان والده هو الملك "يدع ايل بين" وقد حكم على رأيه في حوالي السنة "١٤٠ ب. م.". وأما الملك "يدع أب غيلان" فقد حكم فهيما بين السنة "١٦٠ ب. م." إلى "١٩٠ ب. م.". وقد عقد صلحا مع "علهان نهفان" الهمداني.

أما "فلبي"، فقد رأى إن الذي حكم بعد هذه الفترة التي انتهت على حسب اجتهاده بحوالي سنة "٦٥٠ ق. م." هو "السمع ذبيان بن ملك كرب" و"يدع ايل بين بن سمه يفع"، واندمجت حضرموت بعده في مملكة سبأ أو قتبان، ثم أصبحت جزءاً من مملكة سبأ إلى حوالي سنة "١٨٠ ق. م." حيث عادت فاستقلت، فتولى المُلك فيها الملك "يدع آل بين بن رب شمس" الذي كوّن أسرة ملكية جديدة اتخذت مدينة "شبوة" عاصمة لها.

وقد ذكر "البرايت" إن الذي حكم بعد "يدع أب غيلان" وهو ابن الملك "غيلان"، هو الملك "العذبلط" "العزيلط"، وقد نعته ب "الأول" وجعله معاصراً ل "شعرم أوتو" "شعر أوتر" ملك سبأ، وقد كان حكمه على تقديره في حوالي سنة "٢٥ ق. م."

وذهب "البرايت" إلى احتمال كون "العزيلط" هذا هو الملك "العزيلط بن عم ذخر" المذكور في كتابة عثر عليها في "وادي بي حان" في كتابات عليها "فلبي" في "عقلة" بحضرموت، غير إن "العزيلط بن عم ذخر" هومن

المعاصرين للملك "شارن يعب يهنعم"، ولـذلك لا يمكـن أن يكـون هو الملك "العزيلط" الذي لقبه "البرايت" بالأول، وجعله معـاصراً للملـك "شعرم أوتر" "شعر أوتر."

وقد وجد اسم الملك "العز" في كتابة حفرت على صخرة عنـد قاعـدة جبل "قرنيم" "قرن"، كما عثر عـلى اسـمه في كتابـات وجـدت في "عقلـة"، و"عقلة" موضع مهم عثر فيه على كتابات وردت فيها أسماء عدد مـن ملـوك حضـرموت، زاروا هذا المكان، وذكرت أسماؤهم فيه. وقـد جـاء في إحـدى هذه الكتابات إن الملك "العزيلط" زار هذا الموضع، ورافقـه في زيارتـه عـدد من الزعماء والرؤساء، منهم: "شهرم بن والم" "شهر بن وائل" و "قريت ابن ذمرم" "قرية بن ذمر" و"ابفال بن القتم" "أبفأل بن القتم" و "وهب آل بـن هكحد."

وسجل هؤلاء الرجال ذكرى هذه الزيارة في هذا النص الذي وسم بـ "Phliby ٨١"وقد ذكر فيه اسم والـد "العـذ" "العـز"، وهـو "عـم ذخـر" "عمذخر"، ولم يدوّن كاتبه حرف العطف "الواو" بين الأسماء ة ورفقة الملك هؤلاء الذين صحبوه في رحلته إلى حصن "أنود"، وان كانوا لم يفصحوا عـن مراكزهم ومنازلهم الاجتماعية نسـتطيع إن نجـزم إنهـم كـانوا مـن الوجهـاء والأعيان، فرفقة تصاحب الملـك للاحتفـال بزيـارة كهـذه الزيـارة لا بـد أن يكون لها شأن بين الناس.

وتعد الكتابة التي وسما به "Philby ٨٢" من الكتابات المهمة، وقد دونها رجلان من أشراف "حمير يهن"، أي من حمير، رافقا الملك في سفرته إلى حصن "أنود"، لإعلان نفسه ملكاً على حضرموت ولمناسبة تلقبه بلقبه، وهي عادة كان يتبعها ملوك حضرموت عند توليهم الملك وتلقبهم بلقب جديد لم يكن يتلقبون به قبل انتقال العرش إليهم. ولسنا نعرف متى نشأ هذا التقليد عند ملوك حضرموت، ولا السبب الذي دفعهم إلى اختيار هذا المكان دون غيره. و لعله كان من الأماكن المقدسة القديمة عندهم، فكانوا يتبركون بتتويج أنفسهم قيه، أو إنه كان قلعة أو موضعاً قديماً فجرت العادة إن يتوج الملوك فيه. وقد كان هذان الرجلان بعثهما "ثارين يعب يهنعم" ملك "سبأ وذي ريدان" لمرافقة ملك حضرموت في هذه المناسبة. والظاهر إن ملك سبأ إنما بعثها لتهنئة ملك حضرموت ولتمثيله في هذا الاحتفال المهيب الذي بحري في "أنود"، فهما مبعوثان سياسيان من ملك إلى حليفه. وقد سجل "العذيلظ" "العزيلط" هذه المناسبة في كتابة قصيرة ورد فيها "العزيلط ملك حضرموت بن عم ذخر سيراد جندلن أنودم هسلقب"،أي "العزيلط ملك حضرموت ابن عم ذخر سار إلى حصن أنود ليتلقب بلقبه..." وقد كتبت هذه الكتابة في الزمن الذي دونت فبه الكتابتان الأخريان عن زيارة الملك لحصن "انود" عند إعلان لقبه الجديد وتوليه العرش رسمياً، غير إننا لا نعرف - ويا للأسف - تأريخ هذه المناسبة.

وذكر اسم الملك "العزيلط بن عم ذخـر" في كتابـة دوّنهـا جماعـة مـن الأعيان عند تتويجه وتوليه العرش و إعلان ذلك للنـاس في حصـن "أنـود". وأصحاب هذه الكتابة هم: "نصرم بن نهد" "نصر بـن نهـد" و "رقشـم بـن أذمر" "رقاش بن أذمر"، و "والم بن يعللد" "وائل بـن يعللـد"، و "والم بـن بقلن"، و "ابكرب ذو دم" "أيكرب ذو ود". وقد ورد إنهـم سـاعدوا الملـك سيدهم "العزيلط بن عم ذخر" "العـذيلط بـن عـم ذخـر" حـين ذهـب إلى حصن "أنود" لإعلان نفسه ملكاً. ويظهر من ذلك إنهم كانوا من جملة رجال الحاشية الملكية التي صحبت الملك إلى ذلك المكان. ووردت نصوص أخرى سجلها رجال الحاشية الملكية تخليداً لاسمهم في هـذه المناسـبة. وقـد سـجل كتابة من هذه الكتابات رجل اسمه "حصين بن ذا ييم مقتوي العزيلط ملـك حضرموت"، "حصين بن ذ أييم مقتوي العزيلط ملك حضرموت"، ويظهر إن هذا الرجل كان من قواد جيش الملك وضباطه ولعله كان من مرافقيه.

وقد منح بعض علماء العربيات الجنوبية هذا الملك، أي الملك "العز بن عم ذخر" "العذ" لقب "العز الثالث"، لذهابهم إلى وجود ملكين حكما قبلـه عرفا بهذا الاسم. ورأى "ركمنس" إن حكمـه كـان في حـوالي السـنة "٢٠٠ ب.م.".

وقد ورد في كتابة حضـرمية اسم ملك دعـي ب العـذ" "العـز" ابـن "العزيلط" "العذيلط" ملك حضرموت، فيظهر من ذلك إن والد هذا الملك كان ملكاً كذلك، ولم يشير أحد من الباحثين مثل "فلبي" أو "البرايت" إليه. ولعله ابن للملك المتقدم، وصاحب هذه الكتابة رجل اسمه "هبسل قرشم"

وتذكرنا كلمة "قرشم" "قريشم"، أي "قريش" باسم قبيلة "قـريش" صاحبة مكة.

ولم يتأكد "البرايـت" مـن اسـم الشـخص الـذي تـولى العـرش بعـد "العزيلط"، فترك فراغاً ذكر بعده ملكاً سماه "العـزيلط" "العـذيلط" ميـزه عن الأول بإعطائه لقباً، هو "الثـاني". وقـد رأى إنـه كـان معـاصراً للملـك "ثأرن يعب يهنعم" ملك سبأ. أما والد "العز الثاني" على رأيه فهو "علهـان" أو "سلفان". ويرى "فلبي" إن "علهان" أو "سلفان" هـو ابـن "العـزيلط" الأول. وقد سـبق إن ذكـرت إن "ثـأرن يعـب يهـنعم" كـان لحيفـاً للملـك "العذيلط بن عم ذخر"، وأنـه أرسـل وفـداً لتهنئتـه بتتويجـه و إعلانـه لقبـه الجديد. لذلك يبدو غريباً ما ذهب إليه "البرايت" من إن "العزيلط الثاني بـن علهان" أو "سلفان" هو الملك المعاصر للملك "ثأرن يعب" السبئي.

ويحتمل على رأي "البرايت" إن يكون "العـزيلط" "العـذيلط" الـذي ورد ذكـره في النص "Glaser ١٦١٩=١٤٣٠" الـذي عثـر عليـه في "وادي بيحان" ويعود تأريخه إلى سنة "١٤٤" من التقويم السـبئي التـي تقابـل سـنة "٢٩ م" تقريباً، هو "العزيلط الثاني". ويحتمل على رأيه أيضـاً إن يكـون هـو الملك "Eleazos" الذي ذكر في كتاب ""الطواف حـول البحـر الأريـتري". وكان هذا الملك معاصراً لملك آخر سماه مؤلف هذا الكتاب "Karibael" = "Charibael"وهو ملك الحميرين والسبئيين، وقد أراد به الملك "كرب ايـل وتر يهنعم"، وهـو "ملـك سـبأ وذي ريـدان" المـذكور في الـنص "Glaser ٤٨٣".

أما "فون وزمن"، فيرى إن كاتب النص قد أهمل الرقم ثلاث مئة فكتب مئة وأربعة وأربعين، على حين إن الصحيح هو "٣٤٤" من التقويم الحميري، واذن يكون زمان تدوين الكتابة هو "٢٩٩" أو "٢٣٥" بعد الميلاد وهو وقت حكم "العزيلط بن عم ذخر" على تقديره.

وجاء اسم ملك يدعى "العزيلط" "العذيلط" في كتابة سجلها رجلان، يدعى أحدهما "عذ ذم بن اب انس" "عذ ذ بن أب انس" ويدعى الآخر "رب آل بن عذم لت" "رب ايل بن عذم لات"، وهما من عشيرة "مريهن" "مريهان"، ذكر فيهما انهما قسما إلى معبد الإلهَ "سن ذ علم" "سين ذي علم" في معبده "علم" المشيد في مدينة "شبوة"، سبعة تماثيل من الذهب "سبعة أصلم ذهبن"، كما أمرهما سيدهما الملك. ويظهر أنهما كانا من حاشيته وأتباعه. وقد أهملت هذه الكتابة اسم والد هذا الملك، فلا نعرف أي ملك هو، اهو "العزيلط الأول"، أم "العزيلط الثاني"؟ وقد ورد في بعض الكتابات ما يقيد استقبال "العزيلط" لضيوف وفدوا عليه من مختلف الأماكن: من الهند "هند"، ومهن "تدمر" "تذمر"؛ وضيوف آراميون جاءوا إليه من "كشد"، بل ورد في الكتابة "Ja ٩١٩" مرافقة عشر نساء قرشيات له إلى حصن "أنود". و إذا كانت الكتابة قد قصدت من "قريش" قريش المعروفة صاحبة مكة، نكون بذلك قد وقفنا لأول مرة على اسمها في وثيقة مدونة.

و لإشارة النصين المذكورين إلى الهند وتدمر وإلى بني إرم وقريش، أهمية كبيرة ولا شك، إذ تدل على الاتصال الذي كان لمملكة حضرموت بالعالم الخارجي في ذلك الزمن، وعلى الروابط التجارية التي كانت تربط ذلك العالم بحضرموت. وقد كان اتصال حضرموت بالخارج عن طريق ميناء "قنا"، فقد كانت السفن تأتي إليه وتخرج منه لتذهب إلى إفريقية والهند وعُمان وأرض فارس.

وترك "البرايت" فراغاً بعد "العزيلط الثاني"، مغزاه إنه لا يدري من حكم بعد "العز" هذا، ثم ذكر بعده اسم "يدع أب غيلان بن امينم" "يدع أب غيلان بن أمين"، ثم جعل اسم ابنه من بعده، وهو "يدع ايل بين"، أي إنه هو الذي تولى الحكم من بعده. وقد بيّن إنه غير متأكد من زمان حكمهما، إلا أن دراسة الكتابات التي ذكر فيها اسمهاهما تدل على إنها من نوع كتابات القرن الأول للميلاد، ولذلك وضع زمانهما في هذا العهد.

ومن الكتابات التي ذكر فيها اسم "يدع ايل بين"، أي ولد "يدع أب غيلان بن أمينم" الكتابة التي وسمها العلماء بسمة"Glaser ١٦٢٣"، وهي كتابة قصيرة تتألف من أربعة أسطر، ورد في جملة ما ورد في ما اسم الإله "سين ذو علم"، أي الإله "سين" رب معبد "علم". وكان معبد "علم" قد خصص بعبادة هذا الإلهَ.

وقد وصلت إلينا كتابة أخرى ورد فيها اسم "يدع ايـل بـين"، إلا أنهـا لم تذكر لقب والده، وهو "غيلان"، وانما اكتفى فيها بتسجيل الاسـم وحـده وهو "يدع أب". وقد ذكـر فيهـا إن هـذا الملـك بنـى وحصـن سـور مدينـة "شبوة" ابتغاء وجه الإلهتين. "ذات حشولم" "ذت حشولم" "ذات حشـول" و "ذت حمم" "ذات حميم"، وذكر فيها اسم "صـدق ذخـر" "كـبر" "كبـير" حضرموت. ويظهر إن الغرض من ذكر اسم هذا الكبير "كبير" في النص، إن تؤرخ الكتابة به على في ما رأينـا في الكتابـات المعينيـة مـن التـأريخ بأسـماء الرجال.

ولم يذكر "البرايت" من حكم بعد "يدع ايل بين"، فـترك فجـوة تـدل على إنه لا يدري من حكم فيها، ثم ذكر بعدها ملكاً آخـر، سـماه "يـدع أيـل بين"، قال: إنه ابن "سمه يفع"، ثم ذكر "السـمع ذبيـان بـن ملكـي كـرب" "مليكرب" من بعده، وقال إنهما كانا متعاصرين. وشد حكما حكماً مزدوجـاً، أي إن كل واحد منهما كان يحكم بلقب "ملك حضرموت". وكـان حكمهـما في حوالي السنة "١٠٠" بعد الميلاد على بعض الآراء.

ثم عاد "البرايت"، فترك فراغاً بعد "السمع ذبيان"، دلالة على وجـود فجوة في ترتيب أسماء ملوك حضرموت، لا يدري من حكـم فيهـا، ثـم ذكـر بعدها الملوك: "رب شمس" "ربشمس" ثم "يدع ايل بن" ثم "الـريم يـدم" ثم "يدع اب غيلان."

وقد ذكرت اسم "رب شمس" قبل قليل، وقدمت زمانه بعض التقديم، وذلك حكاية عن رأي بعض العلماء وفي ضمنهم "فلبي" الذي جعل حكمه في حوالي سنة "١٨٠ ق. م."، ثم عدت لأذكره هنا مجاراة لرأي "البرايت" الذي وضعه في أواخر قائمته لملوك حضرموت. وقد ذهب بعض الباحثين إلى إن حكم هذا الملك كان بعد سنة "٢٠٠ ب. م."، وفرق كبير كما نرى بين التقديرين.

وقد جعل "فون وزمن" زمان "رب شمس" بين السنة "١٠٠" و "١٢٠ ب. م."، وصيّره من معاصري "اوسلت رفش" "أوسلة رفشان" ملك همدان ومن معاصري الفترة الواقعة بين حكم "ذمر علي يهبر" و "ثأران يعب" الحميريين. ثم البقية التي جاءت بعده، وتتألف من "يدع آل بين" "يدع ايل بين"، ثم "الريم يدم" "الريام يدم"، ثم "يدع اب غيلن" "يدع أب غيلان"، ثم "رب شمس" "ربشمس" وقد جعل نهاية حكمه سنة "١٨٠ ب. م.".

وبعد النصر الموسوم ب "Philby ٨٤" من النصوص المهمة بالنسبة إلى تأريخ مدينة "شبوة"، وقد كتب في عهد "يدع ايل بين بن رب شمس"، وجاء فيه إن "يدع ايل بين بن رب شمس" من "أحرار يهبأر" "أحرار يهبار" "أحرر يهبر" مر مدينة "شبوة" وأقام بها، وبنى المعبد بالحجارة، وذلك بعد الخراب الذي حل بها، وعمر ما تهدم وتساقط منها، وانه احتفالاً بهذه المناسبة أمر بتقديم القرابين، فذبح "٣٥" ثوراً و "٨٢" خروفاً و "٢٥" غزالاً و"٨" فهود "أفهد"، وذلك في حصن "أنود."

وقد حدثنا هذا النص حديثاً صريحاً بأن أصل "يدع ايل بين" من أحرار "يهبأر" "أحرر يهبر" أي من صرحاء القبيلة، وحدثنا أيضاً بأنه بنى مدينة شبوة، وعمّر مجدها وكسا جدره بطبقة من القار أو غيره لتكون ملساً، من أساسها إلى شرفاتها، وذلك بعد الخراب الذي حل بشبوة، إلا إن الملك لم يتحدث عن سبب ذلك الخراب الذي أصاب المدينة ومعبدها معها، وهو خراب كبير على ما يظهر، فتركنا في حيرة من أمره، وتباينت آراء الباحثين فيه.

ويرى "البرايت" إن النص المذكور هو من نصوص القرن الثاني بعد الميلاد. أما "ركمنس" فيرى إنه من نصوص ما بعد السنة "٢٠٠" بعد الميلاد. فهو إذن نص يكاد يجمع أكثر علماء العربيات الجنوبية على إنه من نصوص بعد الميلاد. و إذا صدق رأي هؤلاء، كان خراب شبوة إذن و إعادة تعميرها قد وقعا بعد الميلاد.

وقد ة فَسر بعض الباحثين خراب "شبوة" باستيلاء أحد ملوك "سبأ وذي ريدان" عليها، فلما نهض "يدع ايل بين"، لاستردادها من السبئيين، وقع قتال شديد فيها بينه وبينهم في المدينة نفسها، لم ينته إلا بعد خراب المدينة وتدمير معبدها معبد الإلهَ "سين". وعندئذ ارتحل عنها السبئيون، فاضطر "يدع ايل" الذي طردهم منها إلى إعادة بناء المدينة والمعبد، فلما تم له ذلك، احتفل بهذه المناسبة، أو بمناسبة تتويجه ملكاً على حضرموت في حصن "أنود" وقرّب القرابين إلى إلَه حضرموت "سين" وإلى بقية الآلهة، شكراً لها على ذلك النصر، وعلى النعم التي أغدقتها عليه. هذا في رأي فريق من علماء العربيات الجنوبية.

ورأى فريق آخر إن في خراب "شبوة" سبباً من سببين، فإما أن يكون "يدع ايل" وهو من أحرار قبيلة "يهبأر"، قد أعلن الثورة على السبئيين الحميرين الذين كانوا قد استولوا على شبوة، وقاومتهم مقاومة عنيفة أدت إلى الحاق الأذى بالمدينة، فلما تركها السبئيون الحميريون كانت ركاماً، فأعلن "يدع ايل" نفسه ملكاً على حضرموت، بعد إن ظلت المملكة بدون ملك. وإما أن يكون ذلك الخراب بسبب عصيان "يدع ايل" على الأسرة المالكة الشرعية ومقاومته لها، مما أدى إلى إنزال التلف في المدينة، فلما تغلب على الآسرة المالكة أعاد بناء المدينة وجددها وجدد معيدها على في ما جاء فقط النص.

وليس في النصر شيء ما عن الطريقة التي كسب بها تاج حضرموت، إلا إن إشارة وردت في كتابة تفيد أن بعض الأعراب ورجال القبائل كانوا قد تعاونوا معه وساعدوه، فقد عاونه رجل من قبيلة "يم" "يام"، ومئة من بني أسد، ومئتان من "كلب" أو "كليب"، وعاونه ولا شك آخرون، وبفضل هؤلاء وأمثالهم من رجال القبائل تغلب على من ثار عليهم، فانتزع التاج منهم. والإشارة المذكورة على إنها غامضة، كافية في إعطائنا فكرة عمن ساعد "يدع ايل" على الظفر بالعرش.

ويظهر من كل ما تقدم إن "يدع ايل بين"، وهو من أبناء العشائر، كان قد جمع حوله جماعة من القبائل، ساعدته في عصيانه وتمرده على السلطة الحاكمة في "شبوة" فاستولى على المُلك وقد جاء بعده عدد من الملوك، إلا أن الأمر أفلت زمامه منهم، إذ نجد إن الملك "شمر يرعش" "شمر يهرعش"

يضيف "حضرموت" إلى الأرضين الخاضعة لحكومته، حتى صار اسم حضرموت منذ ذلك الحين جزءاً من اللقب الذي يلقب به الملوك. ومعنى ذلك انقراض مملكة حضرموت ودخولها في حكومة "ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت" اللقب الرسمي الذي اختاره "شمر" المذكور نفسه.

ويرى "فون وزمن" إن الكتابة الموسومة بـ ٦٢٩ Jamme ، من الكتابات التي تعود إلى أيام هذا الملك. وقد جاء فيها إن "مرثدم" "مرثد" و "ذرحن" "ذرحان"، وهو قائد من قواد جيش "سعد شمع أسرع" و "مرثدم يهحمد" من "آل جرت" "آل جرة"، قد حاربا الملك "يدع آل" "يدع ايل" ملك حضرموت والملك "نبطم" "نبط" ملك قتبان، و "وهب آل بن معهر" "وهب ايل بن معاهر" و"ذ اخولن" "ذو خولان" "ذ خولن" و"ذ خصبح" "ذو خصبح" و"مفحيم" "مفحى" حارباهم في أرض "ردمان" قرب العاصمة "وعلن" "وعلان."

ويرى "فون وزمن" إن هذه الحرب قد وقعت في أواخر أيام حكم الملك "نبطم" "نبط" ملك قتبان، المعروف ب "نبطم يهنعم"، وقد لقب في هذه الكتابة بلقب: "ملك قتبان"، إلا أنه كان في الواقع تابعاً لحكم ملك حضرموت. وقد كانت "تمنع" - كما يرى هو أيضاً - قد خربت قبل هذا العهد، و تحولت إلى قرية صغيرة. وقد التقت عساكر "سعد شمس" و "مرثد" بخصومها قرب هذا المكان. ولم تكن "أوسان" مملكة في هذا العهد، بل كانت قبيلة. وقد أذلت "شيعان" بعد هذه الحرب.

وأما "مرثد" "مرثدم" صاحب الكتابة، فهو من "ذ بن جرفم" "بني ذي جرفم" "بني ذي جرف" ب "صنعو"، أي "صنعاء". وقد عمل مع الملكين: "سعد شمس أسرع" و "مرثدم يهحمد"، وهما من ملوك مملكة "جرت" "جرة"، لتنظيم اجتماع لسادات القبائل في موضع "رحبت" "رحابة" الواقع شمال صنعاء، بأرض "سمعي". وقد حضر الاجتماع: "شرحثت"، وهو من سادات "بتع" و "الرم" "الرام" "الريام"، وهو من "بني سخيم"، و "يرم ايمن" الهمداني. ويظهر أن ملكي "جرة" كانا قد استحوذا على مرتفعِات سبأ في هذا الحين.

وكان "وهب آل بن معهر" "وهب ايل بن معاهر" صاحب "ردمان" "ردمن" والأرضين المتاخمة ل "خولان" في هذا الوقت. وقصد ب "معهر" دار الحكم بمدينة "وعلن" "وعلان" من أرض "ردمان."

وأما "خصبح"، فبطن من بطون قتبان.

وتولى الملك بعد "يدع ايل بين" ابنه "الريم يدم" "الريام يدم". ونحن لا نعرف من أمره شيئاً يذكر، إلا ما ورد في كتابة تذكر إنه ذهب إلى حصن "أنود"، واحتفل هناك بتوليه العرش، و إعلانه لقبه الذي اتخذه لنفسه، وإلا ما ورد في كتابة أخرى، دوّنها "رب شمس بن يدع أيل بين"، أي شقيق "الرم يدم"، تذكر إنه رافق شقيقه إلى حصن "أنود" عند المناسبة المتقدمة، فكان من جملة المشاهدين لحفلة التتويج.

ولا نعرف من أمر ""يدع أب غيلان" شقيق "الريم يدم" شيئاً يذكر كذلك. وقد جعله "البرايت" خليفة شقيقه المذكور. وكل ما لدينا عنه، لا يتجاوز ما ذكرناه عن شقيقه. فقد جاء في كتابة إنه ذهب إلى حصن "ازود"، فاحتفل فيه بتتويجه وأعلن في الاحتفال اللقب الذي لقب نفسه به، وجاء في كتابة أخرى سجلها "رب شمس"، أي شقيقه، إنه ذهب مع أخيه "يدع أب" إلى حصن "أنود" لمشاهدة الاحتفال بتتويجه و بإعلانه اللقب.

وقد ورد في أحد النصوص أن "يدع أب غيلن" "يدع أب غيلان"، سوّر مدينة "ذ غيلن". و يرى بعض الباحثين، إن هذا الملك كان قد بنى هذه المدينة في أرض قتبانية فتحت في أيام والده، في مكان يقع عند فم وادي "مبلقه" "مبلقت" المؤدي إلى وادي "بيحان". ويشك بعض الباحثين في صحة قراءة اسم المدينة.

وفي الكتابة المرقمة برقم Philby ٨٨ جملة هي: "رب شمس خير اسدن بن يدع آل بين"، ترجمها "بيستن" ب "رب شمس أمير أسد بن يدع ايل بين" على إن "أسداً" قبيلة، واستدل على ذلك بما جاء في إحدى الكتابات من إن الملك "ختن أسد"، ومعنى ذلك إنه كان ختناً ل "بني أسد". وأرى إن لفظة "اسدن" "اسد" هنا لا تعني قبيلة أسد و إنما تعني جنوداً أو جيشاً، وهي بهذا المعنى في العربيات الجنوبية، فان لفظة "اسدم" تعني الجندي، وان المراد من جملة "رب شمس خبر اسدن" "رب شمس أمير الجند" أو "الجيش"، أي أن لفظة "خير" بمعنى أمير أو قائد، وخير القوم سيدهم، فيكون بذلك قائداً أو أميراً لجيوش حضرموت.

وبناء على ما تقدم نكون قد عرفنا اسم ثلاثة أولاد من أبناء "يدع ايـل بين" تولى الملك اثنان منهم على وجه أكيد، أما الثالـث، وهـو "رب شـمس" فلم تصل إلينا كتابة تذكر ذهابه إلى حصن "أنود" للاحتفال بتتويجه و إعلان لقبه. لذلك لا نستطيع إن نبت في موضوع توليه عرش حضرموت. ولم يذكر "البرايت" اسمه بين أسماء أبناء "يدع ايـل بـين". وقـد اسـتخرجته أنـا مـن الكتابات التي ذكرتها، وهي الكتابات التي استنسخها "فلبـي" مـن موضـع "عقله."

وفي اللوح النحاس المحفوظ في المتحف البريطاني اسم ملك من ملوك حضرموت هو "صدق ذخر برن" "صدق ذخر بران"، ووالده "الشــرح"، وقد ذكر فيه إن هذا الملك قدم نذوراً إلى الآلهة: "سين" و "علـم" و "عثـتر" لخيره ولخير "شبوة" ولخير أولاده وأفراد أسرته، وقد وردت فيه أسماء قبائل يظهر إنها كانت خاضعة في هـذا الـزمن لحكمـه هـي: "مرشـد" و "أذهـن" "أذهان"، و"ينعم". ولورود اسم "شبوة" في هذا النص، يجب إن يكون هذا الملك قد حكم بعد تأسيس هذه المدينة.

وذكر "هومل" إنه وجد محفوراً على الجهة الثانية مـن اللـوح النحـاس "مونكرامـا Monogramm "طغـراء تشـير إلى اسـم الملـك الـذي كـان حضـرموت في ذلك الزمن، وقـد دعـاه "هومـل" "سـعد شمسـم" "سـعد شمس."

وورد اسم ملك آخر من ملـوك حضرـموت، هـو: "حـي آل" "حـي ايل"، وقد ورد اسمه في نقد حضرمي. وما نعرف من أمره في الزمن الحـاضر شيئاً.

ولم يشر "البرايـت" و "فلبـي" و "هومـل" وغـيرهم إلى اسـم ملـك حضرمي ورد ذكره في النص المرقم ب رقم "٩٤٨" المنشـور في كتـاب .CIH وهو نص متكسر في مواضع متعددة منه، أضاعت علينا المعنـى. واسـم هـذا الملك "شرح آل" "شرح ايل" "شرحبيل."

وقد سقطت كلمات قبل هذا الاسم، لعلها تكملته. وقـد وردت بعـده جملة: "ملك حضرـ."، وسـقطت الأحـرف الباقيـة مـن كلمـة حضرـموت وكلمات أخرى.

وقد ورد في النص المذكور اسـم "شـمر يهـرعش" ملـك "سـبأ وذي ريدان وحضرموت و يمنات". ويدل ورود اسـم "شـمر يهـرعش" في هـذا النص مع اسم "شرح ايل" على إن الملكين كانا متعاصرين، ويدل هذا النص عـلى إن مملكـة حضرـموت بقيـت إلى مـا بعـد المـيلاد، وحتـى أيـام "شـمر يهرعش"، يحكمها حكام منهم، يحملون لقب "ملك."

وكان آخرهم هو "شرح ايل" هذا المـدون اسـمه في الـنص المـذكور. ولكنه لم ي كن مستقلاً كل الاستقلال، بل كان تحت حماية "شـمر يهـرعش" ووصايته. ودليلنا على ذلك ذكر "شمر" في النص خ "شرح ايـل" و إدخـال اسم "حضرموت" ضمن أسـماء المواضـع الخاضـعة لحكـم "شـمر"، أي في اللقب الرسمي الذي اتخذه "شمر" لنفسه بعد استيلائه على حضرموت.

وعثر على نص وسم بـ Ja ٦٥٦ ، جاء فيه اسما ملكين من ملوك حضرموت أحدهما "رب شمس"، الآخر "شرح أيل" "شرح آل". وليس في النص ما يكشف عن هوية الملكين، وأرى إن "رب شمس" هذا هو "رب شمس" المتقدم شقيق الملكين، وابن "يدع ايل بين". و إذا صدق رأيي هذا، يكون قد تولى الملك لمدة قليلة، تولاه بعد وفاة شقيقه "يدع أب غيلان" ثم انتقل العرش إلى "شرح ايل"، وهو في نظري "شرح ايل" الذي اعترف بسيادة "شمر يهرعش" وسلطانه عليه كما تحدثت عنه.

وقد يكون أحد أبناء "رب شمس" وقد يكون حمل لقب "ملك حضرموت" مع "رب شمس" في إن واحد. وهذا النص هو بالطبع أقدم من النص المتقدم الذي ورد فبه اسم "شمر يهرعش."

لقد جعل بعض علماء العربيات الجنوبية سقوط مملكة "حضرموت" واندماجها نهائياً في مملكة "سبأ وفي ري دان" في أيام "شمر يهرعش"، وبعد السنة "٣٠٠ ب. م.". و اود إن آبين هنا إننا لم نظفر بكتابة عربي جنوبية، فيها شيء عن كيفية سقوط مملكة حضرموت، وعن كيفية استيلاء "شمر يهرعش" أو غيره من الملوك عليها، فنحن لهذا في وضع لا يسمح لنا بوصف نهاية تلك المملكة وذكر الأحداث التي أدت إلى سقوطها واندماجها في مملكة سبأ وذي ريدان.

وقد ذهب بع ض الباحثين إلى إن سقوط حضرموت كان في القرن الرابع بعد الميلاد، وقبل احتلال الجيش للعربية الجنوبية بقليل. وقد وقع هذا الاحتلال على رأيهم فيما بين السنة "٣٣٥ ب. م." والسنة "٣٧٠ ب. م.".

وقد أدت فتوحات "شمر يهـرعش" لحضرـموت، ولأرضـين أخـرى تعد من المناطق الخصبة الكثيفة بسكانها في جزيرة العرب، إلى هجـرة النـاس عنها إلى مناطق بعيدة نائية، وإلى نزول الخراب في كثر من القـرى والمـدن، إذ تهدمت بيوتها ومعابدها، و قتل كثير من أهلها، وأتت النار على بعضها حرقـاً ،فتحولت منـازل النـاس إلى خرائـب، وجفـت مـزارعهم فآضـت بـوادي، فهجرهـا أهلوهـا ولم يعـودوا إليهـا بعـد هـذا الخـراب. فـزادت مسـاحة الصحاري، ولم تعمر منذ ذلك الحين. وقد زاد في نكبة العربية الجنوبيـة هـذه إن حروب "شمر يهرعش" المذكورة استمرت زمناً طـويلاً، وشـملت أكثـر اليمن حتى بلغت البحر، مما أطمع الجيش في العربية الجنوبية، فزادت قواتهـا في الأرضين التي احتلتها، وتوغلت في مناطق وَاسعة، ولا سـيما بعـد مـوت "شمر يهرعش."

هذا، وقد انتهت إلينا كتابات عدة تعرضت لأنباء الحروب التي نشبت بين حضرموت وسبأ، وبين حضرموت وحكومات أخـرى، منهـا كتابـات لم تذكر فيها أسماء الملـوك الـذين وقعـت في أيـامهم تلـك الحـروب، كالكتابـة المرقومة بـ"٤٣٣٦" المنشورة في كتابREP. EPIG . وقد قدم صاحبها إلى إلهه الشكر والحمد، وتمثالين من الذهب إلى معبده في "نعلم" لأنه نجَّى سيده "بشمم" "بشم" ومَنَّ عليه بالشفاء من الجرح الذي أصـابه في المعركـة التـي نشبت في مدينة "ثبير" في أرض "يحر". وهي معركة من معـارك نشـبت بـين "شمر ذي ريدان" و"أب أنـس" مـن قبيلـة "معهـرم" "معهـر" "معـاهر" وأمراء "خولان" وملك سبأ وملك حضرموت. ولما كانت هذه الِكتابة قد

كتبت لإعلان شكر صاحبها لإلهه وإعلانه بوفائه لنشره، وهي في موضوع شخصي لم تكن متبسطة في أخبار تلك الحرب المزعجة، لذلك اكتفيت بذكرها أجمالاً دون تفصيل. أما نحن العطاش إلى معرفة خبر تلك الحرب، وما كان من أمرها، فقد خرجنا بعد قراءتنا لهذا النص ونحن آسفون على بخل صاحبها علينا وتغيره في تفصيل خبر هذا الحادث المهم، وشاكرون الله مع ذلك على سلامة رجل وقاه الله شر تلك الحرب.

هذا ما وصل إلى عمنا من أسماء ملوك حضرموت و"مكربيها". ولست أرى بأساً في التنبيه مرة أخرى على إن هذه الأسماء لم ترتب إلى الآن ترتيباً زمنياً مضبوطاً، وإنما رتبت على حسب اجتهاد الباحثين. ولذلك نجدهم يختلفون في هذا الترتيب وغيره، في أسماء الملوك. وسجلنا الآن إن نحاول جهد الإمكان حصر هذه الأسماء حتى يأتي اليوم الذي نستطيع فيه الترتيب والتصنيف.

والظاهر إن حكم الحمريين لحضرموت، لم يتحقق بصورة فعلية، بل كان في اواخر أيامهم، ولا سيما في أواخر القرن الخامس وابتداء القرن السادس للميلاد، حكماً شكلياً، لأننا نجد أرض حضرموت وقد استقل فيها حكام المدن وسادات القبائل وأشراف الأودية، وقد لقب أكثرهم أنفسهم بلقب "ملك". وقد ذكر "ياقوت الحموي" إن بني "معد يكرب بن وليعة" وهم: مخوص، ومشرح، وجمد، و أبضعة، كانوا يسمون ملوكاً، لأنه كان لكل واحد وادٍ يملكه. والواقع إن كثيراً من سادات القبائل قبل الميلاد وبعده، كانوا يلقبون أنفسهم بلقب ملك، ولكنهم لم يكونوا غير سادات قبائل وأصحاب أرض.

✓ قبائل حضرمية:

وفي حضرموت كما في كل الأماكن الأخرى من جزيرة العـرب قبائـل وعشائر وأسر ذوات حكم وسلطان وجاه في مواطنها، وقد ورد أسـماء عـدد منها في الكتابات، ومن قبائل حضرموت وعشائرها وأسرها: "شكمم"، أي "شكم" "شكيم"، وعشير "يشبم" "يشبوم."

ويرجع نسب عشيرة "رشم" إلى قبيلة "مقنعم" "مقنـع" أو "يقـنعم" كما جاء في بعض الكتابات، وهو اسم قبيلة لا نعرف من أمرها شيئاً في الزمن الحاضر، وكان يحكمها "أقيال" منهم: "هو فعثت" و "لحى عثت"، وهما من موضع "عليم"، أي "علب". وقد جاء في نص انهما قدّما وثناً "صـلمن" إلى الآلهة "عثتر" و "هبس" "هـوبس" و "المقـه" و "ذت حمـم" "ذات حمـيم". وقـد يفهـم مـن ذلـك إن هـذه القبيلـة كانـت قبيلـة سـبئية، نزحـت إلى حضـرموت، واستقرت فيها، أو إنها كانت من القبائل السبئية التي خضعت لحضرموت.

و "يهبأر" "يهبر" "يهبار" من القبائل المعروفة في العربية الجنوبيـة، ولا يستبعد أن تكون قبيلة Iobaritai التـي ذكـر اسـمها "بطلميـوس" وكانـت منازلها على مـا يظهـر مـن جغرافيتـه عـلى مقربـة مـن الموضـع الـذي سـماه Sachalitaiأي "الساحل" أو "السواحل"، فهي من القبائل العربية الجنوبية التي لا تبعد منازلها عن الساحل كثـيراً، وقـد كـان "يـدع ايـل بـين بـن رب شمس" من أبنائها الأحرار.

و قبيلة "أسد" من القبائل العربية الشمالية المعروفة بعد الميلادأما في نصوص المسند، فليست فيها معروفة. ويظهر إن قسماً منها كان قد نزح من نبد إلى الجنوب حتى بلغ أرض حضرموت، فساعد "يدع ايل بين". ولعل نزوحها إلى الجنوب كان بسبب خلاف وقع بين عشائرها أو مع قبائل أخرى، فاضطر قسم منها إلى الهجرة إلى العربية الجنوبية.

و "يام" من القبائل المعروفة حتى اليوم، وتسكن عشائر منها حول نجران.

وأما "كلب" أو "كليب"، فإنها من القبائل التي يرجع النسابون نسبها إلى عدنان، أي إلى العرب الشماليين.

✓ مدن ومواقع حضرمية:

و"شبوة"، هي عاصمة حضرموت وهي Sabbaths=Sabotha=Sabota عند الكتبة الكلاسيكيين. وهي Sabtah المذكورة في التوراة في نظر بعض الباحثين. وزعم "هوكارت Hogarth "إنها Sawa. وذكر "الهمداني" موضع "شبوة" في جملة ما ذكره من حصون "حضرموت" ومحافدها.

وقد ظن "فون مالتزن" وآخرون غيره إنها مدينة "شبام". وزار "فلبي" "شبوة"، وعثر على آثار معابدها وقصورها القديمة، كما شاهد بقايا السدود التي كانت في وادي شبوة لحصر مياه الأمطار والاستفادة منها في إرواء تلك المناطق الواسعة الخصبة.

وتشاهد في "وادي أنصاص" وفي خرائب "شبوة" بقايا سدّ وأقنية للاستفادة من المياه وخزنها عند الحاجة إليها. وهناك سدود أخرى بنيت في مواضع متعددة من العربية الجنوبية للاستفادة من مياه الأمطار وللسيطرة على السيول، وتحويلها إلى مادة نافعة تخدم الإنسان.

وأما حصن "أنود" "أنودم"، الموضع الذي يحتفل فيه الملوك عند تتويجهم وإعلانهم اللقب الذي يتلقبون به بعد توليهم العرش، فإنه موضع "عقلة" في الزمن الحاضر. وهو خربة على شكل مربع. وقد زار هذا المكان جملة أشخاص من الغربيين ووصفوه، منهم "فلبي"، وقد وجد فيه خرائب عادية ووجد عدداً من الكتابات الحضرية، هي الكتابات التي وسمت باسمه. ويشرف هذا الموضع على واد شد، فيتصل بتلال "شبوة". و قد كان حصناً ومعسكراً يقيم فيه الجيش، لحماية مزارع هذا الوادي، ولا بد إن يكون هنالك سبب جعل الملوك يختارون هذا المكان لإعلان اللقب الرسمي الذي يختاره الملوك لأنفسهم عند التتويج.

وقد تبين من بعض الكتابات المتعلقة بنصيب ملوك حضرموت في هذا المكان إنهم كانوا يتقربون في يوم إعلان تتويجهم في حصن "أنود" بنحر الذبائح للآلهة. و قد تبين من بعضها إن في جملة تلك الذبائح التي قدمت إلى الآلهة حيوانات وحشية مثل الفهود. وقد استمرت هذه الاحتفالات قائمة إلى القرن الثاني بعد الميلاد على رأي "البرايت"، وإلى حوالي السنة ٢٠٠ بعد الميلاد على رأي "ركمنس."

ومن مدن الحضرميين مدينة "ميفعت" "ميشعة"، وكانت على ما يظن عاصمتهم القديمة. وقد ورد في بعض الكتابات ما بفيد أن "يدع ايل بن سمه علي" رمم أسوار هذه المدينة. وقد ذهب بعض الباحثين إلى إنها Mapharitisالتي أشار إليها مؤلف كتاب "الطواف حول البحر الأريتيري"، ولدينا نص حضرمي يفيد إن "هبسل بن شجب" بنى سور المدينة و أبوابها، واستعمل الحجارة والأخشاب، وأنشأ فيها بيوتاً ومعابد، وأتم عمله بعده ابنه "صدق يد" فأعلى سور المدينة وأحكمه.

ولم تذكر الكتابة الجهة التي أنفقت على هذا العمل الذي يحتاج إلى نفقات عظيمة ولا شك، ولعل الدولة هي التي عهدت إليهما هذا العمل على أنهما مهندسان أو من المقاولين المتخصصين بأعمال البناء.

وكانت "ميفعة" من المدن المهمة، و قد ذكرت في عدد من الكتابات، وهي Maipha Metropolis عند "بطلميوس"، ويقع عند "حصن السلامة" موضع عادي خرب، يقال له "ريدة الرشيد"، يظهر إنه كان محاطاً بسور حصين، كما يتبين ذلك من أحجاره الفخمة المبعثرة الباقية. وقد كان مدينة، يرى إنهاRaida عند "بطلميوس" وقد وضعها في جنوب شرقي Maipha Metropolisأي ميفعة.

وعثر على كتابات عديدة أخرى، تتحدث عن تحصين "ميفعت" "ميفعة"، وعن تسويرها بالحجارة وبالصخر المقدود وبالخشب، وعن الأبراج التي أقيمت فوق السور لصد المهاجمين عن الدنو إليه. وذكر اسمها في كتابة "لبنة" "لبنا" التي هي من أيام المكربين في حضرموت.

ويظهر إن الخراب حل ب "ميفعة" في القرن الرابع بعد الميلاد، وحلّ محلها موضع آخر عرف بSessania Adrumetorum ، أي "عيزان" فـ "عيزان" إذن، هو الوليد الجديد الذي أخذ مكان "ميفعة" منذ هذا الزمن.

ومن مدن حضرموت مدينة سماها بعض الكلاسيكيين Cane Emporium، وذكر إنها ميناؤها. وأما "أريانوس"، فقال إنها الميناء الرئيسي لملك أرض اللبان، وقد سماه Eleazus وقال إنه يحكم في عاصمتهSabatha .

وقد ذكر هذا الميناء "بلينيوس" كذلك، فقال إن السفن التي تأتي من مصر في طريقها إلى الهند، أو السفن الآيبة من الهند إلى مصر، كانت ترسو إما في ميناءCana=Qana ، وإما في ميناء Occelis على ساحل البحر عند المضيق. وذكره مؤلف كتاب "الطواف حول البحر الأريتري" كذلك فقال : Cana=Qanaميناء حضرموت، وله تجارة واسعة مع "عمانOmana"، على الخليج، وعلى سواحل الهند. ومع سواحل الصومال في إفريقية. وقال إن السواحل كانت مأهولة بالأعراب، وبقوم يسمونIchthyophogi ، أي "أكلة السمك."

وفي ميناء" Cana قنا" يجمع اللبان والبخور وغير ذلك، ويصدر إلى الخارج، إما بحراً حيث تنقلها وسائل النقل البحرية، وفي ضمنها بعض الوسائط التي تطفو على سطح البحر بالقُربَ المنفوخة بالهواء، و أما براً حيث تنقلها القوافل. ويقع هذا الميناء إلى شرق "عدن" وعلى مسافة منه جزيرتان، جزيرة Ornenon أو جزيرة الطيور، وجزيرة Trulla. ويقع إلى الشرق من Canaميناء آخر، يقال له .Mathath Villa ويرى "فورستر" وأكثر الباحثين

الآخرين إلى إن ميناء Cana هو المحل المعروف باسم "حصن غراب" في الزمن الحاضر.

و "حصن غراب"، قد بني على مرتفع من صخر أسود على لابة بركان قديم، يشرف على المدخل الجنوبي الغربي لخليج أقيم عليه الميناء، فيحميه من لصوص البحر ومن الطامعين فيه. وقد زاره بعض السياح، مثل "ولستيد" فوصفه. وزاره B.Don سنة "١٩٥٧ م" وتحدث عنه.

وقد ورد اسم هذا الحصن في الكتابة الموسومة ب٧٢٨ CIH، وقد سمي فيها "عرمريت" "عرماوية".وهو الاسم القديم لهذا الحصن الذي يعرف اليوم ب "حصن غراب" "حصن الغراب". وورد في الكتابة الطويلة المعروفة بـ ٦٢١ CIH التي يعود تأريخها إلى سنة ٥٣١م. وتتحدث عن ترميم هذا الحصن و تجديد ما تهدم منه، وذلك بأمر "سميفع أشوع" "السميفع أشوع."

وورد ذكره في النص ٥٣٨ Ryckmans الذي يتحدث عن الحروب التي خاضتها جيوش الملك "شعرم اوتر" "ملك سبأ وذي ريدان" في أرضين لقبائل قتبائية ورومانية وقبائل مضحيم "مضحى" وأوسان فبلغت "عرمويت" "عر ماوية" وموضع "جلع" في جملة ما بلغتها من ارضين. و "جملع" قرت قرية الساحل شمال غربي "بلحاف" في الزمن الحاضر.

وقد وجد "ولستيد Wellsted "في "حصن غراب" الكتابة التي وسمت ب .٧٢٨ CIH وقد جاء فيها إن "صيد أبرد بن مشن" "مشان"، كان مسؤولاً عن "بدش" "باداش"، وعن "قنا"، وقد كتب ذلك على "عر

مويت" "عر ماوية"، أي حصن "ماوية". و "قنا هو اسم الميناء الشهير. و أما الحصن الباقي أثره حتى اليوم، فيسمى "حصن ماوية"، وأما "باداش"، فإنه ما زال معروفاً حتى اليوم، ولكن بشيء من التحريف. وفي هذا المكان يعيش قوم رعاة يعرفون بي "مشايخ باداس"، وقد جاء هذا الاسم من "باداش القديم". وهكذا حصلنا من النص المذكور عل اسم ميناء حضرموت الذي كانت الموارد "الكلاسيكية" هي أول من وافتنا به.

فحصن غراب أذن هو "عر مويت"، وهو حصن مدينة "قناة" المدينة نفسها، ولا تزال آثار مخازن مائه القديمة باقية، وهي صهاريج تملأ بالأمطار عند نزولها، لتستغل وقت انحباسها. وقد أمكن التعرف على موضع البرج الذي يجلس فيه الحرس والمراقبون لمراقبة من يريد الوصول إلى المكان. ويرى بعض الباحثين إن موقع المدينة الأصلية كان في السهل الواقع عند قدم الحصن من الناحية الشمالية، حيث ترى فيه آثار ابنية و مواضع سُكنى. أما ما يسمى ب "بير علي" "بئر علي" في هذا اليوم، فانه مستوطنة حديثة بنيت بأنقاض تلك المدينة القديمة.

ومن مدن حضرموت مدينة "مذب" "مذاب"، وقد اشتهرت بمعبدها الذي خصص بعبادة الإلَه "سن" "سين". وتقع بقاياه اليوم في الموضع المعروف باسم "الحريضة". وقد سبق إن قلت إن بعثة بريطانية نقبت هناك، ووجدت آثار معبد ضخم هو معبد الإله "سين"، الإله الذي يرمز إلى القمر.

وقد تبين للذين بحثوا في أنقاض معبد "مذب" "مذاب" إنه بني عدة مرات. ويظهر إنه تداعى، فجدد بناؤه مراراً. وقد تبين من الكتابة الحلزونية التي عثر عليها في أنقاض هذا المعبد إنها من أيام "المكربين" وانها ترجع بحسب رأي الخبراء الذين درسوها إلى حوالي السنة "٤٠٠ ق. م."، وان تأريخ المدينة ومعبدها يرجع إلى الفترة الواقعة بين القرن السادس والقرن الخامس قبل الميلاد.

وقد تبين من بعض الكتابات إن "كبير" "كبر" "مذب" كان من آل "رمي" "رامي". وكان يقيم في الموضع المسمى ب "جعدة" في الزمن الحاضر. وكان يملك جزءاً كبيراً من "وادي عمد"، وله بئر في المدينة تتصل بصهريج مدرج نخزن فيه الماء، تعرف ب "شعبت" "شعية" "شعبات". ومن قبائل هذا الموضع: "عقنم" "عقن" "عقان"، و "كرب" "جرب"، و "يرن" "يارن."

وقد تبين من فحص مواضع من جدران مجد "سين" إن الحجارة التي استعملت في إقامته كانت قد قدت من الصخر، ونحتت لتنسجم بعضها مع بعض، وقد ربط بعضها إلى بعض حتى لا تفصل بسهولة. وتبين إن قاعة المعبد كانت فيها أعمدة تحمل سقفها، وربما كانت قاعة كبيرة واسعة تتسع لعدد كبير من المؤمنين المتقين الذين يؤمونها لتعبد والتقرب إلى الإلَه في معبده هذا.

وعثر في الأماكن التي حفرت على أدوات من الخزف، وعلى مباخر وقلائد و مسابح صنعت حباتها من الحجر والخرز، وعلى أختام خفيفة من النوع المعروف عند الفرس بين القرنين السادس والرابع قبل الميلاد. ويرى بعض الباحثين إن تأريخ "مذاب" ومعبدها يعود إلى الفترة الواقعة بين القرن الخامس والقرن الثالث قبل الميلاد.

وقد ذهب بعض من درس معبد "مذاب" إلى إن حضارة حضرموت وحضارة بقية العربية الجنوبية لقديمة كانت قد تأثرت بالمؤثرات الحضارية العراقية في بادئ الأمر، وذلك في أيام المكربين، ولكن تلك الحضارة كانت متماسكة وذات طابع خاص، أخذ من ظروف العربية الجنوبية، غير إنها أخذت تبتعد من بعد عن المؤثرات الحضارية العراقية منذ القرن الأول قبل الميلاد فما بعده، وتتقرب من مؤثرات حوض البحر المتوسط والمؤثرات الإيرانية، وذلك نتيجة اتصال الروم والرومان والفرس بالعربية الجنوبية، فظهرت حضارة عربية جنوبية جميلة، وأبنية حديثة، إلا إنها لم تكن في متانة الحضارة العربية الجنوبية القديمة وقوتها، وليست لها تلك الشخصية التي أسبغها الفنان العربي القديم في القرون السابقة للميلاد على أبنيته، فذهبت بذلك العناصر العربية الجنوبية الأصلية، وتراجعت، وطغى عصر التجديد أو التقليد البعيد على تلك الشخصية العربيةالقديمة في هذه البقاع.

ومن مواضع حضرموت، موضع عرف في الكتابات باسم "مشور"، وقد اشتهر بمعبده المسمى "سن ذ مشور"، أي "سين رب مشور"، وفي مكانه في الزمن الحاضر خرائب عادية تعرف باسم "صونة" و ب "حدبة الغصن". وقد عثر فيه على كتابات ورد فيها اسم هذا المعبد، كما عثر فيه على

حجارة مزخرفة نقشت عليها صور حيوانات نقشت بصورة تدل على فن وبراعة وإتقان. ويرى بعض الباحثين إن هذه الزخارف تشبه الزخارف التي عثر عليها في معبد "حقه" "حقة"، ويقدر عمرها بحوالي القرن الثالث قبل الميلاد.

وفي أرض حضرموت مواضع قديمة حضرمية و سبئية ينسبها الناس اليوم إلى "عاد" "وثمود". فقي ملتقى "وادي منوة" بوادي ثقبة صخور مهيمنة على الوادي، وقد نقرت لتكون ملاجئ ومواضع للسكنى وربما جعلت ملاجئ للجنود يختبئون فيها ليهاجموا منها الأعداء الذين يخترقون الوادي و يرموهم بالسهام والحجارة. وعلى المرتفعات بقايا بيوت ومساكن، يظهر إنها كانت قرى آهلة قبل الإسلام، وعلى واجهة الوادي الصخرية كتابات دونت بلون أحمر، ظهر للسباح الذين رأوها انها كتابات سبئية، و إنها أسماء أشخاص، لعلها أسماء الجنود أو المسافرين الذين اجتازوا هذا المضيق.

وفي موضع "غيبون" على مقربة من "المشهد" خرائب يرى أهلها أنها من آثار "عاد". ويظن الآثاريون الذين رأوها إنها من بقايا مدينة "حميرية". وقد وجدوا فيها فناراً وزجاجاً قديماً وحجارة مكتوبة، وعلى مقربة منها موضع يقال له "مقابر الملوك". ونظرا إلى إنها في موقع حضرمي، يقع بين "القعيطي" و"الكثيري" "آل كثير" في الزمن الحاضر، فلا أستبعد إن يكون من القرى أو المدن الحضرمية.

وعلى مقربة من "تريم" خرائب جاهلية أيضاً، ينسبها الناس إلى عـاد. وهي من آثار معيد، وطريق كان معبّداً يوصل إليه. وقد بني هذا المعبـد عـلى قمة تل وعنده آثار بيت وأحجار متناثرة قدت من الحجـر، عليهـا مـادة بنـاء توضع بين الأحجار لتشد بعضها إلى بعض.

وعنـد موضـع "سـون" "سـونة" "سـونه" خرائـب تسـمى "حدبـة الغصن" تشبه خرائب "غيبون"، هي عبارة عن بقايا أبنية لعلها كانـت قـرى أو مدناً حجارتها متناثرة على سطح الأرض. ولا تـزال بعـض الأسـس عـلى وضعها، ترشد إلى معالمها. وقيل هذه الخرائب بقايا جدار كان متصلاً بجانبي وادٍ، يظهر إنه من بقايا سـدّ بنـي في هـذا المكـان لحبس السـيول والأمطـار، للاستفادة منها عند انحباس المطر.

وفي حضرموت موضع آثاري، يسمى "حصن عر"، وهو بقية حصـن جاسلي، لعله من حصون ملوك حضرموت، يظهر إنه أسـس في هـذا المكـان لحماية المنطقة من الغزاة ولحفظ الأمن فيها. وقد كـان الحصـن عاليـاً مرتفعـاً فوق تل، ولا تزال بقايا بعض جدرانه وأواره ترتفع في الفضاء زهاء خمسـين قدماً. وهناك بقايا أبنية ومعالم طريق ضيقة توصل إلى ذلك الحصـن الـذي لا نعرف اسمه القديم.

و قد تمكن "فان دير م ويلن Van Der Meulen وفون وزمن H. Von Wissmann من زيارة مواضع أثرية أخرى في حضرموت، مثل المكنـون El-Mekenum، و"ثوبة" و "العرّ" وتقع آثار "مكنون" "المكنون" عـلى مقربـة من "السوم". وهناك أرض مكشوفة يزعم. المجاورون لها إنها أرض "عاد."

أما "ثوبة" أو "حصن ثوبة"، فإنه بقايا أبنية على قمة تل، يظهر أنه كان في الأصل حصناً لحماية المنطقة من الغزاة ولمنع الأعداء من الوصول إلى قرى مدن المنطقة ومدنها أو اجتياز الأودية للاتجاه نحو الجنوب. ولا تزال بقايا جدر الحصن مرتفعة عن سطح الأرض. وأما "العرّ"، فهو موضع حصن قديم أيضاً بني لسكنى الجنود الذين يدافعون عن الأرضين التي بنيت فيها.

يظهر من آثار الحصون والقلاع الباقية في حضرموت إن مملكة حضرموت كانت قد حضت حدودها، وحمتها بحاميات عسكرية أقامت على طول الحدود لحمايتها من الطامعين فيها ولحماية الأمن الداخلي أيضاً. وقد أقيمت هذه الحصون في مواقع ذات أهمية من الوجهة العسكرية، على تلال وقمم جبال ومرتفعات تشرف على السهول ومضايق الأودية حيث يكون في متناول الجنود إصابة العدو و إنزال الخسائر به، وبهذه التحصينات دافعوا عن حدود بلادهم.

ويعد ميناء "سمهرم" المعروف ب "خور روري"، وهو في "ظَفارِ" عمان من الموانئ المعروفة التي كانت في القرن الأول للميلاد. ويرى بعض الباحثين إن مؤسسيه هم من الحضارمة، ولذلك كان من موانئ مملكة حضرموت. وقد عثرت البعثة الأمريكية لدراسة الإنسان على بقايا خزف، تبين لها من فحصه إنه مستورد من موانئ البحر المتوسط في القرن الأول للميلاد. ووجوده في هذا المكان يشر بالطبع إلى الاتصال التجاري الذي كان بين العربية الجنوبية وسكان البحر المتوسط في ذلك العهد.

الدولة المعينية:

قد ظهرت هذه الدولة في الجوف، والجوف منطقة سهلة بين نجران وحضرموت، أرضها خصبة منطقة. وقد زارها السائح "نيبور Niebuhar " ووصفها. وذكر الهمداني جملة مواضع فيها، ولم يعرف شيئاً عن أصحابها.

ومن هذه: معين، ونشق: وبراقش، وكمنا وغيرها. وقد كانت عاصمة تلك الدولة "القرن" "قرن" "قرنو"، وهي: "قرنة" "قرنا Carna=Karna " عند بعض الكتبة الكلاسيكيين.

وقد حصل "هاليفي" على عدد كبير من الكتابات المعينية اكتشفها في أثناء سياحته في الجوف، دعيت ورقمت باسمه، حصل على الكتابات المرقمة برقم ١٨٧ Halevy حتى رقم ٢٦٦ Halevy مجموعها ثمانون كتابة من خرائب "معين" وحصل على الكتابات المرقمة من رقم ٤٢٤ حتى رقم ٥٧٨ من "يثل"، ويبلغ مجموعها ١٥٥ كتابة، كما حصل على صور عدد آخر من الكتابات من "كمنا" ومن "السوداء". ويبلغ مجموع الكتابات المعينية التي استنسخها زهاء ٧٥٠ كتابة، أغلبها قصيرة، وبعضها يتضمن بضع كلمات، ما خلا ٥٠ - ٦٠ كتابة تتألف من بضعة أسطر.

وزار الجوف بعد ذلك السيد محمل توفيق وقد ندبته "جامعة فؤاد الأول" الجامعة المصرية لدراسة هجرة الجراد الرحّال والكشف عن مناطق تولده، ودخله مرتين، المرة الأولى سنةّ ١٩٤٤م والمرة الأخيرة سنة ١٩٤٥م، وقد انتهز الفرصة فدرس سطح تلك المنطقة وخرائبها وآثارها، وأخذ صوراً "فوتوغرافية" لزخارف وكتابات، نشرها في البحث الذي نشره له "المعهد

العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة"، وذلك سنة ١٩٥م بعنوان: "آثار معين في جوف اليمن."

ورحل "الدكتور أحمد فخري" الأمين بـالمتحف المصرـي، إلى الـيمن، وزار سبأ والجوف في مايس سنة "١٩٤٧ م.

وليس في كل بلاد العرب عـلى حـد قـول "هـاليقي"، مكـان ينـافس الجوف في كثرة ما فيه من آثار وخرائب عادية. ولـذلك، فـان البـاحثين عـن القديم يرون فيه أملاً عظيماً وكنزاً ثمينـاً، وقـد يكشـف لهـم عـن صـفحات مطوية من تاريخ تلك البلاد وربما ي كشف عن تأريخ بلاد أخرى كانت لهـا صلات وعلاقات باليمن. وفيه مدن مهمة، كـان لهـا شـأن وصـيه في تـأريخ العالم القديم، كالمدن التي مر ذكرها، وكمدينة "مأرب" عاصـمة سـبأ، التـي بلغ صيتها اليونان والرومان.

والجوف أرض خصبة ذات مياه، تسقيه ميـاه "الخـارد"، الـذي يبلـغ عرضه مترين وعمقه متراً، كما تتساقط عليه الأمطار، فتروي أرضه، وتكـوّن سيولاً تسيل في أوديته، ويبلغ ارتفاعه "١١٠٠" فوق سطح البحـر، وتحـيط به الجبال من ثلاث جهات، ونطراً لوجود مزايا كثيرة فيه تساعد على تكـوّن الحضارة فبه، لذلك صار مخزناً للحضارة القديمة في الـيمن، وموقعـاً يغـري علماء الآثـار يقصـدونه للبحـث في تربتـه عـما كـان فيهـا مـن أسرار وآثـار. وسيكون من الأماكن المهمة في الـيمن في الزراعـة وفي التعـدين بعـد تطـور اليمن ودخول الأساليب العلمية الحديثة إلى تلك الأرجاء.

وقد أمدتنا الكتابات التي عثر عليها في الجوف وفي "ديدان"، التي كانت مستوطنة معينية في طريق البلقاء من ناحية الحجاز، والكتابات المعينية التي عثر عليها في مصر في "الجيزة"، والكتابات المعينية الأخرى التي عثر عليها في جزيرة "ديلوس Delos "من جزر اليونان، والتي يعود عهدها إلى القرن الثاني قبل الميلاد، بأكثر معارفنا التي يعود عهدها هنا، ومنها استخرجنا في الأغلب أسماء ملوك معين. ولولاها لكانت معارفنا عن المعينين قليلة جداً. ويرى جماعة من العلماء إن "ماعون" "معون Maon" أو "معونم" "معينيم Me'inim=Me'unim"الواردة في التوراة إنما يقصد بها "المعينيون"، وهم سكان "النقب" إلى طور سيناء، أو هم سكان "معان" الواقعة إلى الجنوب الشرقي من "البتراءPetra "، أو هم أهل "العلا" "الديدان" وقد ذكروا في موضع من التوراة في جملة سكان "النقب Negev"، وذكروا في موضع آخر مع قبائل من العرب.

وليس بين الباحثين في تأريخ المعينين اتفاق على تاريخ مبدأ هذه الدولة ولا منتهاه، ف "كلاسر" مثلاً يرى إن الأبجدية التي استعملها المعينيون في كتاباتهم ترجع إلى الألف الثانية أو الألف الثالثة قبل الميلاد، وهذا يعني إن تاريخ هذا الشعب يرجع إلى ما قبل هذا العهد، فالمعينيون على هذا هم أقدم عهداً من العبرانيين. ويعارض هذا الرأي "هاليقي" و "ميلر D.H. Muller"و"موردتمن Mordtmann "و"ماير E. Meyer " و"شبرنكر Sprenger"و"ليدزبارسكي Lidzbarski "وغيرهم. ويرون أن نظرية "كلاسر" هذه مبالِغة، وأن مبدأ هذه الدولة لا يتجاوز الألف الأولى

قبل المسيح بكثير. ويرى "هومل Hommel" إن من الممكن إن يكـون بدأ تاريخ دولة "معين" ما بـين ١٥٠٠ – ١٢٠٠ ق. م. ونهايـة حكومتهـا في عام "٧٠٥ ق. م.". وجعل "فلبي" مبدأ حكم أول ملك من ملوكها في عـام ١١٢٠ ق. م. وحكم آخر ملك نعرفه من ملوكها في عام ٦٣٠ ق. م.

ويعارض "ونت Winnett "رأي "كلاسر" و "نكلـر" و "هومـل" في تقدير مبدأ تأريخ دولة معين، ويرى أن في ذلك التأريخ مبالغـة، وأن "شـبا" أي "سبأ" وكذلك "ددان" "ديدان"، أقدم الدول العربية مستدلاً على ذلـك بما ورد في التوراة من قدم "شبا". ويرى إن مبدأ دولة "معـين" لا يمكـن إن يتجاوز عام ٥٠٠ق. م، و أما نهايتها، فقد كانـت بـين عـام ٢٤ ق. م. وعـام ٥٠ب. م.

وبعض معارضو نظرية "كـلاسر" عـن قـدم الدولـة المعينيـة إن هـذه النظرية لا تستقيم مع ما هو معروف بين العلماء عن تأريخ ظهور "الألفبـاء" عند البشـر، فإن إرجاع تأريخ معين إلى الألف الثانية أو الألـف الثالثـة قبـل الميلاد معناه إرجاع "المسند" إلى أقدم من ذلك، وهذا يتعارض مع النظريات الشائعة عن قدم الخط عند البشر، فان الخط "الفينيقي" لا يتجاوز عهده ألف سنة قبل الميلاد وليس "المسند" كما يظهر من أشكاله وصوره الهندسـية أقـدم عهداً منه.واستند "هوارت" إلى هذه الحجة أيضاً في معارضه رأي من يرجـع تأريخ معين إلى سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد. وبرى "أوليري" هذا الرأي أيضاً،

ويرى أيضاً أن كتابات المسند كافة معينية أو سبئية، لا تتجاوز البتة السنة ٧٠٠ قبل الميلاد، وذلك لأن هذا القلم قد أخذ من القلم "الفينيقي"، وهذا لا يمكن أن يطاوله، وأن يرجع في تاريخه إلى أكثر من القرن الثامن قبل الميلاد.

وقد ثبت "ملاكر" في كتابه في تاريخ التشريع والتوريخ عند العرب الجنوبيين مبدأ قيام دولة معين بسنة "٧٢٥" قبل الميلاد، وسقوطها بالقرن الثالث قيل الميلاد.

وتناول "البرايت" موضوع ترتيب حكام معين بالبحث، وذلك في النشرة التي تصدرها المدارس الأمريكية للبحوث الشرقية. وهو يختلف أيضاً مع المتقدمين في موضوع تواريخ أولئك الحكام،ويحاول جهد الإمكان الاستفادة من الدراسات الأثارية للكتابات وللآثار التي. يعثر كليها في تقدير حكم المكربين والملوك. وقد ذهب في أحد أبحاثه عن "معين" إلى تقسيم ملوك دولة معين إلى ثلاث مجموعات جعل الملك "اليفع يثع" وهو ابن الملك "صدق ايل" ملك حضرموت على رأس هذه المجموعات، وجعل حكمه في حوالي السنة "٤٠٠ ق. م." وجعل نهاية هذه الدولة فيما بين السنة "٥٠" والسنة "٢٥ ق.م.

وهو يرى أن التاريخ الذي وضعه لمبدأ قيام حكومة معين ولنهايتها وسقوطها، هو تأريخ في رأيه مضبوط، لا يتطرق إليه الشك، غير إنه يرى إن ما ذكره عن رجال المجوعات الثلاث يحتمل إعادة النظر فيه، ولا سيما المجموعة الأولى حث يمكن إجراء بعض التغير فيها.

وذكر "البرايت" فيوضع آخر: إنه يرى إن قيام مملكة معين كان قبل السنة "٣٥٠ ق. م."، وقد استمر حكمها إلى ما بعد السنة "٥٠ق. م." أو السنة "١٠٠ ق. م.

وذهب آخرون إلى إن نهاية مملكة معين كانت في حوالي السنة المئة بعد الميلاد. وهكذا في الباحثين في العربيات الجنوبية مختلفين في بداية الدولة وفي نهايتها، ويلاحظ إن القدماء منهم كانوا يرفعون مبدأ الدولة ونهايتها عن الميلاد، أي يبعدون المبدأ والنهاية عنه، أما المتأخرون فهم على العكس، لا يذهبون مذهبهم في البعد عن الميلاد، ويحاولون جهدهم جعل نهاية المملكة في حوالي الميلاد. وما زال الجدل بين علماء العربيات الجنوبية في تقدير عمر الدولة المعينية مستمراً.فهناك صعوبات تعترض نظرية من يقول أن الدولة المعينية سقطت قبل الميلاد بمئات من السنين في أيدي حكام سبأ، والقائلون بها "كلاسر" وأتباعه. وقد رأى "كلاسر" أيضاً إن المعينيين قد تضاءل أمرهم وضعفوا كل الضعف وغلبت عليهم البداوة في نهاية القرن الأول قيل الميلاد، على حين إن الموارد الكلاسيكية ومنها مؤلفات "سترابو" و"بلينيوس" و"ديودورس الصقلي" تعارض هذا الرأي بإشارتها إلى المعينيين وإلى تجارتهم، بل تجد إن "بطلميوس" الذي هو من رجال القرن الثاني للميلاد يقول فيهم "إنهم شعب عظيم". ثم إن الكتابات المعينية التي عثر عليها في الجيزة بمصر، تؤيد هذا الرأي أيضاً، إذ نشير إلى اشتغالهم في التجارة، تجارة استيراد البخور للمعابد المصرية، في القرن الثالث أو الثاني بعد

الميلاد.ومن هنا قال "أوليري" وغيره أن المعينيين بقوا نشطن عاملين إلى ما بعد الميلاد، وربما كان ذهاب حكمهم في أيام "البطالمة" أو في أيام الرومان، ومهما يكن من أمر فليس في الإمكان البت في تعيين ذلك العهد.

والذين يقولون بتقدم دولة معين على سبأ، ويرون إن حكام "سبأ" من دور "المكربين"، أي دور الملوك الكهنة هم الذين قضوا على حكم دولة معين فانتزعوا الحكم من ملوك معين، وأخضعوا المعين بين إلى حكم سبأ. غير إننا لا نعرف في ف تم ذلك، ومن هو الملك المعيني الذي تغلب عليه السبئيون.

ولا يمكن تقريب وجهة الخلاف هذه إلا بالاستعانة بالحفريات العلمية العميقة المنظمة، وبما سيستخرج من جوف الأرض من آثار وكتابات، ودراستها دراسات علمية متنوعة. دراستها من ناحية تطور الخط وأسلوبه Paleography، ومقارنته بالخطوط الأخرى التي عثر عليها في جزيرة العرب وفي خارجها، لمعرفة عمرها، ودراستها من ناحية تحليلها قليلاً مختبرياً لمعرفة زمانها ووقت نشوئها، حيث يمكن التوصل بهذا التحليل إلى نتائج يكون مجال الشك والجدل غير كبير Radiocarbon ، ودراستها من ناحية علم الآثار، إلى غير ذلل من طرق توصل إلى نتائج إيجابية أو قريبة من حدود الإيجاب.

- ✓ ملوك معين:

وقد حصل قراءة الكتابات المعينية على أسماء ملوك حكموا دولة معين، أحصوها وجمعوها، وحاولوا الاستفادة منها بتنسيقها و تبويبها لتكوين قائمة منظمة مرتبة بمن حكم عش تلك الدولة حكماً زمنياً متسلسلاً

بقدر الإمكـان. غير إنهـم لقـوا صـعوبات كبـيرة حالـت بيـنهم وبـين الاتفاق على وضع قائمـة موحـدة متفقـة. فـذهبوا في ذلـك جملـة مـذاهب، ووضعوا تواريخ متباينة مختلفة، وكيـف يمكـن الاتفـاق وقـد ذكـرت إنهـم مختلفون اختلافاً كبيراً مـن حيـث تعيـين مبـدأ ظهـور تلـك الدولـة، وأنهـم مختلفون أيضاً في تأريخ سقوطها وفي الدولة التي أسقطتها. يضـاف إلى ذلـك إن الكتابات المعينية عفا الله عنها، لم ترد مؤرخة على وفق تقويم من التقاويم، ولم تتحدث عن حكـم أي ملـك مـن أولئـك الملـوك ولم تـذكر تـرتيبهم في الحكم، وهي أكثرها في أمـور شخصـية لا علاقـة لهـا بسياسـة ولا بدولـة و ملوك. فليمس من الممكن إذن اتفاق البـاحثين عـلى وضـع قـوائم صـحيحة لملوك معين، ولا لمدد حكمهم ما دام الوضع على هذا الحال والمنوال، والرأي عندي هو أن ذلك لن يتم، ما تُجْرَ حفريات علمية عميقة في مواضع المعينيـين في اليمن وخارج اليمن، تمكننا من الحصول على كتابات جديدة لهـا صـلة ب سياسة الحكومة وبأخبار الملوك وبعلاقاتهم مع الدول الأجنبية. فإذا تم ذلك أمكن وضع مثل هذه القوائم مستعينين بهذه الكتابات وبالكتابـات الأجنبيـة التي قد تشير إلى ملوك معين وبأمثال هذه الدراسات نطمئن إلى هذه القوائم، ونستطيع اعتبارها ذات قيمة في تثبيت الحوادث وتواريخ حكومة معين.

والملوك الذين وردت أسماؤهم في الكتابات المعينيـة، ليسـوا هـم كـل ملوك معين، بل هم جمهـرة مـنهم. ولا اسـتبعد احـتمال حصـول المنقبـين في المستقبل على عدد آخر من أسماء ملوك جدد لا نعرف من أمرهم اليوم شـيئاً، قد يزيد عددهم على هذا العدد المعروف. وقد يبلغ أضعافه. فتصبح القوائم

الموضوعة التي رتبها علماء.اليوم غير ذات خطر بالنسبة للقوائم الجديدة، وسيتغير في ما كل شيء من أسماء ملوك، ومن أرقام مدد حكم وتواريخ.

ومع ذلك فأنا لا أريد أن أكون جدلياً سوفسطائياً، سلبياً غير بنّاء، وسأجاري الحال فأعرض على القارئ نتائج جهود أولئك العلماء في وضع قوائمهم بأسماء ملوك معين، فأقول: جعل "هومل" من أسماء ملوك معينة التي عرفها ثلاث طبقات، كل طبقة تتألف من أربعة ملوك، وطبقة أخرى تتألف من ملكين. ورتب "كليمان هوار"، هؤلاء الملوك سبع طبقات، الطبقة الأولى، تتألف من أربعة ملوك، والطبقة الثانية من خمسة، والطبقة الثالثة من أربعة، والرابعة من اثنين، والخامسة من ثلاثة، وأما الطبقتان السادسة والسابعة فتتألف كل واحدة منها من ملكين ويبلغ مجموع ملوك هذه الطبقات السبع اثنين وعشرين ملكاً. وينقصن هذا العدد أربعة ملوك عن قائمة "مولر" الذي حقق هوية ستة وعشرين ملكاً. وقد رتب "أوتوويبر" و"موردتمن" أولئك الملوك في طبقات أيضاً أما "فلبي"، فقد ذكر اثنين وعشرين ملكاً، نظمهم خمس سلالات، وجعل على رأس السلالة الأولى "اليفع وقه"، وفي آخر السلالة الخامسة الملك "تبع كرب" الذي حكم على رأيه من سنة ٦٥٠ إلى سنة ٦٣٠ ق.م.

وعند "هومل" أن السلالة التي في أولها الملك "اليفع وقه"، هي أقدم أسر ملوك معين. وأما "مورد تمن"، فيقدم الأسرة التي جعل على رأسها الملك "يثع ايل صديق". وشد فعل ذلك "كليمان هوار" أيضاً أما "ونست"،

فيرى إن الأسرة التي فيها "أب يدع يثع" هي أقسم عهداً من الأسرتين. والخلاصة إن هذه الأسر أو السلالات لا تعني إنها كل الأسر التي حكمت "معيناً"أو إن الأسرة الأولى منها هي أول أسرة حكمت ذلك الشعب فقد يكون هنالك عدد آخر من الأسر والملوك حكموا قبلها سنن كثيرة ربما بلغت قروناً.

ويرى "البرايت" إن ملوك حضرموت كانوا هم الذين أسسوا مملكة معين، أسسوها في حوالي السنة "٤٠٠ ق. م." أو بعد ذلك بقيل. ويرى أن أول ملك من ملوكها كان الملك "اليفع يثع"، وكان ابناً للملك "صدق ايل" ملك حضرموت. ويرى من عدم وصول كتابات سبئية ما بين السنة "٣٥٠" والسنة "١٠٠" قبل الميلاد، أي إن السبئين كانوا في خلال هذه المدة أتباعاً لحكومة معين.

فأول ملك من ملوك "معين" إذن على رأي "البرايت"، هو الملك "اليفع يثع" أما "هومل"، فجعل "اليفع وقه" أقدم ملك معيني وصل خبره إلينا، وقد جاراه في رأيه هذا "فلبي" وآخرون. وهناك كما قلت قبل قليل من قدم ملكاً آخر على هذين الملكين.

وقد ورد اسم الملك "اليفع وقه" في كتابة عثر عليها في موضع "السوداء"، وهو مكان مدينة "نشن" "نشان" القديمة في الكتابات المعينة، ورد فيها: إن الملك "اليفع وقه" ملك معين، وشعب معن، قدما بأيديهم إلى معبد الإلهَ "عم" ب "راب" "رأب" من "ذي نيط" نذوراً وهه ايا وقرابين،

تقرباً إليه. وقد تسلم ال "رشو"، أي "كاهن" المعبد والقيم عليه تلك الهدايا، وتقبلها باسم المعبد.ولم تذكر الداعية التي دعت الملك وشعبه إلى تقديم تلك النذور والقرابين إلى الإلَه "عم" رب "رأب"، ولعلها كانت مذكورة في المواضع التي أصيبت بتلف في الكتابة.

وورد اسم هذا الملك في كتابة أخرى عثر عليها في "براقش"، وهي مدينة "يثل" من مدن معين، دونت عند بناء بناية في عهده، فذكر هو وابنه "وقه آل صدق" "وقه ايل صديق" فيها، تيمناً باسمها و تثبيتاً لتأريخ البناء.

وعثر على اسم الملك "وقه آل صدق" "وقه ايل صديق" ابن الملك "اليفع وقه" في كتابة وجدت في "قرنو" "قرن" "القرن."

أما الذي حكم بعد "وقه ايل صدق" "وقه ايل صديق"، فهو ابنه الملك "اب كرب يشع" "أبكرب يشع". وهو في نظر "البرايت" مثل والده و"اليفع وقه" من رجال المجموعة الثانية من مجموعات ملوك معين. وقد حكم - على حسب رأيه - في حوالي السنة "١٥٠" قبل الميلاد.

وجاء اسم الملك "ايكرب يثع" "اب كرب يثع" في كتابة عثر عليها في "العلا"، أي في "الديدان" وتعود لذلك إلى المعينيين الشماليين، وصاحبها رجل من "آل غريت" "غرية"، كتبها عند شرائه مُلكاً من شخص اسمه "اوس بن حيو" "اوس بن حي". وتيمناً بذلك قدم نذوراً إلى الإلهَ "نكرح" وآلهة معين، وجعل الملك في رعايتها وحمايتها لتقيه أعين الحسّاد كل من محاول الاعتداء عليه. ودعا آلهة معين إن تنزل نقمتها على كل من يحاول رفع. تلك الكتابة، أو يتلفها، أو يلحق بها أذى، وقد تيمن باسم تلك الآلهة، وذكر

بهذه المناسبة اسم الملـك "ايكـرب يثـع"،وذكـر بعـده اسـم "وقـه آل صدق" "وقه ايل صديق". وقد وجد فراغ بين الاسمين،بسبب تلف أصاب الكتابة رأى ناشر الكتابة إنه واو العطـف، فصـيّر الجملـة عـلى هـذا النحـو: "ابكرب يثع ملك معن ووقه آل صدق"، "أبكرب يثع ملك معين ووقه ايـل صديق"، وعندي إن هذا الفراغ يمثل حرفين، هما "بـن"، أي "ابـن" فتكـون الجملة: "ابكرب يثع معن بن وقه آل صدق"، "أيكرب يثع ملـك معـن ابـن وقه ايل" وبذلك ينسجم المعنى، إذ إن "وقه آل صدق"، هو والـد "أيكـرب يثع" فاذا ذكر اسم الأب بعد لفظة "ابـن"، انسـجم المعنـى. أمـا إذا وضـعنا حرف العطف "الواو"، بين الاسمين، نكون قد قدمنا اسم الابـن عـلى اسـم الأب، وفي ذلك نوع مـن سـوء الأدب، أو دلالـة عـلى إن الابـن هـو الملـك الحقيقي، وان والده لم يكن شيئاً يومئذ، أو كان ملكاً بالاسم فقـط. عـلى إنـه حتى في هذه الأحوال والاحتمالات، لا يوضع اسم الأب بعد اسم الابن.

وقد أرخت الكتابة بأيام تولي "اوس" من "آل شعب" منصب "كبير" تلك المنطقة التي كان يقيم فيها صاحب تلك الكتابة.

وعثر على كتابة في مدينة "يثل" "براقش"، وجاء فيها اسم ملك يدعى "عم يثع نبط" "عميثع نبط" "عمى يثع نبط". وهو ابن الملك "ابكرب يثع" المذكور.

وقد ورد اسم الملك: "عم يثع نـبط بـن ابكـرب" "عميثـع نـبط بـن أبكرب" في كتابة دونت لمناسبة حبس أرض لآلهة معـين، لتكـون وقفـاً عـلى معبد الإلَه "عثتر شرقن"، أي "عثتر الشارق" بمدينة "يثل".

أما "البرايت"، فقد وضع اسم "عم يثع نبط" في المجموعة الأولى من مجموعاته الثلاث التي كونها لملوك معين. وقد جعل حكمه في حوالي السنة "٣٠٠ ق. م.". وذكر إنه رجل اسمه "اب كرب" "أيكرب". وقد أشار إلى إن "اب كرب" هذا هو غير "اب كرب يثع" الذي هو ابن الملك "وقه ايل صدق"، الذي كان "حكمه - على رأيه - في أواخر القرن الثاني لما قبل الميلاد.

ويرى "فلبي" وجود فترة قدّرها بنحو عشرين سنة، لا يدري من حكم فيها بعد "عم يثع نبط"، وقد كانت في حوالي السنة "١٠٤٠ ق. م."، وقد انتهت في حوالي السنة "١٠٢٠ ق. م." بتولي الملك "صدق ايل" عرش معين. وهو ملك من ملوك حضرموت. فيكون بذلك قد جمع في شخصه بين عرش حضرموت وعرش معين، ثم انتقل العرش إلى "اليفع يثع"، وهو ابنه، وقد حكم - على رأي "فلبي" - في حوالي السنة "١٠٠٠ ق. م.". وكان له شقيق اسمه "شهر علن" "شهر علان"، انفرد بحكم حضرموت. وبذلك انفصل عرش حضرموت عن عرش معين.

وبين تقدير "فلبي" هذا لحكم "صدق ايل" ولحكم ابنه "اليفع يثع" وتقدير "البرايت" الذي جعل حكم "صدق ايل" في حوالي السنة ٤٠٠ ق. م فرق كبير. كذلك نجد بين ترتيب "فلي" وترتيب "البرايت" للملوك فرقاً كبيراً. ف "اليفع يثع" وهو ابن "صدق ايل" هو أول ملك ملك عرش معين على رأي "البرايت"، على حين أخره "فلبي" على نحو ما رأيت، إلا أنهما يتفقان في إن "صدق ايل" والد "اليفع يثع" كان ملكاً على حضرموت. ثم

يعودان فيختلفان أيضاً، ذلك إن "فلبي" جعله ملكاً على حضـرموت ومعين، أما "البرايت" فلم يدخلل اسمه في قائمته لملوك حضرموت.

وحكم بعد "اليفع يثع" ابنه "حفن ذرح" وكان حكمه في حوالي السنة "٩٨٠ ق. م." على تقدير "فلبي". وكان له شقيق اسمه "معدكرب" "معـد يكرب"، ولي عرش حضرموت. ولم يـذكر "البرايـت" اسـم هـذا الملـك في قائمته لملوك معين.

وقد ذكر "فلبي" إنه كان لي "حفن ذرح" شقيق، اسمه "معـد كـرب" "معد يكرب"، ولي عرش حضـرموت.

أما الذي ولي عرش "معين" بعـد "حفـن ذرح"، فهـو "اليفـع ريـم" "اليفع ريام". وقد حكم في حوالي السنة "٩٦٥ ق. م." على تقـدير "فلبـي" وهو ابن "اليفع يثع". وقد حكم حضرموت أيضـاً، وذلـك لأن ولـد "معـد يكرب" لم يحكموا عرش حضرموت.

ثم انتقل حكم معين إلى "هوف عث" "هوفعشت" "هو عشت" مـن بعد "اليفع ربام"، وهو ابنه. وقـد ولى الحكـم سـنة ٩٥٠ ق. م. - عـلى رأي "فلبي" - ودون ذلك بمئات من السنين على رأي "البرايت".

وانتقل العرش إلى "أب يدع يشع" "أبيدع يشع" بعد "عـوف عثـت" وقد كان حكمه في حوالي السنة "٩٣٥" قبل الميلاد أما "البرايـت" فـيرى أن زمان حكمه كان في حوالي السنة "٣٤٣" قبل الميلاد. وهو ابن "اليفع ريام".

وجاء في الكتابة المرقمة برقم ١١٥٠ Glaser :و١٩٢ Halevy وهي كتابة تتألف من جملة أسطر ومصدرها مدينة معين، اسم الملك "اب يدع يثع" ورد لمناسبة قيام جماعة من أشراف مدينة "قرنو" "قرن" "القرن" بإصلاح خنادق هذه المدينة وترميم أسوارها وإنشاء محلة جديدة فيها. وصاحب هذه الكتابة والآمر بتدوينها، هو "علمن بن عم كرب" من أسرة "ذي حذار" "ذي حذأر"، أي "آل حذار" ورئيس "كبأن" "جبأن" وصديق ومكتسب عطف ومودة "موددت" ملك معين "اب يدع يثع"، و والد عدد من الأولاد ساعدوه في هذا العمل، هم "ياوس آل" "ياوس ايل" "يأوس ايل"، و "يذكر آل" "يذكر ايل"، و "سعد آل" "سعد ايل" و"هب آل" "وهب ايل"، و "يسمع ايل" "يسمع آل". وقد قاموا بهذا العمل تقرباً إلى آلهة معين: "عثتر ذ قبضم" "عثتر ذو قبض". و "ودّ" و "نكرح" و إلى ملك معين. وقد جرى العمل في ربع "ربعن" المدينة، المسمى "رمشو" "رمش"، وقد امتد إلى موضع "شلوث". وبعد الانتهاء من هذا العمل ذبحت القرابين على عادتهم للآلهة "عثتر" "رب" "قبض" "عثتر ذ قبضم" و "ود". وذكرت الكتابة تفاصيل الأعمال التي تمت ومواضعها ومقدارها وغير ذلك مما يذكر عادة في وثائق البناء.

وهناك كتابة أخرى عثر عليها في "قرنو"، وهي الكتابة التي أشير إليها بعلامة١٩٣ Halevy ، ورد فيها اسم الملك "اب يدع يبع"، وهي من الكتابات المهمة التي تشير إلى الصلات السياسية التي كانت في هذا العهد بين مملكة معين ومملكة حضرموت. وقد جاء فيها إن "معد يكرب" ملك

حضـرموت وقف حصن "خرف" للإله "عثتر ذ قبضـم"، وقـد بنـى ذلك الحصن "شهر علن بن صـدق آل" ملـك "حضرـموت" ونـذره للإلـه "عثتر ذ قبضم" و "عثتر شرقن" و"ود" و "نكـرح"، وقدمـه إلى ابـن أخيـه "اب يدع يثع" ملك (معين)، وشعب معين.

وورد اسم الملك "معد يكرب بن اليفع يثع" في الكتابة الموسـومة ب : Halevy، وهي من الكتابات التي عثـر عليهـا في خرائـب مدينـة "يثـل"، و تتحدث عن إنشاء بناء في مدينة "وكل"، كما ورد اسم الملك "اب يـدع يثـع" واسم "معد يكرب بن اليفع" في كتابة أخـرى عثـر عليهـا في "يثـل" أيضـاً. وورد اسم "اب يدع يثع" في ثلاث كتابات أخرى. وورد في اثنين منهـا اسـم ابنه "وقه آل ريم" "وقه ايل ريام" معه.

وتشير هذه الكتابات إلى إن "معد يكرب بن اليفع يثع"، أي ابن أخـي "أب يثع بن اليفع ريام" كان معاصراً ل "اب يدع" وان الصـلات بـين ابنـي الشقيقين كانت وثيقة وحسنة. وهي كتابات تفيـد المـؤرخ بـالطبع كثـيراً في محاولاته لوضع قائمة بأسماء ملوك حضـرموت وملوك معين، إذ إنها جعلتنـا نتفق في إن حكمي الملكين كانا في زمن واحد تقريباً، ومكّنتنا.ذلك من تثبيت أسماء بقية أسرتيها على هذا الأساس بحيث لا يبقى هنـا موضـع للجـدل في موضع ترتيب أسماء رجال هذه الأسرة الحاكمة في حضرموت وفي معين.

ومـن الكتابـات المعينيـة المهمـة، كتابـة رقمـت بـرقم Glaser ٥٣٥ Halevy=١١١٥، ٥٧٨ Halevy، ترجع أيامها إلى أيام الملك "اب يدع يثع". وهي تتحدث عن حرب وقعت بين "ذيمنت" و"ذ شامت"، أي بين

الجنوب والشمال، ولا يعرف مقصود الكتابة من الجنوب ومن الشمال على وجه أكيد.وقد ذهب "ونكلر" إلى إن المراد ب "الجنوب" حكومة معين، وأن المقصود من الشمال حكومة عربية، هي حكومة "أريبى" التي كان يمتد سلطانها على زعمه، إذ ذاك إلى أرض دمشق. وقد دونت هذه الكتابة لمناسبة نجاة قافلة كبيرة ضخمة من غزو تعرضت له بين موضع "معن" أي "معين" على قراءة، أو موضع "ماون" "ماوان" على قراءة أخرى: وبين موضع "ركمت" "ركمات". و إذا صح إن الموضع الأول المذكور هنا هو "معن"، فبكون الهجوم على القافلة المذكورة قد و.قع ف!ما بين "مص ين" العاصمة وموضع "رممت". وإذا كان الموضع "مون" أو "ماوان"، يكون الهجوم قد وقع عليها في المنطقة التي بين "مون" "ماوان" و "ركمت."

ولا نعلم من أمر "مون" "ماوان" شيئاً على وجه التأكيد، وقد ذكر "ياقوت الحموي" اسم موضع دعاه "ماوان"، قال عنه: "واد فيه ماء بين النقرة والزبدة، فغلب عليه الماء، فسمي بذالك الماء ماوان.

وقد أمر بتدوين هذه الكتابة "عم صدق" "عميصدق" "عم يصدق"، "عم صديق" ابن "حم عثت"، "ذو يفعن" و "سعد بن ولك" "ذو ضفكن"، وكانا "كبر" كبيرين على "مصر" وعلى "معن مصون" "معين مصران". وقد أمر بتدوينها، شكراً لآلهة معين: "عثتر ذو قبض" و "ود" و "نكرح"، لأنها نجت القافلة وأنقذتها من الوقوع في أيدي الغزاة، كما قاما بتزيين معبد "تنعم"، وذلك في عهد ملك "معين" "أب يدع يثع". وقد ورد في الكتابة ذكر حرب وقعت بين "مذى" و "مصر" في وسط "مصر".

وقد!شكر الآلهة على إن سلمت أموال المعينيين في هذه المنطقـة أيضـاً، وحفظت أرواح رجال القافلة وشملتها برحمتها وحمايتها إلى إن أبلغتها حدود مدينتهم "قرنو"، شكراً وتسبيحاً بحمد "عثـتر شرقـن" "عثـتر الشـارق" و "عثتر ذو قبض" و "ود" و "نكرح" و "عثتر ذي يهرق" "وذات نشق" كـل آلهة معين، و "يثل"، وملك معين "أب يدع يثع" وبـابني "معـد يكـرب بـن اليفع"، وشعبي معينو يثل.

ولم يرد في الكتابة ذكر الجهة التي كانت تقصدها هذه القافلـة، أكانـت متجهة من معين نحو الشمال، أي من اليمن نحو بلاد الشام، أم كان اتجاههـا على العكس من "معين مصران" نحو الجنوب قاصدة اليمن، ولكن القـرائن تدل أنها كانت راجعة عائدة أي متجهة نحو اليمن، نحو العاصـمة "قرنـو"، وقد تعرضت لأخطار كثيرة بسبب الحـرب المـذكورة وبسـبب الغـزو الـذي تعرضت له، وهي في طريها إلى وطنها.

وقد كانت مثل هذه القوافـل هـدفاً ممتـازاً للقبائـل والعشـائر وقطـاع للطرق، لما تحمله من أموال. وهي وان أمنت عـلى نفسـها باتفاقـات تعقـدها الحكومات ويعقدها أصحاب الأموال مع سادات القبائل الذين تمـر الطـرق من مناطق نفوذهم، إلا إن مثل هذه الاتفاقات لم تكن كافية لحمايـة الأمـوال المغرية التي تحملها الجمال من طمع الطامعين فيهـا. وقـد يقـع الاعتـداء مـن قبائل أخرى معادية لسادات القبائل الذين يحمون تلك الطرق. ولهذا كانـت أموال التجار معرضة دائماً للأخطار، وعلى التجار أيضاً زيادة أسعار أموالهم،

بسبب الضرائب المستمرة التي يدفعونها لسادات الطرق، وبسبب الزيادات التي يفرضونها في إتاواتهم هذه، وإلا تعرضت القوافل للسلب والنهب. ولهذا لا غرابة إن نذر التجار لآلهتهم وحمدوها وسبحوا بأسمائها عند عودتهم سالمين من تجارتهم، أو عادت قوافلهم سالمة، فيوم العودة هو في الواقع يوم فرح وعيد.

واختلف الباحثون في تعيين الحرب التي نشبت في وسط مصر بين "مذى" و"مصر" اختلفوا في تعيين زمن وقوعها كما اختلفوا في تثبيت هوية المتحاربين. فذهب بعضهم إلى إن المراد من "مذى" "الماذيين"، ويراد بهم "الماديون" "الميديون"، وهم طبقة من طبقات الايرانيين، ورأوا إن المعينيين كانوا قد أطلقوا "مذى" علهم محاكاة لبني إرم، وكانوا على اتصال وثيق بهم. ولهذا دعوا ب "مذى" في هذه الكتابة. ومن بني إرم تعلم المسلمون نسبة "الماذيين" "الميذيين"، فقالوا إنهم من نسل "ماذي بن يافت بن نوح". وقد ذكر الطبري اسم "كيرش الماذوي".ف "مذى" و "ماذي" اذن بمعنى "مادي" و"ميديا Media" و"ماذي" هو "مادي" الابن الثالث ليافت في التوراة ومن نسله تسلسل الماديون.

وذهب "فلي" إلى أن "مذي" هم "المدينيون"، أهل مدين "المديانيين" الذين عرفوا بتحرشهم بالعبرانيين. وهم سكان ارض "مديان" "مدين"، وهي أرض واسعة تمتد من خليج العقبة إلى موآب وطور سيناء. ويرى أن الحرب المذكورة قد وقعت بينهم وبين أهل "معن مصرن" أي "معين المصرية". وراى "هومل" إن "مذي" هم جماعة من بدو طور سيناء.

ونجد "فلبي" نفسه، يخالف نفسه في مناسبات أخرى، فقد ذهب مـرة إلى أن "مذي" هم جماعة عرفوا به "مذوي Madhoy"أو Maroe أو Maziou ، وبين هؤلاء وبين "مصر" وقعت تلك الحرب.

واختلفوا في زمن وقوع تلك الحرب، فـذهب "ونـت" إلى أن الحـرب المذكورة في هذا النص، حرب "مذي" و"مصر" هي الحرب التي وقعت بين "الميـديين" والمصـريين في سـنة ٣٤٣ ق. م. وقـد اسـتولى فيهـا "أرتحشـتا أوخوس" "أرطخشت أوخوس Artaxerxes Ochus"على مصـر. وإلى هـذا الرأي ذهب "البرايت Albright" كذلك أمـا "ملاكـر K. Mlaker" إن هـذه الحرب، هي الحرب التي وقعت في حوالي سنة "٥٢٥ق. م." فادت إلى فـتح "قمبيز" "كمبيس Cambyses" لمصر. ومن اخـتلافهم في قـدير زمـن وقـوع هذه الحرب، اختلفوا في زمن حكم "اب يدع يثـع" ملـك معـين، وفي حكـم سائر ملوك معين، من مبدأ أول ملك إلى س آخر ملك من ملوك هذه الدولة.

وقد ذهبـت "بـيرين J. Pirenne" إلى إن الحـرب المـذكورة وقعـت في الفـترة الواقعـة فـيما بـين ٢١٠ إلى ٢٠٥ ق. م، وأن المـراد مـن "مـذي" "السلوقيون" ومن "مصر" البطالمة، وأنها قـد تشـير إلى الاسـتيلاء عـلى "غزة" في سنة ٢١٧ ق.م. تقريباً، وإلى المعركة التي تلتها ووقعت عند موضع Rapheia.

ويرى البعض أن لفظة "مذي" إنما كانت تعني الحكومـة التـي تحكـم العراق، ولو لم تكن من "الماذويين" "الجديين"، وأن "مصـر" تعني الحكومة التي تحكم مصر من غير تقيد بجنسية الحاكمين لها. ويستشهد على هذا بورود

لفظة "مذي" "همذي" في نص "صفوي" من سنة ٦١٤ للميلاد، وقد قصد بهم "الفرس". ويرى أن اطلاق لفظة "همذي" أي "الميذيين" على الفرس لا يثير اعتراضاً كبيراً مثل الاعتراض الذي يثار حول تفسير "مذي" بـ "سلوقيين"، إذ إن الساسانيين هم فرس، والماذيين فرس كذلك، وأن كانوا من جيلين مختلفين، أما "السلوقيون"، فقد كانوا يونانياً، وليست لهم علاقة يالفرس، ثم من يدرينا إن أهل ذلك العهد من العرب كانوا يطلقون على كل من يحكم العراق، "ميذيين" "مافويين"، وفي جملتهم هؤلاء السلوقيون.

هذا وقد ورد في النص اسم أرض دعيت "ااشور" "ااشر"، ووردت معها لفظة "مصر". وقد ذهب بعض الباحثين فبه إلى أن الكبيرين المذكورين كانا يمثلان ملك معين في "مصر"، أو في "صور" على بعض القراءات وعند ملك "ااشر" "ااشور" و "عبر نهران". وذهبوا إلى أن "ااشر" "ااشور" هي "آشور"، أو البا دية. أما "هومل" و"كلاسر" فذهبا إلى إن المراد من "ااشور" أرض تقع على حدود مصر، سكنها شعب دعي في التوراة بـ "اشوريم Asshurim"، وهم "ولطوشيم Lutushim" و"لويميم Leummim" قبائل عربية جعلتها التوراة من نسل "ددان Dedan "ديدان" من إبراهيم من زوجه "قطورة". وقد ورد في "التركوم Taegum "إن معنى "اشوريم" سكان الخيام. وقد وردت اللفظة "ااشور" "اشور Ashur" في كتابتين معينيتين.

وعلى راي "هومل" و "كلاسر" يكون الكبيران المذكوران في الكتابة، وهما أصحابها، قد حكما ومثلا ملك معين في معين المصرية" وفي أرض "االاشور" أي في منطقة تمتد من مصر إلى "بئر السبع Beersheba " و"حبرون Hebron".وهي طور سيناء عند "هومل"، والأرض الواقعة بين السويس إلى "غزة" وجنوب فلسطين عند "كلاسر."

وأما الميغرون على القافلة والذين أرادوا الاستيلاء عليها، فهم قوم من "سبأ" و"خولان على رأي الباحثين. وقد ورد اسم الخولانيين في نصوص عربية جنوبية مما يدل على أنهم كانوا من القبائل المعاصرة للسبئيين.

ويتبين من هذا النص أن حربين قد نشبتا قبل تدوينه، حرب نشبت بين "ذيمنت" و "ذ شامت"، أي بين سادة الجنوب وسادة الشمال، وحرب أخوى هي الحرب التي نشيت ببن "مذي" و "مصر". وقد أصاب المعينيين من هاتين الحربين خسائر كبيرة. أما متى نشبت الحربان وكم كانت المدة بينهما، وبين الهجوم على القافلة المعينية المذكورة، فليس من الممكن تقديم أجوبة عنها مقنعة ومقبولة، لقلة ما لدينا من كتابات ووثائق، وقد رأينا اختلاف أهل العلم في تقدير تاريخ هذا النص، بسبب أخذهم بالحدس والتخمين، لذلك أرى أن من الصواب ترك هذه الإجابة إلى المستقبل.

وقد رأينا إن هذا النص دوّن في أيام الملك "اب يدع يثع"، وقد أشير فيه إلى ابني "معديكرب بن اليفع" إلا إنه لم يذكر اسميهما ولا نعتهما فجعلنا بذللك بجهل من أمرهما. وهذا لم يتمكن الباحثون من وضعهما في قائمة

ملوك حضرموت إلا إن "فلبي" ذكر انهما لم يتربعا على عرش تلك المملكة لأنها ضمت إلى معين وبقيت مدة قدرها بحوالي ثلاثة قرون مندمجة فيها إلى حوالي السنة "٦٥٠" قبل الميلاد حين انفصلت عن معين، وتولى الحكم عليها - على رأيه - الملك "السمع ذبيان بن ملككرب."

وذكر اسم الملك "ابيدع يثع"، واسم ابنه "وقه آل ريم" "وقه أيل ريام" في النص الذي وسم بRep. Epig., ٣٥٣٥ ، وهو نص دوّنه "سعد ابن هوفعثت" من "آل ضفجن" "آل ضفجان" "آل ضفكان" عند بنائه "مذبا" "مذابا"، وصاحب هذه الكتابة هو من العشيرة التي ينتمي إليها صاحب الكتابة Glaser ١١٥٥ المذكورة. وقد كان "كبيراً" كذلك. تولى إدارة مقاطعة "معن مصرن" "معين مصران"، أي "مصين المصرية"، وقد دعيت، بذلك لأن سكانها من المعين الساكنين في الشمال في العلا وما جاورها على الحدود المتاخمة لشرق "مصر". وقد تيمن بهذه المناسبة على عادة العرب الجنوبيين بذكر آلهة معين ثم ملك معين وابنه، مما يدل على إن ابنه كان يشاركه يومئذ في تدبر الأمور، كما شكر "مجلس معين" و "مشود معن" "مزود معين."

وجاء بعد "اب يدع يثع" "أبيدع يثع" على عرش معين الملك "وقه آل ريم" "وقه ايل ريام" ابن الملك "أبيع يثع" "أب يدع يثع". وابن "هوف عث" "هو فعث" على رأي "فلبي". أما "البرايت"، فقد جعله في موضع ابن "هو فعث"، غير إنه عاد في مواضع أخرى، فجعله ابنا من أبناء "أب يدع يثع."

وانتقل الحكم إلى "حفن صدق" "حفن صديق" بعد "أب يدع يثـع"، وهو ابن "هوفعث" على رأي "فلبي"، وابن "وقه آل ريم" "وقه ايـل ريـام" على رأي "البرايت". وكان "البرايت" قد جعله في بحث آخر نشره مـن قبـل شقيقياً ل "وقه ايل ريام"، أي إنه جعله أحد أبناء "أب يدع يثع."

ثم صار الحكم إلى "اليفع يفش" بعد "حفن محـدق"، وهـو ابنـه عـلى رأي "فلبي" أما ! البرايت" فقد ذكر في بعض من بحوثه إنـه ابنـه، غـير إنـه وضع أمام قوله هذا علامة استفهام إشارة إلى إنه غير واثق برأيه كل الوثوق، ووضع في بحث له أخر في ملوك المعينيين جملة اشترك مـع "حفـن صـدق في الحكم"، من غير إن يشير إلى علاقته به.

ووضع "فلبي" فراغاً بعد اسم "اليفع ي فش"، لا يـدري مـن حكـم فيه، قدره على عادته بعشرين عاماً، ويقابل ذلك حوالي السنة "٨٧٠ ق. م."، وجعل نهايته في سنة "٨٥٠ ق. م."، ثم وضع بعده أسرة جديدة، زعم إنها – حكمت معيناً على رأسها "يثع أيل صديق" "يثع آل صدق" ولا نعـرف الآن من أمره شيئاً إلا ما ورد في كتابة من الكتابات من أنـه بنـى حصـن "يشـبم" "يشبوم"، وأنه والد "وقه آل يثع" "وقه أيل يثـع" ملـك معـين. و "وقـه آل يثع" هو والد "اليفع يعشر" الذي ضعفت في أيامه حكومة معـين كـما يظهـر ذلك من كتابة كتبها أهل "ذمرن" "ذمران" لمناسبة وقفهم وقفاً على معبدٍ، إذ ورد: "في أيام سيدهم، وقه آل يثع وابنه اليفع يشر، ملك معين، وباسم سيدة شهر يكل يهركب ملك قتبان". ويظهر منها إنها كتبت في أيام "وقه آل يثع"،

وكان ابنه "اليفع" يحمل لقب "ملك"، كذلك وأن حكومة قتبان كانت أقوى من حكومة "معين"، ولهذا اعترف ملك معينبسيادة ملك قتبان عليه.

وقد ورد اسم "اليفع يشر" في كتابات أخرى، منها الكتابة الموسومة Halevy=١١٤٤ Glaser قد دونت بأمر جماعة م ن أهل "نيط" لمناسبة قيامهم بترميمات و إصلاحات في الأبراج وحفر قنوات ومسايل للمياه تقرباً إلى آلهة معين. ومنها كتابة دونت في "نشن" "نشان"، وكتابة دونت في "قرنو"، ويظهر من هذه الكتابة الأخيرة ما يؤيد رأي القائلين إن حكومة قتبان كانت اقوى من حكومة معمين إذ ذاك، و إنها فرضت نفسها لذلك عليها إلا إن هذا لا يعني إنها فقدت استقلالها وصارت خاضعة لحكومة قتبان فإننا نرى أنها بقيت مدة طويلة بعد هذا العهد محافظة على كيانها، وعلى رأسها ملوك منهم الملك "حفن ريم" "حفن ريام" وهو ابن "اليفع يشر" وشقيقه "وقه آل نبط" و"كه ايل نبط."

وورد اسم "اليفع بشر" في كتابتين عثر عليهما في "الديدان" "ددن" "ددان" "العلا"، أمر بتدوين إحداهما "وهب آل بن حيو ذعم رتنع" "عمى رتنع" من أعيان المعينيين في الشمال ومن "الكبراء". وأما الكتابة الأخرى فتعود ل "يفعن" "يفعان" من رؤساء "ددان" كذلك. وقد كان هذان الرجلان من أسرتين كبيرتين عرفتا في أيام معين المتأخرة وفي عهد اللحيانيين، وورد اسم الأسرتين في عدد آخر من الكتابات.

وورد في النص الموسوم ب Rep. Epigr., ٣٧٠٧ اسم الملك "وقـه آل نبط" وورد فيه اسم المدينة "قرنو" العاصمة. وهذا النص دون في أيـام "هنـا فامن" "هانىء فأمان" الذي كان كبيراً على هذه المنطقة التي دُوّن فيه النصـر، وهي منطقة "الخريبة" في أرض مدين أي في الأرضين التي سكنها المعينيـون الشماليون. والملك المذكور هو ابن الملك "اليفع بشر" وشقيق الملـك "حفـن ريام."

أما "البرايت"، فقد وضع هذه الأسرة التي يرأسها "يثع ايل صـدق"، في نهاية الأسر الحاكمة لحكومة معين. وتتألف عنده من "يثـع ايـل صـدق"، ومن "وقه ايل يثع" ابنه، ومن "اليفع بشر"، ومن "حفن ريام"، ومـن "وقـه ايل نبط"، وقد كان حكم "وقه ايل صدق" - عـلى رأيـه - في حـوالي السـنة ١٥٠ق. م وكان تابعاً للملك "شهر يبل يهرجب" "شهر يكل يهركب" ملك قتبان.

وترك "فلبي" بعد اسم "حفن ريام" و "وقه ايل نبط" فراغاً لا يـدرى من حكم فيه، قدره بعشرين عامـاً، ويبـدأ - عـلى رأيـه - مـن سـنة "٧٧٠" وينتهي بسنة "٧٥٠ ق. م."، ثم وضع بانتهائه ابتـداء أسرة أخـرى جديـدة، جعلها الأسرة الرابعة من الأمر التي حكمت حكومة معين. وقـد ابتـدأها بي "ابيدع ريام"، ثم بابنه "حل كرب صدق" "خال كرب صـديق". وقـد ورد اسمه في كتابة وجدت في "قرنو" لمناسبة "تدشين" معبـد "لعشـتر ذ قـبض" "عثتر ذو قبض"، وكان له ولدان، هما: "حفن يثع" و "أوس" وقد تولى

"حفن يثع" عرش "معين" بسد وفاة أبيه"، ومـن الجـائز - عـلى رأي "فلبي" - إن يكون شقيقه "أوس" قد اشترك معه في الحكم.

وورد عهد الملك "خلكرب صدق" "خالكرب صـديق" "خـالكرب صادق" في الكتابة المرقمة ب٢٤٣ Halevy=١١٥٣ Glaser ، وذلك لمناسبة تقديم جماعة ذكرت أسماؤهم في الكتابة نـذراً إلى الآلهـة "عثـتر ذ فـبض" في معبده بي "رصف" "رصاف" "رصفم" لقبيلة "هورن" "هوران". فـذكروا إن ذلك كان تيمناً بآلهة "معين" و "يثل" في عهد هـذا الملـك. وأمـا الرجـال الذين قدموا ذلك النذر، فهم: "مشلك بن حوه" من "خد مـن" "خـدمان" "آل خدمان" من قبيلة "زلتن" "زلتان"، و "أوس بن بسل" "باسل مـن "آل وكيل" "ذو كل" و"متعن بن حمم" "متعان بن حمام" مـن "آل وكيـل"، "ذو كل" و "باسل بن لحيان". من "آل وكيل" و "ثني بن أيانس". من قبيلة "معهرم" "معهر"، و"مذكر بن عمانس" من "حرض" وآخـران. وقـد ذكـر بعل اسم الملك اسم "الكبير" "كبر" ٦ الذي كان يحكمهـم، وهـو "مشـك" من "آ ل خد من" "آل خدمان."

ويرى "فون وزمن" إن الملـك "خـل كـرب صـدق"، "خـال كـرب صديق"، هو الذي بنـى معبـد "رصـف"، "رصـفم"، المعبـد الشـهير عنـد المعينيين. ويقع هذا المعبد خارج سور "قرنو" العاصمة، عـلى مسـافة حـوالي ٧٥٠ متراً من المدينة. وقد عثر في أنقاضه على عدد من الكتابات.

وتيمن من بذكر الملك "خالكرب صديق" ملك معين في نص آخر، دوّنه "مشك بن حوه" من "آل خدمان" من قبيلة "زلتان" أي الشخص الذي مرّ ذكره في الكتابة السابقة بالاشتراك مع أناس آخرين، هم: "حيوم بن هوف" و"وينان" ٢ و "مأوس" ابن عمه من "آل كزيان"، "جزيان" و "هبان" "وهب" وأخوه "اكر" ابنا "صبح" من "آل جزيان"، و "اوسان"، وجماعة آخرون سقطت أسماؤهم من الكتابة. وقد ذكر بعد اسم الملك اسم "الكبير" الذي في عهده كتبت الكتابة وهو "مشك ذ خدمان" أي "مشك" من "آل خدمان" أو "كبير خدمان" "ذو خدمان" وهو الكبير المذكور في الكتابة السابقة.

وقد ورد اسم هذا الملك في الكتابة الموسومة ب .٢٤٢+٢٤١ Halevy وقد أمر صاحبها بتدوينها لمناسبة تبحيره بئره المسماة "ثمر" "ثمار" على مقربة من معين وتوسيعها وطيها "أي بنائها"، وتسويره مزارعه وقد قوّى وحصن البرج المشرف عليها. وتيمناً بهذه المناسبة، ذكر اسم "عثتر ذ قبض" و "ود" و"نكرح" و "عثتر ذ يهرق" آلهة سعين، والملك "خالكوب صديق" وشعب معين.

أما "البرايت"،فكان قد ذكر في نهاية بحث له نشره في سنة ١٩٥٠م عن ملوك معين إن هناك ما لا يقل عن خمسة ملوك نعرفهم أنهم من ملوك معين غير إننا لا نستطيع إن نعرف مواضعهم التي يجب إن يوضعوا فيها بين ملوك معين. و هؤلاء الملوك هم: "أبيدع ريام"، ثم ابنه "خلكرب صدق"

"خليكرب صديق" "خال كرب صديق"، ثم ابنه "حفنم يثع" "حفن يثع"، ثم "يثع ايل ريام" وابنه "تبع كرب."

ثم عاد "البرايت" فغير رأيه في بحثٍ نشره في سنة ١٩٥٣ م في هذا الموضوع أيضاً: موضوع ترتيب ملوك معين. فقد وضع اسم "يثع ايل ريام" بعد اسم "عم يثع نبط" وهو ابن "اب كزب" "أبكرب". وقد حكم - على رأيه - بعد "اليفع يفش" وذلك في حوالي السنة "٣٠٠ ق. م."، ثم وضع بعده اسم "تبعكرب" "تبع كرب"، وهو ابن "يثع ايل ريام" ثم ذكر اسم "خليكرب صدق" "خاليكرب صديق" "خال كرب صديق" من بعده، وهو ابن "أبيدع ريام"، وقد كان حكمه في حوالي السنة ٢٥٠ ق. م. ، ثم جعل اسم "حفن يثع" من بعده وهو ابنه. وبذلك قدّم هذه الأسماء في هذا البحث بأن جعلها في المجموعة الأولى من المجموعات الثلاث التي حكمت مملكة معين.

وقد ختم "فلبي" قائمته لأسماء ملوك معين بان وضع فراغاً مقداره عشرون عاماً، لا يدرى من حكم فيه، أنهاه بسنة "٦٧٠ ق. م."، ثم تحدث عن أسرة خامسة زعم إن أعضاءها هم: "يثع ايل ريام"، وقد حكم في حوالي السنة "٦٧٠ ق. م."، ثم "تبع كرب " وهو ابنه وقد كان حكمه من سنة ٦٥٠ ق. م. حتى سنة ٦٣٠ ق. م.. وكان له شقيق اسمه "حيو" "حي" ربما كان قد شاركه في الحكم. وبذلك أنهى "فلبي" قائمته لملوك "معين."

وقد وضع "البرايت" قائمة رتب فيها ملوك معين، نجعل أولهم "اليفع يثع"، وقد حكم على رأيه حوالي سنة "٤٠٠ ق. م."، وابن "صدق ايل" ملك حضرموت. وعندي إن البدء بهذا الملك على إنه أقدم ملوك معين، يدل على أن مملكة معين كانت في أقدم عهودها خاضعة لمملكة حضرموت، وهو يحتاج إلى دليل، ولم يرد في نص أن حكومة معين كانت خاضعة في بادئ الأمر لحكومة حضرموت، ثم استقلت عنهما، بل يذهب أكثر علماء العربيات الجنوبية إلى تقدم معين على حضرموت في القدم. ويلاحظ أيضاً إنه جعل الملك "يدع ايل" على رأس قائمة ملوك حضرموت وقد كان هذا الملك على رأيه أيضاً معاصراً للملك "كرب آل وتر" "كرب ايل وتر"، وقد حكم على رأيه حوالي سنة ٤٥٠ ق. م.

والواقع إننا لا نستطيع التحدث عن صلة "صدق ايل" ملك حضرموت بمعين بصورة جازمة، وان كان الغالب على الظن أنه كان ملكاً على شعب معين وشعب حضرموت. ولكننا لا نستطيع إن نؤكد إنه كان حضرمياً، كما أننا لا نستطيع إن نقول جازمين إنه من معين وقد سبق إن تحدثت عنه، والظاهر أنه كان ملكاً أيضاً على معين، وقد سبقه بالطبع جملة ملوك حكموا دولة معين كانوا من المعينيين. أما ابنه "اليفع يثع"، الذي جعله "البرايت" أول ملوك معين، فقد ورث عرش معين من أبيه على نحو ما رأى "فلبي"، على حين ورث شقيقه "شهر علن" "شهر علان" عرش حضرموت. وهذا يدل على أن رابطة دموية كانت تربط بين حكام الشعبين،

يؤيد ذلك إن "معد يكرب ابـن اليفـع يثـع" هـو الـذي تـولى عـرش حضرموت بعد "شهر علن" أي بعد وفاة "عمـه"، وأبـوه كـما رأيـت ملـك معيناً.

وجعل "البرايت" "حفن ذرح" بعد "اليفح يثـع"، وهـو ابنـه ولعلـه الابن الأكبر، وهو شقيق "معـد يكـرب" ملـك حضرـموت، أي أن ولـدي "اليفع يثع" كانا قد اقتسما تاج معين وتاج حضرموت.

وتولى عرش معين بعد "حفن ذرح" "اليفع ريـام"، وقـد تـولى أيضـاً عرش حضرموت على رأي "البرايت"، ثم تولى بعده "هوف عث"، ثـم "اب يدع"، وهو شقيقه وابن "اليفع ريام"، وإلى أيامه يعـود الـنص المعـروف ب ٥٧٨+ ٥٣٥ Halevy،الذي يتحدث عن حرب نشبت بين "مدي" "ماذي" و "مـصر". ويرى "البرايت" استناداً إلى هذا النصر إن حكمه يجب إن يكـون في حوالي عام ٣٤٣ ق. م. أما "فلبي" فقد جعل حكمه في حـوالي عـام ٩٣٥ ق. م. ، وجعله العاشر بحسب تسلسل الملـوك. وتتشـابه قائمـة "البرايـت" وقائمة "فلبي" في تسلسل المجموعة التي تولت حكم معين هي والتـي تبـدأ ب "اب يدع يثع" وتنتهي بـ "اليفع يفش"، ثـم تختلـف قائمتـه عـن قائمـة "فلبي"، إذ يذكر "فلبي" أسرة جديدة، يرى إنها حكمت بعـد تلـك الأسرة بمدة قدرها بزهاء عشرين عاماً، على عادته في تقدير متوسط مدة حكـم كـل ملك من الملوك وتبدأ على رأيه ب "يثع ايل صديق" ثم بابنه "وقه ايل يثـع". ثمب "اليفع يشر" ثم ب "حفن ريام" ابن "اليفع يشر"، ثم "وكه ايل بنت"

"وجه ايل نبط". أما "البرايت" فيذكر، قبل هذه السلالة التي تبدأ ب "اليفع وقه"، ثم ب "وقه ايل صديق" ثم ب "اب كرب يثع"، ثم تنتهي ب "عم يثع نبط" "نبط". وقد حكم "اليفع وقه" على رأي "البرايت" في حوالي سنة "٢٥٠ ق. م.". على حين قدم "فلبي" هذه السلالة وجعلها في رأس قائمة ملوك معين. وقد حكم "اليفع وقه" على رأيه حوالي سنة "١١٢٠ ق. م.".

وذكر "البرايت" بعد الأسرة المتقدمة أسرة أخرى جعل على رأسها "يثع آل صدق"، ثم "وقه آل يثع"، وهو ابن "يثع آل صدق"، وقد ذكر أنهما كانا تابعين للملك "شهر يجل يهرجب"، ملك قتبان الذي حكم على تقديره في حوالي سنة "١٥٠ ق. م."، وجعل بعد "وقه آل يثع" ابنه الملك "اليفع يشر" وقد ورد اسمه في كتابة عثر عليها في "ددان" "ديدان"، ثم جعل من بعده ابنه "حفن عم ريام"، ثم شقيقه "وشه آل نبط". وقد ورد اسمه في كتابة "ديدان."

و ذكر "البرايت" إنه لا يستطيع تعيين زمن حكم الملوك "اب يدع ريام" وابنه "خلكرب صدق"، وابنه "جفن عم يثع"، و "يثع آل ريام"، ويرى "فون وزمن" احتمال كون "اليفع يشر الثاني" هو آخر ملك من ملوك معين. وقد لقب "البرايت" هذا الملك "بالثاني"، أيضاً ليميزه عن ملك آخر عرف بهذا الاسم وضعه في الجمهرة الثانية من الجمهرات الثلاث التي

صنعها لملـوك معـين، لهـذا دعـاه ب "الأول". وقـد جـاء في الكتابـة الموسومة ب REP. Epig. ٣٠٢١ اسمه واسم "شهر يجـل يهرجـب" ملـك قتبان، كما سبق إن ذكرت. وهذا مما يدل على إنـه كـان معـاصراً لملـك شـبان المذكور. وقد حكم فـيما بـين السـنة٧٥ ق. م. والسـنة ٥٠ق. م. أمـا "فـون وزمن"، فيرى إن حكمه كان في حوالي السنة ٤٥ ق.م.

وقد عاد "البرايت" كما قلت سابقاً فأعاد النظر في قائمته المذكورة التي وضعها لملوك معين، فقدم وأخر ووضع تواريخ جديـدة، أثـرت إلى بعضـها فيما سبق وسأنقل قائمته نقلاً كاملاً في نهاية هذا الفصل.

وقد جل "البرايت" زمان حكم المجموعة الأولى من حكام معين بـين السنة "٤٠٠ ق. م." والسنة "٢٠٠ ق. م.". أما زمان حكـم المجموعـة الثانيـة فقد جعله بـين السـنة "٢٠٠ ق. م." والسـنة "١٠٠ ق. م." إلى ال "٥٧ق. م.". وأما زمان حم المجموعة الثالثة فمن أوائل القرن الأول قبـل المـيلاد إلى النصف الأخر منه، فما بين السنة "٥٠ق. م." والسنة "٢٥ ق. م.".

غير إنه بيّن إنه لا يريد إن يؤكـد إن قائمتـه هـذه قائمـة ثابتـة لا تقبـل تعديلاً ولا إصلاحاً. فقد يجوز إن تعـدل في المسـتقبل في ضـوء الاكتشـافات الجديدة، كما عدلت قائمته السابقة تعديلاً كبيراً. وقد رتـب قائمتـه الثانيـة في ضوء دراسة تطور الخـط و شـكل الكتابـة عنـد العـرب الجنـوبيين بحسـب العصور. ولكن هذا لا يكفي وحده بالطبع في إبداء إحكام قاطعـة صـحيحة بالنسبة إلى السنين.

أمـا قائمـة "كلـيمان هـوار"، فتتـألف مـن سـبع مجموعـات. رجـال المجموعة الأولى الملك "يثع ايل صديق" والملوك "وقه ايـل يثـع" و "اليفـع يشـر" و "حفن عم ريمم" "حفن ريام". ورجال المجموعـة الثانيـة الملـوك: "اليفع يثع" و"اب يدع يثع" و"وقه ايل ريـام"، و"حفـنم صـديق" "حفـن صديق" "حفن صدق"، و"اليفع يفش". ورجال الجمهرة الثالثة هم الملوك: "اليفع وقه" و "وفه ايـل صـدبق" و "اب كـرب يثـع"، و"عـم يـدع نـبط" "عمى يدع نبط"، ورجال الجمهرة الرابعة الملوك: "اليفـع ريـام" و "هـوف عثت". وأما الجمهرة الخامسة، فتتألف من "أب يدع" ولم يذكر لقبـه، ومـن "خال كرب صديق" ومن "حفن يثع". وأما المجموعـة السادسـة، فتتكـون من "يثع ايل ريام"، و "تبع كرب". وأما المجموعـة السـابعة، فعمادهـا "اب يدع"، ولم يذكر لقبه و "حفنم."

ويلاحظ إن ملوك معـين، وكـذلك ملـوك سـائر الحكومـات العربيـة الجنوبيـة، كـانوا يحملـون ألقابـاً مثـل "يثـع" بمعنـى المنقـذ أو المخلـص، و "صدق" "صدوق" أي "الصـادق" و "العـادل" و "الصـدوق"، و "ريـم" "ريـا م" بمعنـى "العـالي" و "نـبط" بمعنـى "المضيـء"، و "وقـه" بمعنـى "المجيب" و "المطيع"، و ربما بمعنى "الآمر" و "يفش"، بمعنى "الفخور" و "المتكبر" أو "المتعـالي"، و "يشـــر" بمعنـى "المستقيم" و "فـرح"، بمعنـى "الوضاح"، أو "لمنير" أو "المشـرق"، و"وتر"، بمعنى "المتعـالي"، و "بـين" بمعنى "الظاهر" والبين. إلى غير ذلك من ألقاب ترد في الكتابـات المعينيـة و السبئية والقتبانية والحضـرمية والكتابات الأخرى.

ومما يلاحظ أيضاً إن ملوك الروم والرومان والفرس، كانوا أيضاً يتلقبون بمثل هذه الألقاب. وقد تلقب الخلفاء والملوك بمثل هذه الألقاب في العصور ألعباسية. أما الخلفاء الراشدون والأمويون، فلم يميلوا إلى استعمالها، ولعل استعمال العباسيين لها كان تشبهاً بفعل الملوك المذكورين، وبتأثير الموالي الذين نقلوا إلى المسلمين كثيراً من رسوم الملك عند الفرس واليونان.

وقد ورد في الكتابة الموسومة ب٢٠٨ Halevy ، وهي من "معين" اسم ملك من ملوك معين، هو "اليفع يثع"، وذكر بعده اسم "ابيدع" "أبي دع" ولم يلقب أي واحد منهما بلقب "ملك"، وإنما ذكرا بعد ذكر أسماء آلهة معين. وجاء بعد ذلك في جملة تالية "وملوك معين". ويظهر بوضوح من هذا النص أن "اليفع يثع" و "أبيدع" كانا ملكين من ملوك مدين. وأن في عهدهما دونت هذه الكتابة، تيمناً باسمهما، وتخليداً لتأريخها، وقد لاحظت إن الباحثين في حكومة معين لم يشيروا إلى اسميهما في ضمن القوائم التي وضعوها لحكام تلك الحكومة.

✓ حكومات عدن:

انقرضت حكومة "معين" و حلت محلها حكومة "سبأ" غير إن هذا لا يعني انقراض شعب معين بانقراض حكومته، وذهابه من عالم الوجود، إذ ورد اسم المعينين في عدد من الكتابات المعينية التي يرجع عهدها إلى ما بعد عهد سقوط حكومتهم، كما ورد اسمهم في المؤلفات الكلاسيكية التي تعود إلى القرن الأول للميلاد. وقد سبق إن ذكرت رأي المتخصصين في العربيات

الجنوبية في هذا الموضوع. أما متى خفي اسمهم من عالم الوجود خفاء تاماً، فذلك سؤال لا تمكن الإجابة عنه الآن، إذ يتطلب ذلك التأكد من إننا قد وقفنا على جميع الكتابات العربية الجنوبية والمؤلفات الكلاسيكية، و لا أخال إن في استطاعة أحد إثبات هذا الادعاء.

أعود فأقول: تباينت آراء العلماء في تعيين الزمن الذي ظهرت فيه مملكة "معين" الوجود، كما تباينت في نهايتها. كذلك ذهب "البرايت" إلى إن النهاية كانت في حوالي سنة ١٠٠ ق. م. ثم عدل عن ذلك فجعلها في النصف الأول م ن القرن الأخير قبل الميلاد، بين سنة ٥٠ وسنة ٢٥ قبل الميلاد. وجعلت "بيرين" نهايتها في حوالي سنة ١٠٠ ب. م. والذي أرجحة إن نهايتها كانت بعد الميلاد، لوررد اسمها مملكة إلى ما بعد الميلاد.

و قد جعل "البرايت" في أحد رأييه في سقوط حكومة معين سنة ١١٥ قبل الميلاد، وهي مبدأ التقويم السبئي، هي سنة زوال حكم معين، فلأهمية هذه الحادثة اتخذت مبدأ لتقويم يؤرخ به. وذهب آخرون إلى إن نجم معين أخذ في الأفول صة بين سنة ١٢٥ وسنة "٧٥ ق. م.".

وفي خلالة الفترة التي انصرمت بين أواخر أيام حكومة معين و اندماجها نهائياً في مملكة "سبأ"، ظهرت حكومات صغيرة يمكن أن نشبهها بحكومات المدن، انتهزت فرصة ضعف ملوك معين، فاستقلت في شؤونها، ثم اندمجت بعد ذلك في سبأ. ومن هذه الحكومات "هرم" "اهرم" و "نش" "نشان" و"كمنت" "كمنه" "كمنهو"، "كمنا" وغيرها. و يمكن اعتبار مملكة "لحيان" التي كان مركزها في "الديدان" "ددن"، أي "العلا" من

الحكومات التي استقلت في أيام ضعف المعينين، وقد كانت في الأصل جزءاً من أرضي هذه المملكة يحكمها كبير.

وقد عرفنا من الكتابة الموسومة ب Halevy ١٥٤ ملكاً من ملوك "هرم" سمي "يذمر ملك". وقد غزا مدينة "نشن" "نشان". ودمرها تنفيذاً لطلب الملك "كرب أيل وتر" ملك سبأ، الذي كان معاصراً له، وقد وهب له "كرب ايل وتر" في مقابل هذه الخدمة جزءاً من ارض "نشن" عرف بخصبه وبوجود الماء فيه. وقد ورد اسمه في عدد آخر من الكتابات.

وكان له،لد اسمه "بعثتر" جلس على عرش "هرم"، وشقيق اسمه "وروال ذرحن" "وروايل ذرحان."

وقد ورد في النص الموسوم ب Glaser ١٠٥٨ اسم ملك آخر من ملوك "هرم" هو "معد كرب ريدن" "معد يكرب ريدان"، وأبوه هو "هوتر عثت."

وقد تبين من فحص الكتابات المدونة في مملكة "هرم" أن لها خصائص صرفية ونحوية تستحق العناية والدرس، ويظهر أن هذه الخصائص إنما نشأت من موقع هذه المدينة ومركزها السياسي والأحداث السياسية التي طرأت عليها، ومن الاختلاط الذي كان بين سكانها، فاثر كل ذلك في لهجة السكان. ويرى "هارتمن" أن لهجة كتابات "هرم" من اللهجات التي يمكن ضمها إلى الجمهرة التي تستعمل حرف "ه" في المزيد مقابل حرف "س" في الجمهرة التي تستعمل هذا الحرف في الفعل المزيد.

✓ مملكة كمنه:

ومن ملوك مملكة "كمنه" "كمنهو"، الملك "نبط علي"، وقد ورد اسمه في بعض الكتابات. وورد في كتابة يظن إنها من كتابات "كمنهو" مكسورة سقطت منها كلمات في الأول وفي الآخر، جاء فيها: و بمساعدة عثتر حجر "هجر" و"نبط علي". والمقصود ب "عثتر حجر" "هجر" الإلَه عثتر سيد موضع يقال له "حجر" "هجر"، وربما كان في هذا المكان معبد لعبادة هذا الإله. وجاء قبل ذلك: "نبعل دللن" "نبعل الدلل"، وهذه الجملة ترد لأول مرة في الكتابات، ويظهر إن معناها "بعل الدلل" أو "الدليل"، ويظهر إن "الدلل" أو "الدليل" من الصفات التي أطلقها شعب "كمنه" "كمنهو" على عثتره.

وكان ل "نبط علي" ولد أصبح ملك "كمنه" "كمنهو" بعد والده، هو: "السمع نبط". وقد وصلت إلينا كتابة، جاء فيها: "السمع نبط بن نبط علي ملك كمنهو وشعبهو كمنهو لالمقه ومريبو ولسبا"، أي "السمع نبط بن نبط على ملك كمنه وشعبه شعب كمنه، لألمقه ومأرب ولسبأ". وهذه العبارة تظهر بجلاء أن مملكة "كمنو" "كمنهو" كانت مستقلة في هذا الزمن استقلالاّ صورياً، و أنها كانت في الحقيقة تابعة كومة "سبأ" ولمأرب العاصمة يدل على ذلك قربها إلى "المقه"، وهو إِله السبئيين ولمأرب العاصمة، أي لملوكها ولشعب سبأ.وكان من عادة الشعوب القديمة إنها إذا ذكرت آلهة غيرها فمجدتها وتقربت إليها، عنت بذلك اعترافها بسيادة الشعب الذي يتعبد لتلك الآلهة عليها.

✓ حكومة معين:

حكومة معين حكومة ملكية يرأسها حاكم يلقب بلقب "ملك"، غير أن هذه الحكومة وكذلك الحكومات الملكية الأخرى في العربية الجنوبية، جوزت إن يشترك شخص أو شخصان أو ثلاثة مع الملك في حمل لقب "ملك"، إذا كان حامل ذلك اللقب من أقرباء الملك الأدنين، كأن يكون ابنه أو شقيقه. فقد وصلت إلينا جملة كتابات، لقب فيها أبناء الملك أو أشقاؤه بلقب ملك، وذكروا مع الملك في النصوص. ولكننا لم نعثر على كتابات لقب فيها أحد بهذا اللقب، وهو بعيد عن الملك، أي ليس من أقربائه المرتبطين به برابطة الدم. كما أننالا نجد هذه المشاركة في اللقب في كل الكتابات، وهذا مما حملنا على الظن بأن هذه المشاركة في اللقب، كانت في ظروف خاصة وفي حالات استثنائية، وهذا خصصت بأبناء الملك أو بأشقائه، وهذا أيضاً لم ترد في كل الكتابات، بل وردت في عدد منها هو قلة بالنسبة إلى ما لدينا الآن من نصوص.

ولم تبح لنا أية كتابة من الكتابات العربية الجنوبية بسر هذه المشاركة أكانت مجرد مجاملة وحمل لقب، أم كانت مشاركة حقيقية، أي إن الذين اشتركوا معه أيضاً في تولي أعمال الحكم كلية، أو بتولي عمل معين مهن الأعمال، بأن يوكل الملك من يخوله حمل اللقب القيام بوظيفة معينة؟ ولم تبح لنا تلك الكتابات بأسرار الدوافع التي حملت أولئك الملوك على السماح لأولئك الأشخاص بمشاركتهم في حمل اللقب، أكانت قهرية كأن يكون الملك ضعيفاً مغلوباً على امره، ولهذا يضطر مكرهاً إلى إشراك غيره معه من

أقربائه الأدنين لإسناده ولتقوية مركزه،أم كانت برضى من الملك ورغبة منه، فلا إكراه في الموضوع ولا إجبار.

ويظهر من الكتابات المعينية أيضاً إن الحكم في معين، لم يكن حكماً ملكياً تعسفياً، السلطة الفعلية مركزة في أيدي الملوك، بل كان الحكم فيها معتدلاً استشارياً يستشير الملوك أقربائهم ورجال الدين وسادات القبائل ورؤساء المدن، ثم يبرمون أمرهم، و يصدرون أحكامهم على شكل أوامر ومراسيم تفتتح بأسماء آلهة معين، ثم يذكر اسم الملك، وتعلن كتابة ليطلع عليها الناس.

وقد كانت المدن حكومات، لكل مدينة حكومتها الخاصة بها، وهذا كان في استطاعتنا أن نقول إن حكومة معين هي حكومات مدن، كل مدينة فيها حكومة صغيرة لها آلهة خاصة تتسمى ب اسمها، وهيئات دينية، و مجتمع يقال له: "عم"، بمعنى أمة وقوم وجماعة. و لكل مدينة مجلس استشاري يردير شؤونها في السلم وفي الحرب، و هو الذي يفصل فيما يقع بين الناس من خصومات وينظر في شؤون الجماعة "عم."

وكان رؤساء القبائل يبنون دوراً، يتخذونها مجالس، يجتمعون فيها لتمضية الوقت وللبت في الأمور و للفصل بين أتباعهم في خلافاتهم، ويسجلون أيام تأسيسها وبنائها، كما يسجلون الترميات والتحسينات التي يدخلونها على البناية. وتعرف هذه الدور عندهم بلفظة "مزود". ولكل كل مدينة "مزود"، وقد يكون لها جملة "مزاود"، وذلك بأن يكون لشعابها

وأقسامها مزاود خاصة بها، للنظر فيما يحدث في ذلك الشعب من خلاف. ويمكن تشبيه المزود بدار الندوة عند أهل مكة، وهي دار ة قُصَيّ بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها، يتشاورون فيها في أمور السلم والحرب.

وتتألف مملكة معين من مقاطعات، على رأس كل مقاطعة ممثل عن الملك، يعرف عندهم ب "كبر"، أي "الكبير". يظهر إنه كان لا يتدخل إلا في السياسة التي تخص المسائل العليا المتعلقة بحقوق الملك وبشعب معين. ويرد اسم الكبير بعد اسم الملك في النصوص على عادة أهل معين وغيرهم من ذكر آلهتهم أولاً ثم الملوك ثم الكبراء في كتاباتهم التي يدونونها ليطلع عليها الناس.

ودخل الحكومة من الضرائب ومن واردات الأرضين الحكومية التي تستغلها أو تؤجرها للناس بجُعل يتفق عليه. أما الضرائب فتؤخذ من التجار والزراع وسائر طبقات الشعب الأخرى، يجمعها المشايخ، مشايخ القبائل والحكام والكبراء بوصفهم الهيئات الحكومية العليا، وبعد إخراج حصصهم يقدمون ما عليهم للملك. وأما الواردات من المصادر الأخرى، مثل تأجير أملاك الدولة، فتكون باتفاق خاص مع المستغل، وبعقد يتفق عليه.

ومن الضرائب التي وردت أسماؤها في الكتابات: كتابات العقود ووفاء الضرائب والديون، ضريبة دعيت ب "فرعم"،أي "فرع" وضريبة عرفت بـ"عشرم" أي "عشر"، وتؤخذ من عشر الحاصل، فهي "العشر" في الإسلام.

وكان للمعابد جبايات خاصة بها، وأرضون واسعة تستغلها، كما كان لها موارد ضخمة من النذور التي تقدم أليها باسم آلهة معين، عند شفاء شخص من مرض ألمّ به، وعند رجوعه سالماً من سفر، وضد عودته صحيحاً من غزو أو حرب، وعند حصول شخص على غلة وافرة من مزارعه أو مكسب كبير من تجاراته، وأمثال ذلك. ولهذا كانت للمعابد ثروات ضخمة و أملاك واسعة ومخازن كبيرة تخزن فيها أموالها. و يعبر عن النذور والهبات التي تقدم إلى المعابد بلفظتي "كبودت" و "اكرب"، "أقرب" أي ما يتقرب به إلى الآلهة.وتدوّن عادة في كتابات تعلن للناس، يذكر فيها اسم المتبرع الواهب واسم الإله أو الآلهة التي نذر لها، واسم المعبد، كما تعلن المناسبة، وتستعمل بعض الجمل والعبارات الخاصة التي تتحدث عن تلك المناسبات مثل: "يوم وهب" و "بذماد بن يدهس"، أي "بذات يده" وأمثال ذلك من جمل ومصطلحات. وقد وصلت إلينا خصوص كثيرة من نصوص النذور، وهي تفيدنا بالطبع كثيراً في تكوين رأينا في النذور والمعابد واللغة التي تستعمل في مثل هذه المناسبات عند المعينيين وعند غيرهم من العرب الجنوبيين.

ويقوم "الناذر" أو الشخص الذي استحقت عليه الضرائب أو القبيلة بتقديم ما استحق عليه إلى المعبد، وكانت تعد "ديوناً" للآلهة على الأشخاص. فإذا نذر الشخص للآلهة بمناسبة مرض أو مطالبة بإحلال بركة في المزرعة أو في التجارة أو إنقاذ من حرب وصادف أن مرت الأمور على وفق رغبات أولئك الرجال، استحق النذر على الناذر، فرداً كان أو جماعة، ولذلك يعبر عنه ب "دين"، فيقال "دين عثتر" أو "دين."

وقد يفوض الملك أو المعبد إلى رئيس أو سيد قبيلـة أو غنـي اسـتغلال مقاطعة أو منجم أو أي مشروع آخـر في مقابـل شروط تـدون في الكتابـات، فتحدد الحدود، وتعين المعالم، وينشط المستغل للاستفادة منها وأداء مـا اتفـق عليه من أداء للجهة التي تعاقد معها، ويقوم بجباية حقـوق الأرض إن كـان قد أجرها لصغار المزارعين وبدفع أجور الأجراء وبتمشية الأعـمال، ويكـون هو وحده المسؤول أمام الحكومة أو المعبد عن كل ما بتعلـق بالعمـل، وعليـه وحده أن يحسب حساب خسائره وأرباحه.

ويتعهد الكبراء وسادات القبائل والحكام عادة بجمع الضـرائب مـن أتباعهم ودفع حصة الحكومة، كما يتعهـدون بإنشـاء الأبنيـة العامـة كإنشـاء المباني الحكومية وإحكام أسوار المدن وبناء الحصون والأبـراج والمعابـد ومـا شاكل ذلك، مقابل ما هو مفروض عليهم من ضرائب وواجبات أو تفويض التصـرف في الأرضين العامة. فإذا تمت الموافقة، عقُد عقد بين الطرفين، يذكر فيه إن آلهة معين قد رضيت عن ذلك الاتفاق، وان المتعهـد سـيقوم بـما اتفـق عليه. و إذا تم العمل وقد يضيف إليه المتعهد من جيبـه الخـاص،ورضي عنـهَ الملك الذي عهد إليه بالعمل أو الكهنة أرباب المعبد أو مجلس المدينـة، كتـب بذلك محضر، ثم يدون خبره عـلى الحجـر، ويوضـع في موضـع ظـاهر لـيراه الناس، يسجل فيه اسم الرجل الذي قام بالعمل، واسم الآلهة التـي بإسـمها عقد العقد وتم، واسم الملك الذي تم في اياهمـه المشـروع، واسـم "الكبـير" الحاكم إن كان العقد قد تم في حكمه وفي منطقة عمله.

وتعهد المعابد أيضاً للرؤساء والمشايخ القيام بالأعمال التي تريد القيام بها، مثل إنشاء المعابد و صيانتها وترميها والعناية بأملاكها وباستغلالها بزرعها واستثمارها نيابة عنها. وقد كان على المعابد كما يظهر من الكتابات أداء بعض الخدمات العامة للشعب، مثل إنشاء مباني عامة أو تحصين المدن ومساعدة الحكومة في التخفيف عن كاهلها، لأنها كانت مثلها تجبي الضرائب من الناس وتتلقى أموالاً طائلة من الشعب وتتاجر في الأسواق الداخلية والخارجية، وكانت تقوم بتلك الأعمال في مقابل إعفائها من الضرائب. وقد كانت وارداتها السنوية ضخمة قد تساوي واردات الحكومة.

وتخزن العابد حصتها من البخور واللبان والمر والحاصلات الأخرى في خزائن المعبد، وتأخذ منها ما تحتاج إليه مثل البخور للأعياد وللشعائر الدينية وتبيع الفائض، وقد ترس مع القوافل لبيعه في البلاد الأخرى، وقد تعود قوافله محملة ببضائع اشترتها بأثمان البضائع المبيعة، و لذلك كانت أرباحها عظيمة، وكان أكثر الكهان من البيوتات الكبيرة ومن كبار الأغنياء.

- ✓ نقود معينية:

تعامل قدماء المعينيين مثل غيرهم من شعوب العالم بالمقايضة العينية، وبالمواد العينية دفعوا للحكومة و للمعابد ما عليهم من حقوق، وبها أيضاً دفعت أجور الموظفين والمستخدمين و العمال و الزراع. وقد استمرت هذه العادة حتى في الأيام التي ظهرت فيها النقود، وأخذت الحكومات تضرب النقود، وذلك بسبب قلة المسكوكات، و عدم تمكن الحكومات من سك الكثير منها كما تفعل الحكومات في هذه الأيام.

وقد عرف المعينيون النقود، وضربوها في بلادهم. فقد عثر على قطعة نقد هي "دراخما" أي درهم، عليها صورة ملك جالس على عرشه، قد وضع رجليه على عتبة، وهو حليق الذقن متدلٍ شعره ضفائر، وقد أمسك بيده اليمنى وردة أو طيراً وأسمك بيده اليسرى عصا طويلة، وخلفه اسمه وقد طبع بحروف واضحه بارزة بالمسند، وهو "اب يثع" و أمامه الحرف الأول من اسمه، وهو الحرف "أ" بحرف المسند، دلالة على إنه الآمر بضرب تلك القطعة. و لهذه القطعة من النقود أهمية كبيرة في تأريخ "النميّات" في بلاد العرب وفي دراسة الصلات التجارية بين جزيرة العرب والعالم الخارجي.

ويظهر من دراسة هذه القطعة ومن دراسة النقود المشابهة التي عثر عليها في بلاد أخرى، إنها تقليد للنقود التي ضربها خلفاء الإسكندر الكبير، سوى شيء واحد، هو أن عملة "أب يثع" قد استبدلت فيها الكتابة اليونانية بكتابة اسم الملك "اب يثع" الذي في أيامه، تم ضرب تلك القطعة بحروف المسند أما بقية الملامح والوصف، فإنها لم تتغير ولم تتبدل، ولعلها قالب لذلك النقد، حفرت عليه الكتابة بالمسند بدلاً من اليونانية. ويعود تاريخ هذه القطعة إلى القرن الثالث أو القرن الثاني قبل الميلاد.

وقد كانت نقود "الإسكندر الكبير" والنقود التي ضربها خلفاؤه من بعده مطلوبة مرغوبة في كل مكان، حتى في الأمكنة التي لم تكن خاضعة لهم، شأنها في ذلك اليوم شأن الجنيه أو الدولار في هذا اليوم، وتلك النقود لا بدأن تكون قد دخلت بلاد العرب مع اتجار ورجال الحملة الذين أرسلهم

لاحتلال بلاد العرب، فتلقفها التجار هناك وتعاملوا بها، وأقبلت عليها الحكومات، ثم أقدمت الحكومات على ضربها في بلادها بعد مدة من وصول النقود أليها. وأسست بذلك أولى دور ضرب النقود في بلاد العرب. ولا بد أن يكون نقد "اب يثع" قد سبق بنقد آخر، سبق هو أيضاً بالنقد اليوناني الذي وصل بلاد العرب، لأن درهم "اب يثع" مضروب ضرباً متقناً، وحروفه واضحة جليّة دقيقة دقة تبعث على الظن بوجود خبرة سابقة ودراية لعمال الضرب، أدت بهم إلى إتقان ضرب أسماء الملوك على تلك النقود.

✓ الحياة الدينية:

كان في كل مدينة معبد، وأحياناً عدة معابد خصصت بآلهة شعب معين. وقد خصص معبد بعبادة إلَه واحد، يكرس المعبد له، ويسمى باسمه، وتنذر له النذور، ويشرف على إدارته قَومة ورجال دين يقومون بالشعائر الدينية ويشرفون على إدارة أوقاف المعبد. ويعرف الكاهن والقيم على أمر الإله عندهم بـ "شوع"، وقد وردت اللفظة في جملة نصوص معينة.

وقد تجمعت لدينا من قراءة الكتابات المعينية أسماء جمهرة آلهة معين، وفي مقدمتها اسم. "عثتر" "عثتار"، ويرمز إلى "الزهرة"، ويلقب في الغالب ب "ذ قبضم"، فيقال "عثتر ذ قبضم"، أي "عثتر القابض"، "عثتر ذو قبض"، كما ورد أيضاً "عثتر ذ يهرق" "عفتر ذو يهرق". ويهرق اسم مدينة من مدن معين، فيظهر أنه كان في هذه المدينة معبد كبير خصص بعبادة "عثتر."

ومن آلهة معين "ود" و "نكـرح"، وتـرد أسـماء هـذه الآلـة الثلاثـةفي الكتابات المعينية على هذا الرتيـب: "عثـتر"، "ود" و "نكـرح" في الغالـب، وترد بعدها في بعض الأحيان جملـة: "الالـت معـن"، أي "آلهـة معـين" أمـا "نكرح"، فيظهر إنه يرمز إلى الشمس، وهو يقابل "ذات حمم" "ذات حمـيم" في الكتابات السبئية.

وقد ورد في عـدة كتابـات عثـر عليهـا في "بـراقش" وفي "أبـين" وفي "معين" وفي "شراع" في "أرحـب" ذكـر معبـد سر للإلـهَ "عثـتر" دعـي ب "يهر". كما ورد اسم حصن "يهر" و قد خصص ل "عثتر وقـبض". وورد في كتابة أخرى اسم "يهر" على إنه بيت، وربـما قصـد بـه بيـت عبـادة. وورد في كتابة همدانية ذكر "يهر" إنه بيت الإلَه "تالب" "تألب" إلَه همدان. وورد اسم "يهر" على إنه اسم موضع واسم شـعب. وذكـر "الهمـداني" إن "يهـر" هـو حصن في "معين". ويتبين لي من اقتران "يهـر" بي "عثـتر"، ومـن تخصـيص بيت للتعبد به سمي باسمه إن "يهر" جماعة كانت تتعبد لهـذا الإلـهَ وتقدسـه ولهذا دعي معبده باسمها، كما إنه اسم مدينة نسبت تلك الجماعة إليها.

وأما "ود"، فقد ظلت عبادتـه معروفـة في الجاهليـة إلى وقـت ظهـور الإسلام، وقد ورد اسمه في القرآن الكريم. وقد تحدث عنـد ابـن الكلبـي في كتابه "الأصنام". وذكر إن قبيلة "كلـب" كانـت تعبـد لـه بدومـة الجنـدل. ووصفه فقال: "كان تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال، قـد ذبـر عليـه حلتان، متزر بحلة، مرتد باخرى، عليه سيف قد تقلده، وقد تنكَّب قوساً،

وبين يديه حربة فيها لواء ووفضة فيهـا نبـل.. ". وقـد نعـت "ود" في بعض الكتابات بنعوت، مثـل: "الاهـن" "الهـن" أي "الإلـه"، و "كهلـن" "كاهلن" "كهلان"، أي "القدير" "المقتـدر". وكتـب اسـم "ود" بحـروف بارزة على جدار في "القرية" "قرية الفأو"، وذلك يـدل عـلى عبادتـه في هـذه البقعة.

ويرمـز "ود" إلى القمـر، بـدليل ورود جملـة: "ودم شـهرن"، "ودم شـهران"، أي "ود الشـهر" في ب ضر الكتابـات. ومعنـى كلمـة "شـهرم" "شهر" "الشهر"، القمر. وضل هذه الالهة المعينية ثالوثاً يرمـز إلى الكواكـب الثلاثة: الزهرة، والشمس، والقمر.

ويلاحظ إن الكتابات المعينية الشـمالية، آي الكتابـات المدونـة بلهجـة أهل معين التي عثر عليهـا في أعـالي الحجـاز، لا تتبـع الترتيـب الـذي تتبعـه الكتابات المعينية الجنوبية نفسه في إيراد أسـماء الآلهـة، كـما يلاحـظ أيضـاً أن للمعينيين الشماليين آلهة محلية لا نجد لها ذكراً عند المعينيين الجنـوبيين، ولعـلّ ذلك بتأثير الاختلاط بالشعوب الأخرى.

✓ مدن معين:

ومن أشهر مدن معين، مدينة "قرنو"، وهـي العاصـمة، وقـد عرفـت أيضاً، ب "م ع ن" "معن"، أي "معـين"، وب Carna و karana و Karna عند بعض الكتبـة "الكلاسـيكيين". وتقـع عـلى مسـافة سـبعة كيلـومترات ونصف كيلومتر من شرق قرية "الحزْم"، مركز الحكومة الحالي في الجـوف. و قد وصف خرائبها "محمد توفيق" في كتابه "آثار معين في جوف اليمن"،

فقال: إنها تقع على اكمة من الطين منحدرة الجوانب، تعلو على سطح أرض الجوف بحمسة عشر متراً، وهي مستطيلة الشكل، واستطالتها من الغرب إلى الشرق وطولها ٤٠٠ متر، وعرضها ٢٥٠ متراً، ولها بابان أو مدخلان، أو مدخل ومخرج، أحدهما في جانبها الغربي والآخر في الجهة المقابلة من الجانب الشرقي، وليس لها أبواب أخرى. وسورها الذي كان يحيط بها، وقد قدّرَ ارتفاعه بخمسة عشر متراً، و قد وجد في بعض أقسامه فتحات المزاغل التي استعملت للمراقبة ولرمي السهام، كما تعرض لبحث البناء والزخرفةفي هذه المدينة، وقد حصل على تسع عشرة كتابة، نقل تسعاً منها بكتابة اليد، ونقل عشراً منها الباقية بالتصوير الفوتوغرافي.

ويقع معبد "رصفم" "رصف" "رصاف" الشهير، الذي طالما تقدم إليه المؤمنون بالهدايا والنذور وتوسلوا إليه لأن يمن عليهم بالعافية والبركة، خارج سور "قرنو". ونشاهد آثار سكن في مواضع متناثرة من المدينة. و قد كانت "قرنو" "القرن" مأهولة حتى القرن الثاني عشر ثم هجرت وتحولت إلى خراب.

وقد أشار الأخباريون إلى معين، وروى بعض منهم أنها من أبنية التبابعة، و أنها حصن، بني بعد بناء "سلحين"، بني مع يراقش في وقت واحد. ومن مدن حكومة معين "يثل"، وهي من المراكز الدينية، وعرفت به "براقش" فيما بعد. وكانت قائمة في أيام "الهمداني"، ووصف الهمداني الآثار والخرائب التي كانت بها. وقد ورد في إحدى الكتابات أن جماعة من كهنة "ود"، قاموا ببناء ثلاثين "أمه" أي ذراعاً من سور "يثل" من الأساس حتى

القمة والظاهر أن هذا العمل الذي قاموا به، هو الجزء الذي كان خصص بهم عمله على حين قام أناس آخرون، وفي ضمنهم مجلس يثل، ببقية السور.

وللاخباريين قصص عن "براقش". وقد زعم بعض منها إنها و "هيلان" مدبنتان عاديتان، وكانتا للأمم الماضية. وزعم بعض آخر إنها من أبنية التبابعة فهي من الأبنية القديمة إذن في نظر الأخبارين. وقد كان يسكنها "بنو الأدبر ابن يلحارث بن كعب" ومراد في الإسلام.

ولهم سكن سبب تسمية "براقش" ببراقش قصص. فزعم بعض منهم أنها إنما سميت بذلك نسبة إلى كلبة عرفت ببراقش. وزعم بعض آخر إنها امرأة، وهي ابنة ملك قديم، ذهب والدها للغزو، وأودع مقاليد بلاده أليها، فبنت مدينة براقش ومعين، ليخلد اسمها؛ فلما عاد والدها غضب، وأمر بهدمها. وزعم فريق منهم، إنها بإسم براقش امرأة لقمان بن عاد. ومصدر القصص مثل مشهور هو: "على أهلها تجني براقش". و " على اهلها براقش تجني "، وقد أشير في الشعر إليه.

و "يثل"، هي مدين شم Athlula , Athrula المذكورة في أخبار حملة "أوليوس غالوس" على اليمن، والتي زعم إنها آخر موضع بلغه الرومان في حملتهم هذه. و زعم القائلون من المستشرقين بهذا الرأي أن لفظة "يثل" لفظة صعبة على لسان الرومان واليونان، ولذلك حرفت فصارت إلى الشكل المذكور.

□

ومن بقية مدن معين "نشق"، و"رشن" "ريشان" و"هرم" "هـريم" "خربة هرم"، و"كمنه" "كمنهو" "خربة كمنه"، "كمنا"، و"نشن" "نشان" وهي "الخربة السوداء" "خربة السودا" في الوقت الحاضر.

وقد ورد في بعض الكتابات إن "يدع آل بين" مكـرب سـبأ، كـان قـد استولى على مدينة "نشق"، غير أننا لا نعرف اسم الملك المعيني الذي سقطت هذه المدينة في أيامه في أيدي السبئيين.

ويوجد موضع عادي خرب، يعرف بي "كعـاب اللـوذ" وبــ "خربـة نشان" "خربة نيشـان"، يحتمـل في رأي بعضـهم أن يكـون مكـان "نشـان" "نشن". ويعارض بعض الباحثين ذلك، ويرون إنه بعيـد بعـض البعـد عـن مكان "نشن" المعيني، ويذهبون إلى إن هذا المكـان هـو بقايـا معبـد أو قبـور قديمة، وأنه يشير إلى وجود مسكن فيه قديم لا نعرف اسمه.

وقد تبين البـاحثين في موضـع "الخربـة السـوداء" التـي هـي موضـع "نشن" "نشان" أن تلك المدينة كانت مدينة صناعية، لعثورهم بين أنقاضـها على خامات المعادن، وعلى أدوات تستعمل في التعدين وفي تحويل المعـادن إلى أدوات للاستعمال.

✍ **و "نشن" "نشان"، هي "نستم NESTUM "في كتاب "بلينيوس."**

ويظن أن خرائب "مجزر"، هي من بقايا مدينـة قديمـة، لعلهـا المدينـة التي سماها "بلينيوس" "مكوسـم Magusum "، ويظهـر مـن موقعهـا ومـن بقايا آثارها إنها كانت ذات أهمية لعهـدها ذاك، وأنهـا كانـت عـامرة بالنـاس لخصب أرضها ووفرة مياها.

وفي الجوف أماكن أخرى، مثل "بيحان" و "سراقة" و "ابنه" و"مقعم" و"بكبك" و "لوق"، وهي خرائب كانت مواضع معمورة في أيام المعينيين ومن جاء بعدهم فأخذ مكانهم.

وقد ذهب "كلاسر" إلى أن موضع "لوق"، هو Labecia الذي ذكره "بلينيوس" في جملة الأماكن التي استولى عليها "أوليوس غالوس". وذهب "فون وزمن" إلى أنه "لبة.Labbah "

ويرى علماء العربيات الجنوبية أن "نشق" هي Nesca , Nescus في كتب المؤلفين اليونان واللاتين القدماء. وهيAska ، Ascaفي "جغرافيا سترابون". وقد ذكرها "سترابون" في جملة المدن التي استولى عليها "أوليوس غالوس" إبانّ حمته على اليمن.

✓ المعينيون خارج أرض معين:

وعثر على كتابات معيننة خارج اليمن، ولا سيما في موضع "العلا"، وبينها عدد من كتابات "لحيانية" متأثرة باللهجة المعيننة. وقد وردت فيها أسماء معينية معروفة، شائعة بين المعينيين، مثل: "يهر" و "علهان"، و "ثوبت" و"يفعان"، كما وردت قبها أسماء آله معين، وذلك يدل على نزول المعينين في هذا الموضع وفي الأرضين المجاورة أمداً، وتركهم أثراً ثقافياً فيمن اختلطوا بهم أو جاوروهم و فيمن خلفهم من خلق.

وقد جاء هؤلاء المعينيون من معين بالطبع، أي من اليمن، فنزلوا في هذه الأرضين التي تقع البوم في أعالي الحجاز وفي المملكة الأردنية الهاشمية

وفي جنوب فلسطين.ومنهم من تاجر مع بلاد الشام والبحر المتوسط ومصر، بدليل عثور المنقبين على كتابات معينية في جزيرة "ديلوس" من جزر اليونان، وفي مصر: في "الجيزة" وفي موضع "قصر البنات". وظهر من كتابة "الجيزة" المؤرخة بالسنة الثانية والعشرين من حكم "بطلميوس بن بطلميوس"، أن جالية معينية كانت في مصر في هذا الزمن، ولعلها من أيام حكم "بطلميوس الثاني" وكان المعينيون يتاجرون في القرن الثالث أو الثاني قبل الميلاد بتجهيز معابد مصر بالبخور. ويرجع بعض الباحثين تأريخ هذه الكتابة إلى السنة ٢٦٤ - ٢٦٣ ق.م.

و موضع "العلا" المذكور، هو موضع "ديدان" "الديدان" "علت " Ulatفي التوراة. وقد قصد به فيها شعب عربي من الشعوب العربية الشمالية، يرجع نسبه إلى "كوش" كما جاء في موضع من "التكوين". والى "يقشان" من إبراهيم من "قطورة Keturah "في موضع آخر منه. وقد جعلت "الديدان" متاخمة لأرض أدوم Edom، وتقع في الجنوب الشرقي منها. وذكر في التوراة أن الديدانيين كانوا من الشعوب التي ترسل حاصلاتها إلى سوق "صورTyre".

ويرى أكثر الباحثين في دولة معين إن هذه المنطقة منطقة "الديدان"وما صاقبها من أرض، كانت جزءاً من تلك الدولة وأرضاً خاضعة لها، وأن ملوك معين كانوا يعينون حكاماً عليها باسمهم، وان درجتهم هي درجة "كبر" أي "كبير" على طريقتهم في تقسيم مملكتهم إلى "محافد" أي أقسام،

يكون على كل مخفد أي قسيم من المملكة "كبير"، يتولى الحكم بإسم الملك في المسائل العليا وفي جمع الضرائب التي يبعث بها إلى العاصمة وفي المحافظة على الأمن. وقد عثر على كتابات ذكرت فيها أسماء "كبراء" حكموا باسم ملوك معين.

ومعنى هذا إن دولة معين، كانت تحكم من معين كل ما يقال له الحجاز في عرف هذا اليوم إلى فلسطين، وان هذه الأرضين كانت خاضعة لها إذ ذاك. ولكننا لا نجد في النصوص الآشورية أو العبرانية مثل التوراة ولا في الكتب الكلاسيكية ما يشير إلى ذلك. ولكن القائلين بالرأي الذكور يرون إن حكم سين كان في أوائل عهد معين، أي قبل أكثر من ألف سنة قبل الميلاد فلما ضعف ملوكها تقلص سلطان المعينيين عن الحجاز و بقي نافذاً في المنطقة التي عرفت بر "معن مصرن"، "معن مصران"، أي "معين المصرية"، ثم ضعف سلطان المعينيين الشماليين عن هذه الأرض أيضاً بتغلب السبئيين على معين، ثم بتغلب اللحيانيين في القرن الرابع أو الثالث قبل الميلاد، حيث استقلوا وكوّنوا "مملكة لحيان."

وقد أثارت "معن مصرن" "معين مصران"، جدلاً شديداً بين العلماء، ولا سيما علماء التوراة، فذهب بعضهم إلى أن "مصر" "مصرايمMizraim " الواردة في التوراة ليست مصر المعروفة التي يرويها نهر النيل، بل أُريد بها "معين مصران"، وهو موضع تمثله "معان" في الأردن في الزمن الحاضر. وان لفظة "برعو Per'o "التي ترد في التوراة أيضاً لقباً لملوك مصر، والتي تقابلها لفظة "فرعون" في عربيتنا، لا يراد بها فراعنة مصر، بل حكام "معين

مصـران"، وأن عبارة "هاكرهم مصـريت Hagar Ham–Misrith"، بمعنى "هاجر المصرية"، لا تعني "هاجر" من مصر المعروفة، بـل مـن مصرـ العربية، أي مـن هـذه المقاطعـة التـي نتحـدث عنهـا "معـن مصـــرن" وان القصص الوارد في التوراة عن "مصر" وعن "فرعون"، هـو قصـص يخـص هذه المقاطعة العربية، وملكها العربي.

وقالت هذه الجمهرة: إن ما ورد في النصـوص الآشـورية مـن ذكـر لــ Musriلا يعني أيضاً مصر المعروفة، بل مصر العربيـة، وأن مـا جـاء في نـص "تغلاتبلسـر الثالث" الذي يعود عهده إلى حوالي سنة ٧٣٤ قبل الميلاد، مـن أنه عين عربياً Arubu واسمه "ادبئيـل" "ادب ال" "ادب ايـل "Idiba'il" " حاكماً على "مصري"Musri" "، لا يعني أنه عينه حاكماً على "مصر" الإفريقية المعروفة، بل على هذه المقاطعة العربية التي تقع شمال "نخل مصـــري" أي "وادي مصـــري". ويـرى "وينكـر"، أن "سـبعة "Sib'e" "الـذي عينـه "تغلاتبلسـر سنة ٧٢٥ ق. م. على مصري، والذي عينه "سرجون" قائداً على هذه المقاطعة، إنما عين عـلى أرض "مصرـ" العربيـة ولم يعـين عـلى "مصرـ" الإفريقية.

وقـد ورد في أخبـار "سرجـون" أن مـن جملـة مـن دفـع الجزيـة إليـه "برعو Pir'u"وقد نعت في نص "سرجون" ب "برعو" شاروت مصـــري"، أي "برعو ملك أرض مصري". وورد ذكر "برعو" هذا في ثـورة "أسـدود" التي قامت سنة "٧١١ ق. م.". وورد ذكر "مصـري" في أخبار "سنحريب" ملك آشور، وكان ملك "مصري" وملك "ملوخة" قد قامة بمساعدة اليهود

ضد "سنحريب"، و ذلك في عام ٧٠٠ ق. م. ، وقد انتصر "سنحريب". ويرى "ونكلر" أن كل. ما ورد في النصوص الآشورية عن "مصري" مثل: "شراني مت مصري"Sharrani Mat Musri" "، أي "ملوك أرض مصر" إنما قصد به هذه المقاطعة العربية.

ويشير هذا الرأي مشكلات، خطيرة لقائليه ولعلماء التوراة، فرأي "شرادر" و "ينكلر" وأضرابهما المذكور يتعارض صراحة مع الرأي الشائع عند اليهود وعند التوراة والتلمود والمنشا والكتب اليهودية الأخرى في هذا الموضوع، ويتعارض كذلك مع رأي أهل الأديان الأخرى في الموضوع نفسه، ولم يلق هذا الرأي رواجاً بين الباحثين، وهم يرون أن وجود أرض عربية عند "معان" في الزمن الحاضر، تسمى "مصري" وهي تسمية "مصر" في اللغات السامية، ووجود حاكم عليها اسمه "برعو"، و "برعو" لقب ملوك "مصر"، ويقابل "فرعون" في لغتنا، لا يحتم علينا التفكر في هذه الأرض العربية، ومن الجائز على رأيهم أن يكون الآشوريون قد استولوا على هذه المقاطعة وحكموها ونصبوا حكاماً عليها على حين كانت الحوادث الأخرى قد وقعت في مصر الإفريقية. وبناء على ذلك فليس هناك أي داع للادعاء أن الإسرائيليين لم يكونوا في مصر، وأن فرعون لم يكن فرعون مصر، بل فرعون مصري التي هي "معين المصرية"، وليستبعد أيضاً إن تكون تسمية "مصري" العربية قد أخذت من مصر، فقيل "معين مصرن" لقربها من مصر، ولتمييزها عن "معن" أي "معين" اليمن.

وقد ذهب بعض الباحثين إلى إن "معين مصران" "معين المصرـية"، لم تكن جزءاً من حكومة معين، بلى كانت مستوطنة مستقلة من مستوطنات المعينين. وذلك منذ القرن الخامس حتى القرن الأول قبل الميلاد. وأن لقب "كبر" الوارد في نصوص هذه المستوطنة لا يعني أن حامله كان موظفاً في حكومة معين بل هو مجرد لقب حمله صاحب هذه المقاطعة باعتبار إنه كبير قومه وسيدهم والحاكم عليهم. وقد بقيت هذه المستوطنة مستقلة إلى القرن الأول قبل الميلاد، وحينئذ زال استقلالها بزوال حكومة المعينين الجنوبيين.

وتعدّ الكتابات المعينية التي عثر عليها في جزيرة "ديلوس Delos=Delus" ذات أمية كبيرة كذلك، في بحثنا هذا، فأنها ترينا وصول المكلين بين الجزر اليونانية و إقامتهم فيها، و اتجارهم مع اليونان. ومن جملة هذه النصوص، نص مكتوب بالمعينية وبالخط المسند و باليونانية وبالحروف اليونانية، ورد فيه: "هنا" أي "هانئ" و"زيد ايل من ذي خذب نصب مذبح ود وآلهة معين بدلث" أي: ب "ديلوس". وورد في اليونانية: "يا ود إلَه معين يا ود". وفي هذا النص دلالة على وجود جالية معينية في هذه الجزيرة وسكناها فيها، وعلى تعلقها بدينها وبآلهتها وعدم تركها لها حتى في هذه الأرض البعيدة عن وطنها. ومن يدري؟ فلعلها كانت تتصل ببلادها، وتتاجر وتتراسل معها، تصدر إليها حاصلات اليونان، وتستورد منها حاصلات اليمن والعربية الجنوبية وإفريقية والهند وتعمل مع اليونان شِركَةً أو تعاوناً في أسواق التجارة العالمية ذلك العهد.

✓ ملوك التبابعة:

هم بنو حمير كانوا باليمن وإنما سموا تبابعة لأنه يتبع بعضهم بعضاً كلما هلك واحد منهم قام بعده واحد آخر ولم يكونوا يسمون الملك منهم بتُبّع حتى يملك اليمن.

أول من ملك منهم قحطان بن عابر بن صالح وهو أول من لبس التاج (سنة ٢٠٣٠) قبل الميلاد. لما مات تولى بعده ابنه يعرب وهو من كبار ملوك العرب وكان يدعى يمناً وقيل سميت اليمن باسمه يقال: إنه أول من حياه والده بقولهم (أبيت اللعن) و(أنعم صباحا)

ثم ملك بعده ابنه (يشجُب) يؤثر عنه أنه كان ضعيف الرأي والعزيمة استبد بالأمر خاصته فساءت أحوال الناس في مدته. ثم تولى بعده عبد شمس فأكثر من الغزو والسبي فسمى لذلك السبب سبأ. بنى مدينة مأرب على ثلاثة مراحل من صنعاء عاصمته وهو أيضا باني سد مأرب المشهور.

أما الغرض من هذا السد فكان لحجز مياه السيل للانتفاع بها في ري الأرض وهو عبارة عن سد مبني بالصخر والقاربين جبلين يساق إليه ماء سبعين وادياً وجعلت فيه ثقوب على قدر ما يحتاج إليه من الماء لسقي الأرض.

مات سبأ قبل إتمامه فأتمه ملوك حمير من بعده. قال ابن خلدون في تاريخه: «فأقاموا في جنانة عن اليمين وعن الشمال ودولتهم يومئذ أوفر مما كانت وأترف وأبذخ وأعلى يداً وأظهر، فلما طغوا وأعرضوا أجحفهم السيل وأغرق جنانهم وخربت أرضهم وتمزق ملكهم وصاروا أحاديث

تولى الملك من بعده ابنه (حمير) قيل هو أول من لبس التاج من الذهب وأخرج ثمود من اليمن أي الحجاز.

ملك بعده ابنه (وائل) وتوالت بعده أحفاده حتى انتهى الأمر إلى شديد فأغرى بالغزو ولم يزل يكتسح البلاد حتى بلغ أقصى المغرب وبنى المباني والمصانع وأبقى الآثار العظيمة. ثم اضطربت أحوال حمير وصار ملكهم طوائف إلى أن استقر في الحارث وهو تبع الأول ومن بنيه التبابعة. لقب الحارث بالرائش لأنه راش الناس بالعطاء.

جاء بعده (أبرهة) ذو المنار ثم أفريقش أو أفريقس سنة (١٠٩٨) قبل الميلاد. وذهب بقبائل العرب إلى أفريقيا ويقال: إنها سميت به وساق البربر إليها من أرض كنعان فأنزلهم بها. ثم ملك بعده أخوه عمرو ذو الأذعار فسلك أقبح سيرة ولم يعبأ بوصية أبيه له وهي:

يا عمروُ إنَّكَ ما جهلتَ وصيَّتي ... إيَّاكَ فاحفظها فإنَّكَ ترشُدُ

يا عمروُ لا واللهِ ما سادَ الورى ... فيما مضى إلا المعينُ المُرفِدُ

كلُّ امرئٍ يا عمرو حاصدُ زرعِهِ ... والزَّرعُ شيءٌ لا محالةَ يُحصَدُ

إن كـــانَ مـــذمُوماً فيعـــرفُ دُونَـــهُ		بالـــــذَّم فيـــــه الـــــزَّارعُ المُتقلِّـــــدُ

أو كـــانَ محمـــوداً فَتُحمـــدُ أَرضُـــهُ		والـــزَّرعُ والـــزَّرَّاع كـــلٌ يحمـــدُ

يـا عمـروُ مـن نشـرَ العـلا بنوالِـهِ		كَرَمـــاً يُقـــالُ لـــه الجـــواد الســـيدُ

يا عمرُو أنـتَ لـكَ المهابـةُ والعُـلا		في النَّـاسِ والمُلْـكُ اللقـاحُ الأتلـدُ

واصِلْ ذوي القُربى وحُطهُم إنَّهمْ		بِهِـمُ تَغَـمُّ الأبعـدينَ وتصـمدُ

ولما لم تطق حمير صبراً على جوره ثارت عليه وقلـدت شرحبيـل الملـك فجرى بين ذي الأذعار وبينـه قتـال هلـك فيـه خلـق كثـير وانتهـى بتملـك شرحبيل.

تولى بعده ابنه الهدهاد سنة (١٠٦٥) قبل الميلاد جـاءت بعـده بلقـيس ابنته وكانت على عهد سليمان عليه السلام وبقيت مالكة لليمن عشـرين سنة. قام بعدها بالأمر مالك ناشر النعم لأنه كان كثير التفضل جم السخاء. يقال: إنه سار غازياً حتى بلغ إلى المغرب ومنه إلى وادي الرمل فلـم يجـد لاجتيـازه سبيلاً. فعبر بعض أصحابه للاستكشاف فلم يعودوا فأمر بنصب صنم

نحاس على شفير الوادي وكتب في صدره الخط بالمسند هذا الصنم لناشر النعم الحميري ليس وراءه مذهب، فلا يتكلف احد فيعطب.

ثم انتهى الأمر بعده إلى شمر مرعش ابنه سمي بذلك لأنه كانت به رعشة هذا الملك كان أكبر ملوك التبابعة وأشدهم عزيمة في الفتوح. يقال: إنه سار بجيش مؤلف من ثلاثمائة ألف مقاتل إلى العراق وخراسان ففتح مدائنها. ثم شخص إلى اليمن غازياً ومر بالحيرة وتحير عسكره فقيل تلك الجهة الحيرة ثم رجع إلى مقر ملكه فهابته الملوك وهادنوه وأخذ بدين اليهودية بدعوة بعض أحبار اليهود من بني قريظة. ثم عاد إلى غزو بلاد فارس فدوخها وعمد إلى الصين وكانت مدة حكمه (٣٧) سنة.

ملك بعده ابنه أبو مالك فمات في بعض غزواته وتوالت بعده الملوك حتى آل الأمر إلى عمرو بن عامر الأزدي وقيل له مُزَيقيا لأنه كان يلبس كل يوم حلة جديدة فإذا أراد الدخول إلى مجلسه رمى بها فمزقت لئلا يلبسها احد بعده. قيل: إن سيل العرم المذكور في القرآن الكريم حدث على عهده في سنة (٣٠٢) ميلادية. انفجرت مياه سد مأرب فاجتاح السيل أنعامهم وخرب ديارهم فتفرقت القبائل المجاورة له.

لم تزل تتوالى الملوك على حمير حتى وصل الملك ذي نواس إلى الملك سنة (٤٨٠) ميلادية. سمى نفسه يوسف وتعصب لدين اليهودية وحمل قبائل اليمن على الأخذ به فقبلته حمير وأراد أهل نجران عليه فأبوا وكانوا من بين العرب يدينون بالنصرانية وكان هذا الدين وقع إليهم قديما من بقية

أصحاب الحواريين.قيل من تعصب ذي نواس لليهودية أنه أمر بحفر أخدود في الأرض وملأه ناراً وكان يلقي إليه كل من لم يتهود فسمي صاحب الأخدود. ويقال: إن رجلاً من أهل نجران أفلت فذهب إلى قيصر يستنصره على ذي نواس فبعث قيصر إلى ملك الحبشة يأمره بنصره فجهز النجاشي السفن والعساكر من الحبشة وأمر عليهم قائداً يدعى أرباطاً وعهد إليه بقتل أتباع ذي نواس وسبيهم وتخريب بلادهم فنزلوا ساحل اليمن فلقيهم ذو نواس فيمن معه فانهزم ولما رأى أنه لا محالة مقهور وجه فرسه إلى البحر فمات غريقاً ولم يسلم لأعدائه وانتهى به أمر التبابعة سنة (٥٢٩)م فدخل الأحباش بلاده فأذلوا أهلها وأذاقوهم سوء العذاب.

لما انقرض ملوك حمير ملك اليمن لمن بعدهم أربعة من الأحباش وثمانية من الفرس ثم آلت إلى ملك الإسلام.

مملكة كنده:

كانت كنده "كدت" مستقلة وعلى رأسها ملك، في أيام "الشرح يحضب" كذلك. وكان ملكها إذ ذاك من المناهضين المعادين للملك "الشرح يحضب"، فاشترك كما رأينا في أثناء بحثنا عن "الشرح" في الحلف الكبير الذي تألف ضد مملكة "سبأ وذي ريدان"، والذي امتد من الجنوب نحو الشمال، وشمل البرّ والبحر وقد أصيبت "كنده" بهزيمة في القتال الذي نشب بينها وبين جيش "سبأ"، ووقع ملكها واسمه إذْ ذاك "ملكم" مع عدد من رؤسائها وكبرائها "مراس واكبرت"، فيَ الأسر. وسيقوا الى "مأرب"،

وأبقوا في الأسر حتى وافقوا على وضع أولادهم رهائن عند ملك "سبأ وذي ريدان" وعلى اعطاء عهد بعدم التحرش مرة أخرى بمملكة "سبأ وذي ريدان" وبمساعدة أعدائها. وقد وافق "مالك" على اعطاء عهد بما طلب منه ووضع ابنه رهينة، كما وضع رؤساء وكبراء كنده أولادهم رهائن لديه، فأفرج بذلك عنهم.

وقد فقدت كنده بعد هذا العهد استقلالهما في وقت لا نستطيع تحديده الان، لعدم ورود شيء عنه في النصوص، وصارت خاضعة لحكم دولة "سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت"، اذ ورد في النصين "Jamme ٦٦٠" و"Jamme ٦٦٥" أنها كانت تابعة إذ ذاك لحكم هذه الدولة. يخبر النص: "Jamme ٦٦٠"، ان كنده كانت تحت حكم حاكم من حكام "شمر يهرعش"، سقط اسمه الثاني من النص وبقي اسمه الأول وهو: "وهب اوم" "وهب أوم" "وهب أوام"، وان ذلك الحاكم كان يدير بالاضافة إلى كنده قبائل حضرموت ومذحج و "بهلم" "باهلة" و "حدان" و "رضوم" و "أظلم"، ومعنى ذلك انه كان يدير منطقة واسعة تسكنها قبائل متعددة، في جملتها كنده التي صارت تحت حكم ملوك سبأ.

ويخبرنا النص"Jamme ٦٦٥" :، إن رجلاً من "جدنم" "جدن" كان كبيراً "كبر" على "اعراب ملك سبأ" "أعراب ملك سبأ" وعلى "كنده" "كدت" و"مذحج" وعلى "حررم" "حريرم" "حرر" "حرار" "حرير" وعلى "بهلم" "باهلم" "باهل" "باهلة" وعلى "زيد ايل"، وعلى كل أعراب سبأ "وكل اعرب سبأ" وعلى حمير وحضرموت ويمنت. وقد عينّه بدرجة

"كبر" أي "كبير"، وهي من أعلى الوظائف في الدولـة الملـك "يـاسر يهنعم" وابنه "ذرأ أمر أيمن". ومعنى هذا إن كنده كانت تابعة أيضـاً في هـذا العهد لحكم سبئيين، وان ذلك الكبير كان يدير منطقة واسعة وضعها الملكان تحت تصرفه.

ويرى "جامة" إن أرض كنده يجب أن تكـون في جنـوب "قشـمم" "قشم" "قشام" "القشم"، وذلك لأن النص "٦٦٠ Jamme": يضعها بـين "حضرموت" و "مذحج"، فيرى لذلك إن منازلها في ذلـك الوقـت كانـت عند هذه المواضع. والمعـروف اليـوم إن أول مـن ذكـر اسـم "كنـده" مـن المـؤلفين الكلاسـيكيين عـلى وجـه لا يقبـل الشـك أو الجـدل، هـو "نونوسوس"، وقـد دعاهـا باسـم "Kindynoi" أي "كنـده"، وذكـر انهـا وقبيلة مادينوى "Maddynoi معد"، هما من أشهر القبائـل العربيـة عـدداً ومكانة، يحكمها رجل واحد اسمه "Kaisos" أي "قيس."

وعلى أخبار الأخبـاريين معولنـا في تـدوين تـاريخ كنـده. وفي مقدمـة هؤلاء ابن الكلبي الأخباري المعروف، وله مؤلـف خصصـه بتـأريخ كنـده، سماه: "كتاب ملوك كنده" ومؤلفات اخـرى لهـا علاقـة بهـذه القبيلـة، وابـو عبيدة والأصمعي، وعمر بن شـبة، وأمثـالهم ممـن سـترد اسـماؤهم في ثنايـا صحائف هذا الفصل.وهي اخبار تمثل جملة نزعات واتجاهات تصور تحـزب اولئك الأخباريين وميولهم إلى هذه القبيلة أو تلك، فبينها أخبار تميل إلى تأييد أهل اليمن، وبينها أخبار ترجح كفة "كنده"، وبينها اخبار ترجع الفضـل إلى كلب، وبينها أخبار تؤيد بني أسد، وطبيعتها على العموم من طبيعة ما يرويه

لنا الأخباريون من روايات عن تـأريخ العـرب قبـل الإسـلام، فيهـا العصبية القبلية والتحزب، فيجب إن ننظر اليها إذن بحذر شديد.

وقد ذكر حمزة أنه نقل اخبار ملوك كنـده مـن "كتـاب أخبـار كنـده"، وأظنه قصد كتاب ابن الكلبـي، الـذي أشرت إليـه. وفي اسـتطاعة الباحـث العثور على الموارد التي تفيدنا في تدوين تأريخ كنده ومعرفة اتجاهاتها وتعيـين أسـمائها. و"المفضـليات" و"الأغـاني" و"النقـائض" وأمثالهـا وبقيـة كتـب الأدب، هي خير أمثلة لتطبيق ما أقول.

ويذكر الأخباريون أن مواطن "كنده" الأصلية كانت بجبال اليمن ممـا يـلي حضرـموت. وقـد أطلـق "الهمـداني" عليهـا "بلـد كنـده مـن أرض حضـرموت". وذكر ياقوت أن كنده مخلاف باليمن، هو باسـم قبيلـة كنـده، وروى روايةلابن الكلبي تفيد أن هذه القبيلة كانت تقيم في دهرهـا الأول في "غر ذي كنده" أي في مواطن العدنانين، ومن هنا احتج القائلون في كنده مـا قالوا من نسبهم في عدنان، وهو يدل على وجود فريق كان يرى أن "مرتع بن معاوية بن ثور" فملك عشرين سنة، ثم ملك ابنه ثـور، ثـم ابنـه معاويـة بـن ثور، ثم الحارث بن معاوية، وكان ملكه أربعـين سـنة، ثـم ملـك وهـب بـن الحارث عشـرين سنة، وملك بعده حجر ين عمرو المعروف ب "آكل المرار" الشهير الذي حالف بين كنده وربيعة بالذنائب وتولى الملك فهؤلاء إذن هـم أسلاف "حجر بن عمرو"، حكموا كنـده ومعـداً عـلى رأي اليعقـوبي قبـل حجر بسنين.

وفي رواية لابن الكلبي إن "أول من أنسأ الشهور من مضر مالك بن كنانة، وذلك إن مالك بن كنانة نكح إلى معاوية بن ثور الكندي، وهو يومئذ في كنده، وكانت النسأة قبل ذلك في كنده، لأنهم كانوا قبل ذلك ملوك العرب من ربيعة ومضر، وكانت كنده من أرداف المقاول". وتدل هذه الرواية على إن هذه القبيلة كانت على اتصال وثيق بالقبائل المنتسبة إلى معد، وربما كان اتصالها هذا أوثق وأقوى من اتصالها بقبائل قحطان، مع ان النسابين يعدونها من قبائل قحطان.

وأقدم رجل في كنده تحدث عنه الأخباريون بشيء من التفصيل والوضوح، هو "حجر" الملقب ب "آكل المرار"، وهو ينسب إلى "عمروبن معاوية ابن ثور بن مرتع بن معاوية" على رواية، وإلى "عمرو بن معاوية بن الحارث الأصغر بن معاوية بن الحارث الأكبر بن معاوية بن كنده" على رواية أخرى.

ورويت روايات أخرى تختلف عن هذه السلسلة بعض الاختلاف. وذكر أنه كان أخاً لـ "حسان بن تبع" لأمه. فلما دوّخ "حسان" بلاد العرب، وسار في الحجاز، وهمّ بالانصراف، ولّى أخاه "حجراً" على "معد بن عدنان" كلها، فدانوا له، وسار فيهم أحسن سيرة.

وفي رواية أخرى من روايات الأخباريين إن التبابعة كانوا يصاهرون "بنى معاوية ابن عنزة" من كنده، وكانوا يملكون في "دمون"، ويولونهم على "بني معد ابن عدنان" بالحجاز، فكان أول من ولي منهم "حجر آكل المرار"، ولاّ ه "تبع بن كرب" الذي كسا الكعبة، وولى بعده ابنه "عمرو بن حجر".

فيفهم من هذه الرواية إن "بنـي معـد" كـانوا أتباعـاً للتبابعـة يعيّنـون عليهم من يشاءون من الناس.

وفي رواية ترجع الى ابـن الكلبـي، مفادهـا إن تبعـاً المعـروف ب "أبي كرب" حين أقبل سائراً الى العراق نزل بأرض معد، فأستعمل عليها "حجراً آكل المرار"، ومضى لوجهه. فلما هلك، بقي حجـر لحسـن سـيرته مطاعـاً في مملكته. وملك الشام يومئذ "زياد بن الهبولة السـليحي" والملـك الأعظـم في بني جفنة، وزياد كالمتغلب على بعض الأطراف، فقتله حجر. وقد بقي حجر حتى خرف، وله من الولد: عمرو ومعاوية.

فيظهر من الرواية المتقدمة إن حجراً كان معاصراً ل "زياد بـن الهبولـة السليحي" وهو ملك عرب الشام يومئذ، ويذكر حمزة إن "حجراً" قتله.

وفي رواية أخرى ان حجراً هو أول ملوك كنـده.وكانت كنـده قبـل أن يملك حجر عليها بغير ملك، فأكل القوي الضعيف، فلما ملك حجـر سـدّد أموالها وساسها احسن سياسة، وانتزع من اللخميـين مـا كـان بأيـديهم مـن أرض "بكر ابن وائل". وبقي حجر كذلك حتى مات. ف "حجر" على هذه الرواية أول ملك من ملوك كنده، واول زعيم من زعمائها تمكـن مـن توحيـد صفوفها ومن تغليبها على قبائل أخرى، ومـن توسـيع رقعـة أراضـيها حتـى بلغت حدود مملكة لخم.

وذكَر عدد من الأخبـاريين أن والـد "حسـان تبـع" هـو "أسـعد أبـو كرب"، المعروف ب "تبع الأوسط"، وهو ابن "كلى كـرب بـن تبـع". وقـد ذهب "هارتمن "Hartmann" "إلى أن "حسان تبع" هذا هو "شرحبيل

يعفر" المذكور في نـص "Glaser ٥٥٤" الـذي يعـود تأريخـه إلى سـنة "٤٥٠" للميلاد، وهـو ابـن "إب كـرب أسـعد" الـذي حكـم عـلى تقـدير "هومل" من سنة ٣٨٥ حتى سنة ٤٢٠ للميلاد، غير أننا يجب أن نأخذ أمثال هذه الأمور بحذر، خاصة فيما يتعلق بفتوحات التبابعة واتساع ملكهم وغـير ذلك مما يقصه علينا الأخباريون.

ونزل حجر على رواية بنجد ب "بطن عاقـل"، وكـان اللخميـون قـد ملكوا كثيراً من تلك البلاد، ولا سيما بـلاد "بكـر بـن وائـل"، فـنهض بهـم وحارب اللخميين، واستخلص أرض بكـر مـنهم. ويقـع "بطـن عاقـل" في جنوب "وادي الرمة" على الطريق بين مكة والبصرة.

ويحدثنا بعض الرواة أن حجراً بينما كان يغزو عماناً، بلغ ذلك "الحارث بن الأهيم "الأيهم" بن الحارث الغساني"، فأغار على أرضـع حجـر، وأخـذ أموالاً لحجر، وقينة من أحب قيانه إليه، وانصرف، فقال للقينـة: "مـا ظنـك بحجر؟" فقالت: "لا أعرفه ينام إلاّ وعضو منه يقظان، وليأتين فاغراً فاه كأنه بعير أكل مراراً، فان رأيت ان تنجو بنفسك فافعل"، فلطمها الغساني فما لبثوا أن لحقهم حجر كما وصفت، فرد القينة والأموال، وكان حجر قد رجـع مـن غزاة عمان وهو يقول بعد أن بلغـه غـارة الغسـاني: "لا غـزو إلا بالتعقيـب" وذكر "الهمداني" في معرض تفسيره ل "آكل المـرار" مضـمون هـذه الروايـة دون أن يشير إلى اسم الغساني، او اسم الموضع الذي كـان حجـر يغـزو فيـه. وذكرت بعض الروايات الحارث بـن جبلـة بـدلاً مـن الحـارث بـن الأهـيم "الأيهم" بن الحارث الغساني.

وذكر الميداني القصة نفسها عن "الحارث بن مندلة الضجعمي" من "بني سليح". أما "ابن هشام"، فجعله "عمرو بن الهبولة الغساني."

وفي رواية اخرى إن الغازي هو "زياد بن الهبولة" ملك الشام، وكان من"سليح بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة"،،غزا ملك حجر في أثناء اغارة حجر في كنده وربيعة على البحرين، فأخذ الحريم والأموال، وسبى "هنداً بنت ظالم بن وهب بن الحارث بن معاوية" زوجة حجر. فلما سمع حجر وكنده وربيعة، عادوا من غزوهم في طلب "ابن الهبولة" ومع حجر أشراف ربيعة "عوف بن محلم بن ذهل بن شيبان"، و "عمرو بن ابي ربيعة بن ذهل بن شيبان"، وغيرهما، فأدركوا "زياداً" "عمراً ؟" ب "البردان" دون عين أباغ، وقد امن الطلب، فنزل حجر في سفح جبل، ونزلت بكر وتغلب وكنده مع حجر دون الجبل بالصحصحان على ماء يقال له "حفير"، ووقعت معركة تغلب فيها حجر على خصمه، وأخذ زياد أسيراً، ثم قتل، واسترجعت منه هند في قصة معروفة مشهورة فيها شعر على الطريقة المألوفة عند الأخباريين. وتقول الرواية إنه بعد إن انتقم وانتصر، عاد إلى الحيرة. وقد عرفت هذه المعركة بـ "يوم البردان."

ويلاحظ إن ابن الأثير اورد في روايته عمراً بدلاً من زياد أي زياد بن الهبولة ملك الشام كما هو مقتضى الكلام، وأورد في نهاية القصة هذه الجملة "ثم عاد إلى الحيرة" وهي تشعر أن موضع حجر كان في الحيرة، ولم يذكر أحد أنه كان فيها.

ويظهر أن المورد الذي نقل منه ابن الأثير أو اصحاب القصة، لم يحسن حبكها، او انه خلط بين قصتين، فظهرت في هذا الشكل.

وقد انتبه ابن الأثير إلى هذا الاضطراب، فقال: "هكذا قال بعض العلماء: ان زياد بن هبولة السليحي ملك الشام غزا حجراً. وهذا غير صحيح، لأن ملوك سليح كانوا بأطراف الشام مما يلي البر من فلسطين إلى "قنسرين"، والبلاد للروم، ومنهم أخذت غسان هذه البلاد، وكلهم كانوا عمالاً لملوك الروم، كما كان ملوك الحيرة عمالاً لملوك الفرس على البر والعرب، ولم يكن سليح لا غسان مستقلين بملك الشام، وقولهم ملك الشام غير صحيح.

وزياد بن هبولة السليحي ملك مشارف الشام، أقدم من حجر آكل المرار بزمان طويل، لأن حجرا هو جد الحارث بن عمرو بن حجر الذي ملك الحيرة والعرب بالعراق أيام قباذ أبي انو شروان، وبين ملك قباذ والهجرة نحو ثلاثين ومئة سنة. وقد ملكت غسان أطراف الشام بعد سليح ستمائة سنة، وقيل خمسمائة سنة، وأقل ما سمعت فيه ست عشرة سنة وثلاثمئة سنة، وكانوا بعد سليح، ولم يكن زياد آخر ملوك سليح، فتزيد المدة زيادة أخرى، وهذا تفاوت كثير، فكيف يستقيم أن يكون ابن هبولة الملك أيام حجر حتى يغير عليه، وحيث اطبقت رواة العرب على هذه الغزاة، فلا بد من توجيهها، وأصلح ما قيل فيه: إن زياد بن هبولة المعاصر لحجر كان رئيساً على قوم، أو متغلباً على بعض أطراف الشام. وبهذا يستقيم هذا القول والله أعلم.

وقولهم أيضاً إن حجراً عاد الى الحيرة لايستقيم أيضاً، لأن ملوك الحيرة من ولد عدي بن نصر ـ اللخمـي، لم ينقطـع ملكهـم لهـا إلا أيـام قبـاذ، فإنـه استعمل الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار، كما ذكرنا مـن قبـل، فلـما ولي أنو شروان، عزل الحارث، وأعاد اللخميين. ويشبه أن يكون بعض الكنديين قد ذكر هذا تعصباً، والله أعلم.

إن أبا عبيدة ذكرهذا اليوم، ولم يذكر أن ابن هبولة من سليح، بل قـال: هو غالب بن هبولة ملك من ملوك غسان، ولم يذكر عـوده إلى الحـيرة، فـزال هذا الوهم."

وبهذا التعليق اراد ابن الأثير اصلاح ما جاء في الروايـة المـذكورة مـن اوهام. ولكـن تعليقـه نفسـه فيـه اوهـام وأخطـاء مـن حيـث عـدد السـنين وتقدير المدد وما شاكل ذلك من أمور ترد في روايات أهل الأخبار.

ولا نعرف متى توفي حجر، وقد ذكر ابـن الأثـير انـه تـوفيَ ب "بطـن عاقل" وبه دفن. ويرى "أوليندر "Olinder" "استناداً إلى تقـدير سـنة وفـاة الحـارث حفيـد "حجـر" بسـنة "٥٢٨" للمـيلاد، والى تقـدير مـدة حكـم الضجاعمة من "بني سليح"، انه حكم في الربع الأخير مـن القـرن الخـامس للميلاد.

ويرى بعض الباحثين إن "حجراً" هـو "Ogarus" المـذكور في بعـض التقاويم في حوادث السنين٤٩٧ و ٥٠١ و ٥٠٢ للميلاد. وقد ذكر معه اسم أخ له عرف ب "Badicharimus" أي "معديكرب"، كما ذكر أحـد أحفـاده وهو "Aretha" أي الحارث.

ونسب الأخباريون ل "حجر" ثلاث زوجات، هن: "هند" ابنة "ظالم ابن وهب بن الحارث بن معاوية"، وتعرف ب "هند الهنود"، و "أم أناس بنت عوف بن محلم الشيباني" وهي ام "الحارث بن حجر"، واما الثالثة فمن حمير.

وفي ديوان الشاعر الجاهلي "بشر بن ابي خازم الأسدي" قصيدة يمدح فيها "عمرو بن ام اناس"، أو "ام أياس"، وهو من "كنده". وام اناس هي ابنة "عوف بن محلم الشيباني" الذي يضرب به المثل، فيقال: "لا حر بوادي عوف". وهو من بيت شرف قديم، لهم قبة يقال لها "المعاذة" من لجأ اليها أعاذوه. ومما جاء في مدح هذا الشاعر له:

والمانح المئة الهجان بأسرها ... تُزج فلبسته رهواً بأرعن مُطنب

بالقوم مجتابي الحديد كأنهم ... أسد على لحق الأباطيل شزب

ولرب زحف قد سموت بجمعه ... مطافلها كجنة يثرب

ويستفاد من هذه القصيدة إن الممدوح، وهو عمرو، كان كريماً سخياً يهب المئات من الإبل الهجان الطيبة الأعراق، وانه كان صاحب جيش قوي. وينطبق هذا الوصف على "عمرو بن حجر". أكثر من انطباقه على "عمرو بن الحارث" جدّ "امرئ القيس"، وذلك على رواية من زعم أنه كان للحارث جدّ الشاعر المذكور ولد اسمه "عمرو" من زوجة له دعوها "أم اناس" ابنة "عوف ابن محلم الشيباني". إذ لم يكن وضع أولاد الحارث وضعاً حسناً بعد

النكبة التي نزلت بمصيبة والدهم وبتعقب المنذر بن مـاء السـماء لهـم، وبثورة القبائل عليهم.فليس من المعقول أن يهب "عمرو" تلـك الهبـات وأن يجمع له جيش لجب. خاصة وأن الرواة لم يذكروا اسمه في جملـة أسـماء ابنـاء الحارث الذين ملكهم على القبائل في حياته او الذين ورثوا ملكه بعد مماته.

وقد نص "ابن قتيبة" في كتابه: "المعاني الكبير" على أن "عمـرو بـن أم أناس"، هو "عمرو بن حجر الكندي"، الذي كان جـدّ "عمـرو بـن هنـد"، وهند أم "عمرو بن هند" هي ابنته. وذكر أن "أم عمرو بن حجـر" هـي "أم اناس بنت ذهل بن شيبان بن ثعلبة"، والم نه هو المذكور في شعر الحارث بـن حلزة، إذ يقول:

ولـدنا عمـرو بـن أم أنـاس   مـن قريـب لمـا أتانـا الحبـاء

وقد اختلف اهل الأخبار كما رأينا في السبب الـذي حمـل النـاس عـلى تلقيب "حجر" ب "آكل المرار". فذهبوا في ذلك جملـة مـذاهب ذكروهـا في أثناء حديثهم عنه.

وصار "عمرو بن حجـر" المعـروف ب "المقصـور" ملكـاً بعـد أبيـه، ويقولون إنه انما قيل له "المقصور" لأنه قصر على ملك أبيه، أو لأن "ربيعـة" قصـرته عن ملك أبيه، وبذلك سمي المقصور.

وكان لـ "عمرو" كما يقول الأخباريون اخ اسمه "معاوية"، ويعرف بـ "الجون" "الجوف"، كان نصيبه "اليمامة"، ويظهر من هذا الخبر أنه أخذ من شقيقه هذه المنطقة وترك الأرضين الباقية لأخيه.

ويذكر أهل الأخبار أن "عمرو" و"معاوية" شقيقه هي "شعية بن أبي معاصر بن حسان بن عمرو بن تبع". ويظهر من هذا النسب أنها كانت من أسرة يمانية رفيعة ومن البيوتات التي كانت تحكم بعض المقاطعات.

وورد في رواية إن "عمراً" غزا الشام ومعه ربيعة، فلقيه الحارث بن أبي شمر الغساني فقتله. ولم يضف "اليعقوبي" صاحب الرواية المذكورة إلى هذه الرواية شيئاً عن حياة "عمرو" المقصور. أما "حمزة"، فلم يشر إليه بشيء.

وفي رواية إن ربيعة حينما قصرت عمراً عن ملك أبيه، استنجد عمرو المقصور "مرثد بن عبد ينكف الحميري" على ربيعة، فأمده بجيش عظيم. فالتقوا ب "القنان"، فشد عامر الجون على عمرو المقصور فقتله. فهذه الرواية تنفي رواية من يقول إن الحارث بن شمر الغساني هو الذي قتله.

وإذا صحت الرواية المتقدمة، تكون "ربيعة" قد ثارت على "ابن حجر" لأنها أرادت التخلص من حكم كنده لها. وقد تمكنت من ذلك على الرغم من المساعدة اليمانية التي قدمت له.

ويظهر من الروايات الواردة عن عمرو ومن تلقيبه بلقب: "المقصور" ومن الشروح التي ذكرها الرواة في تفسير هذه الكلمة، أن "عمراً" لم يكن قوياً صاحب عزم وارادة، وأنه اكتفى بما وقع له من أبيه، فلم يسع في توسيعه

وتقويمه، وأن حكمه على ما يظهر لم يكن طويلاً، وقد جعله ابن الكلبي في جملة من كان يخدم "حسان بن تبع" تبع حمير، ولم يلقبه بلقب ملك، بل قال:إنه كان سيد كنده في زمانه. وذكر إن "حسان ين تبع" حين سار إلى جديس، خلفه على بعض أموره فلما قتل "عمرو بن تبع" أخاه "حسان بن تبع"، وملك مكانه اصطنع "عمرو بن حجر"، وكان ذا رأي ونبل، وكان مما اراد عمرو اكرامه به وتصغير بني أخيه حسان إن زوّجه ابنة "حسان بن تبع"، فتكلمت في ذلك حمير. وكان عندهم من الأحداث التي ابتلوا بها، لأنه لم يكن يطمع في التزويج إلى أهل ذلك البيت أحد من العرب. وولدت ابنة "حسان بن تبع" لعمرو بن حجر "الحارث" الذي عينّه "تبع بن حسان بن تبع بن ملكيكرب ابن تبع الأقرن"، أي خال "الحارث" على بلاد معد.

ويظهر من رواية مرجعها ابن الكلبي إن الأسود بن المنذر ملك الحيرة، كان قد تزوج ابنة لـ "عمرو بن حجر"، فولدت له "النعمان بن الأسود" الذي حكم في زمن "قباذ" اربع سنين، ولذلك عرفت بـ "أم الملك."

وانتقل الملك على رأي اكثر الأخباريين من عمرو إلى ابنه الحارث: وهو المعروف بـ "الحارث الحرّ اب" على بعض الروايات. وقد ورد في شعر للشاعر "لبيد" هذا البيت: والحارث الحرّاب خلىّ عاقلاً داراً أقام بها ولم يتنقل

وقد ذهب الأصمعي إلى إن الشاعر المذكور قصد بـ "الحارث الحرّ اب" الحارث الذي نتحدث عنه. وذلك لأن "عاقلاً" من ديار كنده. وهو جبل كان يسكنه "حجر أبو امرئ القيس". واذا أخذنا بهذه الرواية وجب علينا إن نفترض انه كان قد اقام بموضع عاقل وحكم منه في أغلب الأوقات.

وقد نعت "حمزة" الحارث ب "المقصور". وقد رأينا أن جماعة من الأخباريين منحت هذا اللقب ل "عمرو."

وقد اختلف الرواة في أم "الحارث"، فذهب بعض منهم إلى أنها ابنة "حسان بن تبع"، وذهب بعض منهم إلى أنها "أم أناس" أو "أم اياس" بنت "عوف بن محلم بن ذهل بن شيبان"، وأمها "أمامة بنت كسر بن كعب ابن زهير بن جشم" من تغلب.

وفي رواية اخرى، إن "ام اناس"، كانت زوجة ل "حجر" وهي أم "الحارث ين حجر" و"هند بنت حجر". ولذلك فهي ليست أماً للحارث ابن عمرو المقصور، كما جاء في الرواية المتقدمة. ويظهر إن مرد هذا الاختلاف يعود إلى تشابه الاسمين، والى عدم تمييز الرواة بينهما. ويكون "الحارث بن حجر" المذكور إذن شقيقاً لعمرو بن حجر.

وقد ذكر ثيوفانس رئيساً عربياً دعاه الحارث من بني ثعلب يظن "أوليندر" أنه "الحارث الكندي"، ويرجح لذلك الرواية الثانية التي تجعل أم الحارث "أم أناس" "أم اياس" ذلك لأن "أم أناس" من شيبان، وشيبان هو ابن ثعلبة في عرف النسابين، فيكون هذا الحارث على رأيه هو الحارث الكندي.

ولست أستطيع الجزم بهذا الرأي، فان "الحارث" من الأسماء المعروفة الكثيرة الاستعمال عند العرب في بادية الشام وفي بلاد الشام، وشمال الحجاز ونجد، وقد عرفنا أسماء عدد من الأمراء وسادات القبائل عرفوا بهذا الاسم، ثم إن نسبة الحارث إلى الثعلبانية "ثعلبة"، لا يدل على إن الحارث الذي ذكره "ثيوفانس" هو "الحارث الكندي"، بل يدل على انه كان من قبيلة اسمها "ثعلبة" أو "ثعلبان". وقد ذكر كتبة اليونان والسريان اسم قبيلة "ثعلبة" وكانت من القبائل الخاضعة للروم. فورد "طايوي ربيث رومرين دبيث ثعلبة "،أي "العرب الذين في أرض الروم الملقبون ببني ثعلبة"، وورد ذكرها في أخبار مؤرخي الكنيسة في النصف الثاني من القرن الرابع للميلاد.

وفي "طيء" ثلاثة بطون عرفت ب "بني ثعلبة"، هي "ثعلبة ين ذهل"، و"ثعلبة بن رومان"أو "ثعلية بن جدعاء"، وتعرف ب "ثعالب طيء". ويوجد أيضاً "بنو ثعلبة بن شيبان" من بطون "تميم". وقد عرف "بنو "شيبان بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل" و "بنو شيبان ابن ذهل بن ثعلبة بن عكابة" ب "بني ثعلبة" في تواريخ الروم والسريان.

ومن "شيبان" كان "حارث بن عباد" سيد شيبان في حرب البسوس. وقد عرفوا بـ "Thalabenes" عند الروم.

وتذكر رواية لابن الكلبي أن "تبع بن حسان بن تبع بن ملكيكرب بن تبع الأقرن"، أعان "الحارث بن عمرو" وساعده على تولى الملك. و "تبع بن حسان ين تبع"، هو خاله على هذه الرواية.وتزعم أنه بعث إلى ابن أخته

بجيش عظيم سار معه إلى بلاد معد والحرة وما والاها، فسار إلى "النعمان بن امرئ القيس بن الشقيقة"، فقاتله، فقتل النعمان وعدة من أهل بيته، وهزم أصحابه، وافلته المنذر بن النعمان الأكبر، وملك "الحارث بن عمرو الكندي" ما كانوا يملكون.

ولا نعرف من الأسماء المذكورة في الكتابات العربية الجنوبية اسم ملك يدعى "تبع بن حسان بن تبع بن ملكيكرب بن تبع الأقرن". ويرى "هارتمن Hatmann" أن الأخباريين ارادو به "شرحبيل يكف" وهو ابن شرحبيل يعف" المذكور اسمه في النص المؤرخ بسنة "٤٦٧."

يظهر من رواية "ابن الكلبي" المتقدمة إن الملك لم ينتقل إلى الحارث من ابيه ارثاً، وإنما جاءه بمساعدة خاله "تبع ين حسان ين تبع". ولم تذكر الرواية الأسباب التي دعت إلى اعتماد الحارث على "تبع" في تولي الملك.ولو صحت هذه الرواية كان معناها أنه لم يتمكن من الحصول على حقه في الملك إما لامتناع القبائل من قبوله ملكاً عليها، مما دعاه إلى الاستعانة ب "تبع" أو بغيره، وإما لأن ملك والده يوم توفي لم يكن واسعاً، بل كان مقتصراً على كنده ومن في حلنا، أو لأنه لقي مقاومة من أشقائه وأقربائه، مما دفعه إلى الاستعانة بالغرباء في تنصيب نفسه ملكاً على كنده وعلى القبائل الأخرى، ثم على توسيع ملكه فيما بعد.

ولدينا رواية أخرى، تذكر إن الذي ساعد "الحارث بن عمرو" على تولي الحكم على بلاده معد، هو "صهبان بن ذي خرب"،وذلك إن معداً لما انتشرت تباغتت وتظالمت، فبعثت إلى صهبان تسأله إن يملك عليها رجلاً

يأخذ لضعيفها من قويها مخافة التعدي في الحروب، فوجّه اليها الحارث بن عمرو الكندي، واختاره لها، لأن معداً أخواله، أمه امرأة من بني عامر بن صعصعة، فسار الحارث اليها بأهله وولده. فلما استقر فيها، ولى ابنه حجر، وهو أبو امرئ القيس الشاعر على أسد وكنانة، وولى ابنه شرحبيل على قيس وتميم، وولى ابنه معدي كرب، وهو جد الأشعث بن قيس الكندي على ربيعة، فمكثوا كذلك إلى أن مات الحارث، فأقر صهبان كل واحد منهم في ملكه، فلبثوا بذلك ما لبثوا. ثم إن بني أسد وثبوا على ملكهم حجر بن عمرو، فقتلوه. فلما بلغ ذلك صهبان، وجه إلى مضر عمرو بن نابل اللخمي، والى ربيعة لبيد بن النعمان الغساني، وبعث برجل من حمير يسمى أوفي بن عنق الحية وأمره إن يقتل بني أسد أبرح القتل.فلما بلغ ذلك أسداً وكنانة، استعدوا، فلما بلغ أوفي ذلك، انصرف نحو صهبان، واجتمعت قيس وتميم فأخرجوا ملكهم عمرو بن نابل عنهم فلحق بصهبان، وبقي معدي كرب جد الأشعث ملكاً على" ربيعة.

أما صهبان، فهو رجل لم يكن من أهل بيت الملك في حمير، بل كان قد وثب على الملك واخذه - عنوة، وذلك حينما تضعضع الحميرية بقتل "عمرو بن تبع" أخاه "حكان بن تبع"، فانتهز صهبان هذه الفرصة، ووثب على "عمرو اين تبع" فقتله واستولى على ملكه وصار الأمر إليه.

وهناك رواية اخرى تـذكر إن "صـهبان بـن محـرث" هـو الـذي عـين الحارث على معد. فهي تأييد للرواية المتقدمة " سوى أنها عينـت اسـم والـد صهبان، بأن نصت عليه، فجعلته "محرثاً" امـا الروايـة المتقدمـة فدعتـه "ذي خرب". و "ذي خرب" لقب، يعبر عن منصب وليس باسم علم.

وفي رواية يرجع سندها إلى أبي عبيدة، إن بكر بن وائـل لمـا تسـافهت، وغلبها سفهاؤها، وتقاطعت ارحامها، ارتأى رؤساؤهم فقالوا: إن سـفهاءنا قد غلبوا على أمرنا فأكل القوي الضعيف. فنرى إن نملك علينا ملكاً نعطيـه الشاه والبعير، فيأخذ للضعيف من القويْ ويرد على المظلوم مـن الظلـم، ولا يمكن إن يكون من بعض قبائلنـا، فيأبـاه الآخـرون، فيفسـد ذات بيننـا، ولكننا ناتي تبعاً فنملكـه علينـا، فـأتوه، فـذكروا لـه امـرهم، فملـك علـيهم الحارث بن عمرو أكل المرار الكندي، فقدم فنزل بطن عاقل.

ويدرك من هذه الروايات انه كان للتبابعة نفوذ عـلى قبائـل معـد، وأن تلك القبائل كانت تستشيرهم في أمورها، وتحكم اليهم فيما يحدث بينهم مـن خلاف. وأنه كان لهم يد في تعيين الحارث وتنصيبه على تلك القبائل.

والشيء الوحيد الذي يمكن، استخلاصه من هـذه الروايـات المدونـة عن تعيين الحارث ملكاً، انه تولى الحكم على كنده بعد وفاة أبيـه، وانـه وسـع ملكه بعد ذلك وقد يكون بمساعدة "تبع"، فصار ملكاً على كنده ويكر وعلى قبائل أخرى وأنه تمكن بشخصيته من رفع شأن قبيلته. ويرى "أولينـدر" انـه حكم حوالي سنة ٤٩٥ للميلاد.

وليس من السهل تعيين اسم "التبع" الذي عين الحارث ملكاً كما جاء ذلك في الروايات اليمانية بالاستناد إلى نصوص المسند، وليس من السهل أيضاً تصور بلوغ نفوذ "ملوك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت وإعرابها في الجبال وفي تهامة" المواضع النبي ذكرها اخباريو اليمن. وقد رأينا أثار الوهن بادية على تلك المملكة، بحيث لم تتمكن من مقاومة غزو الحبشة لها.وليس من السهل ايضاً تصور مجيء "بكر" والقبائل الأخرى مختارة طائعة إلى الحارث تلتمس منه إن يتفضل عليها بان يكون ملكاً عليها، وقد رأيناها كما يقول الأخباريون أنفسهم تنتقض على البيت المالك من كنده وتثور عليه، وتقتل امراءها منهم، حال علمها بضعف ذلك البيت، وبوفاة الرجل الذي جمع تلك القبائل بقوته، ووحدها بشخصيته.والأقرب إلى المنطق هو أن هذه القبائل لم تعترف برئاسة الحارث عليها، وبتاجه عليها إلا لما رأته فيه من القوة، وإلا بعد استعمال القوةوالعنف مع عدد من القبائل، فرضيت به ملكاً ما دام قوياً.والأمر بيديه، وهو منطق السياسة في الصحراء. وبهذا التفسير نستطيع فهم تكون ممالك أو امارات بسرعة عجيبة، تظهر فجأة قوية تحتضن جملة قبائل، ثم تسير بسرعة فتهدد حدودها الدول الكبرى وتهاجمها كالفيضان، فإذا أصيبت بهذه الدول تمزقت أوصالها وتجزأت كما تتجزأ الفقاعة وتذوب. هكذا حياة الممالك في البوادي، ممالك تولد، وأخرى تموت. ويذكر الأخباريون أن الحارث الكندي جمع إلى ملكه ملك الحيرة وآل لخم، وذلك في زمن قباذ. ورووا في ذلك جملة روايات عن كيفية تولي الحارث ملك الحيرة، وطرده لملكها الشرعي وتولى الحكم دونه.فرووا أن الزمن لم

يكن مؤاتياً ل"قباذ" يوم أوتي الحكم.كانت الأحوال مضطربة، والفتن رافعة رأسها في مواضع متعددة، والنفوذ في المملكة بيد الموابذة، ولموبذان موبذ الكلمة العليا، إذ هو الرئيس الروحي الأعلى في المملكة، كماكان للاغنياء وللاقطاعيين الشأن الأول في سياسة الدولة. فلم يعجب قباذ الوضع، لأنه "ملك الملوك" "شاهنشاه" ومن حق "ملك الملوك" الا ينازع في الملك، ففكر في طريقة لتقليص ظل الموابذة والمتنفذين في المملكة من كبار الأغنياء والملاكين، ورأى أن خير ما يفعله في هذا الباب، هو نشر تعاليم مزدك بين الناس. فإذا انتشرت كانت كفيلة بالقضاء على الأغنياء وعلى رجال الدين المتنفذين. وكان مزدك وأصحابه يقولون إن الناس تظالموا في الأموال والأرزاق، فاغتصبها بعضهم من بعض، وان الأغنياء قد اغتصبوا رزق الفقراء " وأنهم يأخذون للفقراء من الأغنياء، ويردون من المكثرين على المقلين، وانه من كان عنده فضل من الأموال والنساء والأمتعة، فليس هو بأولى به من غيره. فافترص السفلة ذلك، واغتنموه، وكانفوا مزدك وأصحابه وشايعوهم فابتلي الناس بهم، وقوى أمرهم حتى كانوا يدخلون على الرجل في داره، فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله، لا يستطيع الامتناع منهم". هكذا وصف الطبري وغيره من الأخباريين دعوة مزدك. فهي على هذا الوصف دعوة اشتراكية جاءت مقوضة لرجال الدين والاقطاعيين ومتنفذة الأغنياء.

فلما شايع قباذ المزدكية، اجتمعت كلمة "موبذان موبذ" والعظماء على ازالته من ملكه، فأزالوه عنه وحبسوه، وعينوا أخاه جاماسب مكانه. ويذكر الطبري إن ذلك كان في السنة العاشرة لملك قباذ، فيكون ذلك في سنة ٤٩٨ م على رأي من جعل ابتداء ملكه في عام ٤٨٨م، وقدّر حدوثه أيضاً في سنة ٤٩٦ م. وقد مكث أخوه ملكاً ست سنوات ثم أزاله عنه أخوه قباذ الذي أفلت من السجن في قصة يرويها الأخباريون، واستعاد قباذ بذلك ملكه. فتكون استعادته ملكه في حوالي سنة ٥٠٤" أو ٥٠٢م. وقد مكث ملكاً حتى انتقل إلى العالم الثاني في سنة ٥٣١م.

وتذكر رواية الأخباريين هذه، إن الملك قباذ طلب من المنذر بن ماء السماء. الدخول فيما دخل فيه من مذهب مزدك وزندقته، فامتنع، فاغتاظ قباذ وانزعج منه، ودعا "الحارث بن عمرو إلى ذلك، فأجابه، فاستعمله على الحيرة. وطرد المنذر من مملكته، فعظم سلطان الحارث، وفخم أمره، وانتشر ولده، فملكهم على يكر وتميم وقيس وتغلب وأسد. وكان من حلّ نجداً من أحياء نزار تحت سلطان الحارث دون من نأى منهم عن نجد. فتربط هذه الرواية كما نرى بين زندقة قباذ وعزل المنذر وتنصيب الحارث ملكاً على الحيرة، بقبوله مذهب قباذ. وروى "حمزة" إن الحارث كان قد طمع في ملك "آل لخم"، وكان قد وجد إن "قباذ" ضعيف الهمة فاتر العزم،غير ميال إلى القتال، وأنه سوف لا يساعد ال لخم، إن هو هاجمهم، لذلك ساق كنده ومن

كان معه من يكر ابن وائل عليهم، وباغت سادة الحيرة ولم يتمكنوا من الوقوف أمامه، فهرب "المنذر" من دار مملكته بالحيرة ومضى حتى نزل إلى "الجرساء الكلبى" وأقام عنده إلى أن تغير الحال بوفاة قباذ، وتبدل سياسة الحكومة بتولي "كسرى أنو شروان" الملك. فعاد إلى ملكه وقهر الحارث وتغلب عليه واستعاد ما اغتصب منه.

وذكر "حمزة" إن سبب لجوء "يكر بن وائل" إلى الحارث، وخضوعها لحكمه واشتراكها معه في مهاجمة "آل لخم" وانتزاع الحكم منهم، هو أن "امرأ القيس البدء" كان يغزو قبائل "ربيعة"، فينكى فيهم، ومنهم أصاب "ماء السماء"، وكانت تحت "أبي حوط الخطائر" فثارت به "يكر بن وائل" فهزموا رجاله، وأسروه، وكان الذي ولي أسره "سلمة بن مرة بي همام بن مرة بن ذهل بن شيبان"، فأخذ منه الفداء وأطلقه، فبقيت تلك العداوة في نفوس "بكر بن وائل" إلى أن وهن أمر الملك "فباذ"،فعندها أرسلت يكر الى الحارث بن عمرو فملكوه، وحشدوا له، ونهضوا معه حتى أخذ الملك ودانت له العرب.

وبهذه الكيفية شرح "حمزة" كيفية تولي "الحارث" عرش الحيرة، وسبب بغض "يكر بن وائل" لآل لخم، بغضاً دعاها إلى تنصيب "الحارث" ملكاً عليها، وعلى الانتقام من آل لخم.

ولابن الكلبي رواية عن كيفية تولي الحارث ملك الحيرة، ذكر، إن قباذ ملك فارس لما ملك كان ضعيف الملك،فوثبت ربيعة على النعمان الأكبر أبي المنذر الأكبر ذي القرنين. و إنما سمي ذا القرنين لضفرين كانا له،. فهو ذو

القرنين بن النعمان ين الشقيقة. فأخرجوه، فخرج هارباً حتى مات في إياد، وترك ابنه المنذر فيهم، وكان أرجى ولده عنده.فتنطلق ربيعة إلى كنده. وكان الناس في الزمن الأول يقولون إن كنده من ربيعة.فجاؤوا بالحارث بن عمرو بن حجر ا كل المرار الكندي، فملكوه على يكر بن وائل، وحشدوا له، وقاتلوا معه، فظهر على ما كانت العرب تسكن من أرض العراق، وأبى قباذ أن يمد المنذر بجيش. فلما رأى ذلك المنذر، كتب إلى الحارث بن عمرو: إني في غير قومي، وأنت أحق من ضمني واكتنفني، وانا متحول اليك. فحوّله إليه، وزوجه ابنته هنداً. ففرق الحارث بن عمرو بنيه في قبائل العرب، فصار شرحبيل بن الحارث في بكر بن وائل وحنظلة بن مالك وبني زيد بن تميم وبني اسد وطوائف من بني عمرو بن تميم والرباب، وصار غلفاء وهو معد يكرب في قيس، وصار سلمه بن الحارث في بني تغلب والنمر بن قاسط وسعد بن زيد مناة بن تميم. ومع معد يكرب الصنائع، وهم الذين يقال لهم بنو رقَيّة أم لهم ينسبون اليها. وكانوا يكونون مع الملوك من شذاذ الناس. فلما هلك أبوهم الحارث ين عمرو، تشتتّ أمرهم وتفرقت كلمتهم، ومشت الرجال بينهم، وكانت المغاورة بين الإحياء الذين معهم، وتفاقم أمرهم حتى جمع كل واحد منهم لصاحبه الجموع وزحف إليه بالجيوش."...

ولابن الكلبي رواية أخرى.دوّنها الطبري، هذا نصها: "لما لقي الحارث

ابن عمرو بن حجر بن عدي الكندي النعمان الأكبر، وملك الحارث بن عمرو الكندي ما كان يملك بعث قباذ بن فيروز ملك فارس إلى الحارث بن عمرو الكندي انه قد كان بيننا وبين الملك الذي قد كان قبلك عهد، وأني احب أن ألقاك. وكان قباذ زنديقاً يظهر الخير ويكره الدماء، ويداري أعداءه فيما يكره من سفك الدماء، وكثرت الأهواء في زمانه واستضعفه الناس. فخرج إليه الحارث ابن عمرو الكندي في عدد وعدة حتى التقوا بقنطرة الغيوم،. فما رأى الحارث ما عليه قباذ من الضعف،طمع في السواد، فأمر أصحابه مسالحه أن يقطعوا الفرات، فيغيروا في السواد،فأتى قباذ الصريخ وهو بالمدائن فقال: هذا من تحت كنف ملكهم. ثم أرسل إلى الحارث بن عمرو إن لصوصاً من لصوص العرب قد أغاروا، وانه يحب لقاءه، فلقيه. فقال له قباذ: لقد صنعت صنيعاً ما صنعه أحد من قبلك. فقال له الحارث: ما فعلت ولا شعرت، ولكنها لصوص من لصوص العرب، ولا أستطيع ضبط العرب إلا بالمال والجنود. قال له قباذ: فما الذي تريد؟ قال: أريد أن تطعمني من السواد ما أتخذ به سلاحاً. فأمر له بما يلي جانب العرب من أسفل الفرات، وهي ستة طساسيح. فأرسل الحارث ين عمرو الكندي إلى تبع وهو باليمن: إني قد طمعت في ملك الأعاجم، وقد أخذت منه ستة طساسيح،فاجمع الجنود، وأقبل.فجمع تبع الجنود، وسار حتى نزل الحيرة،وقرب من الفرات، فاذاه البق، فأمر الحارث بن عمرو أن يشق له نهر إلى النجف، وهو نهر الحيرة، فنزل عليه، ووجه ابن أخيه شمر ذي الجناح إلى قباذ، فقاتله فهزمه شمر حتى لحق بالري". وقد ترك ابن الكلبي الاشارة إلى

الحارث وطفر إلى الحديث عن فتوحات شمر الـذي أوصـل فتوحاتـه إلى القسطنطينية.، ثم الى رومة "روميهْ"، ثم إلى عـودة "تبـع" وتهـوده بتـأثر أخبار يثرب، ثم إلى علم "كعب الأحبار" الذي استمده عـلى حـد قولـه مـن بقية ما أورثت أحبار يهود.

ويرى "موسل" إن التقاء "الحارث" ب "قبـاذ" ٤٨٨ - ١ ٥٣م عنـد قنطرة الفيوم، كان سنة٥٢٥ للمـيلاد. والفيـوم موضـع لا يبعـد كثـيراً عـن "هيت."

يفهم من روايـة ابـن الكلبـي هـذه إن الحـارث التقـى بملـك الحـيرة "النعمان بن المنذر" في معركة أسفرت عن مقتل "النعمان" وفرار المنذر ابنـه، وعن انتصار عرب الحارث على عرب الحيرة، واستيلاء الحارث على مـا كـان يملكه النعمان. فلما حدث هذا ووقـع، اضـطر "قبـاذ" إلى ملاطفـة الحـارث واسترضائه. ولكن الحارث طمع في أكثر من ذلك، طمع في السواد. فأقطعـه منه ما يلي جانب العرب من أسفل الفرات، أقطعه منه ستة طساسيج. فلـيس في هذه الرواية اشْارة إلى قبول "الحارث" الدخول في المزدكية، ولا إلى طـرد النعمان من ملكه نتيجة لرفضه اتباعه في دينه، انما هو ضعف قباذ وعجزه عن مسـاعدة صـاحبه الـنعمان وانتهـاز الحـارث الـذكي هـذه الفرصـة المواتيـة للاستيلاء على ما طمع فيه من ملك الـنعمان. أمـا الشيـء الثـاني، وهـو خـبر "تبع"، وحروبه ومساعدته له، فهو على ما يظهر من هذا النحو الـذي ألفنـاه في ربط تأريخ كندة باليمن، والإشادة بماضيالقحطانيين وانفرادهم بالملك

دون خصومهم العدنانيين، والى عدم تمكن كنده من العمل وحدها لولا مساعدة اليمانيين.

يستنتج من كل هذه الروايات أن "الحارث بن عمرو" الكندي اغتصب عرش الحيرة أمداً، اغتصبه من "النعمان بن امرئ القيس بن الشقيقة"، أو "المنذر الأكبر بن ماء السماء" أو "النعمان الأكبر أبو المنذر الأكبر ذو القرنين"، و"ذو القرنين"، هو "ذو القرنين بن النعمان بن الشقيقة"، أو "النعمان ابن المنذر بن امرئ القيس بن الشقيقة"، وذلك في زمن "قباذ" ملك الفرس ". ويقصد بـ "قباذ" هذا "قباذ" الأول الذي حكم ثلاثاً وأربعين سنة على ما جاء في الأخبار. ويقدر العلماء ذلك من سنة ٤٨٨ حتى سنة ٥٣١ بعد الميلاد.ولنتمكن من تعيين اسم الملك الذي قصده الرواة، علينا الرجوع إلى أسماء من حكم في أيام قباذ من ملوك الحيرة، وذلك على نحو ما رواه لنا الأخباريون.

إن أول من حكم في عهد "قباذ"، على ما يدعيه "حمزة"، هو الملك "الأسود بن المنذر" وقد حكم في أيامه ست سنين. ثم المنذر بن المنذر، وأمه "هر"، وقد حكم سبع سنين.ثم النعمان بن الأسود، وأمه ام الملك بنت عمرو بن حجر أخت "الحارث بن عمرو بن حجر الكندي"، أربع سنين. ثم أبو يعفر بن علقمة الذميلي، وقد حكم ثلاث سنين.ثم امرؤ القيس بن النعمان ابن امرئ القيس، وقد حكم سبع سنين. ثم امرؤ القيس بن النعمان بن امرئ القيس، وقد حكم سبع سنين. ثم المنذر بن امرئ القيس المعروف بالمنذر بن ماء السماء، وهو ذو القرنين، وقد حكم اثنتين وثلاثين سنة من

ذلك ست سنين في زمن قباذ. ثم الحارث بن عمرو بن حجر الكندي، ولم يذكر "حمزة" مدة حكمه، إنما قال: "ذكر هشام عن أبيه أنه لم يجد الحارث فيمن أحصاه كتاب أهل الحيرة من ملوك العرب. ثم قال: وظني أنهم انما تركوه لأنه توثب على الملك بغير اذن من ملوك الفرس، ولأنه كان بمعزل عن الحيرة التي كانت دار المملكة ولم يعرف له مستقر وانما كان سيارة في أرض العرب ". ولم يذكر حمزة مدة حكم "قباذ."

أما "الطبري"، فجعل "النعمان بن المنذز بن امرئ القيس بن الشقيقة." الملك الذي كان قد حكم حينما تولى "قباذ" الحكم، وجعل "الحارث بن عمرو ابن حجر" الذي قتل النعمان على روايته من بعده. وقد دام حكمه على ما يظهر من رواية الطبري حتى أيام "كسرى أنو شروان بن قباذ". فلما قوي شأن "كسرى أنو شروان"، بعث إلى المنذر ين النعمان الأكبر، وأمه ماء السماء، فملكه الحيرة وما كان يلي آل الحارث بن عمرو بن حجر.

أما "ابن الأثير"، وهو عيال على الطبري وناقل منه؛ فقد ذكر ما ذكره الطبري، وأضاف إليه: أن المنذر بن ماء السماء لما بلغه هلاك قباذ، وقد علم خلافه على أبيه في مذهبه، أقبل إلى "أنو شروان" فعرفه نفسه، وأبلغه أنه سيعيده إلى ملكه،وطلب "الحارث بن عمرو"، وهو بالأنبار، فخرج هارباً في صحابته وماله وولده، فمر ب "الثوية"، فتبعه المنذر بالخيل من تغلب واياد وبهراء، فلحق بأرض كلب، ونجا، وانتهبوا ماله وهجائنه، وأخذت بنو تغلب ثمانية وأربعين نفساً من بني آكل المرار، فقدموا بهم على المنذر،

فضـرب رقابهم بـ "جفر الأميال" "جفر الأملاك" في ديار بني مرينـا العباديين بين دير بني هند والكوفة.

ترى مما تقدم اختلاف الروايات وتباينها وتعـددها، حتـى إن الراويـة الواحد مثل "ابن الكلبي" يروي لنا جملة روايات، قد يناقض بعضها بعضـاً. لقد وجدنا منها ما زعمت إن قباذ طرد المنذر من مملكته،وأحل الحارث محله، ومنها ما زعمـت إن المنـذر اسـترضى الحـارث بعـد أن رأى عجـزه وعجـز صاحبه تغيرت به الأحوال، فعاد أصحاب البيت إلى بيـتهم، وهـرب هـو إلى من حيث جاء ولا نعرف على وجه التحقيق متى ولي الحكم، ولا متى غادره.

لقد ذكرِ ت أسماء الملوك الذين حكموا في أيام "قباذ" على رواية حمزة، وهي رواية تكاد تتفق مع القائمة التـي دوّنهـا الطـبري، في آخـر كلامـه عـن "كسرى أنو شروان" نقلاً عن هشام بن الكلبي لأسماء ملـوك الحـيرة ومـدة حكمهم، وذلك قبل عهد "كسرى أنو شروان". فأي ملك من هؤلاء يمكن أن يكون هو الملك المقصود.

لقـد ذكـر "يوشـع العمـودي Joshua the Stylite" إن ملـك الحـيرة "النعمان" اشترك مع "قباذ" في المعارك التي وقعت بينه وببن الروم،فأصـيب النعمان بجروح بليغة على مقربة من "قرقيسـياء Circesium" قضـت عليـه، وذلك في سنة ٥٥٣ للميلاد.ولقد انتهز عرب الروم المسمون بالثعلبيين "بني ثعلبة" هذه الفرصة، فغزوا الحيرة، واضطرت القـوة التـي تركهـا الـنعمان في عاصمته إلى الفرار للبادية. أفلا يجوز أن يكون هؤلاء الغزاة هم أعراب

"الحارث الكندي"، انتهزوا هذه الفرصة فأغاروا على الحيرة واستولوا عليها، فصارت في قبضة "الحارث" على نحو ما رواه بعض الأخباريين؟ ثـم ألا يجوز أن يكون بعض الرواة قد سمعوا بمقتل "النعمان"، فظنوا أن القاتـل هو "الحارث"، أو تعمدوا نسبة القتل إليه للرفع مـن شـأن كنـده ومـن كـان معها من قبائل.

ولكن من يثبت لنا أن هؤلاء الأعراب الثعلبيين، أي من "بني ثعلبة"، وهم من عرب الروم على حدّ قول "يوشع العمودي" هم من أتباع الحارث، أو أنهم من "آل الحارث" أي من كنده، وأن العائلة الكندية المـذكورة كانـت تعرف ب "بني ثعلبة". وليس في الذي بين أيدينا مـن مـوارد، مـورد واحـد يذكر بأن "آل آكل المرار" هم من "بني ثعلبة" أو أنهـم كـانوا قـد عرفـوا ب "بني ثعلبة" في يوم من الأيام، أو أنهم كـانوا قـد خضـعوا لسـلطان الـروم. لذلك، لا أظن أن "يوشع العمودي" قصد بـالثعلبيين عـرب الـروم، كنـدة، وإنما قصد أعراباً من أعراب الروم، كانوا يعرفـون ب "بنـي ثعلبـة" أو "آل ثعلبة"، وكانوا يتمتعون باستقلالهم تحت حماية الروم. ولما وجدوا فرصـة مـا حل بالنعمان من جروح في الحرب التـي خاضـها مـع الفـرس عـلى الـروم، هاجموا الحيرة فانتهبوها، وعانت حاميتها ضعيفة ففرت إلى البادية، ولم يـذكر المؤرخ مدة مكوث هؤلاء الأعراب في الحيرة، والظاهر انها لم تكن سوى مدة قصيرة، وأنها كانت من نوع غارات الأعراب على المدن: غزو في خاطف،

يعقبه انسحاب عاجل لتأمين سلامة ما ينهبونـه وإيصـاله إلى ديـارهم حتى لا تتمكن القوات التي ستاتي لمعاقبتهم من أخذ مـا حصـلوا عليـه مـن غنائم وأموال.

ويظهر أن حكم كنده للحيرة لم يكن طويلاً، ويظن أنه كـان بـين سـنة ٥٢٥ وسنة ٥٢٨ للميلاد، وذلـك في أثنـاء ظهـور فتنـة المزدكيـة. في إيـران. وليس يستبعد أن يكون الحارث قد اتصل بالفرس قبل هذا الـزمن، في أثنـاء صـلح سـنة ٥٠٦ للمـيلاد، أو عـلى أثـر الفتـور الـذي طـرأ عـلى علاقاتـه بالبيزنطيين، لأنه وجد إن الاتفاق مع الفرس يعـود عليـه بفوائـد ومنـافع لا يمكن أن يغتنمها من الـروم، ووجـد بكـراً وتغلـب قـد زحفتـا اذ ذاك مـن مواطنهما القديمة في اليمامة ونجد نحو الشمال تريدان النزول في العراق. وقد أقره الفرس على المناطق الصغيرة أو الواسعة النى استولى عليها لقاء جعل.

لم يكن من مصلحة ملك الحيرة، بالطبع، الرضى بنزول، منافس قـوي أو منافسين أقويـاء في أرضـه أو في أرض مجـاورة لـه. ولمـا ظهـر الحـارث في العراق، وعرف ملك الحيرة نياتـه وتقربـه إلى الفـرس، وملـك الحـيرة، هـو باعتراف الفرس "ملك عرب العراق"، لم يكن من المعقـول سـكوته انتظـاراً للنتائج. ومن هنا وقع الاختلاف.

لم تكن العلاقات حسنة بين قبـاذ والمنـذر ملـك الحـيرة، لسـبب غـير واضح لدينا وضوحاً تاماً، قد يكون بسبب المزدكية، وقد يكون بسبب تقرب الحارث إلى الفرس واقطاعهم اياه أرضاً وتودده الزائد إلى قباذ، وقد يكون

لأسباب أخرى مثل تردد ملك الفرس وضعفه، فلم تكن له خطة ثابتة مما أثر في وضع "ملك عرب العراق". على كل حال، فقد أدى هذا الفتور إلى استفادة الحارث منه واستغلاله، فتقرب إلى الفرس وتودد اليهم حتى آل الأمر بأن يأخذ ملك الحيرة أمداً حتى تغيرت الأحوال في فارس بموت "قباذ" وتولى "كسرى أنو شروان" الملك من بعده، فعاد المنذر عندئذ الى عرش الحيرة وأبعد الحارث عن ملكه. وآراء الأخباريين متباينة كذلك في المكان الذي اختاره الحارث للاقامة فيه بغد اغتصابه ملك "آل لخم"، فبينما يفهم من بعض الروايات انه استقر في الحيرة وأقام فيها، نرى بعضاً آخر يرى أنه أقام في الانبار. وبينما يذكر "حمزة" إنالحارث حينما بلغه خبر قدوم المنذر عليه واقترابه من الحيرة، هرب فتبعته خيل المنذر، مما يفهم أنه كان في الحيرة، نجده يقول في موضع آخر: "إن الحارث كان بمعزل عن الحيرة الني كانت دار المملكة، ولم يعرف له مستقر، إنما كان سيارة في أرض العرب ". ونجد صاحب الأغاني يذكر في موضع إنه كان في الأنبار، ويشير في موضع آخر أنه كان في الحيرة.

وتتفق روايات الأخباريين على إن مجيء "كسرى أنو شروان" كان شراً على الحارث، وخيراً لال لخم، فقد كانت سياسة "أنو شروان" مناهضة لسياسة.قباذ بسبب المزدكية.وقد ظهر اختلافهما هذا فِي السنين الأخيرة من سني حكم قباذ.وقد أدى هذا الاختلاف إلى محاربة المزدكية وسقوطها. ويحدثنا "ملالا John Malalas" إن سقوطها كان بعد وفاة "الحارث" وقبل غارة المنذر على بلاد الشام. وقد قام المنذر بها في شهر آذار من سنة ٥٢٨

للميلاد على رواية "ثيوفانس THeophane" وكانت وفاة الحارث في أوائل سنة ٥٢٨ للميلاد. ومن رواية هذين الكاتبين يتبين إن الحارث كان قد قضى نحبه قبل القضاء على المزدكية بمدة غير طويلة، وان المنذر كان في آذار سنة ٥٢٨ للميلاد قد قام بغارته على بلاد الشام.

ويستدل من اشارة "ملالا" و"ثيوفانس" إلى موت الحارث في سنة ٥٢٨م ومن تلقيبه بلقب "فيلارخس" أي عامل، على إن علاقات الحارث بالروم في أواخر أيام حياته كانت حسنة. ومعنى هذا إن خلافاً أو فتوراً كان قد وقع فيما بينه وبين الفرس، دفعه على التقرب نحو خصوم الساسانيين وهم الروم، فاضل بهم وذلك في أيام "قباذ"، أو في أيام "كسرى انو شروان". ويظهر أن تودد "الحارث" إلى البيزنطيين لم يأت له بنتيجة أو بفائدة تذكر.

اذ يحدثنا الكاتبان "ملالا" و "ثيوفانس" إن قائد فلسطين الرومي "ديوميدس بر Diomedos" أجبر سيد قبيلة يدعى "اريتاسAritas"، أي "الحارث" على التراجع في اتجاه الهند"Indica"، ويقصد بذلك جهة الجنوب أو الشرق، حيث كان يطلق البيزنطيون على العربية الجنوبية "الهند". فلما سمع بذلك "الموندارس "Alamoundaros" "أي "المنذر" رئيس العرب "السرسيني Saracens" الخاضعين لنفوذ الفرس، هجم على الحارث فقتله، وغنم أمواله وما ملكه، وأسر اهله. فلما بلغ النبأ للقيصر "يوسطنيانوس Justinianus"، أمر حكام "فينيقية Phenicia" و"العربية "Arabia" والجزيرة وعامل الحدود بتعقب المنذر ومهاجمته. وقد اشترك في هذه الحملة

عدد من القادة والحكام، وفي جملتم سيد قبيلة اسمه "اريتاّس Aritas"أي "الحارث"، وهو الحارث بن جبلة الغساني على ما يظهر.

ولم يتعرض الأخباريون للخبر الذي ذكره الكاتبان عن كيفية قتل "الحارث" ولا عن الأمر الذي أصدره القيصر بتعقيب "المنذر"، والظاهر أنهم لم يقفوا عليه. غير إن للأخباريين رواياتهم الخاصة عن مصير صاحبنا "الحارث" الكندي. حدث صاحب "الأغاني" إن "أنو شروان" حينما ملك، أمر بقتل الزنادقة، اي أتباع مزدك، "فقتل منهم ما بين جازر إلى النهروان إلى المدائن في ضحوة واحدة مئة ألف زنديق وصلبهم"، وأعاد المنذر إلى مكانه، وطلب "الحارث ابن عمرو، فبلغه ذلك وهو بالأنبار وكان بها منزله فخرج هارباً في هجائنه وماله وولده، فمرّ بالثوية، وتبعه المنذر بالخيل من تغلب وبهراء وإياد، فلحق بأرض كليب، فنجا وانتهبوا ماله وهجائنه، وأخذت بنو تغلب ثمانية وأربعين نفساً من بني آكل المرار، فقسمت بهم على المنذر، فضرب رقابهم بـ"جفر الأملاك" "حفر الأملاك" في ديار بني مرينا العبادين بين دير هند والكوفة ٠٠ ."وأضاف "ابن الأثير" إلى هذا الخبر إن "تغلب" قبضت على ولدين من أولاد الحارث هما: "عمرو" و"مالك" في جملة الثمانية والأربعين، فجاءت بهما الى المنذر في "ديار بني مرينا" فقتلهمْ.

وحدثنا "ابن قتيبة" أن "المنذر" لما اقبل "من الحيرة هرب الحارث، وتبعته خيل فقتلت ابنه عمراَ، وقتلوا ابنه مالكاً بهيت، وصار الحارث بمسحلان فقتلته كلب". وزعم غير ابن قتيبة انه مكث فيهم حتى مات حتف أنفه. وذكر "حمزة" الروايات المدوّنة في كتاب "الأغاني" بحذف بعض

كلماتها.ولم يشـر اليعقوبي إلى من قتل "الحارث" من ملوك الحيرة، بـل أوجز فقال: " وكانوا يجاورون ملوك الحيرة، فقتلوا الحارث. وقـام ولـده بـما كان في أيديهم، وصبروا على قتال المنذر حتى كافؤوه. ويشعر على كـل حـال من جملة "وصبروا على قتال المنذر" ومـن روايـات الأخبـاريين الأخـرى أن القتل كان في أيام المنذر.

وفي رواية أخرى أن الحارث بقي في كلب حتى توفي فيما بيـنهم حتـف أنفه. وقد أضافت الرواية التي تنسب إلى "أبي عبيدة" إلى هذا الخبر انـه دفـن ب "بطـن عاقـل". والظـاهر أن إضـافة "بطـن عاقـل" إنـما وقعـت سـهواً واشتباهاً، من باب عدم التمييز فيما بين "حجر" الذي زعم أنه دفن بـ "بطـن عاقل" وبين "الحارث."

وجاء في رواية أن الحارث خرج يتصيّد، فرأى جماعة من حمر الوحشى فشدّ عليها، وانفرد منها حمار فتتبعه، وأقسم ألا يأكل شيئاً قبل كيده، فطلبتـه الخيل ثلاثة أيام حتى أدركته، وأتي به، وقد كاد يموت من الجوع، ثـم شـوي على النار واطعم من كبده وهي حارة فمات.

ولا تخلو هذه الروايات المتعلقة بموت "الحارث" ونهايته من مؤثرات العواطف القبلية التي صبغت كـل الأخبـار التـي يرويهـا الأخبـاريون بهـذه الصبغة. فكلب تدعي انها هي التي قتلته، وكنده تنكر ذلك مدعية أنـه مـات كما يموت سائر الناس، وأهل الحيرة يقولون انهم هم الذين قتلوه،قتلوه في

حرب.وأبو الفرج الأصبهاني يقول: "فكلب يزعمون أنهم قتلوه، وعلماء كنده تزعم أنه خرج إلى الصيد فالظ بتيس من الظباء، فأعجزه فآلى أن لا يأكل أولاً إلا من كبده، فطلبت الخيل ثلاثاً، فأتى بعد ثالثة، وقد هلك جوعاً، فشوى له بطنه فتناول فلذة من كبده، فأكلها حارة فمات.

ولورود خبر مقتل "الحارث" مسجلاً تسجيلاً دقيقاً لدى الكاتبين المذكورين: "ملالا" و "ثيوفانس"، ومطابقته لرواية أهل الحيرة في النتيجة، وهو إن مقتله كان على أيدي "المنذر" وجماعته نرجح هذه الرواية على غيرها من الروايات.

ويظهر من غربلة الروايات التي روأها أهل الأخبار عن نهاية "الحارث" أنها قد اختلفت فيما بينها وتضاربت في موضوع نهايته، فزعم بعض منها، أنه قتل وأن قاتله هو "المنذر بن ماء السماء"، وزعم بعض أخر أنه قتل، ولكنه لم يصرح باسم قاتله، وزعم بعض آخر أنه هلك، وأنه لم يقتل، وإنما مات حتف أنفه. والذي أرجحه انه قتل، قتل في أثناء المعارك التي وقعت من جراء تعقب المنذر بن ماء السماء له.

ولا نكاد نعرف شيئاً يذكر عن أعمال الحارث في أثناء توليه ملوكية قبائل "معد" غير ما ذكره الرواة من انه وزعّ أولاده عليها، وجعلهم ملوكاً على تلك القبائل. كذلك لا نكاد نعرف شيئاً يذكر عن أعماله وهو ملك على الحيرة، فأصحابنا الأخباريون سكوت عن هذه الأمور. ويفهم من كلام بعض الأخباريين عن "الحارث" أنه حينما نزل ببكر بن وائل، أقام ب "بطن عاقل"، ومنه غزا بهم ملوك الحيرة اللخميين، وملوك الشام الغسانيين، وفيه

كانت نهايته.ويفهم من بيت في ديوان "امرئ القيس" إن ملك الحارث قد امتد من العراق إلى عمان.ولا تعني أمثال هذه الأقوال امتلاكاً فعلياً، بل كانت تتحدث في الواقع عن اتفاقات تعقد بين القبائل يعترف فيها بالرئاسة لمن له النفوذ الأكبر والمكانة، فإذا حدث حادث للرئيس الذي يمكن بمكانته ومنزلته من ضم هذه القبائل وتوحيدها، انهدّ كيان ذلك الاتحاد وتشتت شمله، كالذي حدث بعد وفاةالحارث كما سترى فيما بعد. وقد لا تعني هذه الأقوال سوى المبالغات والفخر، على نحو ما يرد في شعر غيره من الشعراء من امتلاكهم الدنيا ومن عليها، ومن تدويخهم القبائل والناس، وليس في الواقع أي شيء مما جاء في دعوى أولئك الشعراء المفتخرين.

ويحدثنا "ابن الكلبي" أنه كان للحارث زوجات ثلاث، هن: أم قطام بنت سلمة بن مالك بن الحارث بن معاوية، وأسماء، ورقية أمة أسماء. وقد زعم ابن الكلبي إن أم قطام وأسماء كانتا شقيقتين، وأما رقية، فكانت أمة لأسماء. وقيل أيضاً: "هن أخوات، فجمعهن جميعاً". وزوّجه بعض الأخبارين بامرأة أخرى هي: "أم أناس" بنت "عوف بن محلم بن ذهل بن شيبان"، وهي والدة "عمرو بن الحارث" المعروف عندهم ب "ابن أم أناس" "ابن ام اياس". وفي رواية "ابن السكيت" إن "أم قطام بنت سلمى" هي امرأة من "عنزة."

وقد دوّن لنا الرواة أسماء جملة أولاد من أبناء "الحارث"، ذكروا منهم حجر وشرحبيل ومعد يكرب وعبد الله وسلمة، ومحرق ومالك وعمر.وأم "حجر" هي: "أم قطام."

ويذكر أهل الأخبار أنه كان للحارث ابن، حجّ ففقده، فاتهم به رجل من بني أسد يقال له حبال بن نصر بن غاضرة. فأخبر بذلك الحارث، فأقبل حتى ورد تهامة أيام الحج، وبنو أسد جميعها. فطلبهم، فهربوا منه. فأمر منادياً فنادى من أوى أسدياً فدمه جبار.ثم إن الملك عفا عنهم وأعطى كل واحد منهم عصا أماناً له وبنو اسد يومئذ قليل. فأقبلوا إلى تهامة ومع كل رجل منهم عصا. فلم يزالوا بتهامة حتى هلك الحارث، فأخرجتهم بنو كنانة، وسموا عبيد العصا، بالعصا التي أخذوها.

ويذكر أهل الأخيار انه كانت للحارث بن عمرو بنت اسمها هند، وقد تزوجها المنذر بن ماء السماء، وهي والدة الملك "عمرو بن هند" وشقيقة "قابوس" وعمة الشاعر امرئ القيس.

وهم يذكرون أن ملك الحارث لما توسع واشتغل هو بالحيرة عما كان يراعيه من أمور البوادي، تفاسدت القبائل وفشا بينها الشـرّ، فجاء أشرافها فشكوا ما حل بهم من غلبة السفهاء، و طلبوا إليه أن يملّك عليهم أبناءه، فملكَّ ابنه حجراً على بنيْ أسد وغطفان، وملك ابنه شرجيل على بكر بن وائل بأجمعها وعلى بني حنظلة بن مالك بن زيد مناة وطوائف من بني درام بني تميم والرباب، وملك ابنه معد يكرب على بني تغلب والنمر بن قاسط وسعد بن زيد مناة وطوائف من بني دارم بن حنظلة والصنائع، وهم بنو رقية: قوم كانوا يكونون مع الملوك من شذاذ العرب، ومَلَّكَ ابنه عبد الله على عبد القيس، وملَك ابنه سلمه على قيس عيلان. وقيل إن شرحبيل بن الحارث ملك في بكر بن وائل وحنظلة بن مالك وبني زيد بن تميم وبني أسد

وطوائف من بني عمرو بـن تمـيم والربـاب، ومعـد يكـرب في قـيس والصنائع، وهم بنو رقية، وسلمة في بني تغلب والنمر بن قاسط وسـعد بـن زيد مناة.

وقد اكتفى "حمزة" بقوله: "وانتشر ولده، فملكهم على بكر وتمـيم وقـيس وتغلب وأسد". وهنالك روايات أخـرى تختلـف في التفاصـيل وفي الأمـور الثانوية عن هذه الروايات التي ذكرتها بعض الاختلاف، سأشير إليها في أثناء البحث عن هؤلاء الأولاد.

وذكـر "يـاقوت الحمـوي" روايـة رجعهـا إلى "أبي زيـاد الكـلابي "، خلاصتها أن "مضر" و "ربيعة" اجتمعت على أن يجعلوا منهم ملكاً يقضـــي بينهم، فكل أراد أن يكون منهم، ثم تراضوا أن يكون من "ربيعة" ملك ومن "مضـر" ملك، ثم أراد كـل بطـن مـن ربيعـة ومـن مضر ـ أن يكـون الملـك منهم،ثم اتفقوا على أن يتخذوا ملكاً من اليمن. فطلبوا ذلـك إلى "بنـي آكـل المرار" من كنده، فملكت بنو عامر شراحيل بـن الحـارث الملـك بـن عمـرو المقصور بن حجر آكل المرار، وملكت بنو تمـيم وضـبة محـرق بـن الحـارث، وملكت وائل شراحيل بن الحارث. وتختلف هـذه الروايـة كـما تـرى بعـض الاختلاف عن رواية لـ "ابن الكلبي" ذكرها "ياقوت" أيضاً، هـي إن سـلمة بن الحارث ملك "بني تغلب" و"يكر بن وائل"، وأما "غلفاء" وهـو "معـد يكرب" "معدي كرب"، فقد ملك بقية "قيس"، وأمـا "أسـد" و "كنانـة"، فقد ملكت عليها "حجر بن الحارث"، أي والد امرئ القيس.

أما "حجر"، فهو أكثر هؤلاء الأولاد ذكراً عند الأخباريين. وهو والد الشاعر الجاهلي المعروف "امرئ القيس" وقد يعود الفضل إلى هذا الشاعر في ذيوع شهرة والده وانتشار خبره، وحفظ أخبار هذه الأسرة من كنده.وهو أكثر أولاد الحارث، واليه انتقلت عامة كنده بعد وفاة والده. وهو ابن "أم قطام بنت سلمة ين مالك بن الحارث بن معاوية" من كنده.

ملك "الحارث" ابنه "حجراً" كما ذكرت الأخبار على أسد وكنانة وهما قبيلتان من قبائل مضر. وتقع مواطن "اسد" الرئيسية في القرن السادس للميلاد في جنوب جبلي طيء "أجأ" و "سلمى"، ويسميان جبل شمر في الزمن الحاضر على جانبي بطن الرمة "وادي الرمة"، غير إن بطونها متفرعة منتشرة في مناطق واسعة تمتد من المدينة إلى نهر الفرات. ولكنها لم تكن سيدة هذه الأرضين، بل كانت تعيش مع غيرها من القبائل متفرقة. ويظن أنها "استينوى Asatynol"الساكنة في أرض تسمى بهذا الاسم في "جغرافيا" بطلميوس. وتعدّ هذه القبيلة في عرف النسابين من نسل "أسد بن خزيمة بن مدركة بن مضر"، وهي شقيقة "الهون" و "كنانة."

وروى المؤرخ "ثيوفانس" أن "رومانس Romanus" حاكم فلسطين في أيام "أنسطاسيوسAnastasius"، هزم في سنة ٤٩٠ للميلاد سيدي قبيلتين، هما: "جبلس Jabalas" "Gabalas" و"اوكاروس Ogaros" ابن "ارتاسAretas" ، أي الحارث من "آل ثعلبة Thalabanys"،ويظن أن "Gabalas"هو"جبلة"، والد الحارث بن جبلة الغساني. وأما"Ogaras"، فيرى بعض المستشرقين أنه "حجر بن الحارث ابن عمرو الكندي". وقد وقع

أسيراً في قبضة "رومانوس". ويرى "أوليندر" أن في تقدير هذا المؤرخ بعض الخطأ وأن التاريخ الصحيح هو سنة "٤٩٧" للميلاد. ثم أشار هذا المؤرخ إلى تحرش آخر قام به بعد أربع سنوات سيد قبيلة اسمه "Madikaripos" "Madicaripos"كان شقيقاً لـ "Ogaros " أوغل في الغزو وأوقع الرعب في جند الروم. وقد قصد "ثيوفانس" ب" "Madikaripos" معد يكرب بن الحارث" شقيق حجر.

وكان من نتائج هذه الغارات كما يقول هذا المؤرخ أن عقد القيصر "أنسطاسيوس" صلحاً مع "Aretas" أي الحارث، والد الأخوين المذكورين، فخيم الأمن بذلك على فلسطين والعربية وفينيقية. وقد أشار إلى هذا الصلح المؤرخ "نونوسوس Nonnosus" حيث ذكر إن القيصر "انسطاسيوس" أرسل جده إلى "Aretas" لمفاوضته في عقد صلح. ويظهر من قول هذا المؤرخ أن هاتين الغزوتين كانتا في حياة"Aretas" .

ولم يشر الأخباريون إلى هذه الغزوات التي قام بها "حجر" و"معد يكرب" على حدود سورية وفلسطين في عهد "أنسطاسيوس" كما روى ذلك هذا المؤرخ.

وورد إن حجراً أغار على اللخميين في أيام امرئ القيس والد المنذر بن ماء السماء. و يظن "نولد كه" أن هذه الحملة التي لا نعرف من أمرها شيئاً انما وقعت بعد وفاة الحارث، وقد قصد "حجر" منها استرجاع ما خسره أبوه، واعادة نفوذ كنده إلى ما كان عليه.

لقد كانت نهاية "حجر" بأيدي "بني أسد"، ويظهر أنهم قبلوه ملكاً عليهم مكرهين. فلما حانت الفرصة قاموا عليه وقتلوه. حدّث "ابن الكلبي"أنه كان لحجر على بني أسد اتاوة في كل سنة مؤقتة. فلما كان بتهامة، أرسل جابيه الذي كان يجيبهم، فمنعوه ذلك، وضربوا رسله وضرجوهم ضرجاً شديداً قبيحا، فبلغ ذلك حجراً، فسار اليهم بجند من ربيعة وجند من جند أخيه من قيس وكنانة، فأتاهم وأخذ سراتهم، فضربهم بالعصا وأباح الأموال وصيرهم إلى تهامة، وحبس سيدهم "عمرو بن مسعود بن كنده بن فزارة الأسدي"، و الشاعر "عبيد بن الأبرص"، فأثر ذلك في نفوس "بني أسد وأضمروا له الانتقام". ثم إن حجراً وفد على أبيه الحارث في مرضه الذي مات فيه، وأقام عنده حتى هلك، ثم أقبل راجعاً إلى بني أسد، فلما دنا منهم، وقد بلغهم موت أبيه، طمعوا فيه، فلما أظلهم وضربت قبابه، اجتمعت بنو أسد إلى "نوفل بن ربيعة"، فهجم على "حجر" ومن معه، فانهزم جيشه وأسر "حجر" وتشاور القوم في قتله، فقال لهم كاهنهم: لا تعجلوا بقتله حتى أزجر لكم، فلما رأى ذلك "علباء" خشي أن يتواكلوا في قتله، فحرّض غلاماً من بني كاهل على قتله، وكان حجر قد قتل أباه، فدخل الخيمة التي احتبس حجر فيها فطعنه طعنة أصابت مقتلاً.

ويزعم أهل الأخبار إن "بنى أسد" الذين عصوا حجراً عرفوا منذ ضربهم حجر بالعصا ب "عبيد العصا"، وقد أشير إلى هذه التسمية في الشعر، ويذكرون أيضاً أن "عبيد بن الأبرص"، وقف أمام الملك حجر، فقال شعراً يستعطفه فيه على قومه، فرق لهم ورحمهم وعفا عنهم، وأرسل من

يردهم إلى بلادهم، فلما صاروا على مسيرة يوم من تهامة تكهن كاهنهم وهو "عوف بن ربيعة بن عامر الأسدي"، بأنهم سيقتلون حجراً وسينتقمون منه ومن أهله ثم فصدقوا بنبوءته وعادوا،إلى موضع حجر فوجدوه نائماً، فذبحوه، وشدوا على هجائنه فاستاقوها. وفي رواية أخرى، انهم هجموا على عسكر حجر ودخلوا قببه، فطعنه علباء بن الحرث الكاهلي، فلما قتل، استصلحت أسدٌ كنانة وقيساً، ونهبوا ما كان في عسكر حجر وسلبوه، وأجار "عمرو بن مسعود" عيال حجر. وقيل أجارهم غيره، وبذلك تخلصت بنو أسد من حكم كنده.

وهناك روايات أخرى يرجع سندها إلى "ابن الكلبي" والى غيره مثل "أبو عمرو الشيباني" و "الهيثم بن عدي" و "يعقوب بن السكيت" وغيرهم تختلف فيما بينها بعض الاختلاف في كيفية قتل "حجر". وقد زعمت بعض الروايات بأن "علياء بن الحرث الكاهلي" هو الذي قتله، طعنه، فقضت طعنته هذه عليه، وكان "حجر" قد قتل أباه. وزعمت رواية أخرى أن الذي قتله هو ابن أخت "علباء"، وكان حجر قد قتل أباه، ضربه بحديدة كانت معه سببت وفاته.

وتذكر رواية أن "حجراً" لما علم انه ميت أوصى ودفع كتابه إلى رجل أمره إن ينطلق إلى أكبر أولاده "نافع"، فإن بكى وجزع، فليذهب إلى غيره حتى يصل إلى أصغرهم وهو امرؤ القيس، فأيهم لم يجزع يدفع إليه الكتاب. فكان ذلك الولد امرؤ القيس.

ونجد في شعر "بشر بن أبي خازم الأسدي" فخراً واعتزازاً بقتل أسد لحجر والد امرئ القيس.وقد دعاه ب "ابن ام قطام" في احدى قصائده، وقال إن قومه علوه بالسيوف البيض الذكور. وأم قطام هي بنت سلمة بن مالك بن الحارث بن معاوية.ودعاه ب "حجر" في قصيدة أخرى، وافتخر بأن قومه ضربوا رأس حجر بأسياف مهندة رقاق. وذكر في قصيدة أخرى أن قومه ضربوا خيل حجر بجنب الرده. والرّده موضع في ديار قيس، والظاهر أنهم قتلوا حجراً بجنب الرده.

وأما "شرحبيل"، فقد ملكه أبوه على "بكر بن وائل" و"حنظلة بن مالك" و"بني أسيد" و "الرباب"، أي على عدد من قبائل ربيعة ومضر، وكان نصيبه القسم الشرقي من مملكة كنده ما عدا البحرين. وليس بين الذي يروي الأخباريون عنه شيء ذو بال، إلا ما ذكروه عن كيفية مقتله ونهايته، وهذا ملخصه: لما هلك الحارث بن عمرو تشتت مر أولاده، وتفرقت كلمتهم، ومشت الرجال بينهم، وتفاقم أمرهم حتى جمع كل واحد منهم لصاحبه الجموع وزحف إليه بالجيوش. وقد بلغت العداوة أشدها بين "شرحبيل" وسلمة، بسبب المنذر الذي عاد إلى الحيرة وأخذ يشعل نار الفتنة بين الأخوين. فسار شرحبيل ببكر ابن وائل ومن معه من قبائل حنظلة ومن أسيد بن عمرو ين تميم وطوائف من بني عمرو بن تميم والرباب، فنزلت "الكلاب"، وهو ماء بين الكوفة والبصرة على بضع عشرة ليلة من اليمامة، وأقبل "سلمة" في بني تغلب وبهراء.والنمر وأحلافها وسعد بن زيد مناةبن تميم ومن كان معهم من قبائل حنظلة وفي الصنائع يريدون الكلاب. وكان

نصحاء شرحبيل وسلمة نهوهما عن الفساد والتحاسد، وحذروهما الحرب وعتراتها وسوء مغبتها، فلم يقبلا، ولم يتزحزحا، وأبيا إلاّ التتابع. فلما تلاقى الجمعان، اقتتلا قتالاً شديداً، ثم خذلت بنو حنظلة وعمرو ابن تميم والرباب بكر بن وائل، وانصرفت وثبتت بكر بن وائل، وانصرفت بنو سعد وألفافها عن بني تغلب، وصبرت تغلب، وساء أمر شرحبيل، فجاء إليه من عرف موضعه وقتله.

ويذكر أهل الأخبار إن العداوة كانت شديدة بين الأخوين، حتى إن كل واحد منهما وضع جائزة لمن يأتي برأس أخيه، فذهب "أبو حنش" وهو عصم ابن النعمان ين مالك "عصيم بن مالك الجشمي"، فطعن " شرحبيل "، واحتز رأسه وجاء به إلى أخيه، فطرحه أمامه. ويقال إن شرحبيل لما رأى "أبا حنش" يريد توجيه طعنة إليه قال له: يا أبا حنش اللبن اللبن، فقال أبو حنش: قد هرقت لنا لبناً كثيراً. فقال: يا أبا حنش أملك بسوقة. وذلك إن دم الملوك فوق دم العامة، وهم السوقة. وان الملك لا يقبل بسبب قتله رجلاً من سواء النا س.

ويظن إن "يوم الكلاب" كان قد وقع سنة ٦١٢ للميلاد. ويقول الرواة إن "بني تغلب" أخرجت "سلمة"، فلجأ إلى "بني بكر ابن وائل"، فانضم اليهم، ولحقت تغلب بالمنذر بن امرئ القيس. وتذكر رواية من الروايات التي يقصها أهل الأخبار عن كيفية نهاية ملوك كنده. إن الأمر لما اشتد على أولاد الحارث، جمع "سلمة" جموع اليمن، فسار ليقتل نزاراً. وبلغ ذلك نزاراً، فاجتمع منهم "بنو عامر بن صعصعة" وبنو وائل: تغلب وبكر،

وقيل: بلغ ذلك كليب وائل، فجمع ربيعة، وقدّم على مقدمته السفاح التغلبي وأمره أن يعلو "خزازا" فيوقد عليه ناراً ليهتدي الجيش بها، وقال له: إنْ غشيك العدو فأوقد نارين. وبلغ سلمة اجتماع ربيعة ومسيرها فأقبل ومعه قبائل مذحج، و هجمت مذحج على خزاز ليلاً، فرفع السفاح نارين، فأقبل كليب في جموع ربيعة اليهم،فالتقوا بخزاز، فاقتتلوا قتالاً شديداً فانهزمت جموع اليمن. وفي رواية "أبي زياد الكلابي"، إن الذي أوقد النار على خزاز "خزازا" هو الأحوص بن جعفر بن كلاب، وكان على روايته هذه رئيساً على نزار كلها. ويذكر الكلابي إن أهل العلم من الذين أدركهم ذكروا له أنه كان على نزار "الأحوص بن جعفر" ثم ذكرت ربيعة أخيراً من الدهر إن "كليبا" كان على نزار. أما "محمد بن حبيب"، فيروي إن "كليب وائل" هو الذي قاد جموع "ربيعة" و "مضر" و"قضاعة" في يوم خزاز إلى اليمن.

وقال بعض الأخباريين كان كليب على ربيعة، والأحوص على مضر. ويعود سبب هذا الاختلاف في روايات الرواة إلى النزعات القبلية التي كان يحملها الرواة. ف "أبو زياد الكلابي" يتعصب كما نرى ل "بني كلاب "، فيرجع الرئاسة اليهم، لأنه منهم، وهذا مما يأباه رواة ربيعة وينكرونه عليه إذ يرون أن الرئاسة فيهم. وتوسط رواة بين رواة ربيعة ورواة مضر حسماً للنزاع على ما يظهر، فقالوا بالرئاستين: رئاسة كليب على ربيعةْ، ورئاسة الأحوص على مضر وبذلك اصلحوا ذات البين.

□

وقد ذكر "أبو زياد الكلابي": أن يوم "خزاز" أعظم يوم التقت فيه العرب في الجاهلية وأنه أول يوم استنصفت فيه نزار من اليمن، وأنها لم تزل منذ هذا اليوم ممتنعة قاهرة لليمن في كل يوم يلتقونه حتى جاء الإسلام.

وذكر "الأصمعي": أن يوم خزاز كان للمنذر بن ماء السماء ولبني تغلب وقضاعة على "بني آكل المرار" من كنده وعلى بكر بن وائل، وأن المنذر وأصحابه من بني تغلب أسروا في هذا اليوم خمسين رجلاً من بني آكل المرار. ويفهم من شعر ل "عمرو بن كلثوم". قيل أنه قاله متذكراً هذا اليوم، أن رهطه وهم من بني تغلب آبوا بالنهاب وبالسبايا وبالملوك مصفدين. ولم يشر الشاعر إلى هوية هؤلاء الملوك المأسورين، ولكن "الأصمعي" يقول: إنه قصد بقوله: "وأبنا بالملوك مصفدينا "بني آكل المرار."

فيظهر من الرواية المتقدمة إن يوم خزاز، كان بين سلمة ومن جاء معه من اليمن وبين تغلب ومن انضم إليها من قبائل ربيعة ومضر. ويظهر من رواية الأصمعي إن ذلك اليوم كان بين المنذر بن ماء السماء وتغلب وقضاعة من جهة وبين "بني آكل المرار"، وبكر بن وائل من جهة أخرى وهناك روايات أخرى تذكر إن هذا اليوم، انما كان قد وقع بين ملك من ملوك اليمن وبين قبائل معدّ، ولا علاقة له بسلمة وببني اكل المرار أو المنذر بن ماء السماء في هذا اليوم، الذي أدى إلى انتصار بنى معدّ على أولاد قحطان.

ويذكر بعض أهل الأخبار أنه: "لولا عمرو بن كلثوم ما عرف يوم خزاز". وأم عمرو بن كلثوم، هي ابنة "كليب بن ربيعة"، المعروف بـ "كليب وائل". فذكره في شعره لذلك اليوم ساعد ولا شك في ابقاء اسمه في ذاكرة الناس، حتى دون خبره في الإسلام.

وليوم "أوارة" الأول علاقة وصلة ب "سلمة بن الحارث" وبـ "المنذر ابن ماء السماء" على ما يرويه بعض أهل الأخبار. فهم يذكرون أن تغلب لما أخرجت "سلمة" عنها، إلتجأ إلى "بكر بن وائل"، فلما صار عند بكر ابن وائل أذعنت له، وحشدت عليه، وقالت: لا يملكنا غيرك. فبعث إليهم المنذر يدعوهم إلى طاعته، فأبوا ذلك، فحلف المنذر ليسيرن اليهم، فإن ظفر بهم فليذبحنهم على قلة جبل أوارة. وسار اليهم في جموعه، فالتقوا بأوارة، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وأجلت الواقعة في هزيمة بكر وأسر "يزيد بن شرحبيل الكندي"، فأمر المنذر بقتله وبقتل عدد كبير من بكر.

وأما "شراحيل بن الحارث"، فقد قتله "بنو جعدة بن كعب بن ربيعة ابن صعصعة."

ويحدثنا "يعقوب بن السكيت" انه كان لحجر والد امرئ القيس جملة أولاد أكبرهم "نافع" وأصغرهم "امرؤ القيس "، وبين الأكَبر والأصغر جملة أولاد، غير انه لم يذكر أسماءهم. وقد ورد اسم "نافع" في بيت شعر لامرئ القيس.

وذكر "ياقوت" ولداً لـ "سلمة بن الحارث" سماه "قيساً" قال: أنه أغار على "ذي القرنين المنذر بن النعمان بن امرئ القيس بن عمرو بن عدي" فهزمه، حتى أدخله الخورنق ومعه ابناه قابوس وعمرو. فمكث ذو القرنين حولاً، ثم أغار عليهم بـ "ذات الشقوق"، فأصاب منهم اثني عشر شاباً من

بني حجر ابن عمرو وكانوا يتصيدون، وأفلت منهم امرؤ القيس على فرس شقراء، فطلبه القوم فلم يقدروا عليه. وقدم المنذر الحيرة بالفتية فحبسهم بالقصر الأبيض شهرين ثم أمر بضرب أعناقهم فضربت عند "الجفر"، فعرف منذ ذلك الحين بـ "جفر الأملاك"، وهو موضع "دير بني مرينا". وقد أشير إلى مقتلهم في شعر لامرئ القيس.

١. كنده تلحق بحضرموت:

وقد ذكر الرواة أن ملك كنده لما انخرق، وهلك من هلك منهم، قام عمرو أقحل بن أبي كرب بن قيس بن سلمة بن الحارث، الملك، فقال: "يا معشر كنده، إنكم قد اصبحتم بغير دار مقام.وقد ذهب أشرافكم وانخرق ملككم، ولا أمن العرب عليكم، فالحقوا بحضرموت."

ويذكر الرواة أن الملك خرج من "بني آكل المرار" وساد بنو الحارث بن معاوية فأول من ساد منهم "قيس بن معد يكرب"، ثم ابنه الأشعث بن قيس، وهو الذي اتى النبي في ستين او سبعن راكباً من اشراف كنده فأسلموا. أسلم الأشعث، وكانت كنده قد توجته عليها.

ويذكر "حمزة"، إن المنذر بن ماء السماء تتبع غابرهم، فقتل عامتهم، وصارت رياسه كنده في "بني جبلة بن عدي بن ربيعة بن معاوية الأكرمين"، ثم في "معد يكرب بن جبلة"، ثم في "قيس بن معديكرب"، وعلى عهده قام الإسلام بمكة، ثم في "الأشعث بن قيس."

وقد ذكر "ابن حبيب"، "الأشعث بن قيس بن معد يكرب" في جملة الجرّارين من اليمن. و الجرّارون من كان يرأس ألفاً ولا يعد الرجل جرّاراً

حتى يقود ألفاً. وذكره في باب "أعرق العرب في الغدر". فقال عنه أنه غدر بـ "بني الحارث بن كعب". وكان بينهم عهد وصلح، فغزاهم فـأسروه، ففدى نفسه بمائتي قلوص، فأدى مائة، ولم يـؤد البقيـة حتـى جـاء الإسـلام، فهدم ما كان في الجاهلية. وغدر الأشعث أيضاً فارتد عن الإسلام.

وقال عن والده "قيس بن معد يكرب بن معاوية بن جبلة الكندي": أنه كان من "أعرق العرب في الغدر" كذلك، وكان بينه وبـن مـرادَ ولـثٌ إلى أجـل، فغزاهم فيَ آخر يوم الأجل غادراً. "وكان ذلك الْيوم يوم الجمعة. فقالوا لـه: أنه قّد بقي من الأجل اليوم. وكان يهودياً. فقال: أنه لا يحمل لي القتـال غـداً. فقاتلهم، فقتلوه وهزموا جيشه. وكان معد يكرب عقد لمهرة صلحاً، فغزاهم غادراً بالعهد. فقتلوه وشقوا بطنه، فملأوه حصى."

وقد لقب "قيس" بالأشج، لأثـر شـجٍ في وجهـه، وعـرف بالأعشـى كذلك وقيل له: "بطريق اليمن". وذكر بعض الرواة إن كلمة "بطريق" تعني الحاذق في الحرب وأمورها.

وفي حق "قيس" هذا قال "الحارث بن حلـزة اليشـكري" في جملـة مـا قاله في قصيدته مفتخراً بقومه:

حول قيس مستلئمين بكـبش قرظـــي كأنـــه عبـــلاء

وقد قال الشرّاح أن قيساً جـاء عـلى رأس جـيش لجـب ومعـه راياتـه متحصن بسيد من بلاد القرظ، وبلاد القرظ اليمن، كأنـه في منعتـه وشـوكته هضبة من الهضاب، قد لبسوا الدروع، فرد بهم "يشكر" قوم الشاعر، وقتلوا منهم.

ويذكر أهل الأخبار أن الشاعر الأعشى كان ممن يفد على "قيس بن معد يكرب" من الشعراء. وقد رووا له شعراً قاله لقيس. في جملته قوله:

وجلنداء في عمانَ مقيماً ثم قيساً في حضرموت المنيف

وقد ذكر "ابن حبيب" إن "خالد بن جعفر بن كلاب"، أسر "قيس ابن سلمة الكندي" يوم الحرمان.

وذكر أهل الأخبار أن ملوك كندة جعلوا ردافتهم في "بني سدوس." وجاء أن "الأشعث بن قيس"، كان قد غلب على اهل نجران وملك رقابهم وجعلهم "عبيداً مملكة". وذكر انه خاصمهم عند عمر في أيام خلافته، فاحتجوا عليه أن ذلك كان في الجاهلية، فلما أسلموا سقطت تلك العبودية عنهم.

✓ امرؤ القيس الشاعر:

ويذكر الأخباريون إن "حجراً" لم يكن راضياً عن ابنه "امرئ القيس" فطرده من عنده وآلى إلا يقيم معه أنفة من قوله الشعر، وكانت الملوك تأنف من ذلك فكان يسير في احياء العرب ومعه اخلاط من شذاذ العرب من طيء وكلب ويكر بن وائل. فإذا صادف غديراً أو روضة أو موضع صيد، أقام فذبح لمن معه في كل يوم، وخرج إلى الصيد فتصيدّ، ثم عاد فأكل وأكلوا معه وشرب الخمر وسقاهم وغنته قيانه، ولا يزال كذلك حتى ينفد ماء ذلك الغدير، ثم ينتقل عنه إلى غيره. فأتاه خبر ابيه ومقتله وهو ب "دمّون" من

أرض اليمن، أتاه به رجل من بني عجل يقال لـه عـامر الأعـور أخـو الوصاف.فلما أتاه بذلك، قال: تطاول الليل عـلى دمّـون دمّـون، إنـا معشرـ يمانون واننا لأهلها محـبـوّن

ثم قال: ضيعني صغيراً وحملني دمه كبيراً، لا صحو اليـوم، ولا سـكر غداً، اليوم خمر، وغداً أمر. فذهبت مثلاً ثم قال: خليلي، لا في اليوم مصـحى لشارب ولا في غد إذْ ذاك ما كان يشرب ثـم شرب سـبعاً فلـما صـحا إلى ألاّ يأكل لحماً ولا يشرب خمراً ولا يدهن بدهن ولا يصيب امرأة ولا يغسل رأسه من جنابة حتى يدرك بثأره.

وفي رواية أخرى أنه طرد لما صنع في الشعر بفاطمة ما صـنع،وكان لهـا عاشقاً، فطلبها زماناً، فلم يصل اليها، وكان يطلب غرة حتى كـان منهـا يـوم الغدير بدارة جلجل ما كان، فقال قصيدته المشهورة: "قفا نبـك مـن ذكـرى حبيب ومنزل". فلما بلغ ذلك والده غضب عليه، وأوصى بقتلـه ثـم طـرده. وهناك من يزعم أنه إنما طرده لأنه تغزل بامرأة من نساء أبيه.

هذا وصف موجز لأصغر أبناء "حجر": "امرىء القيس بن حجر الكندي" الشاعر الشهير و"الملك الضليل" و"ذي القروح."

وللرواة أقوال في اسم "امرئ القيس"، فقد سمّاه بعضهم "حنـدجاً"، ودعاه آخرون "عدياً"، ودعاه قـوم "مليكـاً"، ودعـاه نفـر "سـليمان" وهـو معروف عندهم يالاجماع بـ "امرئ القيس"، وهو لقبه. ويكنـى بـأبي وهـب وأبي زيد وأبي الحارث وذي القروح.

ولا نعرف سنة ولادة هذا الأمير الشاعر. ويظـن "اولينـدر" أنـه ولـد حوالي سنة "٥٠٠ للميلاد. أما أمه فهي "فاطمة" بنت ربيعة بن الحارث بـن زهير، أخت "كليب" و"مهلهل" التغلبيين. وورد في بيـت شـعر ينسـب إلى هذا الشاعر: "امرئ القيس بن تملك". وقد استنتج بعض العلماء منه أن أمـه هي "تملك" ورجعوا نسبها إلى "عمرو بن زبيد بن مذحج رهـط عمـرو بـن معد يكرب"، ويرى بعض المستشرقين انه أدخل في ديوان هذا الشاعر، وانـه يعود إلى شاعر آخر اسمه "امرئ القيس"، وقد عـد "آلـوارت Ahlwardt"، ستة عشـر شاعراً أسماؤهم "امرؤ القيس". ويلاحظ أن من زعم من الـرواة إن ام امرئ القيس هي "تملك" جعل نسبه "امرأ القيس بن السمط بن امرئ القيس بن عمرو بن معاوية بن ثور"، وهو "كنـدة"، وهـم يخـالفون بـذلك سلسلة النمب المألوفة عند غالبية الرواة.

وذكر أنه ولد ببلاد بني أسد، وانه كان ينزل بالمشقر وهو موضـع ذكـر في شعره. وروى "ابن قتيبة" أن "امرأ القيس" مـن أهـل نجـد، وأن الـديار التي وصفها في شعره كلها ديار بني اسدّ. وقد تنقلّ هذا الشـاعر في مواضـع متعددة من الجزيرة، ووصل إلى القسـطنطينية عاصـمة الـروم. وكـان امـرؤ القيس بـ "دموّن" حينما جاء إليه نبأ مقتل والده على رواية. ودموّن من قرى حضـرموت للصدف في رواية. وفي رواية أخرى مرجعها "الهيثم ابن عدي" إن امرأ القيس لما قتل أبوه كان غلاماً قد ترعرع، وكان في بني حنظلة مقيماً،

لأن ظئره كانت امرأة منهم، وقد روت شعراً زعمت أنه قاله حينما بلغه النبأ، وهو:

أتاني وأصحابي على رأس صيلع — حديث أطار النوم عنى فأنعما

فقلت لعجليّ بعيد مآبة — ابن لي وبين لي الحديث المجمجما

فقال: أبيت اللعن عمرو وكاهل — أباحا حمى حجر فأصبح مسلما

ويفهم من هذا أن شاعرناّ كان في صيلع حينما. أبلغ خبر وفاة والده، أتاه به رجل اسمه "عجل" ويعرف بعامر الأعور.

أما صيلع، فموضع من شق اليمن، كثير الوحش والظباء.ورد اسمه في خبر مجيء وفد همدان إلى الرسول. وقد صرح "ياقوت الحموي أن به ورد الخبر على امرىء القيس بمقتل أبيه حجر.

وهناك خبر يفيد أنه نزل في "بني دارم" وبقي عندهم حتى قتل عمه "شرحبيل"، وفي رواية تنسب إلى "الهيثم بن عدي" أنه كان مع والده "حجر" حين هاجمته بنو أسد، وانه هرب على فرس له وتمكن من النجاة.ويقول "ابن الكلبي" و"يعقوب بن السكيت" أن امرأ القيس ارتحل بعد أن بلغه نبأ مقتل والده حتى نزل بكراً وتغلب، فسألهم النصر على بني أسد، فبعث العيون على بني أسد، فنذروا بالعيون ولجأوا إلى بني كنانة، ثم أدركوا إن امرأ القيس يتعقبهم، ونصحهم "علباء بن الحارث" بالرحيل بليل، وألاّ يعلموا بني كنانة، ففعلوا وتركوا "بني كنانة" وارتحلوا عنهم ليلاً دون أن يشعروا.

فلما وصل امرؤ القيس إلى بنـي كنانـة ظانـاً بنـي أسـد بيـنهم، نـادى: يالثارات الملك. يالثارات الملك فأخروه انهم قـد تركـوهم وارتحلـوا عـنهم. فتعقبهم مع بكر وتغلب حتى لحق بهـم، فقـاتلهم، فكثـرت فـيهم الجرحـى والقتلى حتى جاء اليل فحجز بينهم، وهربت بنـو أسـد فلـما أصـبحت بكـر وتغلب، أبوا أن يتبعوهم وقالوا له: قد أصبت ثأرك. قـال: والله، مـا فعلـت ولا أصبت من بني كاهل ولا من غيرهم من بنـي أسـد أحـداً. قـالوا: بـلى، ولكنك رجل مشؤوم، وكرهوا قتالهم بني كنانة. وانصرفوا عنه، ومضى هارباً لوجهه حتى لحق بحمير. ولمـا أقبـل امـرو القـيس مـن الحـرب عـلى فرسـه الشقراء، لجأ ابن عمته "عمرو إبن المنذر" وأمه "هند بنت عمـرو بـن حجـر آكل المرار"، وذلك بعد قتل أبيه وأعمامه، وتفرق ملك أهل بيته، وكان عمرو يومئذ خليفة لأبيه المنذر ب "بقة"، فمدحه وذكر صهره ورحمه، وانه قد تعلق بحباله، ولجأ إليه فأرجاه ومكث عنده زماناً. ثم بلغالمنذر مكانه عنده، وأنذره عمرو، فهرب حتى أتى حمير.

وفي رواية يرجعها الرواة إلى "ابن الكلبي" و"الهيثم بن عدي" و"عمر ابن شبة" و"ابن قتيبة": إن "امرأ القيس" خرج فـوراً بعـد امتنـاع بكـر ابـن وائل وتغلب من أتباع بني أسد إلى اليمن، فاستنصـــر أزد شـنوءة، فـأبوا أن ينصـروه وقالوا: اخواننا وجيراننا، فنزل بقيل يـدعى "مرثـد الخـير بـن ذي جدن الحميري"، وكانت بينهما قرابة؛ فأستنصره واسـتمده عـلى بنـي أسـد، فأمده بخمسمائة رجل من حمير، ومات مرثد قبل رحيل امرئ القيس بهم،

وقام بالمملكة بعده رجل من حمير يقال له: قرمل بن الحميم، وكانت. أمه سوداء، فردد امرؤ القيس، وطوّل عليه حتى همّ بالانصراف. فأنفذ له ذلك الجيش، وتبعه شذاذ من العرب، واستأجر من قبائل العرب رجالا: فسار بهم الى بني أسد، ومرّ بـ "تبالة"، وبها صنم للعرب تعظمه يقال له "ذو الخلصة"، فاستقسم عنده بقداحه، وهي ثلاثة: الآمر والناهي والمتربص،، فأجالها فخرج الناهي، ثم أجالها فخرج الناهي، ثم أجالها فخرح الناهي، فجمعها وكسرها وضرب بها وجه الصنم. وقال: مصصت بظر أمك لو أبوك قتل ما عقتني، ثم خرج فظفر بـ "بني أسد."

فلما ظفر بهم، فقال هذه الأبيات:

قولا لدودان عبيد العصا	ما غرّكم بالأسد الباسل
قد قرت العينان من مالك	ومن بني عمرو ومن كاهل
ومن بني غنم بن دودان	إذ نقذف أعلاهم على السافل
حلت لي الخمر وكنت امرأ	عن شربها في شغل شاغل
فاليوم أشرب غير مستحقب	إثماً من الله ولا واغل

وهي أبيات يفهم منها انه أوقع في "بني دودان" و "بني مالك" و "بني عمرو" و "بني كاهل" و "بني غنم بن دودان"، وهي بطون من بني أسد، هي التي قتلت أباه حجراً، قالها بعد أن أنجده "قرمل بن الحميم الحميري" وأنه ألبسهم الدروع المحماة، وكحلهم بالنار، فبرّ بيمينه، وحل له شرب الخمر.

وبنو دودان، هم بنو ثعلبة بن دودان بن أسد، والى ثعلبة هـذا تنسـب الثعلبية التي بين الكوفة ومكة. وهم جملة بطون ذكرها أهل الأنساب.

✍ والى "قرمل" أشار "امرؤ القيس" في شعره:

وكنّا أناساً قبل غزوة قـرمـل ورثنا الغنى والمجد أكـبر أكـبرا

وهو من "السحول" من "ذي الكلاع."

وفي رواية تنسب إلى "الخليل بن أحمد الفراهيدي" أن رجالاً من قبائل "بني أسد" فيهم "قبيصة بن نعيم" وكان في بني أسد مقيماً، قدموا على امرئ القيس بعد مقتل أبيه، ليعتذروا إليه وليسووا قضية قتـل والـده، فـرفض إلاّ الانتقام من "بني أسد" قائلاً: "لقد علمت العرب أن لا كـف لحجـر في دم، وإني لن أغتاض به جملاً أو ناقةً، فاكتسب، بذلك سبّة الأبـد وفـت إلعضـد. وأما النظرة، فقد أوجبتها الأجنة في بطون أمهاتها، ولن أكـون لعطبهـا سـبباً وستعرفون طلائع كنده من بعد ذلك تحمـل للقلـوب حنقـاً وفـوق الأسـنة علقاً". وتذكر الرواية أنه خرج اليهم بعد إبطاء دام ثلاثة أيـام، وهـو في قبـاء وخف وعمامة سوداء، وكانت العـرب لا تعـتم بالسـواد إلا بالثـارات، فلـما نظروا إليه، وبدر إليه قبيصة، يتكلم باسمهم معتذراً، طالبـاً الصـفح عـنهم، ودفع الدية عن حجر، أخبرهم، أن دم حجر لا يعتاض بجمل أو ناقـة، وأنـه لا بد من أخذه بالثأر، ثمأمهلهم حتى يجمع طلائع كندة، فيهجم عليهم.

وهناك رواية أخرى تنسب إلى "أبي عبيدة " في هذا المعنى المتقدم مآلها

أن "بني اسد" اجتمعت "بعد قتلهم حجر بـن عمـرو إلى ابنـه امـرئ القيس على أن يعطوه ألف بعير دية أبيه، او يقيدوه من أي رجل شاء من بني أسد، أو يمهلهم حولاً. فقال: "أما الدية، فـما ظننـت أنكـم تعوضـونها عـلى مثلي.وأما القود، فلو قيد إلي ألف من بني اسد ما رضيتهم ولا رأيـتهم كفـؤاً لحجر. وأما النظرة فلكم، ثم ستعرفونني في فرسان قحطان أحكم فيكم ظبـا السيوف وشبا الأسنة حتى اشفي نفسي وأنال ثاري."

ولم تشر رواية "الخليل" و"أبي عبيدة" إلى ما فعله "امرؤ القيس" بعـد ذلك في "بني اسد"، ولكننا إذا ما أردنا ربط هذه الروايـات بعضـها بـبعض وبحسب التسلسل الطبيعي المنطقي، نستطيع أن نجعلها مقدمة لرواية "ابـن الكلبي" و "ابن السكيت" و "خالد الكلابي" وملحقها، وهي رواية "محمـد بن سلام" عن نزول "أمرئ القيس" بـ "بكـر" و"تغلـب"، وطلبـه النجـدة منهم والنصرة على بني اسد، واقتصاصه منهم بعد تركهم ل "بني كنانة" كـما ذكرت ذلك سابقاً. وان نربطها كذلك بروايـة "ابـن الكلبـي" "والهيـثم بـن عدي" و "عمرو بن شبة" وابن "قتيبة" الملحقة بهذه الرواية، والرواية القائلة بذهاب "امرئ القيس" إلى اليمن واستنصاره بـ "أزد شنونة" و"مرثد الخـير بن ذي جدن الحميري" بعد إن امتنعت بكر بن واثـل وتغلـب عـن ملاحقـة بني اسد. وقد أشار "ابن قتيبة" اشارة مختصرة إلى هجوم "امرئ القيس" على بني أسد حينما كانوا في "بني كنانة"، وذكرأنه أوقع بـ "بني كنانـة"، ونجـت "بنو كاهل" من بني اسد، فقال:

يا لهف نفسي اذ خطئن كاهلا القاتلين الملك الحلاحلا

تالله لا يذهب شيخي باطلا

وأما "اليعقوبي" فذكر إن "امرأ القيس" حين بلغه مقتل أبيه جمع جمعاً وقصد "بني أسد"، فلما كان في اليلة التي أراد أن يغير عليهم في صبيحتها، نزل بجمعه ذلك، فذعر القطا، فطار عن مجاثمه فمر ببني أسد، فقالت بنت "علبأء بن الحارث" أحد "بني ثعلبة"، وكان القائم بأمر بني أسد: ما رأيت كالليلة قطاً أكثر. فقال علباء: "لو ترك القطا لغفا ونام فأرسلها مثلاً. وعرف أن جيشاً قد قرب منه، فارتحل، وأصبح امرؤ القيس فأوقع بكنانة، فأصاب فيهم، وجعل يقول: يالثارات حجر، فقالوا: والله ما نحن إلا كنانة. فتركهم وهو يقول:

ألا يالهف نفسي بعد قوم هم كانوا ألشقاء فلم يصابوا

وقاهم جدّهم ببني أبيهم وبالأشقين ما كان العقاب

وأفلتهن علباء جريضاً ولو أدركته صفر الوطاب

ولم يشر اليعقوبي إلى محاولة "امرئ القيس" تعقيب "بني أسد" وامتناع من كان معه عن الذهاب معه كما رأينا ذلك في الرواية السابقة بل قال:"ومضى امرؤ القيس إلى اليمن لما لم يكن به قوة على بني أسد ومن معهم من قيس، فأقام زماناً، وكان يدمن مع ندامى له، فأشرف يوماً، فإذا براكب مقبل، فسأله: من أين أقبلت؟ قال: من نجد، فسقاه مما كان يشرب، فلما أخذت منه الخمرة، رفع عقيرته وقال:

سقينا امرأ القيس بن حجر بن حارث　　كؤوس الشجا حتى تعوّد بالقهر

وألهاه شرب ناعم وقراقر　　وأعياه ثأر كان يطلب في حجر

وذاك لعمري كان أسهل مشرعاً　　عليه من البيض الصوارم والسمر

ففزع امرؤ القيس لذلك ثم قال: يا أخا أهل الحجاز، من قائل هذا الشعر؟ قال: عبيد بن الأبرص. قال: صدقت. ثم ركب واستنجد قومه، فأمدوه بخمسمائة من مذحج، فخرج إلى أرض "معد"، فأوقع بقبائل معد، وقتل الأشقر. بن عمرو، وهو سيد بني أسد وشرب في قحف رأسه، **وقال امرؤ القيس في شعر له:**

قولا لدودان عبيد العصا　　ما غرّكم بالأسد الباسل

حلت لي الخمر وكنت امرءاً　　عن شربها في شغل شاغل

يا أيها السائل عن شأننا　　ليس الذي يعلم كالجاهل

وطلبت قبائل معد امرأ القيس، وذهب من كان معه، وبلغه أن المنذر ملك الحيرة قد نذر دمه، فأراد الرجوع إلى اليمن، فخاف حضرموت، وطلبته بنو أسد وقبائل معد، فلما علم أنه لا قَوة به على طلب المنذر واجتماع قبائل معد على طلبه ولم يمكنه الرجوع، سار إلى "سعد بن الضباب الإيادي" وكان عاملا لكسرى على بعض كور العراق فاستتر عنده حيناً حتى مات سعد بن الضباب"، فخرج امرؤ القيس إلى جبل "طيء" ونزل بقوم من طيء، ثم لم يزل في طيء مرة وفي جديلة مرة وفي نبهان مرة حتى صار إلى "تيماء" فنزل بالسموأل بن عادياء فأودعه أدراعه وانصرف عنه إلى قيصر.

وذكر "ابن خلدون" إن "امرأ القيس" سار صريخاً إلى "بني بكر" و"تغلب" فنصروه، وأقبل بهم، فأجفل "بنو أسد" وساروا إلى "المنذر ابن امرئ القيس" ملك الحيرة، وأوقع "امرئ القيس" في "كنانة"، فأثخن فيهم، ثم سار في ملاحقة "بنى أسد" إلى أن أعيا ولم يظفر منهم بشيء، ورجعت عنه بكر وتغلب، فسار إلى "مؤثر الخير بن ذي جدن". ملوك حمير صريخاً بنصره بخمسمئة من حمير، ويجمع من العرب سواهم. وجمع المنذر لامرئ آلقيس ومن معه، وامده كسرى آنو شروان بجيش من الأساورة، والتقوا، فانهزم امرؤ القيس، وفرت حمير ومن كان معه، ونجا بدمه، وما زال يتنقل في القبائل والمنذر في طلبه، وسار إلى قيصر صريخاً فأمده، ثم سعى به "الطمّاح" عند قيصر أنه يشبب ببنته، فبعث إليه بحلة مسمومة كان فيها هلاكه ودفن بأنقرة.

و"أبو الفداء" من الدين نفوا كذلك خبر إيقاع "امرئ القيس" بـ "بني أسد". فهو يرى انه لم يظفر بهم، وأن "بني أسد" هربت حينما علمت بمجيء "بكر" و"تغلب". فلما أعجز القبيلتين الطلب، تخاذلتا عن "امرئ القيس"، وتركتاه. ولما عرفت جموع "امرئ القيس" بتطلب "المنذر بن ماء السماء" له، تفرقت خوفاً من المنذر، وخاف "امرؤ القيس"، وصار يدخل على قبائل العرب ويتنقل من أناس إلى أناس حتى قصد "السموأل بن عاليا" اليهودي، فكرمه وأنزله، وأقام عنده ما شاء الله، ثم سار إلى. قيصر مستنجداً به.

ينفي خبر "ابن خلدون" المتقدم، خبر انتقـام امـرئ القـيس مـن بنـي أسد، وهو يتفق بذلك مع رواية مؤيدة لبني أسد تنكر أخذ امرئ القيس بثأره من بني أسد، وتروي في ذلك أبياتاً تنسبها أسد إلى "عبيد بن الأبرص" شاعر بني أسد. قال ابن قتيبة: "وقد ذكر امرؤ القيس في شعره انه ظفر بهم، فتـأبى عليه ذلك الشعراء". **قال عبيد**:

أزعمـــت انـــك قـــد قتلـــتَ إذلالاً وحـينْـــــــــــــــــــا

يــــاذا المخوفنــــا بقتــــل أبيــــه سراتنـــــا كـــــذباً ومـينــــــا

وعبيد هذا هو الذي زعم "ابن الكلبي" وأضرابه أنه قال أبباتاً يتوسل فيها إلى "حجر" إن يترفق بقبائل بني أسد، وان يعفو عنها، ويقبـل نـدامتها، فيسمح لها بالعودة إلى مواطنها. وكان قد امر باجلائها إلى تهامـة، لأنهـا أبـت دفع الاتاوة إلى جابي "حجر"، وضربته، وضرجته ضرجاً شديداً. ومطلعهـا: ياعين فابكي ما بني أسد، فهم أهل الندامة ويقول ويقولون: انـه لمـا سـمعها رَق على "بني اسد"، فبعث في اثرهم وسمح لهم بالعودة من تهامة. وهو قول فيه تحيز على بني أسد.

✍ ويفهم من هذه الأبيات:

كـأني إذ نزلـت عـلى المعلـىّ	بنـو تـيم مصابـيح الظـلام
أقر حشا امرئ القيس بن حجـر	بمقتـدر ولا الملـك الشـامـي
أصد نشاص ذي القـرنين حتـى	تـولى عـارض الملـك الهمـام
فما ملـك العـراق عـلى المعلـىّ	نزلـت عـلى البـواذخ مـن شـمام

أن امرأ القيس نزل على "المعلىّ" أحـد "بنـي تـيم بـن ثعلبـة" فأجـاره ومنعه. ولم يكن للملكين: ملك العراق وهو المنذر ولا ملك الشام أي ملـك الغساسنة، اقتدار عليه. وقد بقي لديه زمانـا، ثـم اضـطر إلى الارتحـال عنـه. فذهب ونزل عند "بني نبهان" من طيء " ثـم خـرج، فنـزل ب "عـامر بـن جوين الطائي" وهو أحد الخلعاء والفتاك، فبقي عنده زماناً، ثـم أحـس منـه ماراً به، فتغفله، وانتقل إلى رجل من "بني ثعل" فاستجار به، فوقعت الحرب بين "عامر" وبين "الثعلي"، فخـرج ونـزل برجـل مـن "بنـي فـزارة" اسـمه "عمرو بن جابر بن مازن" فأشـار هـذا عليـه بالـذهاب إلى "السـموأل بـن عادياء" بتيماء، فوافق فأرسله في صحبة رجل من "فزارة" اسمه "الربيع بـن ضبع الفزاري" كان يأتي السموأل،فيحمله ويعطيه. فنزل عنده وأكَرمـه، ثـم انه طلب إليه أن يكتب له إلى "الحارث بن أبي شـمر" الغسـاني، ليوصـله إلى قيصر. ثم أودعه امرؤ القيس ابنته وأدراعه وأمواله،وأقام ابنته مع "يزيد بـن الحارث بن معاوية" ابن عمه وخرج. وكان الذي أشار على "امرىء القيس" بالتوجه إلى قيصـر هو ذلك الرجل الفزاري.

ويظهر من غربلة كل هذه الروايات، إن مطاردة "المنذر بن ماء السماء" لامرئ القيس كانت أعنف شيء أصاب هذا الشاعر بعد مقتل والده. لقد أخافته وجعلته يتنقل من قوم الى قوم. فرّ عنه من انضم إليه من عصبة حمير،ونجا في جماعة من بني آكل المرار،حتى نزل بالحارث بن شهاب في بني يربوع بن حنظلة ومعه أدراعه الخمسة: الفضفاضة، والضافية، والمحصنة، والخريق، وام الدبول، كن لبني مرار يتوارثونها ملكاً عن ملك، فقلما لبثوا عند الحارث بن شهاب حتى بعث إليه المنذر مئة من أصحابه يوعده بالحرب إن يسلم بني آكل المرار فأسلمهم، ونجا امرؤ القيس ومعه ابن عمه يزيد بن معاوية بن الحارث وبنته هند.والأدرع والسلاح، ومال كان بقي عنده، ومضى إلى أرض طيء ونزل عند المعلي بن تيم الذي مدحه شاعرنا، فأقام عنده، واتخذ إبلاً، ثم خرج فنزل بعامر بن جوين على نحو ما ذكرت.

ويذكر الأخباريون إن "عمرو بن قميئة" كان قد رافق "امرأ القيس" في سفره إلى "القسطنطينية.وقد أشير إليه في شعر "امرئ القيس" كذلك. ويذكرون أنه كان من قدماء الشعراء في الجاهلية "وانه أول من قال الشعر من نزار، وهو اقدم من امرى القيس. ولقبه امرؤ القيس في آخر عمره، فأخرجه معه إلى قيصر لما توجه إليه، فمات معه في طريقه. وسمته العرب: عمراً الضائع لموته في غربة وفي غير أرب ولا مطلب". بل روى انه كان من أشعرالناس. وانه كان من خدم والد امرئ القيس، وأنه بكـىّ وقال لامرئ القيس غررت بنا، فأنشأ امرؤ القيس، شعراً فيه.

أما خبر "امرئ القيس" مع الغساسنة في طريقه إلى قيصر، فْلا نعلم منه شيئاً،وليس في شعره ما يشير إلى انه ذهب اليهم رجاء التوسط في الوصول اليه. ويظهر من شعر لامرؤ القيس، انه سلك طريق الشام في طريقه إلى قيصر وأنه مر بـ "حوران"وبعلبك وحمص وحماة وشبيزر. أما ما بعد ذلك حتى عاصمة الروم، فلا نعرف من امره شيئاً.

ويقول الرواة إن قيصر أكرم امرأ القيس، وصارت له منزلة عنده، وأنه دخل معه الحمّام، وان ابنته نظرت إليه فعشقته، فكان يأتيها وتأتيه، وانه نادمه، واستمده فوعده ذلك وفي هذه القصة يقول: ونادمتُ قيصر في ملكه فأوجهني وركبتُ البريدا

ويذكرون أن "القيصر" أنجد "امرأ القيس" وأمده بجند كثيف فيه جماعة من أبناء الملوك، ولكن رجلاً من بني أسد اسمه "الطمّاح" كان امرؤ القيس قد قتل أخاً له، لحق بامرئ القيس،وأقام مستخفياً، فلما ارتحل "امرؤ القيس" اتصل بجماعة من أصحابه، اتصلوا بقيصر، وقالوا له: "إن العرب قوم غدر ولا نأمن أن يظفر بما يريد، ثم يغزوك بمن بعثت معه". وفي رواية لابن الكلبي أنه ذهب إلى قيصر، وقال له: "إن امرأ القيس غوي عاهر، وأنه لما انصرف عنك بالجيش ذكر انه كان يراسل ابنتك ويواصلها، وهو قائل في ذلك أشعاراً يشهر بها في العرب فيفضحها ويفضحك. فبعث إليه حينئذ بحلة وشي مسمومة منسوجة بالذهب، وقال له: اني أرسلت اليك بحلتي التي كنت ألبسها تكرمة لك، فإذا وصلت اليك فالبسها باليمن والبركة،

واكتب اليّ بخبرك من من مزل منزل.فلما وصلت إليه لبسـها، واشـتد سروره بها، فأسرع فيه السم، وسـقط جلـده، فلـذلك سـمي "ذا القـروح". ويستشهدون على قولهم هذا بشعر امرئ القيس.

ويذكر بعضهم أن امرأ القيس كان مصاباً بداء قـديم، وقـد عـاوده في ديار الروم، وهو عائد إلى دياره، فما وصل إلى "أنقرة"، اشـتد عليـه المـرض، فمات هناك. وانه رأى قبر امرأة من ابناء الملوك ماتت هناك، فدفنت في سـفح جبل يقال له "عسيب"، فسأل عنها فأخبر بقصتها، فقال في ذلـك شـعراً ثـم مات فدفن في جنب المرأة، فقبره هناك.

ويرى بعض المستشـرقين إن ذهاب "امـرئ القـيس" إلى "القيصـــر" "يوسطنيانوس" كان.حوالي سنة "٥٣٠" للميلاد، وأنه توفي في أثناء عودتـه بين سنتي "٥٣٠" و"٥٤٠"للميلاد.

وليس في كتب الروم او السريان الواصلة الينا اشارة إلى هذه الحوادث التي يرويها الأخباريون عن ذهـاب امـرئ القـيس إلى القسـطنطينية، وطلبـه النجدة مـن القيصرـ وموتـه في انقـرة، ولا عـن الشـعر الـذي قالـه في حـق القيصـر، وفي حق القبر الذي شاهده، وما إلى ذلك مما يذكره الأخباريون.

وأما "المعلى" الطائي احد بني تيم، من "جديلة" والذي يعـرف قومـه بـ "مصابيح الظلام"، فقد ذكره اهل الأخبار في عداد الـوافين مـن العـرب. قيل إن "المعلى" شخص في يوم لبعض امره، وبلغ "المنذر بن ماء السـماء" إن امرأ القيس عند المعلى وقد أجاره، فركب حتى اتى "ابن المعلّ". فعمد ابن

المعلىّ حتى انتهى إلى القبة التي هو فيها. فقال له: "إن فيها حرم المعلى ولست واصلاً إليها". ونادى في قومه، فمنعوه، فقال امرؤ القيس شعراً يمدح "بني تيم" وذكر نعتهم "مصابيح الظلام"، وقال: فما ملك العراق على المعلىّ بمقتدر ولا الملك الشامي

وأما "عامر بن جوين الطائي" الذي نزل امرؤ القيس عنده، فهو من "طيء" ثم من "بني جرم". وقد أقام امرؤ القيس عنده، حتى قبّل عامر امرأة امرئ القيس، فأعلمته بذلك،فسار امرؤ القيس إلى "جارية بن مرّ الطائي" ثم "الثعلى" المعروف ب "أبي حنبل"، فلم يصادفه، وصادف ابنه. فقال له ابنه: "انا اجيرك من الناس كلهم إلاّ من أبي حنبل". فرضي بذلك وتحول إليه. فلما قدم ابو حنبل رأى كثرة أموال امرئ القيس وأعلمه ابنه بما شرط له في الجوار. فاستشار في اكله نساءه. فكلهن أشرن عليه بذلك. وقلن له: "أنه لا ذمة له عندك ". ولكنه خالفهن بعد إن فكر في نفسه وفي سوء عاقبة الغدر ثم قرر الوفاء، فعقد له جواراً ثم ركب في اسرته حتى نزل منزل عامر ين جوين ومعه امرؤ القيس، فقال له: **"قبّل امرأته كما قبلّ امرأتك. افعل".**

وذكر أهل الأخبار إن "المنذر بن النعمان الأكبر"، ضغن على "عامربن جوين الطائي"، لما أجار "امرأ القيس" ايام كان مقيماً بالجبلين، وقال كلمته التي يقول فيها: هنالك لا أعطى مليكاً ظلامة ولا سوقةً حتى يؤوب ابن مندلة؛ فلما وفد عليه، وذلك بعد انقضاء ملك كنده ورجوع الملك إلى لخم،

ودخل عليه، أنبّه على فعلته وهـدّده بغـزو قومـه، وبانزالـه العقوبـة الصارمة بهم. فخرج "عامر" من عنده، بعد إن قال له: "إن البغي اباد عَمرْاً، وصرع حجراً، وكان أعزّ منك سلطاناً، واعظم شأناً، وان لقيتنا لم تلقَ انكاساً ولا أغساساً، فهبّش وضائِعك وصنائعك، و هلم إذا بـدا لـك، فـنحن الألى قسطوا على الأملاك قبلك "، ثم أتى راحلته، وأنشأ يقول أبياتـاً يتوعـد فيهـا الملك.

ويشير أهل الأخبار إلى ملك من ملوك كنـده، عـرف بــ "أبي جـبر". قالوا عنه، أنه كان ملكاً شديد البـأس، خـرج إلى "كسرى" يستجيشـه عـلى قومه، فأعطاه جيشاً من الأسـاورة، فلـما بلغـوا "كَاظمـة" ونظـروا إلى بـلاد العرب قالوا: أين يمضى بنا هذا الرجل، وعمدوا إلى سمّ، دفعوه إلى طباخـه، فألقاه في أحب الألوان إليـه، فلـما اسـتقر في جوفـه، مـرض وتوجـع، فجـاء الأساورة إليه، طالبين منه أن يكتب لهم انه قد أذن لهم بالرجوع، فكتب لهـم، فرجعوا وخفّ ما به، فخرج إلى "الطائف" إلى "الحارث بن كلـدة الثقفـي"، ليداويه فداواه وبرىء، ثم ارتحل يريد اليمن، فنكس ومات. وكانت له عمّـة اسمها "كبشة" فرثته.

هذه قصة "كنده"، وهذه حكاية شاعرها "امرئ القيس" الذي يعـود إليه الفضل في حفظ الأخباريين لتاريخ كنده..

أما شعر امرئ القيس وديوانه وصحيحه و فاسده، فقد تحدث العلـماء فيه، ولهم فيه كلام يخرجني التعـرض لـه عـن صـلب هـذا الموضـوع. فعـلى مقالاتهم المعوّل في هذه الأمور.

يتبين للقارئ بعد غربلة الأخبار المتقدمة، إن كنده كانت قد تمكنت من الهيمنة على القبائل النازلة في أواسط جزيرة العرب، ومن تكوين مملكة لها،بلغت أوج ملكها في القرن الخامس للميلاد. إلا أن ملكها على عادة حكومات القبائل لم يدم طويلاً، فسرعان ما أخذ بنيانه يتآكل ويتداعى، فأخذت اجزاؤه تتساقط، وعادت القبائل التي اضطرت بقانون القوة المتحكم في البادية إلى الانفصال عنها وإلى استعادة حريتها بذلك القانون أيضاً. فخسرت كنده ملكها الذي شمل نجداً ووصل العراق، وبقي رؤساء منها يتحكمون في حضرموت، ثم أخذوا يتعاملون مع قبائل عربية جنوبية اخرى لتوسيع ملكهم لا سيما بعد تركهم نجداً ولجوئهم إلى حضرموت، ويقدر بعض الباحثين عدد من جاء ألى حضرموت من كنده بحوالي ثلاثين ألف رجل، نزل أكثرهم في "دمون."

✓ السموأل:

ولا بد من الاشارة باختصار إلى "السموأل " الذي مر اسمه في أثناء كلامنا على "امرى القيس"، وقصته هي في الواقع جزء من قصة هذا الشاعر، وذيل لها. وهو على ما يقوله لنا الأخباريون يهودي ثري، شاعر، مقره "الأبلق" ب "تيماء" يعرف ب "السموأل بن عاديا" و ب "السموأل بن غريض بن عاديا" "عادياء" اليهودي. وب "السموأل بن حيّان "حسان" ابن عادياء" وبـ "السموأل بن عادياء بن حيا"، وب "السموأل بن حيا ابن عادياء بن رفاعة بن الحارث بن ثعلبة بن كعب"، وب "السموأل بن أوفى بن عادياء". ويظهر من بيتين من قصيدة للأعشى، **هما**:

جار ابن حياً لمن نالته ذمته ... في جحفلٍ كسواد الليل جرّار
كن كالسموأل إذ سار الهمام له ... أوفى وأمنع من جار ابن عمار

أن المراد ب "ابن حيّا" السموأل، اي إن اسم والد السموأل هو "حياّ". واختلفوا في نسب "عاديا" "عادياء"، فقالوا: "عادياء بن حباء" وقالوا "عادياء بن رفاعة بن جفنة"،وقالوا: إنه من ولد "الكاهن بن هارون ابن عمران"، وقالوا عن قبيلته إنه كان من "بني غسّان". ونسبه "دارم ابن عقال" إلى "رفاعة بن كعب بن عمرو مزيقيا بن عامر ماء السماء". وهو نسب أنكره " أبو الفرج الأصبهاني" حيث قال: "وهذا عندي محال، لأن الأعشى أدرك شريح بن السموأل، وأدرك الإسلام وعمرو مزيقيا قديم لا يجوز أن يكون بينه وبين السموأل ثلاثة آباء ولا عشرة إلا أكثر. وقد قيل إن أمه كانت من غسان ". ونسب السموأل إلى الأزد.

وللاعشى الشاعر الشهير شعر يرويه الرواة فيَ مدح "الشريح بن السموأل".

وقد ورد فيه اسم ولدين للسموأل، هما: "حوط" و "منذر". ولم يذكر الأخباريون اسم الولد الذي زعم إن "الحارث بن أبي شمر" أو "الحارث بن ظالم" قتله لرفض "السموأل" دفع أدرع الكندي إليه، على نحو ما يذكره الرواة في قصة الوفاء. ونجد مضمون هذه القصة في قصيدة الأعشى الراثية الموجودة في ديوانه. وهي قصيدة تتألف من واحد وعشرين بيتاً، يروي الرواة أنه قالها مستجيراً بـ "شريح بن السموأل" ليفكه من الأسر. وكان الأعشى على ما يقوله الرواة قد هجا رجلاً من "كلب"، فظفر به الكلبي وأسره، وهو

لا يعرفه، فنزل بشريح بن السموأل وأحسن ضيافته، ومـرّ بـالأسرى، فناداه الأعشى بهذه القصيدة، فجاء شريح إلى "الكلبي"، وتوسـل إليـه بـأن يهبه، فوهبه اياه، فأطلقه، وقال له: أقم عندي حتى أكرمك وأحبوك، فقال له "الأعشى": "إن تمام احسانك إليّ أن تعطيني ناقة ناجيـة، وتخلّينـي السـاعة، فأعطاه ناقة ناجية، فركبها ومضى منساعته. وبلغ "الكلبـي" إن الـذي وهبـه لشريح "الأعشى"، فأرسل إلى شريح ابعـث إليّ الأسـير الـذي وهبـت لـك حتى أحبوه، فقال: قد مضـى، فأرسل الكلبي في أثره، فلم يلحقه."

وروى "ابن قتيبة" القصة المتقدمة على هذا النحو: "قـال أبـو عبيـدة: أسر رجل من كلب الأعشى فكتمه نفسه وحبسه، واجتمع عند "الكلبـي" شَربٌ فيهم "شريح بن عمرو الكلبي"، فعرف الأعشى. فقال للكلبـي: مـن هـذا؟ فقال. خشاش التقطته. قال: ما ترجو به ولا فداء له ! خلّ عنه. فخـلّ عنـه. فأطعمـه شريـح وسـقاه. فلـما أخـذ منـه الشــراب سـمعه يـترنم بهجـاء الكلبي،فأراد استرجاعه. فقال الأعشى:

بـالأبلق الفـرد مـن تـيماء منزلـه حبالك اليوم بعـد القـد أظفـاري

كن كالسـموأل اذ طـاف الهـمام بـه حصـن حصـين وجـار غـير غـدّار

شريح لا تتركني بعـد مـا علقـت في جحفـلّ كهزيـع الليـل جـرّار

فجعل الرجل المجير "شريح بن عمرو الكلبي"، أي من العشيرة التي اسر أحد رجالها الأعشى، ولم يجعله ابناً من أبناء السموأل.

وجـاء نسـب "شريـح" في شرح "أبي العبـاس ثعلـب" عـلى ديـوان الأعشى على هذا الشكل: "شريح بن حصن بن عمران بن السموأل بن حيـا بن عاديا"، فصار "السموأل" جدّاً من أجداد "شريح" لا والداً له.

وقد اختلف الأخباريون في الرجل الذي طالب السموأل بتأدية سلاح "امرئ القيس " إليه، فزعم بعض أنه "الحارث بن أبي شمر الغساني". وزعم بعض آخر أنه "الحارث بن ظالم" في بعض غاراته بالأبلق، وزعم آخرون أنـه "المنذر" ملك الحيرة،.وجَّه ب "الحارث بن ظالم" في خيلٍ، وأمره بأخذ مـال امرئ القيس من السموأل، وزعم انه "الأبرد" وهو الملـك الغسـاني. وكـان الحارث بن أبي شمس لما قتل المنذر بعين أباغ، وجه ابن عمّه الأبـرد، فجعلـه بين العراق والشام. فلما سمع الأبرد بهلاك امرئ القـيس: طالـب السـموأل بدفع الدروع إليه، فامتنع، فذبح ابنه وهـو يـراه. ولم يصرـح بعضـهم باسـم الملك الذي طالب بتأدية الدروع، انما ذكروا انه كان بعض ملوك الشام.

وإذا تتبعنا الروايـات الـواردة في قصـة وفـاء السـموأل، وذبـح ابنـه، وامتناعه عن تأدية الأمانة المودعة لديه، نجد أنهـا ترجـع إلى مـوردين: قصـة "دارم بن عقال" وشعر الأعشى. ويلاحظ أن في شـعر الأعشـى كثـيراً مـن أخبار السموأل، ومـن شـعره أخـذ الأخبـاريون "تـيماء اليهـودي"، وهـذه ملاحظة تستحق الدرس. ويفهم منه أن الأعشى كـان ممـن يرتـادون حصـن السموأل. أما "دارم بن عقال"، فهو مـن ولـد السـموأل. وهـو راوي خـبر قصة الوفاء، والأشعار المنسوبة إلى امرئ القيس المتعلقة بهذا الموضوع. وقـد أشار إلى ذلك مؤلف كتاب "الأغاني" في أثناء كلامه على قصـيدة نسـبت إلى "امرئ القيس "، **ابتداؤها**:

طرقتك هند بعد طـولِ تجنـب وهنا ولم تك قبـل ذلـك تطـرق

فقال: وهي قصيدة طويلة، وأظنها منحولة، لأنها لا تشاكل كلام امرئ القيس، والتوليد فيها بين، وما دوّنها في ديوانه أحد من الثقات، وأحسبها مما صنعه دارم، لأنه من ولد ال سموأل، ومما صنعه من روى عنه من ذلك فلم تكتب هنا.". ولا أستبعد أن تكون هذه القصة، قصة الوفاء من صنع هؤلاء الصنّاع.

ويرى ونكلر Winckler: إن قصة الوفاء هذه هي أسطورة استمدت مادتها من أسفار صموئيل الأول في التوراة، ومن الأساطير العربية القديمة نظمت على هذه الصورة فجعل بطلها شخصان هما: السموأل وامرؤ القيس. ولا بد لي وقد انتهيت من البحث عن امارة كنده،من الاشارة إلى "الأكيدر" صاحب "دومة الجندل"، فقد نسبه أهل الأخبار إلى "كندة". وقد ذكروا انه من السكون، والسكون هم من كنده. ومعنى هذا إن عائلة تنتمي إلى كنده كانت تحكم هذا الموضع المهم في البادية، لأنه ملتقى طرق قوافل وسوق معروف من أسواق الجاهلين.

٢. كنده في العربية الجنوبية:

وقفنا على أخبار كنده بنجد وفي العربية الشرقية إلى العراق.ثم رأينا ما حل بتلك الإمارة وكيف تشتت شملها. ونريد الآن أن نتحدث عن دور هذه القبيلة في العربية الجنوبية.

يـرى بعـض البـاحثين إن الخصـومات التـي وقعـت في إمـارة كنـده، وتعقب ملوك الحيرة ولا سيما "المنذر" لسـاداتها، وانقضـاض القبائـل التـي كانت تخضع لها عنها ثم سقوط إمارة كنده، دفعت بعشـائر كنـده إلى الاتجـاه نحو الجنوب نحو العربية الجنوبيـة، ولا سـيما حضــرموت، وهـي موطنهـا القديم، فنزحت اليها واستوطنت بها. وكوّنت لها امارة كندية بحضرموت.

وهذا القول يجب ألا يفسر على أن مجيء كنده إلى العربية الجنوبيـة إنـما كان بعد سقوط حكومتهم وتشتت أمرهم، فقد أشرت فيما سلف في مواضع إلى وجود كنده في العربية الجنوبية قبل هذا العهد بـزمن طويـل، وأشرت إلى ورود اسمها في نصوص المسند والى الأدوار التي لعبتهـا في ايـام ملـوك سـبأ وذو ريدان، قبل الإسلام بمئات السنين، بل ربما كان ذلك قبل الميلاد.

وقد رأينا فيما سلف ورود اسم "كنده" "كدت" في نص أمـر بتدوينـه الملك "معد يكرب يعفر ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت واعرابها في النجاد وفي المنخفضات". وهو من النصوص التـي عثـر عليهـا في "وادي مأسل" "وادي ماسـل" "مأسـل الجمـح". وقـد دوّن ووضـع قـي موضـع "مأسل الجمح" لمناسبة ارسال الحملة العسكرية إلى موضـع "كتـا" لمحاريـة "مذر" أي "المنـذر" الـذي أعلـن الحـرب عـلى قبائـل هـذه الجهـات. وقـد اشتركت في هذه الحرب قبائل سبأ وحمير و"رحبت" "رحبة" وحضــرموت و"يمنت" اليمن". والأعراب و"كدت" أي "كنده" و"مَـذْحج". واشـترك مع المنذر "مذر"بنو ثعلبة"بن ثعلبت" و"شبيع". وقد أرخ النص بشهر "ذ

قيضن" "ذو قيض" "ذو القيض" من سنة٦٣١ من التقويم الحميري أي في صيف سنة ٥١٦ للميلاد.

ويظهر من هذا النص أن "المنذر" كان قد بلغ في حروبه مناطق بعيـدة عن قاعدة ملكه، وانه هو الذي غزا القبائل القاطنـة في وادي مأسـل الجمـح "ما سلم جمحن". ولعله كان يتعقب عشائر كنده ومن كان يؤازرها ويعـادي ملك الحيرة، حتى بلغ هذا المكان الذي كان خطاً أمامياً مـن خطـوط الـدفاع لحكومـة "سـبأ وذي ريـدان وحضرـموت ويمنـت واعرابهـا في الأطـواد والمنخفضات". ولهذا السبب هب الملك "معد يكرب" لمساعدة "كندة" على نحو ما ورد في النص.

وقد ذكرت "كدت" كنـده مـع مـراد ومـذحج والقبائـل الأخـرى في الهجوم الذي قام به الملك "يوسف اسار" "يوسف أسأر" عـلى الأحبـاش في مدينة "ظفار"، وعلى المدن النى كانت تناصرهم. وقد ورد تأريخ هذا الهجوم في نص سجله القيل "شرح ايل يقبل بن شرحب ايل يكمل" مـن "ال يـزن" "آل يزن" "آل يزأن" بالاشتراك مع "جدن" "جدنم" و "حـبم" "حـب" و "نسأ" "نسان" "نسن" و "جبا" "جبأ" لهذه المناسبة.

ويتبين من هذا النص إن الملك "يوسف اسار" "يوسف أسأر" هـاجم "ظفار" مقر الأحباش، واستولى على الكنيسة "قلسن" "القلّيس"، ثـم سـار بعد ذلك على "أشعرن" "الأشعر"، وعينّ القيل على رأس جيش، ثم سار إلى "مخون" "مخا" فقتل سكانها واستولى على كنيستها، وهدم جميع حصون

"شمر" ومعاقلها والسهل. وعندئذ قام بهجوم ماحق على "أشـعرن". وقد قُتل في هذه المعارك عدد كبير من الناس، قُتـل ثلاثـة عشرـ الـف قتيـل، وأخذ تسعة آلاف وخمسمئة أسير، واستولى على ٢٨٠ألف من الإبـل والبقـر والمعز. وأخذت غنائم عديدة أخرى.

وأمر الملك بعد هذه المعارك القيل "شرح ايل يقبل" "شرح ال يقبـل" بالالتحاق بالجيش الذي أرسل إلى نجران. وفي صـعيد هـذه المدينـة اجتمـع رؤساء "بنـي أزأن" "آل يـزأن" "بـن يـزن" وقبائـل همـدان وكنـده ومـراد ومذحج وأعرابها. فتغلبت جيوش الملك على هذه المدينة، وأنزلـت بسـكانها خسائر كبيرة في الأموال والأرواح، ووضـعت الأغـلال في ايـدي الأسرى، وقتل من وجد هناك من الأحابيش. وكان مع الملك في جيشه مـن الرؤسـاء: "لحيعت برخم" و"سميفع أشوع" و"شرحب ايل أسـعد". وقـد دوّن هـذا النص في شهر "ذو قيضن" "ذو الفيض" من شهور صيف سـنة ٦٣٣ مـن التقويم الحميري الموافقة لسنة ٥١٨ للميلاد.

وقـد لعبـت "كنـده" "كـدت" دوراً خطـيراً في الأوضـاع السياسـية والعسكرية في أيام استيلاء الحبش على العربية الجنوبية، كما يتبـين ذلـك مـن الفصل الخاص المتعلق بهـذا الموضـوع. وقـد دخـل رؤسـاؤها في الإسـلام، فتبعهم أتباعهم، كما يرد ذلك في كتب التواريخ والسير.

ويذكر أهل السير والتواريخ، أن وفداً من وفود "كنده"، كان في جملـة الوفود التي قدمت المدينة لمبايعة الرسول في السنة العاشرة من الهجرة. وكان

قد رأسه "الأشعث بن قيس الكندي". "دخلوا على رسول الله مسجده، وقد رجلوا أجممهم، وتكحلوا، عليهم جبب الحيرة، قد كفّفُوها بالحرير"، ثم قال الأشعث: "يا رسول الله ؛ نحن بنو آكل المرار، وأنت ابن آكل المرار"، يفتخر بجده "آكل المرار"، وبـ "أن كنده كانت ملوكاً".

وقد عرف جد "الأشعث بن قيس بن معد يكرب بن معاوية"، بمعاوية الاكرمين، وإنما سمي معاوية الأكرمين لأنه ليس في آبائه إلاّ ملك أو رئيس. وكان كريم الطرفين وقد ذكره "الأعشى" في شعر له. وكان أحد ملوك كنده بحضرموت.

وكان مخوص (مخوس) ومشرح وجمد وأبضعة بنو معد يكرب بن وليعة بن شرحبيل بن معاويةّ من سادات كنده عند ظهور الإسلام. وقد لقب كل واحد منهم نفسه بلقب ملك. واختصر كل واحد منهم بواد ملكه. وقد نزلوا المحاجر، وهي أحماء حموها، وقد عرف هؤلاء بالملوك الأربعة من "بني عمرو بن معاوية"، وقد لعنهم النبي. وقتلوا في الردة.

ويرجع النسابون نسب كنده إلى جدّ أعلى قالوا له عُفير بن عدي وهو والد ثور. و ثور هو كنده.وولد "كنده" معاوية بن كنده وأشرس، وأمهما هي رملة بنت اسد بن ربيعة بن نزار. ويمثل هذا النسب صلة كندة بقبائل معد، وارتباط تأريخها بها، وتملكها عليها قبل الإسلام بزمن. وهو تملك جعل "كنده" تفتخر به، حتى صارت تدعو نفسها: "كنده الملوك". ويذكر

الهمداني: إن الشاعر امرؤ القيس، كان يفتخر ويقول: لا ينكر الناس منّا يوم نملكهم كانوا عبيداً وكنا نحن أرباباً.

وإن "تبعاً الآخر"، وهو "عمرو بن حسان "، عيّن حجراً آكل المرار على معد كلها، فالملك على "معد" لكنده. وان "كنده" كانت تقول: "لم تزل لها نزار ومن نزل الحيرة والشام من العرب طعمة ورعية".

وقد نسب بعض النسابين "كنده" إلى كندة، وهو ثور بن مرحّ بن معاوية ابن كندي بن عفير بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن عمرو بن عريب بن زيد بن كهلان. ونسبه بعض آخر إلى "كندة بن عفير بن الحارث"، إلى غير ذلك من آراء. وقد زعم بعض النسابين إن "الصدف" واسمه "مالك"، وهو جد "الصدف"، هو شقيق كنده.

ومن بطون كنده معاوية بن كنده،ومنه الملوك بنو الحارث بن معاوية الأصغرابن ثور بن مرتع بن معاوية، أسلاف الشاعر امرؤ القيس، وقد حكموا القبائل الأخرى من غير كنده، ومنها قبائل من عدنان.

و"الأشرس بن مرتع"،هو أخو "كنده"، وهو أبو السكون والسكاسك". ونسب السكاسك إلى حميس السكسك بن أشرس بن ثور. وهو كنده بن عفير ومن السكون "تجيب". وكان أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل من السكون. وأخوه بشر بن عبد الملك. يذكرون أنه ذهب إلى الحيرة، وتعلم بها الخط، ثم رجع إلى مكة فتزوج الصهباء بنت حرب أخت أبي سفيان. ومنه تعلم أهل مكة الكتابة.

ويذكر أهل الأخبار أن كنده لما خرجت من "الغمر": غمر ذي كنـده، نزلت بحضرموت وتآلفت مع الصدف تـذكرت الأواصر والقرابـات التـي كانت تربطها ب "الصدف".فصارت تحارب معها، وجعل "الهمداني" أهـل حضرموت من كنده والصدف وحمير.

فلسطين الثالثة:

لقد ذهب كوسان دى برسفال **Caussan de Perceval**: إلى أن كيسـوس Kaisus-Caisusالمذكور عنـد "بروكـو بيـوس ونونوسـوس Nonnosus هـو امرؤ القيس.

ذكر "بروكو بيـوس"، أن القيصـــر "يوسـطنيا نـوس Justinianus"، أرسل رسولا هويوليـانوس "J ulianus" إلـى "Esimiphaaeus" السـميفع أشوع ليطلب منه بحكم رابطة الدين والمصالح المشتركة تنصـيب أحـد أبنـاء الأشراف ورؤسـاء القبائـل واسـمه "K aisus" Caisus " عـلى "معـدّ Maddeni"، وأن يرسل قوة كبيرة من رجاله يشـتركون مـع ال "سرسـين" وال "Maddenin "في غزو مملكة الفرس. وكان "كيسوس" هذا قد قتل أحد أقارب "Esimiphaaeus" وإلتجأ إلى البادية، ولم يقـم أي مـنهما بـالغزو، ولم يذكر "بروكوبيوس" شيئاً آخر عن "كيسوس" هذا، أي "قيس" وقد كانـت سفارة "يوليانوس" إلى الحميريين قبل موت "قباذ" اي قبل سنة ٥٣١م. وفي الخبر اشارة إلى شجاعة "قيس" وكفاءته وحزمه، لهـذه الأسـباب ولأسـباب سياسية أخرى رغب القيصر في تعيينه رئيساً على معد.

وذكر نونوسوس أن القيصر "يوسطنيانوس" كلفه الذهاب في سفارة إلى "K aisos"قيس" حفيد "الحارث "A retas" "ورئيس قبيلتين عظيمتين من أعظم قبائل الـ "سرسينوى Saracynoi" هما "K indyoi " كنده و"معد "Maadynoi" "لمواجهته ودعوته للذهاب الى الامبراطور إذا أمكنه ذلك. فذهب اليه، ونفذ أوامر القيصر، وعاد إلى بلده سالماً. وكان القيصر "أنسطاسيوس Anastasius" قد كلف جد "نونوسوس" أن يذهب إلى الحارث ليعقد عهداً معه، كما إن القيصر "يوسطينوس"، كلف أبا "نونوسوس" وهو "ابراهام" "إبراهيم" أن يذهب إلى "المنذر A" "lamoundaros"رئيس الـ "سر سينوى" لمفاوضته في فك أسر قائدين كانا أسيرين لديه، هما "تيموستراتوس" و "يوحنا". ثم كلف مرة ثانية في عهد "يوسطنيانوس J ustinianus سفارة أخرى لدى قيس، لعقد معاهدة معه. وقد تمكن من ذلك، وعاد ومعه أحد أبناء "قيس" واسمه "معاوية " Mauiasليكون رهينة في" بوزنطية" عند "يوسطنيانوس". وكلف "إبراهيم" مرة أخرى أن يذهب إلى "قيس" بمهمة سياسية أخرى، فذهب إليه وأقنعه بالقدوم إلى "بوزنطية"، فقسم ولايته على القبائل بين أخويه "يزيد Jezidos و"Aumorus عمرو"، ونال من الإمبراطور ولاية "فلسطين"، وجاء معه بعدد لا يحصى من مرؤوسيه.

وقد ذكر "ملخوس الفيلادلفي M alchus of Philadilphia اسم عامل عربي سماه Amorkesos أي "امرؤ القيس". كان كما قال رئيساً على بطن من بطون الأعراب S areceni هو بطن. وذكر إن "بطرس Peter " أسقف أهل الوبر "Saraceni" ذهب في عام ٤٧٣ للميلاد الى القسطنطينية ليطلب من القيصر. ليون L eoأن يمنح هذا الرئيس. درجة عامل"P hylarchus فيلارخ" على العرب المقيمين في العربية الحجرية.

وكان هذا الرئيس يقيم مع قبيلته في الأصل كما ذكر "ملخوس" في الأرضين الخاضعة لنفوذ الفرس، ثم ارتحل عنها ونزل في أرضين قريبة من حدود الفرس وأخذ يغزو منها، حدود الساسانيين، والقبائل العربية المقيمة في الأرضين الخاضعة للروم. فتمكن بذلك من بسط نفوذه وسلطانه على القبائل حتى بلغ ساحل البحر الأحمر، واستولى على جزيرة "ايوتابا I otabe" ، و هي جزيرة مهمة كان الروم ينزلون فيها لجمع الضرائب من المراكب الذاهبة إلى المناطق الحارة أو الآيبة منها، فتصيب. الحكومة أرباحاً عظيمة جداً. فلما استولى على تلك الجزيرة، صار يجبيها لنفسه، حتى صار غنياً جداً. كذلك حصل على ثروة عظيمة من الغنائم التي حصل عليها من غزوه للمواضع المجاورة لهذه الجزيرة والواقعة في العربية الحجرية وأعالي الحجاز.

وأراد "امرؤ القيس Amorkesos"، بعد أن بلغ من النفوذ مبلغه، الاتصال بالروم، والتحالف معهم، والاعتراف به عاملاً رسمياً على العرب الذين خضعوا له وعلى العرب المعترفين بسلطان الروم عليهم. ولذلك

أرسـل الأسـقف "بطـرس" أسـقف قبيلتـه، ليكـون رسـوله إلى القيصـر. وقد نجح هذا الأسقف في مهمته، وتوسط في دعوة "امرئ القيس" لزيارة القسطنطنية، فلما وصل اليها استقبل بها استقبالاً لائقاً ورحب به ترحيباً حاراً، ولا سيما بعد أن أعلن دخوله في النصرانية، فأنعم عليه للقيصر بالهدايا والألطاف وعينه "عـاملاً Phylaechus" عـلى تلـك الجزيـرة وعـلى مواضع أخرى وعلى أعراب العربية الحجرية. ثم عاد مكرساً، بالرغم من أن معاهدة الصلح التي كانت بين الـروم والفـرس كانـت قـد حرمـت دخـول رؤساء الأعراب. وقبائلهم النـازحين مـن منـاطق أحـد الطـرفين في أرضـين الطرف الثاني.

ويحتمل على رأي "الويس موسل" أن يكون هذا الشيخ قد هاجر مـن "الوديـان" و"الحجـيرة"، إلى "دومـة الجنـدل" ومنهـا صـار يغـزو أعـراب "العربية الحجرية"، والمناطق المجاورة لها مـن "فلسـطين الثالثـة Palestina Tertia" ويتوسع فيها حتى بلغ ساحل البحر، فتحكم في جزيـرة "Iotabe" المهمة التي كانت محطة تجارية خطيرة للإتجار مـع الهنـد، وفي الطريـق الـبري المهم الذي يربط ديار الشام بالعربية الجنوبيـة، فحصـل عـلى سـلطان واسـع ونفوذ عظيم.

ولعل هذه الجزيرة هي جزيرة "Ainu" التي ذكرها "بطلميوس"، أخذ تسميته هذه من "حينو" "حاينو"Hainu"الاسم الذي كانت تعرف بـه عنـد الأنباط. ويظن انها جزيرة "تاران" "تيران". وذكر "ياقوت" أن سكانها قوم يعرفون ب "بني جدان."

ويحدثنا "ثيوفانس" إن هذه الجزيرة كانت في عام ٤٩٠ للميلاد في أيدي الروم، استولى عليها حاكمهم "Dux" على فلسطين بعد قتال شديد. ويدل خبر هذا المؤرخ على إن الروم انتزعوا هذه الجزيرة من "امرئ القيس" أو من خلفائه بعد مدة ليست طويلة من استيلاء امرىء القيس عليها. ولعلهم استولوا عليها بعد وفاة هذا العامل على أثر نزاع وقع بين أولاده وورثته أضعف مركز الإمارة، فانتهز الروم هذه الفرصة وانتزعوا ما تمكنوا من انتزاعه من أملاك هذا الرئيس.

ويظن إن "NokaLIAN"هو "النخيلة". و"النخيلة" موضع معروف قرب الكوفة على سمت الشام، وهو موضع ينطبق عليه ما ذكره "ملخوس" من أنه كان في أرض كانت تحت نفوذ الفرس.

وكان يحكم هذه المنطقة في أيام "يوسطنيانوسJustinianus" رئيس يدعى "أبو كرب "Abochorabus"، وكانت له واحة خصبة مزروعة بالنخيل، وهبها إلى القيصر. فقبلها منه، وعيِّنه رئيساً Phylarchus على أعراب"Saracensفلسطين. فحمى له الحدود من غزو الأعراب،ومنع اعتداء القبائل في الداخل. وذكر "بروكوبيوس" إن هناك أعراباً آخرين كانوا يجاورون أعراب هذا الرئيس، يدعون ب "Maddeni " أي "معد"، يحكمهم "Homeritae"أي الحميريون. ويظهر من كَلام هذا المؤرخ إن قبائل معد كانت في أيامه تابعة لحمير. ومعنى هذا إن نفوذهم كان قد امتد في هذا العهد حتى بلغ أعالي الحجاز. وفي كلامه هذا تأييد لروايات الأخباريين الذين يتحدثون عن بلوغ التبابعة هذه الأماكن، وعن حروب وقعت بين العدنانيين

والقحطانيين.وليس في الذي أورده "بروكوبيوس" أو "نونوسوس"، ما يثبت إن "قيساً" هو "امرؤ القيس". ومجرد تشابه الاسمين لا يمكن أن يكون حجة على أنهما لمسمى واحد. ثم أن ما ذكره "نونوسوس" من إن "قيساً" كان رئيساً على قبيلتي "كنده" و "معد" لا يكون دليلاً على أنه كان حتماً من "كنده" أو انه كان حتماً "امرأ القيس" الشاعر الذي يعرفه الأخباريون. لذا فنحن لا نستطيع الجزم في الوقت الحاضر بتعيين هوية هذا الرئيس.

الفصل الرابع
الأحوال الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية عند العرب

إن مُجمل القول في الحالة السياسية في بلاد العرب هو أن بلاد العرب- وهي شبه جزيرة لوقوعها بين ثلاثة أبحر؛ الأحمر غرباً، والهندي جنوباً، والخليج شرقاً-من المناطق السياسية ذات الأثر على الحياة الاجتماعية. ففي اليمن حيث ملوك حمير من التبابعة وغيرهم. والحيرة شرقاً إلى العراق حيث المناذرة، والشمال حيث الغساسنة. أما الوسط وهو نجد والحجاز وتهامة فإنه دائرة المجد، وموضع طلوع الفجر، فأرض حماها مولاها من شطوة الجبابرة، وسياسة المتاجرة، فلم تصل إليها يدُ الأحباش، ولا يدُ الفوارس، ولا يد الروم ولا الرومان؛ لأنها مشرق الأنوار، ومكمن الأسرار، وعما قريب يطلع نجمُها ويعلو كعبها، وتسود الدنيا وما فيها فالبلاد اليمانية: تداولتها ملوك حِمْيَرْ من التبابعة، كما حكمها في فترات ملوك الأحباش مباشرة أحياناً، وبواسطة أبنائها أحياناً أخرى، وقد عظم ملك اليمانيين أحياناً حتى غزوا الشرق ووصلت طلائع جنودهم إلى بلاد فارس متجاوزة أرض العراق إلى أعماق الشرق. وآخر ملوكهم ذو نواس وهو صاحب الأخدود وكان يهوديَّ العقيدة، فكان آخر ملوك حمير ببلاد اليمن. كما أن آخر ملوك التبابعة باليمن كان أبا كرب تبّان بن أسعد الذي غزا المدينة ودخل مكة وكسا الكعبة المشرفة وعاد إلى اليمن، وهلك بها وأما المناذرة بالحيرة فإن ملوكهم وآخرهم النعمان بن المنذر كانوا تابعين في الغالب لملوك إيران. وكذلك الحال

بالنسبة إلى الغساسنة بأرض الشام فإنهم تابعون في الغالب لملوك الروم. مع العلم بأن ملوك الحيرة كملوك الشام أصلهم يمنيُّون نزحوا من اليمن بعد خراب سد مأرب، بواسطة سيل العرم، والأوس والخزرج بالمدينة النبوية، وطيئ بجبل طيئ شمالاً الكل من مهاجري اليمن بعد خراب سدهم الذي كان مصدر غناهم وثروتهم، إذ أرسل الله تعالى عليهم سيل العرم عقوبة لهم بعدما ظلموا. قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سورة سبأ: الآية ١٦] وأما العدنانيون وهم سكان مكة وما حولها من ديار تهامة والحجاز فمجمل القول في الحالة السياسية عندهم: أن قبيلة جرهم التي استوطنت مكة مع هاجر أم إسماعيل وعاشت زمناً في ظل حكم إسماعيل وأحفاده إلى أن استولت على الحكم بمكة وانتزعته من يد أبناء إسماعيل -عليه السلام- وبقي الحكم في جرهم إلى أن جارت وظلمت واستحلت المحرَّم في مكة فسلَّط الله -تعالى- عليها كما هي سنته في الظالمين المعرضين عن طاعة الله وطاعة رسوله- بني بكر من كنانة، وغبشان خزاعة، فأجلوهم عن مكة وهم يبكون فالتحقوا باليمن ديارهم الأولى زعيم القبيلةمِن

كان سكان الجزيرة العربية ينقسمون إلى بدو، وحضر، وكان النظام السائد بينهم هو النظام القبلي، حتى في الممالك المتحضرة التي نشأت بالجزيرة، كمملكة اليمن في الجنوب ومملكة الحيرة في الشمال الشرقي، ومملكة

الغساسنة في الشمال الغربي، فلم تنصهر الجماعة فيها في شعب واحد، وإنما ظلت القبائل وحدات متماسكة والقبيلة العربية مجموعة من الناس، تربط بينها وحدة الدم (النسب) ووحدة الجماعة، وفي ظل هذه الرابطة نشأ قانون عرفي ينظم العلاقات بين الفرد والجماعة، على أساس من التضامن بينهما في الحقوق والواجبات، وهذا القانون العرفي كانت تتمسك به القبيلة في نظامها السياسي والاجتماعي. وزعيم القبيلة ترشحه للقيادة منزلته القبلية وصفاته، وخصائصه من شجاعته ومروءة وكرم ونحوها، ولرئيس القبيلة حقوق أدبية ومادية، فالأدبية أهمها احترامه وتبجيله، والاستجابة لأمره، والنزول على حكمه وقضائه، وأما المادية فقد كانت له في كل غنيمة تغنمها (المرباع) وهو ربع الغنيمة، و(الصفايا) وهو ما يصطفيه لنفسه من الغنيمة قبل القسمة، و(النشيطة) وهي ما أصيب من مال العدو قبل اللقاء، و(الفضول) وهو ما لا يقبل القسمة من مال الغنيمة.

ومقابل هذه الحقوق واجبات ومسئوليات، فهو في السلم جواد كريم، وفي الحرب يتقدم الصفوف، ويعقد الصلح، والمعاهدات. والنظام القبلي تسود فيه الحرية، فقد نشأ العربي في جو طليق، وفي بيئة طليقة، ومن ثم كانت الحرية من أخص خصائص العرب، ويعشقونها ويأبون الضيم والذل وكل فرد في القبيلة ينتصر لها، ويشيد بمفاخرها، وأيامها، وينتصر لكل أفرادها محقاً أو مبطلاً، حتى صار من مبادئهم : (انصر أخاك ظالماً، أو مظلوماً).

والفرد في القبيلة تبع للجماعة، وقد بلغ من اعتزازهم برأي الجماعة أنه قد تذوب شخصيته في شخصيتها، وكانت كل قبيلة من القبائل العربية لها شخصيتها السياسية وهي بهذه الشخصية كانت تعقد الأحلاف مع القبائل الأخرى، وبهذه الشخصية أيضاً كان تشن الحرب عليها، ولعل من أشهر الأحلاف التي عقدت بين القبائل العربية، حلف الفضول، (حلف المطيبين) وكانت الحروب بين القبائل على قدم وساق، ومن أشهر هذه الحروب حرب الفجار، وكان – عدا هذه الحروب الكبرى – تقع إغارات فردية بين القبائل تكون أسبابها شخصية أحياناً، أو طلب العيش أحياناً أخرى، إذ كان رزق بعض القبائل في كثيرٍ من الأحيان في حد سيوفها، ولذلك ما كانت القبيلة تأمن أن تنقض عليها قبيلة أخرى في ساعة ليلى أو نهار لتسلب أنعامها ومؤنها، وتدع ديارها خاوية كأن لم تسكن بالأمس.

مِنْ زُعَمَاءِ الجَزِيْرَةِ المشهورينَ:

- **قُصَي بن كِلَاب**:

بعد مرور زمن طويل ومكة يحكمها بنو بكر وغبشان خزاعة أي من يوم انتزعوا الحكم من يد جرهم تغلبت غبشان خزاعة على بني بكر واستقلوا بالولاية وتداولوها زمناً، وكان آخر من وليها منهم حُليل بن حُبْشِيّة بن سلول الخزاعي، فخطب ابنته حُبّى قصي بن كلاب فزوّجه إياها فولدت له عبد الدار، وعبد مناف، وعبد العزّى، وعبداً وكبروا وكثر مالهم وعظم شرفهم، ومات حُليُل فرأى قُصي أنه وبنيه أولى بولاية الكعبة فكلم رجالاً من قريش وبنى كنانة طالباً نصرتهم فأعانوه على إخراج خزاعة وبني

بكر انتهى بصلح وتحكيم عمرو بن عوف الكناني، كانت نهاية ولاية قصي على مكة والكعبة فجمع قصي قومه من قريش من منازلهم إلى مكة وملكوه فكان أول أمير من قريش في مكة المكرمة، وكانت له الحجابة والسقاية وجمع قصي قبائل قريش في مكة والحرم، وبذلك سُمّي مُجمعاً حقائق وعبر:

✍ **من استعراضنا للحالة السياسية في بلاد العرب نستخلص الحقائق التالية:**

١. إن البلاد اليمانية اعتورتها حكومات متعددة أعظمها حكومات التبابعة من قبيلة حمير.

٢. إن كلاً من الأحباش والفوارس قد استعمروا اليمن بواسطة اليمنيين الذين يستنجدونهم في ظروف معينة.

٣. شرق الجزيرة من الحيرة إلى العراق لم يكن في الحقيقة إلا ولايات تابعة للحكم الفارسي طيلة الدهر حتى جاء الإسلام، وأن ملوك المناذرة لم يكونوا مستقلين في الغالب، وإنما هم تابعون سياسياً للحكم الفارسي المجوسي

٤. شمال الجزيرة كشرقها لم يكن فيه في الغالب حكم عربي خالص، وإنما كان تابعاً لحكم الروم والغساسنة فيه كالمناذرة في الشرق سواء بسواء.

٥. وسط الجزيرة حيث الحرم وما جاوره من ديار العرب العدنانيين كان مستقلاً لم يحكمه الروم ولا فارس ولا الأحباش كرامة الله تعالى لحرمه وحرم حبيبه محمد-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-وسكانهما وجيرانهما.

✍ **وفي هذه المقطوعة من العبر ما يلي:**

١. إن الظلم لا يدوم وإن طال زمانه سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

٢. حماية الله لبلده وحرمه بإهلاك وإبعاد كل من يظلم فيهما ويستبيح المحرم فيهما.

٣. من فضائل قريش الرفادة والسقاية؛ إذ الرفادة هي جمع المال من أفراد القبائل القرشية سنوياً وإنفاقه في إطعام الحجاج كل عام والسقاية كذلك وهي: إحضار الماء محلّى أحياناً بالزبيب وسقي الحُجّاج أيام حجهم من كل عام.

الأوضاع السياسة والاجتماعية للعرب قبل الاسلامية:

قبل الخوض في ماهية الأوضاع والنظم الاجتماعية والسياسية عند العرب قبل الإسلام يجدر بنا الإشارة الى مفهومي النظام الاجتماعي والسياسي حتى تتوضح الأطر التي من خلالها يتم دراسة المجتمع العربي آنذاك.

النظام الاجتماعي: يطلـق هـذا المصـطلح عـلى أي مـن الأنشـطة والتفاعلات الإنسانية النمطية المستقرة، ويرتبط بأحد أنماط السلوك الإنساني المقنن والذي من خلاله تتولد مجموعة من الظاهر السلوكية المترابطة.

أما النظام السياسي: فهو نظام اجتماعـي وظيفتـه إدارة مـوارد المجتمـع استناداً إلى سلطة مخولة له، تحقـق الصـالح العـام عـن طريـق سـن وتفعيـل السياسات.

البنى الاجتماعية لدى العرب في القرن السادس قبـل المـيلادي ظلـت ضبابية مترددة، وكأنها اقرب ما تكون الى البدو الرحـل منهـا الى التحضـر، فالانتساب الى الأب هو الأساس للأسرة دون إقامة أي حسـاب لاخـتلاف الأمهات، وسيطرة الرجل على المرأة أمر لايخفى عـلى احـد ويـتجلى في حـق تعدد الزوجات، والطلاق ،والى غير ذلك من الأمور التي تبرز قيمة الرجـل، وفي بنى الأسرة برز وعي صلة القربى والشـعور ،بهـا كـان يعطـي للجماعـة تماسكا قوياً، ومن هنا كانت الأهمية الكبرى المعطاة لشجرة النسـب والذريـة والخلف، وهذا هو الأصل في الاعتقاد بضرورة تزاوج أبناء وبنات العمومة .

أما بشأن النظام السياسي العام فقد كانت القبيلـة بتشـكيلاتها وقيمهـا هي الأساس الذي تقوم عليه الحياة السياسية وحتى الاجتماعية فيهـا أيضـاً، وسادت هذه القيم معظم أنحاء شبه الجزيرة العربية.

لقد كانت للتقسيمات الاثنية مدلولاتها العميقة في الاجتماع قبل الإسلام، بحيث تؤكد المصادر التاريخية على ترسيخ المبدأ القبلي فيها بصورة جذرية، مع أن بعض الباحثين المتأخرين لهم آراء مختلفة حول أسس هذا النظام، حيث يرون ان الأسرة العربية بمفهومها العام كانت هي الوحدة الأساسية في النظام العربي القديم، وكان الأعم في هذا النظام اتساع رقعة بيت الأب من خلال زواج أولاده وبقائهم بقربه، وليست القبيلة ككل، ويربط هولاء النسب ورابطة الدم، ومن ثم فان أبناء العشيرة الواحدة، إنما ينظرون الى بعضهم البعض كأبناء دم واحد.

ويرى هولاء أيضاً انه مع كثرة أبناء القبيلة الواحدة، واتساع حركتها الرعوية تنفتح أكثر على القبائل الأخرى، ويعتبر هذا تميزاً اجتماعياً وسياسياً من حيث العلاقات، مع عدم الإغفال أن مثل هذا الانفتاح نتج عنه نظام الطبقات الاجتماعية في القبيلة الواحدة، حيث عُد ذلك من ناحية أخرى مظهراً من مظاهر التخلف.

من خلال هذه المعلومات التي أوردناها حول النظام الاجتماعي والسياسي الذي نجدهما يتداخلان ولا يختلفان كثيراً عن بعضهما لابد وان نعطي فكرة عن القبيلة وما تمتاز به.

من أهم مظاهر الحكم في المجتمع العربي القبلي قبل الإسلام الرئاسة، حيث كانت قاعدة الحكم عند أهل الوبر، ويقابلها الملكية عند أهل المدر، ولرئيس اية قبيلة امتيازات تميزه عن سائر رجالها، تبدأ بالبيت الكبير المكون من خيمة ضخمة، يجتمع فيها سادات القوم، وخيم اخرى خاصة بحريمه،

حيث امتاز رئيس القبيلة بكثرة نسائه، بـالأخص الصـغيرات السـن، لينجب منهن أولاداً يكونوا حصناً له.

ومع أن مفهوم رئاسة القبيلة شائع إلا أنه لاتوجـد نصـوص جاهليـة ولا روايات اهل الأخبار ما تـورد الشـروط اللازمـة في رئـيس القبيلـة، ولا حتى عن كونها وراثية، ولكن الوراثة جاءت لكـون جميـع الرئاسـات كانـت كذلك عند العرب.

العرب كانت تسود على أشياء، ذكر أهـل الأخبـار مـثلا مضرـ كانـت تسود ذا رأيها، وربيعة من أطعم طعامها، واليمن على النسب .

ومن أعرف الحكم عند القبائل العربية، أن سيد القبيلة يستمد رأيه من رأي أشراف قبيلته، لكنها كانت مجرد مشورة وغير ملزمـة، حيـث شخصـية رئيس القبيلة هنا كانت لها دروها.

وقد لعب النسب الذي عد جرثومـة العصـبية واسـاها دورا كبـيرا في الحياة السياسية والاجتماعية عند العرب، ولهذا حرص العربي على حفظ نسبه ولا يزال يحرص عليه، والنسب حسب رأي أهل اللغـة : القرابـة، او هـو في الآباء خاصة، والبيت هو الأب، ولما كان المجتمع مجتمع بيوت، صار النظـام فيه نظاماً ابوياً، وبما ان القبيلة ايضا في عرف اللغـة تُعـد مـن أب واحـد، إذا فهي مجموعة من الناس تضم طوائف أصغر منها وهي تنتمي كلها الى أصـل واحد وجذر راسخ لها نسب مشترك متصل بأب واحد.

لذا أطلق أهل الأخبار والأنساب اسم القبيلة حتى على أهـل الحضرـ، مثل قريش، واوس والخزرج وغيرهما، ويلاحظ ان الشعوب السامية تشارك العرب في هذه النظرة لأن نظامها الاجتماعي كان قائماً على القبيلة.

وهذا ماخلق النظام المتماسك داخل القبيلة التي كانت أقوى روابطها الدم، والمؤدية الى العصبية التي عدت أهم ركائز القبيلة، وقد قسم النـويري النظام القبلي الى عشر طبقات عند العرب الجذم هـو الأصـل وهـو قحطـان وعدنان، ثم الجماهير، الشعوب، القبيلة، العمائر، البطون، الأفخاذ، العشـائر، الفصائل، الرهط "الرجل وأسرته")، وهذا ما ألـزم وعمـق معـاني العصـبية فيهم فكان الرجل، أو القبيلة تقوم بنصرة عصبته والتألب معهم سواء أكانت ظالمة أم مظلومة، مما جعل النظـام العصـبي يرافـق أهـل المـدر حتـى عنـدما تحضروا واستقروا في بيوت ثابتة، **وقد قال أحد الشعراء في ذلك:**

لايسألون أخاهم حـين ينـدبهم في النائبات عـلى ماقـال برهـان

ولم تمنع العصبية بطون القبيلة من مخاصمة بعضـها الـبعض، والقبائـل فيما بينها، بسبب المصالح التي كانت تغلب حتى على عاطفة النسـب، حيـث كانت من مظاهر العصبية الحمية : وهي تعني الأنفـة، والغـيرة، والغضـب، وكذلك النعرة : التي تعني الصياح، ومناداة القوم طلبا للغوث، او لتجمعهم في الحرب .

وقد ساد في المجتمـع العـربي الجـاهلي الأحـلاف ومـن مـاذكره أهـل الأخبار (حلف المحرقين) او المحاشن، وبرزت بين القبائل المتحالفة عصـبية قوية، وهناك أيضا حلف المطيبين وحلف الفضول.

ومن الأعراف ذات الأبعاد السياسية والاجتماعية الخطيرة ،التي كانت تسود الاجتماع العربي الأخذ بالثأر (الدم لايغسل إلا بالدم)، حيث شكلت هذه الظاهرة إحدى أهم معالم النظام الاجتماعي لديهم، وكانت ذات تأثير حتى على السياسة العامة، حتى بعد مجيء الإسلام .

ولقد واجهت القبيلة قبل الإسلام مشاكل وظروف عصيبة كثيرة منها النزاعات المستمرة والاقتتال الدائم لأسباب عديدة، تافهة أحياناً، ولعل أبرزها مشاكل الحدود التي لم تكن ثابتة.

كما ان النظام الطبقي وجد في الاجتماع العربي والمفاخرة باللون، والنسب، ومما يجدر الإشارة إليه هو أن كل رئيس قبيلة كان يرى في نفسه سلطة مستقلة عن القبائل الأخرى حتى داخل المدينة الواحدة، كما في مكة.

أولاً: الحالة الدينية:

ابتليت الأمة العربية بتخلف ديني شديد، ووثنية سخيفة لا مثيل لها، وانحرافات خلقية، واجتماعية، وفوضى سياسية، وتشريعية، ومن ثم قل شأنهم وصاروا يعيشون على هامش التاريخ، ولا يتعدون في أحسن الأحوال أن يكونوا تابعين للدولة الفارسية أو الرومانية، وقد امتلأت قلوبهم بتعظيم تراث الآباء والأجداد واتباع ما كانوا عليه مهما يكن فيه من الزيغ والانحراف والضلال ومن ثم عبدوا الأصنام، فكان لكل قبيلة صنم، فكان لهذيل بن مدركة: سواع، ولكلب: ود، ولمذحج: يغوث، ولخيوان: يعوق، ولحمير: نسر، وكانت خزاعة وقريش تعبد إسافًا ونائلة، وكانت مناة على ساحل البحر، تعظمها العرب كافة والأوس والخزرج خاصة، وكانت

اللات في ثقيف، وكانت العزى فوق ذات عرق، وكانت أعظم الأصنام عند قريش.

وإلى جانب هذه الأصنام الرئيسية يوجد عدد لا يحصى كثرة من الأصنام الصغيرة والتي يسهل نقلها في أسفارهم ووضعها في بيوتهم.

روى البخاري في صحيحه عن أبي رجاء العُطاردي قال: «كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجراً آخر هو أخيرُ منه ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجراً جمعنا جُثوة من تراب، ثم جئنا بالشاة فحلبناه عليه ثم طفنا به».

وقد حالت هذه الوثنية السخيفة بين العرب، وبين ومعرفة الله وتعظيمه وتوقيره والإيمان به، وباليوم الآخر وإن زعموا أنها لا تعدو أن تكون وسائط بينهم وبين الله، وقد هيمنت هذه الآلهة المزعومة على قلوبهم وأعمالهم وتصرفاتهم، وجميع جوانب حياتهم وضعف توقير الله في نفوسهم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٣٦]

أما البقية الباقية من دين إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ فقد أصابها التحريف، والتغيير والتبديل، فصار الحج موسماً للمفاخرة والمنافرة، والمباهاة وانحرفت بقايا المعتقدات الحنيفية عن حقيقتها وألصق بها من الخرافات والأساطير الشيء الكثير.

وكان يوجد بعض الأفراد من الحنفاء الذين يرفضون عبادة الأصنام، وما يتعلق بها من الأحكام والنحائر وغيرها، ومن هؤلاء زيد بن عمرو بن نفيل، وكان لا يذبح للأنصاب، ولا يأكل الميتة والدم، **وكان يقول:**

أربًّـــا واحــــدًا أم ألــــف رب   أدِيـــنُ إذَا تقَسَـــمَتِ الأمـــورُ

عزلت الـلّات والعـزى جميعًـا   كـذلك يفعـل الجلـد الصَّـبورُ

فـلا العــزى أديــن ولا ابنتيهــا   ولا صــنمي بنــي عمــرو أزورُ

ولا غـــنما أديـــن وكـــان ربـــا   لنـــا في الــــدهر، إذا حلمـــي

إلى أن قال:

وَلَكِـــنْ أَعْبُـــدُ الــــرَّحْمَنَ رَبِّي   لِيَغْفِرَ ذَنْبِـيَ الـرَّبُّ الغَفُـورُ

وممن كان يدين بشريعة إبراهيم وإسماعيل علـيهما الصـلاة والسـلام، قُس بن ساعدة الإيادي، فقد كان خطيبًا، حكيمًا، عاقلاً، لـه نباهـة، وفضـل، وكان يدعو إلى توحيد الله، وعبادته، وترك عبـادة الأوثـان، كـما كـان يـؤمن بالبعث بعد الموت، وقد بشر بالنبي ﷺ فقد روى أبو نعيم في دلائـل النبـوة عن ابن عباس قال: «إن قس بن ساعدة كان يخطب قومه في سـوق (عكـاظ) فقال في خطبته: سيعلم حق من هذا الوجه وأشار بيده إلى مكـة، قـالوا: ومـا هذا الحق؟ قال: رجل من ولد لؤي بن غالب يدعوكم إلى كلمة الإخـلاص، وعيش الأبد، ونعيم لا ينفد، فإن دعاكم فأجيبوه، ولو علمت أني أعـيش إلى مبعثه لكنت أول من يسعى إليه» وقد أدرك النبي ﷺ ومات قبل البعثة.

□

ومما كان ينشره من شعره:

في الذاهبين الأولِي	من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا	للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها	يمضي الأصاغر والأكابر
لا من مضى يأتي إليك	ولا من الباقين غابر
أيقنت أني لا محا	لة حيث صار القوم صائر

كان بعض العرب قد تنصر، وبعضهم دخل في اليهودية، أما الأغلبية فكانت تعبد الأوثان والأصنام.

ثانيًا: الحالة السياسية:

كان سكان الجزيرة العربية ينقسمون إلى بدو وحضر، وكان النظام السائد بينهم هو النظام القبلي، حتى في الممالك المتحضرة التي نشأت بالجزيرة، كمملكة اليمن في الجنوب ومملكة الحيرة في الشمال الشرقي، ومملكة الغساسنة في الشمال الغربي، فلم تنصهر الجماعة فيها في شعب واحد، وإنما ظلت القبائل وحدات متماسكة.

والقبيلة العربية مجموعة من الناس، تربط بينها وحدة الدم (النسب) ووحدة الجماعة، وفي ظل هذه الرابطة نشأ قانون عرفي ينظم العلاقات بين الفرد والجماعة، على أساس من التضامن بينهما في الحقوق والواجبات، وهذا القانون العرفي كانت تتمسك به القبيلة في نظامها السياسي والاجتماعي.

وزعيم القبيلة ترشحه للقيادة منزلته القبلية وصفاته، وخصائصه من شجاعة ومروءة، وكرم ونحوها، ولرئيس القبيلة حقوق أدبية ومادية، فالأدبية أهمها: احترامه وتبجيله، والاستجابة لأمره، والنزول على حكمه وقضائه، وأما المادية فقد كان له في كل غنيمة تغنمها (المرباع) وهو ربع الغنيمة، (والصفايا) وهو ما يصطفيه لنفسه من الغنيمة قبل القسمة (والنشيطة) وهي ما أصيب من مال العدو قبل اللقاء (والفضول) وهو ما لا يقبل القسمة من مال الغنيمة، وقد أجمل الشاعر العربي ذلك بقوله:

لك المرباع فينا، والصفايا وحكمك، والنشيطة، والفضول

ومقابل هذه الحقوق، واجبات ومسئوليات، فهو في السلم جواد كريم، وفي الحرب يتقدم الصفوف، ويعقد الصلح، والمعاهدات.

والنظام القبلي تسود فيه الحرية، فقد نشأ العربي في جو طليق، وفي بيئة طليقة، ومن ثم كانت الحرية من أخص خصائص العرب، ويعشقونها ويأبون الضيم والذل وكل فرد في القبيلة ينتصر لها، ويشيد بمفاخرها، وأيامها، وينتصر لكل أفرادها محقًا أو مبطلاً، حتى صار من مبادئهم: «انصر أخاك ظالمًا، أو مظلومًا».

وكان شاعرهم يقول:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا

والفرد في القبيلة تبع للجماعة، وقد بلغ من اعتزازهم برأي الجماعة أنه قد تذوب شخصيته في شخصيتها، **قال دريد بن الصمة**:

وهل أنا إلا من غزية إن غـوت غويت، وإن ترشد غزية أرشـد

وكانت كل قبيلة من القبائل العربية لها شخصيتها السياسية، وهي بهذه الشخصية كانت تعقد الأحلاف مع القبائل الأخرى، وبهذه الشخصية أيضاً كانت تشن الحرب عليها، ولعل من أشهر الأحلاف التي عقدت بين القبائل العربية، حلف الفضول (حلف المطيبين).

وكانت الحروب بين القبائل على قدم وساق ومن أشهر هذه الحروب حرب الفجار وكان -عدا هذه الحروب الكبرى- تقع إغارات فردية بين القبائل تكون أسبابها شخصية أحيانًا، أو طلب العيش أحيانًا أخرى، إذ كان رزق بعض القبائل في كثير من الأحيان في حد سيوفها، ولذلك ما كانت القبيلة تأمن أن تنقض عليها قبيلة أخرى في ساعة من ليل أو نهار لتسلب أنعامها ومؤنها، وتدع ديارها خاوية كأن لم تسكن بالأمس.

ثالثًا: الحالة الاقتصادية:

يغلب على الجزيرة العربية الصحاري الواسعة الممتدة، وهذا ما جعلها تخلو من الزراعة إلا في أطرافها وخاصة في اليمن والشام، وبعض الواحات المنتشرة في الجزيرة كان يغلب على البادية رعي الإبل والغنم، وكانت القبائل تنتقل بحثًا عن مواقع الكلأ، وكانوا لا يعرفون الاستقرار إلا في مضارب خيامهم.

وأما الصناعة فكانوا أبعد الأمم عنها، وكانوا يأنفون منهـا، ويتركـون العمل فيها للأعاجم والموالي، حتى عندما أرادوا بنيان الكعبة استعانوا برجل قبطي نجا من السفينة التي غرقت بجدة ثم أصبح مقيما في مكة

وإذا كانت الجزيرة العربية قد حرمت من نعمتي الزراعـة والصـناعة، فإن موقعها الاستراتيجي بين إفريقيا وشرق آسـيا جعلهـا مؤهلـة لأن تحتـل مركزاً متقدماً في التجارة الدولية آنذاك.

وكان الذين يمارسون التجارة مـن سـكان الجزيـرة العربيـة هـم أهـل المدن، ولا سيما أهل مكة فقد كان لهم مركز ممتاز في التجارة، وكان لهم بحكم كونهم أهل الحرم منزلة في نفوس العرب فلا يعرضـون لهـم، ولا لتجـارتهم بسوء، وقد امتن الله علـيهم بـذلك في القـرآن الكـريم: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٦٧] وكانت لقـريش رحلتـان عظيمتـان شـهيرتان: رحلـة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام، يذهبون فيها آمنـين بيـنما النـاس يتخطفون من حولهم، هذا عدا الرحلات الأخرى التـي يقومـون بهـا طـوال العام، قـال تعـالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾

[سورة قريش: الآية١ – ٤]

وكانت القوافل تحمل الطيب والبخور، والصمغ، واللبان، والتوابل والتمور، والروائح العطرية، والأخشاب الزكية، والعاج، والأبنوس، والخرز، والجلود، والبرود اليمنية والأنسجة الحريرية، والأسلحة وغيرها مما يوجد في شبه الجزيرة، أو يكون مستوردًا من خارجها، ثم تذهب به إلى الشام وغيرها ثم تعود محملة بالقمح، والحبوب، والزبيب، والزيتون، والمنسوجات الشامية وغيرها.

واشتهر اليمنيون بالتجارة، وكان نشاطهم في البر وفي البحار، فسافروا إلى سواحل إفريقيا وإلى الهند وإندونيسيا، وسومطرة وغيرها من بلاد آسيا، وجزر المحيط الهندي أو البحر العربي كما يسمى، وقد كان لهم فضل كبير بعد اعتناقهم الإسلام، في نشره في هذه الأقطار.

وكان التعامل بالربا منتشرًا في الجزيرة العربية، ولعل هذا الداء الوبيل سرى إلى العرب من اليهود وكان يتعامل به الأشراف وغيرهم وكانت نسبة الربا في بعض الأحيان إلى أكثر من مائة في المائة.

وكان للعرب أسواق مشهورة: عكاظ، ومجنّة، وذو المجاز، ويذكر بعض المؤلفين في أخبار مكة أن العرب كانوا يقيمون بعكاظ هلال ذي القعدة، ثم يذهبون منه إلى مجنة بعد مضي عشرين يومًا من ذي القعدة، فإذا

رأوا هلال ذي الحجة ذهبوا إلى ذي المجاز فلبثوا فيها ثماني ليال، ثم يذهبون إلى عرفة، وكانوا لا يتبايعون في عرفة ولا أيام منى حتى جاء الإسلام فأباح لهم ذلك، قال تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٨]

وقد استمرت هذه الأسواق في الإسلام إلى حين من الدهر ثم دَرَست، ولم تكن هذه الأسواق للتجارة فحسب، بل كانت أسواقًا للأدب والشعر والخطابة يجتمع فيها فحول الشعراء ومصاقع الخطباء، ويتبارون فيها في ذكر أنسابهم، ومفاخرهم، ومآثرهم، وبذلك كانت ثروة كبرى للغة، والأدب، إلى جانب كونها ثروة تجارية

رابعًا: الحالة الاجتماعية:

هيمنت التقاليد والأعراف على حياة العرب، وأصبحت لهم قوانين عرفية فيما يتعلق بالأحساب والأنساب، وعلاقة القبائل ببعضها والأفراد كذلك، **ويمكن إجمال الحالة الاجتماعية فيما يأتي**:

١. **الاعتزاز الذي لا حد له بالأنساب، والأحساب، والتفاخر بهما:**

فقد حرصوا على المحافظة على أنسابهم، فلم يصاهروا غيرهم من الأجناس الأخرى، ولما جاء الإسلام قضى على ذلك وبين لهم أن التفاضل إنما هو بالتقوى والعمل الصالح.

٢. الاعتزاز بالكلمة، وسلطانها، لا سيما الشعر:

كانت تستهويهم الكلمة الفصيحة، والأسلوب البليغ، وكان شعرهم سجل مفاخرهم، وأحسابهم، وأنسابهم، وديوان معارفهم، وعواطفهم، فلا تعجب إذا كان نجم فيهم الخطباء المصاقع، والشعراء الفطاحل، وكان البيت من الشعر يرفع القبيلة، والبيت يخفضها، ولذلك ما كانوا يفرحون بشيء فرحهم بشاعر ينبغ في القبيلة.

٣. المرأة في المجتمع العربي:

كانت المرأة عند كثير من القبائل كسقط المتاع، فقد كانت تورث، وكان الابن الأكبر للزوج من غيرها من حقه أن يتزوجها بعد وفاة أبيه، أو يعضلها عن النكاح، حتى حَرَّم الإسلام ذلك، وكان الابن يتزوج امرأة أبيه فنزل قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقۡتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [سورة النساء: الآية ٢٢]

وكانت العرب تحرم نكاح الأصول كالأمهات، والفروع كالبنات، وفروع الأب كالأخوات، والطبقة الأولى من فروع الجد كالخالات والعمات.

وكانوا لا يورثون البنات ولا النساء ولا الصبيان، ولا يورثون إلا من حاز الغنيمة وقاتل على ظهور الخيل، وبقي حرمان النساء والصغار من الميراث عرفاً معمولاً به عندهم إلى أن توفي أوس بن ثابت في عهد رسول الله ﷺ وترك بنتين كانت بهما دمامة، وابنًا صغيرًا، فجاء ابنا عمه وهما

عصبته فأخذا ميراثه كله، فقالت امرأته لهما: تزوجا البنتين، فأبيا ذلك لدمامتهما، فأتت رسول الله فقالت: يا رسول الله توفي أوس وترك ابنًا صغيرًا وابنتين، فجاء ابنا عمه سويد وعرفطة فأخذا ميراثه، فقلت لهما: تزوجا ابنتيه، فأبيا، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا تحركا في الميراث شيئًا»، ونزل قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [سورة النساء: الآية ٧]

وكان العرب يُعيّرون بالبنات؛ لأن البنت لا تخرج في الغزو، ولا تحمي البيضة من المعتدين عليها، ولا تعمل فتأتي بالمال شأن الرجال، وإذا ما سبيت اتخذت للوطء تتداولها الأيدي لذلك، بل ربما أكرهت على احتراف البغاء، ليضم سيدها ما يصير إليها من المال بالبغاء إلى ماله، وقد كانت العرب تبيح ذلك، وقد كان هذا يورث الهم والحزن والخجل للأب عندما تولد له بنت، وقد حدثنا القرآن الكريم عن حالة من تولد له بنت فقال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [سورة النحل: الآية ٥٩-٥٨]

وكثيراً ما كانوا يختارون دسها في التراب، ووأدها حية، ولا ذنب لها إلا أنها أنثى ولذلك أنكر القرآن الكريم عليهم هذه الفعلة الشنيعة قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [سورة التكوير: الآية ٩]

وكان بعض العرب يقتل أولاده من الفقر أو خشية الفقر فجاء الإسلام وحرم ذلك قال تعالى: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ...ۖ ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٥١]؛ ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٣١]وكانت بعض القبائل لا تئد البنات، كما كان فيهم من يستقبحون هذه الفعلة الشنعاء كزيد بن عمرو بن نفيل.

وكانت بعض القبائل تحترم المرأة وتأخذ رأيها في الزواج، وكانت المرأة العربية الحرة تأنف أن تفترش لغير زوجها وحليلها، وكانت تتسم بالشجاعة وتتبع المحاربين وتشجعهم، وقد تشارك في القتال إذا دعت الضرورة، وكانت المرأة البدوية العربية تشارك زوجها في رعي الماشية، وسقيها، وتغزل الوبر والصوف وتنسج الثياب، والبرود، والأكسية، مع التصون والتعفف.

٤. النكاح:

تعارف العرب على أنواع النكاح، لا يعيب بعضهم على بعض إتيانها، وقد ذكرت لنا السيدة عائشة رضي الله عنها فقالت: «إن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء: فنكاح منها نكاح اليوم: يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته، فيصدقها ثم ينكحها، ونكاح آخر: كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها: أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبداً، حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان

هذا النكاح نكاح الاستبضاع، ونكاح آخر: يجتمع الرهط ما دون العشرة، فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها فإذا حملت ووضعت، ومرت ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان، تسمي من أحبت باسمه، فيلحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع به الرجل، والنكاح الرابع: يجتمع الناس الكثير، فيدخلون على المرأة لا تمنع من جاءها وهن البغايا كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علما، فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها، ودعوا لها القافة ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون، فالتاط به ودعي ابنه، لا يمتنع من ذلك، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم بالحق هدم نكاح الجاهلية إلا نكاح الناس اليوم».

وذكر بعض العلماء أنحاء أخرى لم تذكرها عائشة رضي الله عنها كنكاح الخدن وهو في قوله تعالى: ﴿...وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ...﴾ [سورة النساء: الآية ٢٥] كانوا يقولون: ما استتر فلا بأس به، وما ظهر فهو لوم، وهو إلى الزنا أقرب منه إلى النكاح، وكنكاح المتعة وهو النكاح المعين بوقت، ونكاح البدل: كان الرجل في الجاهلية يقول للرجل: انزل لي على امرأتك، وأنزل لك عن امرأتي وأزيدك.

ومن الأنكحة الباطلة نكاح الشغار وهو أن يزوج الرجل ابنته على أن يزوجه الآخر ابنته، ليس بينهما صداق.

وكانوا يحلون الجمع بين الأختين في النكاح، وكـانوا يبيحـون للرجـل أن يجمع في عصمته من الزوجات ما شـاء دون التقيـد بعـدد، وكـان الـذين جمعوا بين أكثر من أربع زوجات أكثر مـن أن ينـالهم العـد، وجـاء الإسـلام ومنهم من له العشرة من النساء والأكثر، والأقل، فقصر ذلـك عـلى أربـع إن علم أنه يستطيع الإنفاق علـيهن، والعـدل بيـنهن، فـإن خـاف عـدم العـدل فليكتف بواحدة، وما كانوا في الجاهلية يلتزمون العدل بين الزوجات، وكانوا يسيئون عشـــرتهن، ويهضـمون حقـوقهن حتـى جـاء الإسـلام فأنصـفهن، وأوصى بالإحسان إليهن في العشرة، وقرر لهن حقوقا ما كن يحلمن بها.

٥. الطلاق:

كانوا يمارسون الطلاق، ولم يكن للطلاق عنـدهم عـدد محـدد، فكـان الرجل يطلق امرأته ثم يراجعها، ثم يطلقها ثم يراجعها هكذا أبدًا، وبقي هذا الأمـر معمـولاً بـه في صـدر الإسـلام(إلى أن أنـزل الله تبـارك وتعـالى قولـه: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ ... ﴾ [سـورة البقـرة: الآية ٢٢٩].

فقيد الإسلام عدد الطلقات، وأعطى للـزوج فرصـة لتـدارك أمـره، ومراجعة زوجته مرتين، فإن طلق الثالثة فقد انقطعت عروة النكاح، ولا تحل له إلا بعد زوج آخر، ففي الكتـاب الكـريم: ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣٠]

ومما كان يلحق بالطلاق في التحريم الظهار، وهو أن يقول الزوج لزوجته: أنت علي كظهر أمي، وكان تحريمًا مؤبدًا حتى جاء الإسلام، فوسمه بأنه منكر من القول وزور، وجعل للزوج مخرجًا منه، وذلك بالكفارة قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢) وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [سورة المجادلة: الآية٢ – ٤].

٦. الحروب، والسطو، والإغارة:

كانت الحروب تقوم بينهم لأتفه الأسباب، فهم لا يبالون بشن الحروب وإزهاق الأرواح في سبيل الدفاع عن المثل الاجتماعية التي تعارفوا عليها وإن كانت لا تستحق التقدير، وقد روى لنا التاريخ سلسلة من أيام العرب في الجاهلية مما يدل على تمكن الروح الحربية من نفوس العرب وغلبتها على التعقل والتفكير، فمن تلك الأيام مثلا يوم البسوس، وقد قامت الحرب فيه بين بكر وتغلب بسبب ناقة للجرمي وهو جار للبسوس بنت منقذ خالة جساس بن مرة، وقد كان كليب سيد تغلب قد حمى لإبله مكانًا خاصًا به فرأى فيه هذه الناقة فرماها فجزع الجرمي وجزعت البسوس، فلما رأى ذلك جساس تحين الفرصة لقتل كليب فقتله فقامت الحروب الطاحنة بين القبيلتين لمدة أربعين سنة.

وكذلك يوم داحس والغبراء، وقد كان سببه سباقًا أقيم بين داحس وهو فرس لقيس ابن زهير، والغبراء وهي لحذيفة بن بدر فأوعز هذا إلى رجل ليقف في الوادي فإن رأى داحسا قد سبق يرده وقد فعل ذلك فلطم الفرس حتى أوقعها في الماء فسبقت الغبراء، وحصل بعد ذلك القتل والأخذ بالثأر، وقامت الحرب بين قبيلتي عبس وذبيان.

وكذلك الحروب التي قامت بين الأوس والخزرج في الجاهلية وهم أبناء عم، حيث إن الأوس والخزرج أبناء حارثة بن ثعلبة الأزدي، واستمرت الحروب بينهم وكان آخر أيامهم (بُعاث) وذلك أن حلفاء الأوس من اليهود جددوا عهودهم معهم على النصرة، وهكذا كان كثير من حروب الأوس والخزرج يذكيها اليهود حتى يضعفوا القبيلتين فتكون لهم السيادة الدائمة، واستعان كل فريق منهم بحلفائه من القبائل المجاورة فاقتتلوا قتالاً شديدًا كانت نهايته لصالح الأوس.

وكانت بعض القبائل تسطو وتغير بغية نهب الأموال وسبي الأحرار وبيعهم، كزيد ابن حارثة فقد كان عربيًّا حرًا، وكسلمان الفارسي فقد كان فارسيًّا حرًّا، وقد قضى الإسلام على ذلك حتى كانت تسير المرأة والرجل من صنعاء إلى حضرموت لا يخافان إلا الله والذئب على أغنامهما.

٧. العلم والقراءة والكتابة:

لم يكن العرب أهل كتاب وعلم كاليهود والنصارى، بل كان يغلب عليهم الجهل والأمية، والتقليد والجمود على القديم -وإن كان باطلا-

وكانت أمة العرب لا تكتب ولا تحسب وهذه هي الصفة التـي كانـت غالبة عليها، وكان فيهم قليل ممن يكتب ويقـرأ ومـع أميـتهم وعـدم اتسـاع معارفهم فقد كانوا يشتهرون بالذكاء، والفطنة، والألمعيـة، ولطـف المشـاعر، وإرهاف الحس، وحسن الاستعداد، والتهيؤ لقبول العلم والمعرفة، والتوجيه الرشيد ولذلك لما جاء الإسلام صاروا علماء، حكماء، فقهاء، وزالـت عـنهم الأمية، وأصبح العلم والمعرفة من أخص خصائصهم، وكان فيهم من مهر في علم قص الأثر، وهو القيافة، وكان فيهم أطباء كالحـارث بـن كلـدة، وكـان طبهم مبنيا على التجارب التي اكتسبوها من الحياة والبيئة.

خامسًا: الحالة الأخلاقية:

كانت أخلاق العرب قد سـاءت وأولعـوا بـالخمر والقـمار، وشـاعت فيهم الغارات وقطـع الطريـق عـلى القوافـل، والعصـبية والظلـم، وسـفك الدماء، والأخذ بالثأر، واغتصاب الأموال، وأكـل مـال اليتـامى، والتعامـل بالربا، والسرـقة والزنـا، وممـا ينبغـي أن يعلـم أن الزنـا إنـما كـان في الإمـاء وأصحاب الرايات من البغايا، ويندر أن يكون في الحرائـر، ولـيس أدل عـلى هذا من أن النبي ﷺ لما أخذ البيعة عـلى النسـاء بعـد الفـتح: ﴿...عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ ...﴾ [سورة الممتحنة: الآية ١٢]قالت السـيدة هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان: أَوَتزني الحرة.

وليس معنى هذا أنهم كانوا كلهم على هذا، لا. لقد كان فيهم كثـيرون لا يزنون ولا يشربون الخمر، ولا يسفكون الدماء ولا يظلمون، ويتحرجون

من أكل أموال اليتامى، ويتنزهون عن التعامل بالربا وكانت فيهم سمات وخصال من الخير كثيرة أهلتهم لحمل راية الإسلام، **ومن تلك الخصال والسمات:**

١. الذكاء والفطنة:

فقد كانت قلوبهم صافية، لم تدخلها تلك الفلسفات والأساطير والخرافات التي يصعب إزالتها، كما في الشعوب الهندية والرومانية والفارسية، فكأن قلوبهم كانت تعد لحمل أعظم رسالة في الوجود وهي دعوة الإسلام الخالدة ولهذا كانوا أحفظ شعب عرف في ذلك الزمن، وقد وجه الإسلام قريحة الحفظ والذكاء إلى حفظ الدين وحمايته، فكانت قواهم الفكرية، ومواهبهم الفطرية مذخورة فيهم، لم تستهلك في فلسفات خيالية، وجدال بيزنطي عقيم، ومذاهب كلامية معقدة.

واتساع لغتهم دليل على قوة حفظهم وذاكرتهم، فإذا كان للعسل ثمانون اسمًا وللثعلب مائتان وللأسد خمسمائة، فإن للجمل ألفًا، وكذا السيف، وللداهية نحو أربعة آلاف اسم، ولا شك أن استيعاب هذه الأسماء يحتاج إلى ذاكرة قوية حاضرة وقَّادة.

وقد بلغ بهم الذكاء والفطنة إلى الفهم بالإشارة فضلاً عن العبارة، والأمثلة على ذلك كثيرة.

٢. أهل كرم وسخاء:

كان هذا الخُلُق متأصلا في العرب، وكان الواحد منهم لا يكـون عنـده إلا فرسه، أو ناقته، فيأتيه الضيف، فيسارع إلى ذبحها، أو نحرهـا لـه، وكـان بعضهم لا يكتفي بإطعام الإنسان بل كان يطعم الوحش، والطير، وكرم حاتم الطائي سارت به الركبان، وضربت به الأمثال.

٣. أهل شجاعة ومروءة ونجدة:

كانوا يتمادحون بالموت قـتلاً، ويتهـاجون بـالموت عـلى الفـراش قـال أحدهم لما بلغه قتل أخيه: إن يقتل فقد قتل أبـوه وأخـوه وعمـه، إنـا والله لا نموت حتفاً، ولكن قطعًا بأطراف الرماح، وموتًا تحت ظلال السيوف:

تسيل على حد الظبـاة نفوسـنا ... وليست على غـير الظبـاة تسـيل

وما مات منا سيد حتـف أنفـه ... ولا طُـلّ منـا حيـث كـان قتيـل

وكان العرب لا يقـدمون شـيئا عـلى العـز وصـيانة العـرض، وحمايـة الحريم، واسترخصوا في سبيل ذلك نفوسهم **قال عنترة:**

بَكَرَت تخوفني الحُتـوف كـأنني ... أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل

فأجبتهـــا إن المنيـــة منهـــل ... لا بـــد أن أُسْـقى بكـأس المنهـــل

فأقني حياءك لا أبا لك واعلمي ... أني امـــرؤ ســأموت إن لم أقتـــل

□

وقال عنترة:

لا تسقني ماء الحياة بذلة	بل فاسقني بالعز كأس الحنظل
ماء الحياة بذلة كجهنم	وجهنم بالعز أطيب منزل

وكان العرب بفطرتهم أصحاب شهامة ومروءة، فكانوا يأبون أن ينتهز القوي الضعيف، أو العاجز، أو المرأة أو الشيخ، وكانوا إذا استنجد بهم أحد أنجدوه ويرون من النذالة التخلي عمن لجأ إليهم.

٤. عشقهم للحرية وإباؤهم للضيم والذل:

كان العربي بفطرته يعشق الحرية، يحيا لها، ويموت من أجلها، فقد نشأ طليقًا لا سلطان لأحد عليه، ويأبى أن يعيش ذليلاً، أو يمس في شرفه وعرضه ولو كلفه ذلك حياته ، فقد كانوا يأنفون من الذل ويأبون الضيم والاستصغار والاحتقار، وإليك مثال على ذلك.

جلس عمرو بن هند ملك الحيرة لندمائه وسألهم: هل تعلمون أحدًا من العرب تأنف أمه خدمة أمي؟ قالوا: نعم، أم عمرو بن كلثوم الشاعر الصعلوك.

فدعا الملك عمرو بن كلثوم لزيارته، ودعا أمه لتزور أمه، وقد اتفق الملك مع أمه أن تقول لأم عمرو بن كلثوم بعد الطعام: ناوليني الطبق الذي بجانبك، فلما جاءت قالت لها ذلك، فقالت: لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها، فأعادت عليها الكرة وألحت، فصاحت ليلى أم عمرو بن كلثوم: وا ذلاه يا لتغلب. فسمعها ابنها فاشتد به الغضب فرأى سيفا للملك معلقا

بالرواق فتناوله وضرب به رأس الملك عمرو بن هند، ونـادى في بنـي تغلب، وانتهبوا ما في الرواق، **ونظم قصيدة يخاطب بها الملك قائلًا:**

بـأي مشـيئة عمـرو بـن هنـد　　نكـون لقـيلكم فيهـا قطينـا

بـأي مشـيئة عمـرو بـن هنـد　　تطيـع بنـا الوشـاة وتزدرينـا

تهـددنا وتوعـدنا رويـدًا　　أبينـا أن نقـر الـذل فينـا

إذا ما الملك سام الناس خسفًا　　متـى كنـا لأمـك مقتوينـا

٥. الوفاء بالعهد وحبهم للصراحة والوضوح والصدق:

كانوا يأنفون من الكذب ويعيبونه، وكـانوا أهـل وفـاء، ولهـذا كانـت الشهادة باللسان كافية للدخول في الإسلام، ويدل على أنفـتهم مـن الكـذب قصة أبي سفيان مع هرقل لما سـأله عـن رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم، وكانت الحروب بينهم قائمة قال: «لولا الحياء من أن يأثروا علي كذبًا لكذبت عنه».

أما وفاؤهم: فقد قال النعمان بن المنذر لكسـرى في وفاء العـرب: «وإن أحدهم يلحظ اللحظة ويومئ الإيماء فهي وَلث وعقدة لا يحلهـا إلا خـروج نفسه، وإن أحدهم يرفع عودًا من الأرض فيكون رهنًا بدينه فلا يُغلـق رهنـه ولا تخفر ذمته، وإن أحدهم ليبلغه أن رجلاً استجار به، وعسى أن يكون نائياً عن داره، فيصاب، فلا يرضى حتى يفنى تلك القبيلة التي أصـابته، أو تفنـى قبيلته لما أخفر من جواره، وأنه ليلجأ إليهم المجرم المحدث مـن غـير معرفـة ولا قرابة فتكون أنفسهم دون نفسه وأموالهم دون ماله».

والوفـاء خلـق متأصـل بـالعرب، فجـاء الإسـلام ووجهـه الوجهـة السليمة، فغلظ على من آوى محدثًا مهـما كانـت منزلتـه وقرابتـه، قـال ﷺ: «لعن الله من آوى محدثاً».

ومن القصص الدالة على وفائهم: «أن الحارث بن عباد قاد قبائـل بكـر لقتال تغلب وقائدهم المهلهل الذي قتل ولد الحارث، وقال: (بؤ بشسع نعـل كليب) في حرب البسوس، فأسر الحارث مهلهلاً وهو لا يعرفه، فقـال دلنـي على مهلهل بن ربيعة وأخلي عنك، فقال له: عليك العهـد بـذلك إن دللتـك عليه، قال: نعم قال: فأنا هو، فجز ناصيته وتركه» وهذا وفـاء نـادر ورجولـة تستحق الإكبار. ومن وفائهم: أن الـنعمان بـن المنـذر خـاف عـلى نفسـه مـن كسرى لما منعه من تزويج ابنته فأودع أسلحته وحرمه إلى هـانئ بـن مسـعود الشيباني، ورحل إلى كسـرى فبطش به، ثم أرسل إلى هانئ يطلب منـه ودائـع النعمان، فأبى، فسير إليه كسرـى جيشًـا لقتالـه فجمـع هـانئ قومـه آل بكـر وخطب فيهم فقال: «يا معشر بكر، هالك معذور، خـير مـن نـاج فـرور، إن الحذر لا ينجي من قدر، وإن الصـبر مـن أسـباب الظفـر، المنيـة ولا الدنيـة، استقبال الموت خـير مـن اسـتدباره، الطعـن في ثغـر النحـور، أكـرم منـه في الأعجاز والظهور، يا آل بكر قاتلوا فما للمنايا من بد»، واستطاع بنو بكـر أن يهزموا الفرس في موقعة ذي قـار، بسـبب هـذا الرجـل الـذي احتقـر حيـاة الصغار والمهانة، ولم يبال بالموت في سبيل الوفاء بالعهود.

٦. الصبر على المكاره وقوة الاحتمال، والرضا باليسير:

كانوا يقومون من الأكل ويقولون: البطنة تذهب الفطنة، ويعيبون الرجل الأكول الجشع، **قال شاعرهم:**

إذا مدت الأيدي إلى الزاد لم أكن بأعجلهم إذا أجشع القوم أعجل

وكانت لهم قدرة عجيبة على تحمل المكاره والصبر في الشدائد، وربما اكتسبوا ذلك من طبيعة بلادهم الصحراوية الجافة، قليلة الزرع والماء، فألفوا اقتحام الجبال الوعرة، والسير في حر الظهيرة، ولم يتأثروا بالحر ولا بالبرد،ولا وعورة الطريق، ولا بعد المسافة، ولا الجوع، ولا الظمأ، ولما دخلوا الإسلام ضربوا أمثلة رائعة في الصبر، والتحمل وكانوا يرضون باليسير، فكان الواحد منهم يسير الأيام مكتفيا بتمرات يقيم بها صلبه، وقطرات من ماء يرطب بها كبده.

٧. قوة البدن وعظمة النفس:

واشتهروا بقوة أجسادهم مع عظمة النفس وقوة الروح، وإذا اجتمعت البطولة النفسية إلى البطولة الجسمانية صنعتا العجائب، وهذا ما حدث بعد دخولهم في الإسلام. كما كانوا ينازلون أقرانهم وخصومهم، حتى إذا تمكنوا منهم عفوا عنهم وتركوهم، يأبون أن يجهزوا على الجرحى، وكانوا يرعون حقوق الجيرة، ولا سيما رعاية النساء والمحافظة على العرض قال شاعرهم:

وأغض طرفي إن بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها

وكانوا إذا استجار أحد الناس بهم أجاروه، وربما ضحوا بالنفس والولد والمال في سبيل ذلك.

كانت هذه الفضائل والأخلاق الحميدة رصيداً ضخماً في نفوس العرب، فجاء الإسلام فنماها وقواها، ووجهها وجهة الخير والحق، فلا عجب إذا كانوا انطلقوا من الصحاري كما تنطلق الملائكة الأطهار، فتحوا الأرض، وملئوها إيمانا بعد أن ملئت كفرا، وعدلا بعد أن ملئت جوراً، وفضائل بعد أن عمتها الرذائل، وخيرا بعد أن طفحت شراً.

هذه بعض أخلاق المجتمع الذي نشأ فيه الإنسان العربي فهو أفضل المجتمعات، لهذا اختير رسول الله ﷺ، واختير له هذا المجتمع العربي، وهذه البيئة النادرة، وهذا الوسط الرفيع مقارنة بالفرس والروم والهنود واليونان، فلم يختر من الفرس على سعة علومهم ومعارفهم ولا من الهنود على عمق فلسفاتهم، ولا من الرومان على تفننهم، ولا من اليونان على عبقرية شاعريتهم وخيالهم، وإنما اختير من هذه البيئة البكر لأن هؤلاء الأقوام وإن كانوا على ما هم عليه وما هم فيه من علوم ومعارف، إلا أنهم لم يصلوا إلى ما وصل إليه العرب من سلامة الفطرة، وحرية الضمير، وسمو الروح.

الفصل الخامس

ديانات العرب قبل الاسلام وعلومهم

اما دياناتهم فكانت متباينة مختلفة فصنف منهم انكروا الخالق والبعث وقالوا بالطبع المحيي والدهر المفني وصنف اعترفوا بالخالق وانكروا البعث وصنف عبدوا أصنام قوم نوح أما انها هي بعينها واما انها ليست بأسمائها فكان لكلب ود ولهذيلسواع ومدلج ولقسم من اليمن يغوث ولذي كلاع نسر ولهمذان يعوق ولثقيف اللات ولقريششش وبني كنانة العزى وللاوس والخزرج مناة وكان هبل على ظهر الكعبة وهي أعظم اصنامهم واساف ونايلة على الصفا والمروة وكان منهم من يميل إلى الصابئة ويعتقد في أنواء المنازل العتقاد المنجمين في الكواكب السبعة السيارة ويعتقدون انها فعالة بأنفسها ويوقولن مطرنا بنوء الكواكب ومنهم من يعبد الملائكة ومنهم من يعبد الجن وكان لهم أحكام يدينون بها جاءت الشريعة الاسلامية بابقاء بعضها وابطال بعض فكانوا يحجون البيت ويعتمرون ويحرمون ويطوفون ويسعون ويقفون المواقف ويرمون الجمار ويغتسلون من الجنابة ويديمون المضمضة والاستنشاق وفرق الرأس والسواك والاستنجاء وتقليم الاظفار ونتف الابط ولا ينكحون الامهات ولا البنات فجاء الاسلام بابقاء ذلك على وجه مخصوص وكانوا يعيبون المتزوج بأمرأة أبيه ويسمونه الضيزن ويقطعون يد السارق اليمنى وكانوا يجمعون بين الاختين فجاءت الشريعة بمنع ذلك وكانوا يعدون الظهار طلاقا وتعتد المرأة عن الوفاة بحول وكانوا

اذا لبس عليهم أمر ردوه إلى كهنتهم وهم الذين لهم ابتاع من الجن يخدمونهم وكانوا يعولون على عيافة الطير وزجره في حركاتهم ومقاصدهم وهو أن يعتبر عند قصده بما يراه من الطير تارة باسمه وتارة بطيرأنه يميناً أو شمالاً وتارة بصوته ومقدار ما يصوت وتارة مسقطه الذي يسقط فيه وجاءت الشريعة بابطال ذلك.

أما علومهم: فمنها علم الأنساب والعلم بأنواء الكواكب والترايخ وتعبير الرؤيا وكان عندهم علم القيافة وأكثر ما كان في بني مدلج وقد تقدمت الاشارة اليه في حرف الميم وكان لهم معرفة بقص أثر الماشي في الرمل حتى يعلموا إلى أين ذهب وهو ضرب من القيافة إلى غير ذلك من العلوم التي درس أكثرها.

الواقعة بين قبائلهم وما ينجر إلى ذلك ومن لطف ما يحكى في ذلك ما حكاه ابن الكلبي قال: قال كسرى للنعمان ابن المنذر هل في العرب قبيلة تشرف على قبيلة قال نعم: قال فبأي شيء قال من كانت له ثلاثة آباء متوالية رؤساء ثم اتصل ذلك بكمال الرابع فالبيت من قبيلته فيه وتنسب اليه قال: فاطلب ذلك فطلبه فلم يصبه الا في آل حذيفة بن بدر وآل حاجب بن زرارة وآل الاشعث بن قيس بن كندة فجمع الجميع ومن معهم من عشائرهم واقعد لهم الحكام والعدول.

وقال: ليتكلم كل رجل منكم بمآثر قومه وليصدق فكان حذيفة بن بدر الفزاري أول متكلم وكان ألسن القوم فقال: قد علمت العرب ان فينا الشرف الأقدم والعز الاعظم ومآثر الصنيع الأكرم فقال من حوله: ولم ذلك

يا أخا فزارة فقال: ألسنا الدعائم التي لا ترام والعز الذي لا يضام قيل صدقت ثم قال شاعرهم: فزارة بيت العز والعـز فـيهم فـزارة قـيسٍ حسـب قيسٍ فضالها لها العزة القعساء والحسب الذي بنـاه لقـيسٍ في القـديم رجالهـا فهيهات قد أعيا القرون التي مضت مآثر قيسٍ مجدها وفعالهـا فـإن يصـلحوا يصلح لذاك جميعها وإن يفسدوا يفسد من الناس حالها ثم قـام الاشـعث بـن قيس الكندي فقال: قد علمت العرب أنـا نقاتـل عديـدها الأكثـر وزحفهـا الاكبر وانا لغياث الكربات ومعدن المركمات قالوا: ولم يا أخا كندة.

قال لأنا ورثنا ملك كندة فاسـتظللنا بأفيائـه وتقلـدنا منكبـه الأعظـم وتوسطنا بحبوحه الأكبر ثم قام شـاعرهم فقـال: إذا قسـت أبيـات الرجـال ببيتنا وجدت لنا فضلا على من يفاخر فمن قال كلا أو أتانا بخطةٍ ينافرنا فيها فنحن نخاطر تعالوا قفوا كي يعلم الناس أينا له الفضل فيما أورثته الأكابر ثم قال بسطام الشيباني فقال: قد علمت العـرب انـا بنـاة بيتهـا الـذي لا يـزول ومغرس عزها الذي لا يحول قالوا ولم يا أخا شيبان.

قال: لأنا ادركهـم للثـأر وأضربهـم للملـك الجبـار وأقـولهم للحكـم وألدهم للخصم ثم قام شاعرهم فقال: لعمري بسطام أحـق بفضـيلها وأول بيت العز عز القبائل فسائل أبيت اللعن عن عز قومها إذا جد يوم الفخر كـل مناقل ألسنا أعز الناس قومًا ونصرةً وأضربهم للكبش بين القبائل وقـائع عـز كلها من ربيعةٍ تذل لها عزًا رقاب المحافل وإنا ملوك النـاس في كـل بلـدةٍ إذا نزلت بالناس إحدى النوازل ثم قام حاجـب بـن زرارة التميمـي فقـال: قـد علمت العرب انا فرع دعامتها وقادة زحفها قالوا ولم ذلك يا أخا تميم.

قال: لأنا اكثر النـاس عديـدا وانجـبهم طارفـا وتليـدا وانـا اعطـاهم للجزيل واحملهم للثقيل ثم قام شاعرهم فقال: لقد علمت أبناء خنـدف أننـا لنا العز قدمًا في الخطوب الأوائل وإنا كرام أهل مجدٍ وثروةٍ وعزٍ قـديمٍ لـيس بالمتضائل فكم فيهم من سيدٍ وابن سيدٍ أعز نجيب ذي فعـال ونائـل فسـائل أبيت اللعن عنا فإننا دعائم هذا الناس عند الجلائل ثم قام قـيس بـن عاصـم السعدي فقال: لقد علم هؤلاء أنا ارفعهـم في المكرمـات دعـائم وأثبـتهم في النائبات مقاوم قالوا ولم ذاك يا أخا بني سعد.

قال: لأنا ادركهم للثأر وأمنعهم للجار واننا لا نتكل اذا حملنا ولا نرام إذا حللنا ثم قام شاعرهم فقال: لقد علمت قيس وخنـدف أننـا وجـل تمـيم والجميع الذي ترى بأنا عماد في البرود وأننا لنـا الشرـف الضـخم المركـب في الندى أنا ليوث البأس في كل مأزق إذا جزلت بيض الجماجم والكلى فهيهات قد أعمى الجميع فعالهم وقاموا ليوم الفخر مسعاه من سعى فقـال كسـرى: حينئذ ليس منهم إلا سيد يصلح لموضعه واسنى حبـاهم واعظـم صـلاتهم وأكرم مآبهم.

مـثلما هـو الحـال عنـد جميـع شـعوب الأرض وأممهـا، كـان للعـرب معتقداتهم وأفكـارهم وتفسـيراتهم لحيـاتهم الماديـة أو الماورائيـة. وقـد دأب الباحثون على تتبع بذور هذه الأفكار ونشأتها وتطورها، غـير أنهـم واجهـوا صعوبات جعلت الكثير منهم يتعثر ويطلق أفكاراً في غير مكانها.

من هذه الصعوبات ما اصطلح على تسميته بالانقطاع التـاريخي، إذ أن على كل باحث جاد أن يعود إلى نقطة ابتداء ينطلق منها لاسـتجلاء الأصـول الأولية التاريخية للأشكال التي عبر عنها سـكان شـبه الجزيـرة العربيـة عـن تصوراتهم لظاهرات الكون والطبيعة وعـن علاقـاتهم الاجتماعيـة وأوضـاع حياتهم، ولكن كيف الوصول إلى نقطة البداية هذه؟

معظم المؤرخين العرب، إن لم نقل كلهم، حـددوا نقطـة انطلاقهـم في البحث بظهور الدعوة الإسلامية، حيث يقال: الحياة العربيـة قبـل الإسـلام أو بعده، وقد اصطلح على تسمية ما قبل الإسـلام بالعصــر الجـاهلي، وهـي تسمية إسلامية استندت إلى الآية القرآنية: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ...﴾ [سورة الفتح: الآية ٢٦]

وكلمة **الجاهلية** كما تدل الآيـة تشـير إلى مضـمون أخلاقـي سـلوكي، وليس المقصود بها معنى الجهـل المضـاد للمعرفـة. وقـد قسـم الإسـلاميون الجاهلية إلى قسمين: جاهلية أولى قالوا إنها التي ولد فيها ابـراهيم، وجاهليـة ثانية قالوا إنها القريبة مـن الإسـلام، وولـد فيهـا النبـي محمـد، كـما جـاء في (المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام) للدكتور جـواد عـلي. ويكـاد يكـون متفقاً عليه بين المؤرخين والباحثين أن حدود المرحلة الأخيرة لا تبعد في زمن الجاهلية إلى ما قبل القرنين الخامس والسادس للميلاد، وأن مختلف المؤلفات التاريخية والدراسات الاستشراقية التي عنيت بتاريخ شبه الجزيرة العربيـة في الفترة المتصلة بظهور الإسلام إنما تتكلم عن هذه الفترة ضمن هذين القرنين.

وقد رأى الدارسون أن الشعر العربي يعد المصدر الأوثق لدراسة تلك الفترة، ولكن لم يعرف مؤرخو الأدب العربي منه ما هو أقدم من مئة وخمسين سنة قبل الإسلام، وقد لاحظوا أن هذا الشعر بما يحمل من صور ومواقف وعلاقات ونظرات إلى العالم لا ينطبق إلا على ما نعرفه عن الحياة العربية القبلية في الفترة الأخيرة من العصر الجاهلي. ولا نجد فيه انعكاسات عما كشفته الوثائق الآثارية وكتابات المؤرخين الإغريق والرومان الكلاسيكيين من أشكال الحياة الجاهلية القديمة. وإذا كان من الصحيح أن الشكل الفني للشعر الجاهلي هو تراكم طويل من الخبرات والتجارب والتعامل مع اللغة وتطويعها، وهو ليس نتاج فترة قصيرة، فإن هذا الاستنتاج يقود إلى أن الحياة الاجتماعية والفكرية عموماً تعود إلى فترة أعمق وأبعد في سجل التاريخ. ومن المؤكد أن أقساماً من الجزيرة العربية قد عرفت مستويات متقدمة من التطور في الزراعة والعمران وشكلاً من أشكال الدولة.

ولا ريب أن الفارق بين المرحلتين المشار إليهما يكشف أن تاريخ العرب قبل الإسلام قد تعرض لحالة من الانقطاع التاريخي في حركة تطوره، وقد يكون هذا الانقطاع حدث عند منعطفات التعاقب بين الدول التي عرفها التاريخ القديم، مثل المعينين والسبئيين والحميريين. إلخ (كما يشير الدكتور حسين مروة)، وربما كان ناجماً عن أثار الصراع بين هذه الدول مع دول خارجية أخرى، أو ربما عن حدث جلل، أو صراعات داخلية، حيث يفيدنا المؤرخون بأن اختلالاً قد حصل في سيطرة الحميريين على الطرق التجارية الكبرى، واختلالاً في رعايتهم سد مأرب مما أدى إلى انهدام السد،

وخراب الأراضي الزراعية، وقطع حركة التطور في هذه المنطقة بهجرة أهلها إلى مناطق أخرى على أطراف الجزيرة، إذ هاجر الأزد (الغساسنة) إلى نواحي الشام، وهاجر التنوخيون إلى البحرين، وهاجر المناذرة إلى العراق بين الأنبار والحيرة حيث عرفوا نوعاً من الاستقرار، وهاجرت أيضاً بعض القبائل لتنتشر متنقلة في بوادي وواحات الجزيرة، وغدت أخبار تلك الفترة التي تلت خراب السد ضبابية يكتنفها الغموض والضياع.

غير أن هناك سبباً أخر له وجاهته كما يرى بعض الباحثين، وهو (طبيعة التفكير العربي)، فبعض الإخباريين العرب يصرون على طرح فكرة أن "علم العرب في جاهليتهم"، ولا حاجة بهم إلى الفلسفة، وطباعهم غير مهيأة للعناية بهذا العلم.

ومن المآخذ الإضافية على طبيعة التفكير العربي – كما سبق أن أشرنا – هو اجتهاد الكثير من مؤرخي الإسلام قديماً وحديثاُ في أن يجعلوا من الإسلام مبتدأً لتاريخ جديد كلياً في حياة العرب، منقطعاً انقطاعاً تاماً عن تاريخ حياتهم قبل الإسلام، أي أن كل ما جاء به الإسلام من تعاليم وعقائد ومفاهيم وشرائع لا صلة له بشيء من ماضي العرب السابق للإسلام؛ ثم اجتهدوا في أن يجعلوا تاريخ الفكر العربي مبتدئاً بتاريخ ظهور الإسلام، بحيث يبدو وكأن العرب لم يكن لهم قبل ذلك ما يستحق أن يذكر من تراث فكري أو ثقافي، وكأن الإسلام قد خلق العرب من نقطة الصفر، وهذه النظرة تخالف العلم والواقع والإسلام نفسه.

إذن، يتبين مما سبق أننا لم نستطع القبض على اللحظة التاريخية التي شكلت البذرة الأولى للتطور الفكري والحضاري عند العرب، ولكننا نستطيع، بشكل أو بآخر، أن نقرر أن العرب لم يكونوا معزولين تماماً في جزيرتهم، بل تفاعلوا مع حضارات الشعوب الأخرى القريبة والبعيدة، من مصريين وفرس وروم ويونان، خاصة أن مدنهم الكبرى كانت على طريق الحرير وعرفت الازدهار والتفاعل من تأثر وتأثير خلال مسيرتها الحضارية. وتأسيساً على ذلك، **سنعرض فيما يلي أهم الظواهر الدينية التي كانت بارزة في المجتمع الجاهلي قبيل ظهور الإسلام:**

✓ **الوثنية:**

إذا كان الباحثون يفتقرون فيما مضى- إلى الوثائق المعترف بها علمياً لتحديد الجذور التاريخية بدقة، فإن من المستطاع الرجوع الآن إلى المرحلة التاريخية التي ظهرت فيها دولة سبأ في اليمن، وهي المرحلة التي ترقى إلى القرن الثامن قبل الميلاد. فقد كشفت الحفريات الحديثة بقايا مسرح لمعبد كبير ومدرج فخم لهذا المسرح، وأظهر الكشف بناء ضخماً استطاع علماء الآثار معرفة إن اسمه "هيكل الشمس" وأنه من منشآت دولة السبئيين، وهذا يعني أن سكان اليمن في عهد هذه الدولة كانوا يعبدون الشمس. وتدل النقوش المكتشفة، التي ترجع إلى ماقبل المسيحية والإسلام، على أن بلاد العرب الجنوبية كانت تسودها ديانة واحدة عبرت عن نفسها بأشكال محلية متنوعة. ورغم القلة النسبية لهذه النقوش إلا أنها تخولنا رسم الخطوط العامة للديانة العربية الجنوبية؛ ولقد كان بالإمكان العثور على نقوش تزيد أضعافاً عما عثر

عليه حتى الآن لولا الحملة الشاملة التي شنها الإسلام على كل مظاهر الوثنية، سعياً وراء طمس الماضي الجاهلي، وتوطيداً لمعتقد التوحيد الجديد.

وتحمل هذه النقوش أسماء الكثير من الآلهة. وبينت الدراسات المتعاقبة أنها ليست أسماء وإنما هي صفات، وكانت النتيجة هي أن شعوب بلاد العرب الجنوبية تدين بمجمع آلهة واحد، ممثلاً بالاسم "كهل"، وكهل يعني صفة أو لقباً لإله معين هو ''ود'' (إله القمر). ومن الصفات والألقاب ما يسبق بـ ''ذو'' أو ''ذات''، وتستخدم كما في العربية الحالية عندما نقول ''ذو عقل''. وأسماء الآلهة مثل ''ذو خلص'' و''ذو شري'' و''ذو قبض''.. الخ، مستخدمة كألقاب، وليست أسماء بذاتها. وبعد دراسة مدققة لكل هذه الأسماء والألقاب والصفات، استقر الباحثون على أن ديانة عرب الجنوب هي ديانة نجمية يتحكم بها ثلاثة آلهة، هي الشمس والقمر والزهرة، وأن معظم الأسماء الواردة في النقوش هي ألقاب وصفات لهذه الأجرام السماوية التي تشكل الثالوث القومي لعرب الجنوب بجميع مناطقهم وممالكهم، وعبر المدى الزمني الذي عاشت فيه ثقافتهم؛ فمجمع الأسماء الإلهية المؤنثة، وتلك المركبة من ''ذات'' مضافة إلى اسم أخر، تدل على الإلهة ''شمس'' التي تدعى أحياناً باللات؛ أما الأسماء المذكرة، وتلك المركبة من ''ذو'' مضافاً إلى اسم أخر فتتوزع بين إله القمر ''ود'' وإله الزهرة المدعو''عثتر''، أو ''عشتر''. وكوكب الزهرة هنا مذكر.. إنها نجمة المساء التي تسير في أعقاب الشمس عند الغروب، وتسير أمامها عند الشروق، وهي أكثر النجوم بريقاً ولمعاناً في السماء.

هذه الأجرام الثلاثة ليست كيانات لا حياة فيها، بل هـي شخصـيات روحانيـة حقيقيـة، وتشـكل عائلـة واحـدة يتخـذ فيهـا القمـر دور الـزوج، والشمس دور الزوجة، والزهرة دور الولد.إنهم الأب وإلام والابن؛ فالقمر الذي يجري مسرعاً يحاول اللحاق بالشمس التي تتهادى ببطء، وهما يجتمعان مرة واحدة في الشهر، عندما يظهـران معـاً في وضـح النهـار ليـدخلا مخـدع الزوجية.

هذا بعض معتقدات عرب الجنوب في تلك الحقبة من التاريخ،أمـا إذا تركت العقل يتتبع خطـا المهـاجرين الـذين اسـتقروا في مـدنٍ، وكانـت لهـم إسهاماتهم المحسوبة في تاريخ الإنسانية، فإننا نتوقـف عنـد التـدمريين. فقـد انعكس موقع تدمر التجاري في منطقـة الوسـط بـين الأناضـول في الشـمال، وجزيرة العرب في الجنوب، وبلاد الرافدين في الغرب، على ديانـة التـدمريين التي حملت طابعاً توفيقياً، فقد حفل البانثيون (مجمـع الآلهـة) التـدمري بآلهـة سوريين ورافديين وعرب، وعلى الرغم من الآلهة العربية كانت هـي الأقـدم إلا أنها أفسحت فيما بعد مكان الصدارة لآلهة رافدية وسورية.

تربع على قمة مجمع الآلهة التدمرية الإله "بـل"، وهـو إلـه مـن أصـل كنعاني أموري، وربما كان الاسم منحوتاً من اسـم الإلـه "بعـل"، إلـه المطـر والعاصفة عند الكنعانيين.والإله "بل" يشكل ثالوثاً مهماً مع إلهين آخرين هما يرحبول وعجلبول، حيث يمثل يرحبول الشـمس وعجلبـول القمـر. ومـن الآلهة السورية الأخرى التي استعارتها تدمر الإله "بعل شمين" الذي يعني

اسمه سيد السماوات وإله العاصفة والمطر، ويوصف بأنه سيد العالم، ومن رموزه حزمة السنابل رمزاً للخصب. وعبد التدمريون أيضاً "بعل حمون" من الآلهة السورية، ويبدو أنه كان زوجاً للإلهة العربية مناة لأن التدمريين كرسوا معبداً خاصاً لهذين الإلهين.

أما "اللات" فكانت على رأس قائمة الآلهة العربية التي عُبدت في تدمر، ويمثلها عمل نحتي عُثر عليه في معبدها على هيئة امرأة عربية محاربة، وأمامها أسد ضخم يعد من روائع الأعمال الفنية التدمرية، ومن رموزها سعفة النخيل والنجم المثمن، ولا أدل على شعبيتها من شيوع أسماء العلم المركبة التي تحتوي على اسم اللات في شطرها الثاني، وذلك مثل "تيم اللات" و"عبد اللات" و"هب اللات."

وهنالك إله لا يذكر اسمه، بل أشارت إليه النقوش، بأنه "الذي بورك اسمه إلى الأبد"، ووصف بأنه "الإله الواحد"؛ وهذا الإله المجهول غلبت شعبيته على شعبية الآلهة الأخرى خلال الفترة الأخيرة من حياة تدمر، وربما كان هو "الله" الذي شاعت عبادته لاحقاً خصوصاً عند عرب الشمال.

✓ الأنباط:

وهم قبائل قدمت من شبه الجزيرة العربية، واستقرت في المناطق القديمة لمملكة آدوم، وأنشأت فيها بضع مدن، من بينها عاصمتهم البتراء. وقد استغل الأنباط موقع بلادهم على شرايين التجارة بين العربية الجنوبية وبلاد الشام وبين الخليج العربي والعراق والبحر المتوسط.

عبد الأنباط عدداً من الآلهة التي وفدت معهم من موطنهم الأصلي، وعلى رأسها "اللات" و"ذو الشرى"، وقد عبدت كآلهة للخصب والحياة اليافعة، وكأم للآلهة، ولم تصور في عصور ما قبل الميلاد في هيئة بشرية بل عبدت في صخرة مربعة ترمز إليها، ومن هنا جاء لقبها "كعبو" المستمد من شكل صخرتها.

✓ الصفويون:

هم قبيلة عربية استوطنت منذ القرن الرابع قبل الميلاد منطقة الصفاة (إقليم بركاني يقع إلى الجنوب الشرقي من مدينة دمشق)، وتركت لنا عدداً من النقوش الكتابية القصيرة محفورة على الصخور بكتابة أبجدية يمنية. وأهم الآلهة التي وردت في نقوشهم هي أيضاً "اللات" الذي ورد في ٦٠ نقشاً، كما عبدوا "الله"، وكتبوا اسمه بصيغة الاة مسبوقة بأل التعريف، وهي الهاء، ليصبح اللفظ ها إلاه، أو ها الله، واسم الله يرد كثيراً في أسماء الأعلام المركبة، مثل جزاء الله وعطية الله، وأغلب الظن أن إله الصفويين الأعلى كان بمثابة الإله المجهول لدى التدمريين. ورغم أن النقوش تذكر لنا إقامة معابد لـ "اللات" إلا أننا لم نعثر على نقش يذكر أمكنة عبادة الله، الأمر الذي يدل على أنهم كانوا يتوجهون إليه في كل مكان دون حاجة إلى أمكنة عبادة خاصة وكهنوت منظم، وذلك على عكس "اللات"، حيث نقرأ في نص عثر عليه في منطقة حوران مكتوباً بالنبطية أن شخصاً يدعى مليكو بن قصيو كان كاهناً للات في حبران، ونقرأ في نص أخر عن بناء معبد أخر في صلخد من قبل

روحو بن مليكو وأسرته. وهذان النقشان يرجعان إلى حوالي عـام ٥٠ بعد الميلاد، ويدلان على وجـود عبـادة منظمـة لـلات ووجـود كهـان وأسر كهنوتية.

وإضافة على ذلك، عبد الصفويون عـدداً مـن الآلهـة الثانويـة، أهمهـا "رضا" الذي تمثل كوكب الزهرة، و"جدعويذ" سلف أو إلـه قبيلـة عويـذ، و"شمس" وهي آلهة الشمس و"شيع القـوم" حـامي القوافـل والمسـافرين، و"إتاع" الذي لانعرف وظائفه على وجه الدقة.

✓ عرب الشمال:

تكاد تنعدم الوثائق الكتابية والفنية فـيما يخـص ديانـة عـرب الشـمال، والمصادر المتوفرة هي مصادر متأخرة على ظهور الإسـلام بنحـو قـرنين عـلى الأقل، وأهمها كتاب (الأصنام) لابـن الكلبـي المتـوفى سـنة ٢٠٤ هــ، وهـو الكتاب الوحيـد الـذي وقـف موضـوعه عـلى آلهـة وعبـادات العـرب قبـل الإسلام، ويليه كتاب (أخبار مكة) للاذرقي المتـوفى سـنة ٢١٩هــ، هـذا إلى جانب عدد من الكتب الموسوعية التي أوردت شذرات من هنا وهناك حول الموضوع، مثل كتاب (الملـل والنحـل) للشهرسـتاني و(الكامـل في التـاريخ) لابن الأثير و(معجم البلدان) لياقوت الحموي وغيرها.

يقول ابن الكلبي في كتاب (الأصنام): "وكانت للعرب حجارة منصـوبة يطوفون بها ويذبحون عنـدها يسـمونها الأنصـاب، ويسـمون الطـواف بهـا الدوار). وهذا الوصف لعبادة العرب قبل الإسلام، والتي تدور حول حجر منصوب يرمز للإله المعبود، يأتي في انسجام مع ما نعرفه عن أصول عبادات

الشعوب السامية العربية عموماً، وعن نفورهم من تصوير آلهتهم في هيئة مشخصة على الرغم من أن هذه المسألة لم تكن عندهم موضع تأمل لاهوتي، فالأصل في رؤية الشعوب السامية لألهتها هو التنزيه، أما متى تحول العرب إلى صناعة الأصنام التي تمثل آلهتهم في هيئة بشرية، فإن مؤلف كتاب (الأصنام) يروي لنا إن سادناً للكعبة، اسمه عمرو بن لحي، كان أول من أدخل عبادة الأصنام إلى جزيرة العرب، وإن أولى الأصنام جرى استيرادها من بلاد الشام.

يقول ابن الكلبي: ''مرض عمرو بن لحي مرضاً شديداً، فقيل له أن بالبلقاء من الشام حمة إذا أتيتها برأت، فأتاها، فاستحم بها فبرأ. ووجد أهلها يعبدون الأصنام، فقال: ما هذه؟ فقالوا: نستسقي بها المطر، ونستنصر على العدو، فسألهم أن يعطوه إياها، ففعلوا. فقدم إلى مكة، ونصبها حول الكعبة''. وقد لا تكون القصة صحيحة بتفاصيلها، ولكنها تدل على زمن تبني العرب للأصنام بتأثير كاهن كثير الإطلاع والأسفار. ولكن تبني العرب عبادة الأوثان لم يجعلهم يتخلون عن عبادة النصب الحجرية، لأن كلا العبادتين قد تعايشتا جنباً إلى جنب حتى ظهور الإسلام.

كان الحجر أو الصنم ينصب في صدر محجة تدعى بيتاً، أو كعبة، وكان للعرب إلى جانب كعبة مكة محجات كثيرة منها ''بيت اللات''، و''كعبة نجران''، و''كعبة شداد الأيادي''، و''كعبة غطفان''، و''بيت العزى''، و''بيت مناة''، و''بيت رضا''. وهذه البيوت أو الكعبات تقوم مقام المعابد التي لم يعرفها العرب قط، وهي تتألف من بيت مربع أو مستطيل الشكل بلا

سقف في غالب الأحيان، يوضع فيه النصب الحجري الـذي يرمـز إلى الإله المعبود. وقد تراق دماء القرابين على هذه النصب، أو تـراق عـلى مـذبح منصوب أمامه؛ وقد ينوب الصنم مناب الحجر، أو يجتمعان معاً كما هو الحال في كعبة مكة التي ضمت في حيز مقدس واحد تمثالاً للإله هبل أعظم أصـنام الكعبة إضافة إلى الحجر الأسود.

يقول فراس السواح في موسوعة تاريخ الأديان: "إن كتاب (الأصنام) لابن الكلبي، وبقية الأخبار الموزعة في بطـون المصـادر القديمـة، لا تفيـد في رسم صورة واضحة المعالم لمجمع الآلهـة العـربي، ولا للتراتبيـة داخـل هـذا المجمع، ولكن يمكن الافتراض بأن قبائل عـرب الشـمال عـلى تعـدد آلهتهـا كانت تعبد إلهـاً مشـتركاً واحـداً هـو "الله" العـلي الخفـي خـالق السـموات والأرض، أما بقية المعبودات فلم تكن سوى وسائط تقـربهم إليـه عـلى حـد قول المشـركين في سـورة الزمـر: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [سورة الزُّمَر: الآية ٣]

✓ أشهر أصنام العرب:

اللات: وهي آلهة العـرب الكـبرى، ورأس الثـالوث الإلهـي المؤنـث الذي يتألف من اللات والعزى ومناة، وهي صخرة بيضاء مربعـة مكانهـا في الطائف، وسدنتها من ثقيف، وقد بنوا لها بيتاً. وقد انتقلت عبادتها من ثقيف إلى قريش وبقية العرب، وأمر الرسول أبا سفيان والمغـيرة بـن شـعبة بهـدمها بعد فتح مكة. واسم اللات ليس عربياً، إذ لم يجد له الأُقدمون اشتقاقاً عربياً،

فهو من أصل كنعاني قديم، وصيغته الأصلية "إيله" أو "ايلات"، وهي صيغة التأنيث من "أيل". ويقول الطبري إن اسم "اللات" هو مؤنث لفظ الجلالة (الله).أما الثالوث الإلهي فرموزه الكوكبية هي اللات (الشمس)، والعزى (نجمة الصبح)، ومناة (نجمة المساء).

العزى: وهي من أعظم أصنام قريش حيث كانت تزار ويتقربون إليها بالذبح والهدايا، ويقال إن صنمها على شكل حجر غير منحوت، أو إنها عبدت في ثلاث شجرات من أشجار السمار. ويروي شاعر سوري سرياني، يدعى إسحاق الأنطاكي، أن المنذر، ملك عرب الحيرة، قد ضحى لها بابن الحارث ملك غسان، وقد وقع بيده أسيراً، كما ضحى لها بأربعمائة راهبة أسرى كن متنسكات في بعض أديرة العراق، وكانت قريش تحملها معها في حروبها تستنصر بها، وأمر الرسول خالد بن الوليد بهدمها بعد فتح مكة.

مناة: وهي أقدم أصنام العرب وتسموا بها مثل عبد مناة – زيد مناة... وكان صنمها منصوباً بين مكة والمدينة يعظمونه ويذبحون ويهدون له. أعظمه بشكل أشد الأوس والخزرج يقول الطبري في تفسيره للاسم بأن مناة هي صخرة تراق عليها الدماء، أمر الرسول علياً بن أبي طالب بهدم الصنم بعد فتح مكة. واللات والعزى ومناة كانت في عقيدة الجاهليين بنات الله. وورد ذكرها في القرآن: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾ [سورة النجم: الآية ٢٢]

هبل: وهو أعظم أصنام قريش داخل الكعبة، صنع من عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى، وقد أدركته قريش كذلك فصنعت له يداً

من الذهب الخالص.ويقال أن عمرو بن لحي استجلبه من مـوآب، وأمر الناس بعبادته. وقد اعتقد العرب أن لهبل علاقة بمعرفة الغيب، فإذا أراد أهل قريش الإقدام على أمر ما فهم يستفتونه الرأي بضرب الأقداح، وتقول السيرة النبوية أن عبد المطلب، جد النبي، من مد ضرب على ابنه عبد الله حينما أراد ذبحه وفاءً بنذر.

واسم هبل لا اشتقاق له في العربية، لذلك فإن جورجي زيدان يصنفه مع الآلهة الكنعانية، ومأخوذ عن لغتها "بعل" مع التعديل وفق اللهجة المؤابية "هـ بعل"، والعرب أسقطوا حرف العين ليصبح "هبل".

أساف ونائلة: وهما يافعان عاشقان قدما من جرهم إلى مكة حجاجاً، وفي غفلة من الناس دخلوا البيت وفسقا فيه فمسخا حجرين ووضعا عند الكعبة ليتعظ الناس بهما، ولما طال مكثهما وجاءت عبادة الأصنام عبدا معها.

الصفا والمروة: وهما اسمان لرجل وامرأة أثما داخل الكعبة فمسخهما الله حجرين، فوضعوا كلاً منهما في المكان المسمى باسمه، وجاء عمرو بن لحي فوضع على رأس كل منهما صنماً. ويستشف من هذه الرواية أن عبادة الأحجار سابقة لعبادة الأصنام، وكلمة الصفا في القواميس العربية مشتقة من الصفوان، وتعني الحجر الأبيض الأملس، بينما المروة تعني الصخرة البيضاء.

ذو الخلصة، وكان – كما يقول ابن الكلبي – صخرة بيضاء كهيئة التاج بين مكة واليمن على مسيرة سبع ليال من مكة. وقد عبدته قبائل الأزد والسراة وبعض بطون هوازن، فكانوا يعظمونه ويستقسمون عنده بالأزلام،

ويوقعون عنده العهود، وكان بيت "ذي الخلصة" من أرفع بيوت العرب، فقد دعي بالكعبة اليمانية، وكعبة اليمامة، والكعبة الشامية؛ ولما فتح الرسول مكة، وجاء عام الوفود وقد أسلمت معظم قبائل العرب، وفد جرير بن عبد الله مسلماً، فقال الرسول لجرير: "ياجرير، ألا تكفيني ذا الخلصة، فقال: بلى، فوجهه إليه، وخرج إليه، فقتل من سدنته مائتين، وهدم بنيان ذي الخلصة، وأضرم النيران به".

ود: وهو من آلهة قوم نوح على ما ورد في القرآن، والذي استمرت عبادته لدى عرب الشمال وعرب الجنوب، وأخذه عوف بن عذرة بن قضاعة بن عمرو بن لحي وأقره بدومة الجندل، وسمى ابنه عبد ود، وجعل عوف ولده عامراً سادناً له، ولم تزل كهانته في بنيه حتى جاء الإسلام، فأرسل النبي خالد بن الوليد لهدمه، فاشتبك في قتال عنيف مع أبناء ود وأبناء عامر انتهى بمقتلهم/ وهدم الصنم الذي كان تمثالاً لرجل كأعظم ما يكون من الرجال.

قزح: وهو صنم زعم أنه كان بقرب مكة، وقد يكون له علاقة بالمزدلفة، وكان العرب يعتقدون أن له صلة بالرعد والعواصف، وربما كان لقوس قزح الذي يظهر بعد سقوط الأمطار وانقشاع الغيوم صلة بهذا الإله.

هذا بعض التعريف ببعض أصنام العرب قبل الإسلام وما أكثرها، فقد أورد كتاب (الأصنام) عدداً لايحصى من الأصنام العامة لعموم العرب، والمحلية للقبائل ومنها "ذات أنواط" و"مناف" و"سعد" و"ذو الكفين" و"ذو الرجل".. واللائحة تطول!

✓ المعتقدات الوافدة إلى بلاد العرب:

في الثلث الأول من القرن الرابع قبل الميلاد، بسط الإغريق بقيادة الاسكندر سلطانهم على الشرق وامتدت إمبراطوريتهم حتى الهند واستمرت قرابة ثلاثة قرون، وقد كان يتعذر على بضعة عشرات الألوف من اليونانيين أن يحكموا إمبراطورية واسعة تقطنها شعوب عديدة مختلفة في أوضاعها وثقافاتها ودياناتها، خصوصاً أن تجربتهم السياسية في الحكم لا تتعدى إدارة الدولة المدينة، إذ أصبح عليهم أن يديروا من موقع الغاصب المحتل ملايين من البشر يقطنون في بلدان واسعة تتباين في أوضاعها ولغاتها. وكان الاسكندر برغم حداثة سنه قد تشرب على يد أستاذه فيلسوف الإغريق الأكبر، أرسطو، بالروح العالية والنظر إلى مختلف الأمور، وتوصل إلى أنه لن يستطيع الاحتفاظ بإمبراطوريته الواسعة إلا بإحداث عملية صهر واسعة بين الإغريق وشعوب الإمبراطورية الجديدة. لم يتدخل الإغريق لفرض معتقداتهم على الشعوب وظل الناس يواصلون عباداتهم السابقة غير أن عملية من التمازج بين المعتقدات المختلفة كانت تجري بشكل بطيء حيث تمثلت مظاهره في تنشيط الحياة الفكرية والعقيدية. فقد تميز الفكر الإغريقي بإعطاء مكانة عالية للعقل ومرتبة سامية للفلسفة، بينما تميزت ثقافة الشرق باستخدام الرموز والميل إلى الخيال الشعري، وكان لهذا التمازج أكبر الأثر في ظهور الكثير من الأفكار والمعتقدات الغنوصية في هذه البلدان، ومنها ما تبلور وغدا إطاراً دينياً متكاملاً مثل الأسينيين أو الصابئة المندائية التي ما يزال لها أتباع حتى الآن في بلاد مابين النهرين.

وقد أدى هذا التسامح الديني إلى انتشار أفكار وفدت إلى المنطقة العربية من بلاد الهند والفرس من خلال المبشرين، وظهرت أفكار العقيدة الزرادشتية واستمرت أفكارها بشكل أو بأخر في معتقدات شعوب المنطقة لاحقاً، كما انتشرت أفكار ماني أيضاً. ويلاحظ بعض المؤرخين تأثراً بين هاتين الديانتين والإسلام، الذي استطاع أن يلغي هذه الأديان ويعلن سيطرته على "الهرطقات"، فهناك تشابه شديد في كثير من الأمور والعقائد التي تكاد أن تكون واحدة ومتطابقة مثل القيامة والبعث والحساب (الثواب والعقاب) والصراط، وأيضاً في الصلاة والصيام وغيرها الكثير من الأمور. فمثلاً فالرسول هو المبشر به من عيسى، وهذه المقولة كان قد رددها من قبل أتباع ماني. وزرداشت وماني قالا عن نفسيهما إنهما أخر الأنبياء فيقول زرادشت: "أيها الناس إنني رسول الله إليكم.. لهدايتكم بعثني الإله في آخر الزمان. أراد أن يختتم بي هذه الحياة الدنيا، فجئت إلى الحق هادياً، ولأزيل ماعلق بالدين من أوشاب. بشيراً منذراً بهذه النهاية المقتربة جئت.. "

وفي مجال التوحيد، دعا الرسول إلى التوحيد ونبذ باقي الآلهة المزيفة (لا إله إلا الله)، ودعا زرادشت إلى التوحيد ونبذ كل الآلهة الأخرى (لا إله سوى أهورا مزدا).

✓ الديانات التوحيدية في شبه الجزيرة:

- **اليهودية:**

بالرغم من كون الوثنية هي الشكل الديني الأكثر بروزاً في جزيرة العرب خلال القرن السادس، فإننا نجد لليهودية والمسيحية مكاناً بارزاً كذلك في بعض المناطق.

وتشير بعض الدراسات إلى أن اليهودية هي إحدى الديانات العربية، والتي نشأت أولاً في غرب الجزيرة العربية، وهناك النظرية التقليدية التي تفترض أن نشأة التوراة في فلسطين، ووصلت إلى الجزيرة العربية إما عبر الاحتكاك التجاري مع يهود العراق وبلاد الشام أو نتيجة فرار بعض اليهود أثناء حكم الرومان فذهب بعضهم ليستقر في الجزيرة العربية. انتشرت اليهودية في شبه الجزيرة في قبائل وبطون عربية كانت تعيش خارج مكة، ومنهم بنو النضير، وبنو قريظة، وبنو ثعلبة وغيرهم، فضلاً عن دخول بعض القبائل العربية في الديانة اليهودية، حيث تهود قوم من الأوس والخزرج لمجاورتهم يهود خيبر وقريظة، وهناك سبب آخر وهو اختلاط اليهود مع العرب، فاليهود عاشوا في الجزيرة العربية عيشة أهلها ولبسوا لباسهم وتصاهروا معهم فتزوج اليهود عربيات وتزوج العرب يهوديات. أما عن البقاع التي انتشرت فيها اليهودية فأشهرها اليمن عن طريق اتصال ملوك حمير بيهود يثرب، وتهود الكثير من قبائل اليمن ومن أشهرهم ذو نواس الذي اشتهر بحبه لليهودية واضطهاده لنصارى نجران. وقد اندمج يهود شبه الجزيرة واليمن في السكان العرب وتزاوجوا معهم، وأصبح طابعهم عربياً صرفاً، فانتظموا في قبائل وبطون وأفخاذ مثل العرب، ودخلوا في التحالفات القَبَلية بما يتضمنه ذلك من مسؤوليات قَبَلية مشتركة وصراعات شبه دائمة.

• **المسيحية:**

كان الحميريون في اليمن قد تحولوا إلى المسيحية بعد وصول حملات التبشير إليها، وكان امرؤ القيس، الذي لقب بملك العرب، نصرانياً. وكانت القبائل العربية التي أسست مدينة تدمر في سورية والبتراء في الأردن قد تنصرت أيضاً. ويعتقد أن نسبة المسيحية بين القبائل العربية حسب ماورد في كتاب (تاريخ العرب في جزيرة العرب) لمؤلفه روبرت هيلند كانت قد بلغت ٨٠ بالمائة.

كانت النصرانية في شبه الجزيرة العربية أحزاباً وفرقاً، ويمكن تحديد وذكر بعض منها: الأريوسية والباياجوسية والنسطورية واليعاقبة والمريميون، بالإضافة للأبيونية التي تهمنا أكثر من غيرها في مجال هذا البحث. والأبيونيون هم جماعة من أصل يهودي خرجت من أورشليم قبل هجوم تيطس القائد الروماني عليها، والذي دمر الهيكل سنة ٧٠م، وقد عرفوا وقتها باليهود المتنصرين.

جاءت هذه الفرقة كخليط بين اليهودية والمسيحية، وهي ترى في معتقداتها أن المسيح نبي عظيم، ولكنها لم تعترف بإلوهيته، بل تقول بأنه رجل كسائر الرجال، وتعتقد أن المسيح لم يصلب بل شبه لهم. وترتكز فروض أتباعها على الاغتسال الدائم بالماء للوضوء والتطهر وتحريم الذبائح ويشددون على أعمال البر والاهتمام باليتامى والعناية بالفقراء والمساكين. وهذه الفرقة كان لها صدى كبير في شبه الجزيرة، ويعتقد أن الرسول كان

متأثراً بها إلى حد ما، فقد كان مطلعاً على تعاليمها من خلال رجل مهم هو ورقة بن نوفل الذي كان واحداً من أعـلام مكـة وأشرافهـا؛ هـذا القـس الذي يرجع بنسبه إلى نسب الرسول في جد جده، وهو أيضـاً قريـب زوجتـه خديجة التي هي قريبة لأم الرسول ن قبيلة أسد التي تنحدر منها أمنة.

- **عبادة الرحمن:**

هي أيضاً عبادة التوحيد، وظهرت في جزيرة العـرب مـا بعـد المـيلاد، وتلفظ "رحمنن" أي الرحمن، وقد وردت في نص يهـودي ونصـوص عربيـة، وأهل مكة كانوا على علم بـالرحمن، ولاشـك مـن خـلال اتصـالهم بـاليمن، ولعلهـم اسـتخدموا الكلمـة في معنـى "الله". وذكـر علـماء اللغـة أن لفظـة "الرحمن" عبرانية الأصل، أما "الرحيم" فهي عربية، وذكروا أن "الـرحمن" اسم مخصص بالله لا يجوز أن يسمى غيره به. وأشهر من دعا إلى عبادة الرحمن مسلمة الحنفي بن حبيـب الملقـب عنـد المسـلمين بــ "مسـيلمة الكـذاب"، ومسيلمة واحد من أحناف الجاهلية، ولا تاريخ محدداً لولادته ولكن قيل أنها قبل ولادة عبد الله، والد الرسول محمد. وتكثر الروايات أنـه عـاش طـويلاً. وقد قال مسلمة في اليمامة بعبادة الرحمن، وجاهر بالنبوة، واتخذ مؤذناً هو عبد الله بن نواحه، فكان يؤذن قائلاً: "أشهد أن مسلمة رسـول الله". وقـد ألـف كتاباً عرف باسم "قرآن مسيلمة"، ومرة باسم "سجع مسـيلمة"، وعنـده أنّ "الرحمن هو العالِم وهو الرحيم والمعطي والقابض والباسط والمنجّي والرازق والشاهد والملك"، واتّخذ لدعوته سبيل "التأثير" منهجاً في "الانتشار"

واستمال ناحية الإحساء والبحرين وقطر، وصنع حضوراً في شبه الجزيرة العربيّة، واستطاع بقدراته العالية أن يستوعب اندفاعة عسكريّة قويّة وضخمة شاءتها سجاح بنت الحارث بن سويد لإخضاع اليمامة والرباب قبل التوجّه نحو يثرب وإخضاعها أيضاً، وكانت سجاح، وتفسير اسمها "المستقيمة"، وتكنّى بأم صادر، قد جاهرت أيضاً بالنبوّة، واتّخذت مؤذّناً هو شيث بن ربعي، يؤذّن فيقول: "أشهد أنّ سجاح نبيّة الله"، واستمالت الكثير من القبائل بالإضافة إلى تميم وأخوالها في تغلب، وغيرهم في ربيعة، وحتى استمالت بقوّة شخصيّتها أحياء من النصارى. وعملاً بمنهجه في الانتشار النابذ للسيف، سأل مسلمة اجتماعاً بسجاح فأجابته إليه، وخرجت من الاجتماع وهي تلهج بنبوّة مسلمة، ثمّ لتتزوّجه. وتذكر كتب الأخبار أنّ مسلمة التقى النبي محمّد بن عبد الله في مكّة. وهناك إشارات إلى لقاءات جرت في أكثر من مكان، وقد عرض مسيلمة التحالف. وذكر الحلبي أن محمّداً حين التقى مسلمة "عامله معاملة الإكرام على عادته في الائتلاف"، وعندما سمعت قريش من الرسول "بسم الله الرحمن الرحيم" قالوا: دف فوك، إنما تذكر مسيلمة، رحمان اليمامة. وذكروا أن مسيلمة دعا إلى عبادة الرحمن، بينما عرف نفسه بالرحمان، فقيل له رحمان اليمامة، وأنه دعا إلى عبادته هذه قبيل دعوة الرسول، وقد عرف أمره أهل مكة، فلما نزل الوحي على الرسول، قال أهل مكة: إنما قد أخذ علمه من رحمان اليمامة". وورد عند الطبري أن مسيلمة يتلقى الوحي من السماء عن طريق جبريل، وكان عدد

الصلوات ثلاث، حيث ورد أيضا عند الطبري "أن مسيلمة بن حبيب رسول الله، قد وضع عنكم صلاتين مما أتاكم به محمد، صلاة العشاء الآخرة وصلاة الفجر". وكان الصوم مقوماً من مقومات دعوته وذلك لم يكن غريباً عن بيئة المنطقة على اعتبار أن الصوم عبادة قديمة عرفتها الأمم السابقة.

المرويات وكتب التاريخ الإسلامية حطت من شأن مسيلمة الكثير، وصورته بطريقة سلبية، وشوهته وهمشته على الرغم من أن مسيلمة حقق نجاحات دينية وانتصارات اجتماعية قبل بدء دعوة الرسول، ومرات في أوج الدولة الإسلامية، ودخل في صراعات مع جيوش المسلمين وانتصر في بعض منها، كسب المؤيدين والأنصار، وأحدث هرجا ومرجا هزا المرحلة الإسلامية، ذلك أنه لما "استحر القتل في أهل القرى، وثبت مسيلمة، ودارت رحاهم عليه، عرف خالد أنها لا تركد إلا بقتل مسيلمة".

- **الأحناف:**

الحنفاء عند الإخباريين، مجموعة من الزهاد نبذوا عبادة الأصنام وكل ما يتعلق بها من طقوس، وتمسكوا بالديانة الإبراهيمية الحقة تاركين عبادة قومهم إلى عبادة الله وحده وذلك عبر ممارسة طقوس عبادية أشير إليها بشكل خاطف من قبل الرواة مثل الحج والصوم والتحنث والختان وتحريم الخمر.

وجل هؤلاء كانوا من أسر معروفة وبيوت كانت مرفهة، لذا كان بإمكانهم الحصول على الثقافة وشراء الكتب، فصار بإمكانهم الطواف خارج الجزيرة لاقتناص المعرفة. وهم بالنسبة لذلك الوقت الطبقة المثقفة التي نادت

بالإصلاح ونبذ الأساطير والخرافات وتحرير العقل من سيطرة العادات والتقاليد، وذلك بالدراسات والتأمل وقراءة الكتب والرجوع إلى دين الفطرة الذي لا يقر بعبادة الشرك ولا عبادة الناس. ومنهم قس بن ساعدة الأيادي، وزيد ين عمرو بن نفيل القرشي، وعدي بن زيد العبادي، وسيف بن ذي يزن الحميري، وأشهرهم أمية بن الصلت. وكان أُمية تاجراً من أهل الطائف ينتقل بتجارته بين الشام واليمن، وقد مال من أول أمره إلى التحنف، وهجر عبادة الأوثان، وترك شرب الخمر، واعتقد بوجود الله من غير أن يكون له فروض معينة في العبادة. وكاد أُمية أن يسلم لما جاء الإسلام، ولكن موقف قومه، ثقيفٍ، من الإسلام أملى عليه العداء للرسول وللمسلمين، فكان يُحرّض على قتال الرسول. ولما انتصر الرسول على مشركي مكة في غزوة بدرٍ، رثى أُمية الذين قُتلوا من المشركين في تلك الغزوة. وقد ضاع القسم الأوفر من شعر أُمية، ولم يثبت له على القطع سوى قصيدته في رثاء قتلى بدر من "المشركين". وكان هو أول من أدخل عبارة "باسمك اللهم"، وهذه العبارة سابقة للإسلام، فقد كان يخطها في أعلى كتبه. ويقال – في رواية للبخاري – أن الرسول في صلح الحديبية، عندما أرادوا أن يكتبوا بنود الصلح، قال: اكتب "بسم الله الرحمن الرحيم"، فقال سهيل بن عمرو: أما الرحمن فوالله ما أدري ماهو، ولكن اكتب باسمك اللهم، كما كنت تكتب. فقال المسلمون، والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم، فقال الرسول اكتب "باسمك اللهم

."من أشعار أمية بن الصلت:

وسبحان ربي خالق النور لم يلد ... ولم يك مولودًا بذلك اشهد

وسبحانه من كل إفك وباطل ... ولا والد ذو العرش أم كيف يولد

ومن خوف ربي سبح الرعد ... وسبحه الأشجار والوحش أبد

فوقنا ... وإذ هي في جو السماء تصعد

تسبحه الطير الحوائج في الخفا ... من الخلق كفؤ قد يضاهيه مضدد

هو الصمد الحي الذي لم يكن له

هذه الأبيات يمكن مقارنتها بسورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [سورة الإخلاص: الآية ١-٤]؛ والآية ١٣ من سورة الرعد: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ..﴾ [سورة الرعد: الآية ١٣]

وتقول الآيات ٨ و٩ من سورة الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [سورة الجن: الآية ٩]

هذا التراث الديني المتنوع الذي شهدته المنطقة قبل الإسلام، لاشك أنه كان له عظيم الأثر على الإسلام، فكل الأديان متأثرة بشكل أو بآخر ببعضها. لكن السؤال هنا لماذا حاول المسلمون الأوائل طمس تلك الأديان وهوياتها، فلم يصل إلينا منها إلا القليل والنادر في بعض الأحيان. هل يعود ذلك إلى الحمية الدينية؟ أم أن هناك أسباباً أخرى؟ بغض النظر عن تلك

الأسئلة إن أجيب عليها أم لا، فنحن لا نستطيع غض النظر عن النتيجة التي أدت إلى طمس ذلك التراث وتلك المعارف التي أدت إلى تنوع الأفكار والآراء، فتأتينا "داعش" اليوم لتأكد مدى كرهها لذلك التنوع الذي لم يحترمه أو يقدره أي أحد، فتعلن اليوم عن عودتها إلى الدين "الحنيف"، أو بالأحرى خلقها لدين جديد.

الفصل السادس

طبيعة جزيرة العرب وثرواتها وسكانها

لم تدرس طبيعة أرض جزيرة العرب دراسة علمية مستفيضة لشاملة، بالرغم من قيام الشركات الأجنبية بالبحث، في أنحاء منها، عن طبيعة تربتها للتوصل بذاك إلى اكتشاف ما في باطنها من ثروات. فأرض جزيرة العرب، أرض واسعة، تغطي الرمال اكثر مساحاتها، فليس من السهل البحث فيها بحثاً علمياً عميقاً عن تركيبها وعن تطورها في كل أنحائها، لهذا كان علمنا بهذه النواحي من البحث ضحلا" مختصراً في الغالب.

يتألف ثلثا الأقسام الشرقية من أرض المملكة العربية السعودية، من طبقات رسوبية يقال لها في علم طبقات الأرض "Sedimentry"، تكون نوعاً من الصخور يتأثر ببعض المؤثرات الأرضية، فتكون من أحسن الأماكن الملائمة للبترول والفحم. وتتألف هذه الطبقات الرسوبية في الدرجة الأولى من الحجارة الكلسية وتتكون أرض منطقة أبار البترول عند "الظهران" والمناطق الأخرى التي أصابت شركة البترول العربية السعودية الأمريكية فيها البترول، من هذا النوع من الصخور.

وتوجد آثار طبقات رسوبية في المناطق الغربية من جزيرة العرب المطلة على البحر الأحمر عند جزر "فرسان" و "جيزان" و "صعبيا" و "أملج" و "المويلح" الواقع على مقربة من راس خليج العقبة، و "ضبا"، وحجارة رملية في العلا في القسم الشمالي الغربي من الجزيرة بكميات واسعة، وحجارة بركانية ولا سيما في مناطق الحرار. وصخور تكونت بفعل الترسبات المتأثرة

بالضـــغط والحـــرارة، وهـــي التـــي يقـــال لهـــا "Metamorpic :
Formation"، وتساعد على تكوين المعادن. وقـد وجـدت في هـذه المنطقـة، خامات المعادن ولكنها لم تستغل حتـى ألان اسـتغلالاً تجاريـاً، كـما إن هـذه الخامات والأرضين لم تفحص فحصاً فنيا لمعرفة النسب المعدنية فيها.

وتوجد الصخور الرمليـة في عسـير وفي وادي الـدواسر، وتشـاهد في منطقة هذا الـوادي تـلال تتجـه مـن الشـمال إلى الجنـوب، تقـع إلى جنـوب "الخماسين" وعـلى ارتفـاع ٢٢٠٠ قـدم، يظهـر أنهـا تكونـت مـن الصـخور "الأيولينيةAelian Sandstone ومن حجارة "الكوارتس" الضـخمة، وقـد حوت مقداراً من "اكاسيد الحديد" أعطت هذه السلسلة لونـاً أحمـر غامقـاً. ويتكون فتات هذه الحجارة على هيأة ألواح صلبة، وعند قطعها يلاحـظ أنهـا تتكون من طبقات، ويمكن فصلها على أشـكال ألـواح، وقـد تكونـت عـلى حافات هشه السلسلة وجوانبها أشكال طبيعيـة مدهشـة أخـاذة بتـأثر فعـل الرياح والرمال فيها. وتتكون أرض "قرية" من صخور كلسية، وهنـاك آبـار قديمة تبلغ أعماقها تسعين قدماً، حفرت في طبقات أرضية مؤلفة من حجارة الكلس، تتخللها طبقات من الحجارة الرمليـة غـير أنهـا ليسـت ثخينـة. أمـا أرض "بئر حما" التي يبلغ ارتفاعها زهاء أربعة آلاف قدم فوق سطح البحـر، وتقع على الحافات الغربية للربع الخـالي، فإنهـا مؤلفـة مـن الحجـارة الرمليـة الأيولينية الحمراء، وعلى مسافة "٣٥" ميلاً إلى الجنـوب الغـربي مـن "حمـا" موضع يقال له "بئر الحسينية" فيه بئر يبلغ عمقها١٢٩ قدماَ، وقد حفـرت في أرض فيها طبقات ثخينة من "الغرانيت". و تتألف أكثر الأرضين التي تمتد

من هذا الموضع إلى نجران من حجارة "غرانيتية". وتظهر الحجارة الرملية في القسم الجنوبي والغربي من هذه المنطقة التي ترتفع زهاء ١٥٠٠ قدم عن مستوى سطح الوادي الموصل إلى نجران، والذي يرتفع هو نفسه زهاء أربعة آلاف قدم عن سطح البحر. وتتألف مناطق واسعة من اليمن من حجارة رملية ومن الطبقات المترسبة.

قلت: إن هنالك مناطق في الحجاز مكونة من طبقات مترسبة تعد من أحسن الصخور والطبقات الأرضية، ملائمة للنفط والفحم، إن هنالك مناطق فيها صخور بركانية ونارية: وقد تكوّ ن أكرها بعد تغييرات كبيرة وعمليات طويلة من ضغط هذه السلسلة الجبلية الطويلة التي تكون العمود الفقري لجزيرة العرب. وترتفع زهاء "٩٠٠٠ - ١١٠٠٠" قدم عن مستوى سطح البحر في اليمن على ما تحتها من طبقات.

ونجد مناطق واسعة من "اللابات" مبعثرة على طول هذه السلسلة، منها ما هو حديث التكوين. ويشاهد في الزمن الحاضر لسان بارز من "اللابة" في شرقي "أبي عريش" يمتد حتى يتاخم حدود اليمن، كما نشاهد مناطق أخرى مؤلفة من هذه الحجارة في مواضع عديدة بين "شقيق" و"خور البرك" مثلاً حيث تصل "اللابة" إلى البحر الأحمر فتدخل فيه. وكذلك في شمالي "شقيق" عند "جهمة" حيث توجد بقايا بركان يكوّن جزيرة في البحر مقابل هذا الموضع.

وعلى مسافة اثني عشر ميلاَ من مكة جبل، يقال له جبل النورة، حيث تحرق حجارة الكلس المكونة له، لاستخراج النورة واستعمالها في البناء. وهذه

الحجارة الكلسية هي من الطبقات المترسبة المتحولة. وهناك أماكن أخرى تكونت من هذه الحجارة، يشاهدها المار من جدّة إلى موضع "مهد الذهب"، الذي تستغل ألان مناجمه، لاستخراج الذهب، وتتكون تلال مهد الذهب من الحجارة المترسبة التي تعرضت لتغيرات طبيعية عديدة، عليها طبقات من حجارة "البازلت. وفي حجارة المناجم خامات معادن متعددة، وتوجد حجارة "الكوارتس وتوجد في منطقة الطائف صور "الغرانيت"، وفي نهاية هذه السلسلة الجبلية الطويلة التي تنتهي في اليمن تشاهد "لابات" الحِرار وبقايا الحرار التي كانت تزعج اليمانيين، إذ هي قد تقذفهم حممها في يوم من الأيام فتسومهم سوء العذاب.

وفي أرض، اليمن عدد كبير من الحِرار، ذكر السياح بعضها، مثل حرة "أرحب"، وتقع شمالي "صنعاء" ولها لابة استخرج منها الناس حجارة سوداً لبناء البيوت. وعلى مقربة من "ذمار" تكون الأرض بركانية. وتوجد الحرار في القسم الشمالي من "وادي أبرد"، وفي الوادي بين "صرواح" و "مأرب". وقد حمل بعض المستشرقين وجود الحرار في اليمن بهذه الكرة وعلى مقربة من المدن القديمة، على تفسير هلاك بعضَ المدن كراب "مأرب" و "حقة" و "شبوة" بتأثير هياج البراكين.

كذلك توجد مناطق حرار في العربية. الجنوبية، في عدن وحضرموت وعُمان وفي الربع الخالي، وقد استعمل القدماء حجارة البراكين في البناء، ولا يزال الناس يستعملونها في البناء حتى اليوم، وقد وجد بين الحجارة المكتوبة عدد من صخور البراكين. وقد استغل الجاهليون بعض الحِوار لاستخراج

الكبريت منها، وذكر "نيبور" إن أهل اليمن كانوا يستخرجون الكبريت من جيل يقع في شرقي ذمار، ويظهر إن هذا الجبل بركان قديم.

وتتكون بعض هضاب اليمن من الصخور المتبلورة التي مرت في أدوار طويلة. ويرى العلماء أنها كانت في الأصل تحت سطح البحر، ثم ترسبت عليها طبقات ثخينة من المواد الرسوبية حتى تبلورت و تصخرت. وقد استعملها الجاهليون ولا تزال تستعمل في النوافذ، لتقوم مقام الزجاج. وهناك طبقة طباشيرية وطبقات من صخور رملية غذت المناطق المنخفضة، وهي تهائم اليمن، بالرمال. وكذلك المنطقة التي يقال لها الرمله. وتتكون التربة في تهامة وفي سهل صنعاء من المواد الصلصالية التي تعود إلى الأزمنة "الجيولوجية"، المتأخرة، ومن المتكونات "الأيولينية" التي حصلت بتأثير فعل الرياح في الصخور الرملية. ويكثر وجود الصخور المتبلورة في الحجاز وفي العربية الجنوبية كذلك. وتوجد الصخور والطبقات الرسوبية في اليمن وفي حضرموت وعمان، وقد وجدت في هذه المناطق علائم وجود البترول.

والسواحل الشرقية لجزيرة العرب، أي السواحل الواقعة على الخليج، هي سهول، ولكنها سهول من الرمال في الغالب، ولهذا قلت فيها الزراعة، إلا في المواضع التي تتوافر فيها المياه الجوفية،وتتفجر عيوناً،مثل الأحساء والقطيف. وهناك سباخ ومستنقعات ناتجة من انخفاض الأرض، جوّها غير صحي. والبترول في القرن العشرين، هو الذي أغاث أهل هذه ا الأرض، وجلب لهم الثراء والمال الوافر والسيارات الفارهة وآلات التبريد ووسائل الترف والرفاهية، وبعث فيها الحياة بعد إن كانت خامدة خاملة.

وقد كانت حال هذه السواحل قبل الإسلام أحسن بكثير من حالها في القرن التاسع عشر إلى يوم استنباط البترول في القرن العشرين، بدليل ما نقروه في الموارد التاريخية من أسماء مواضع كانت مأهولة، زالت واندثرت، وأسماء قبائل كانت تنزل بها، اضطرتها أحوال قاهرة متعددة متنوعة إلى هجرها، فقل عدد سكانها بالتدريج.

وتعد البحرين من أكثف المناطق في جزيرة العرب. فان نسبة عدد سكانها بالقياس إلى مساحة أرضها عالية نسبياً قبل الإسلام وفي الإسلام. وسبب ذلك هو توافر الماء فيها، واعتمادها على استخراج اللؤلؤ من البحر وعلى صيد السمك الذي يقدم للأهلين المادة الأولى للمعيشة. و الماء غير عميق عن سطح الأرض وقد مون عيونا في بعض الأماكن و لهذه المميزات صارت موطنا للحضر قبل الإسلام بزمن طويل.

وفي جزيرة العرب خامات معادن، و من الممكن استغلال بعضها استغلالاً اقتصادياً، و من هذه المعادن الذهب، و قد ذكر الجغرافيون العرب أسماء و مواضع عرفت بوجود خام الذهب بها، مثل موضع "بيشة" أو "بيش"، و قد كان به معدن غزير من التبر. و المنطقة التي بين القنفذة و"مرسي حلج."

و يظهر من المؤلفات اليونانية و من الكتب العربية أن المنطقة التي بين القنفذة و "عتود"، كانت معروفة بوجوج التبر فيها، فكان الناس يشتغلون هناك بأستحلاص الذهب منه، و لهذا رأى "موريتس" أن هذه المنطقة هي منطقة "أوفير "التي ورد ذكرها في التوراة على أنها تصدر الذهب.

و يشاهد في وداي تثليث على مقربة من "حمضة" و على مسافة ١٨٣ ميلاً من نجران أثار التبر، ويظهر أنه كان من المواضع التي استغلت قديماً لاستخراج الذهب منها. وقد اشتهرت ديار بني سليمبوجود المعادن فيها، وفي جملتها معدن الذهب، ويستغل اليوم الموضع الذي يقال له "مهد الذهب"، ويقع إلى الشمال من المدينة باستخراج الذهب منه، وتقوم بذلك شركة تستعمل الوسائل الحديثة، تحرّت في مواضع عديدة من الحجاز الذهب والفضة ومعادن أخرى، فوجدت أماكن عديدة، استغلت قديماً لاستخراج "التبر" منها، ولكنها تركتها لعدم يمكنها من الحصول على الذهب منها بصورة تجارية، تأتيها بأرياح حسنة، واكتفت بتوسيع عملها في "مهد الذهب"، لأنه من أغزر تلك الأماكن بخام الذهب، وظلت تنقب به إلى إن تركت العمل فيه، وحلت نفسها، وتركت كل شغل لها بالتعدين.

وقد ذكر الكتبة اليونان إن الذهب يستخرج في مواضع من جزيرة العرب خالصاً نقياً، لا يعالج بالنار لاستخلاصه من الشوائب الغريبة ولا يصهر لتنقيته. قالوا ولهذا قيل له ابيرون وقد ذهب "شرنكر" إلى إن العبرانيين أخذوا لفظة "أوفير" من هذه الكلمة.

وقد عثرت الشركة في أثناء بحثها عن الذهب في "مهد الذهب" على أدوات استعملها الأولون قبل الإسلام في استخراج الذهب واستخلاصه من شوائبه، مثل رحى وأدوات تنظيف ومدقات ومصابيح، وشاهدت آثار القوم في حفر العروق التي تكوّن الذهب، وأمثال ذلك مما يدل على إن هذا

المكان كان منجماً للذهب قبل الإسلام بزمن طويل، ولعله من المناجم التي أرسلت الذهب إلى "سليمان"، فأضيف إلى كنوزه، على نحو ما هو مذكورفي التوراة.

ويظن بعض الباحثين إن منجم "مهد الذهب" هو المنجم الذي كان لبني سليم، فعرف باسمهم وقيل له: "مدن بني سلُيم"، وقد وهبه الرسول إلى بلال بن الحارث.

وعرفت "أرض مدين" وما والاها من الأرضين في شمال "وادي الحمض"، بوجود التبر فيها. واستخراج الناس له هناك قبل الجلاد بمئات من السنين. وتوجد آثار المناجم التي كانت تستغل مبعثرة في مواضع عديدة حتى اليوم.

وتوجد خامات معادن أخرى فيء الحجاز منها الكبريت والنحاس والقصدير والحديد، وتستخرج الأملاح من الصخور الملحية التي في الحجاز وفي عسير عند جيزان، ويستخرج الأهلون منها مسحوقاً لاستعماله في عمل المفرقعات كما إن هنالك مثل هذه الصخور المحلية في السلف من اليمن. ويمكن الاستفادة من هذه الأملاح فائدة كبيرة من الوجهة الاقتصادية حيث تدخل في كثير من الصناعات.

وفي منطقة "راج" توجد رواسب "البارايت، وتدل البعوث الأولية على أنه من الممكن استخراج عشرة آلاف طن من "البارايت" في كل عام. وتدل الدلائل على إن هنالك منجماً قديماً في منطقة "رابغ" كان يستغل لاستخراج الكالينه، غير إن النماذج التي فحصت فحصاً أولياً دلت على إن

هذه الماسة قليلة فيها. ويظهر إن هناك كميات كبيرة من تراب الحديد في "العقيق" على مقربة من "مهد الذهب" كما شوهدت خامات المعادن في موضع "برم" جنوب الطائف وفي موضع "نفى"، ولا يستبعد العثور على البترول في الحجاز في المواضع المتكونة من الطبقات المترسبة، وتوجد في الحجاز الرمال التي تصلح لصنع الزجاج.

وتستغل أرض الأحساء في استخراج "البترول"، ويكثر وجود البترول في العروض حيث حفرت الآبار في الكويت والبحرين، وتدل الدلائل على وجوده في قطر لومان، كذلك دلت التحريات على وجوده في حضرموت في منطقة "شبوة" وفي المناطق وراء شبوة إلى داخل جزيرة العرب، حيث يحتمل العثور على مناجم للذهب كذلك. ويجري البحث عن البترول في محمية "عدن" وفي اليمن.

ودلت التقارير الأولية على وجود الفحم في حضرموت في منطقة "شبوة"، وتوجد الصخور المحلية مترسبة في بطن طبقات الأرض يقتطعها الأهلون، وتستغل في الأعمال التجارية، كذلك توجد هذه الصخور الملحية في اليمن، وقد تكونت بفعل العوامل "البيولوجية" والضغط المتواصل، فتحجرت بمرور آلاف السنين عليها، وتكمن تحت سطح الأرض في بعض الأماكن حيث تحفر جوانب التلال للوصول إلى قلب مناجم الملح المتحجرة، وقد يفتت باستعمال المواد المتفجرة "الديناميت"، وتستخرج صخوره من بعض المناجم صافيه بيضاء كأنها البلور. مثل الملح المستخرج من "جبل الملح" بمأرب، فإن ملحه كما يقال صاف كالبلور. وتشتهر "السلف" بوجود

مناجم ملح فيها، تقع على مسافة أربعين ميلا إلى الشمال من الحديـدة. وتوجد في جزيرة "قمران" المقابلـة هـذا الموضـع منـاجم ملـح، وكـذلك في "اللحية."

وإلى وجود مثـل هـذه الصـخور الملحيـة في كثـير مـن أنحـاء جزيـرة العرب، يجب أن يعزى ظهور قصص بناء القصور من الملح المنتشـرة في كتب التاريخ والأدب.

ولما كانت أرض اليمن وأكثر الأنحاء الأخرى من الجزيرة، لم تفحـص حتى الآن فحصاً فنياً، ولم تطأها أقدام الخبراء، فمن الصعب التحـدث عـن مواطن المعادن فيها، وعن أنواع التربة، وأثرها في الحضارة الجاهلية.

وقد وجـدت مصـنوعات حديـد في الـيمن، عثـر عليهـا في الخرائـب والآثار والأماكن العاديـة، كـما اشـتهرت الـيمن بسـيوفها، في الجاهليـة وفي الإسلام، غير أننا لا نعـرف الآن المـواطن التـي كانـت تسـتغل لاسـتخراج الحديد منها، وقد ذكر الرحالة "نيبور" انه كان في " صعدة" منجم، يستخرج منه الحديد، وأن أماكن أخرى كانت تستغل لإنتاج هذه المادة.

وذكر "الهمداني" من معادن اليمن الذهب والفضـة، وقـال: أنـه كـان يستخرج من "الرضواض" ولا نظير لفضه، والحديد، وكـان يسـتخرج مـن "نقـم" و"غمـدان" و"فصـوص البقـران"، وتسـتخرج مـن جبـل أنـس. و"فصوص السعوانية" وتستخرج من "وادي سعوان" جنب صـنعاء، وهـو فص أسود فيه عرق أبيض ومعدنه بشهارة وعيشان من بلد حاشد إلى جنـب هنوم وظليمة والجمش من شرف همدان، وحجر "العشاري"، وهو الحجر

العشاري من عشار بالقرب من صنعاء، والبلور، والمسنى الذي تعمل منه أنصاب السكاكين والعقيق الأحمر، والعقيق الأصفر من الهان والجزع الموشى والمسر، والشزب تعمل منه ألواح وصفائح وقوائم سيوف وأنصاب سكاكين ومداهن وقحفة وغير ذلك. وعرفت اليمن بعقيقها الذي يقال له "عقيق يماني" و "حجر يماني" وهو الجزع.

وقد بقيت بعض المواضع المذكورة تستغل معادنها في الإسلام، إلا أن تغير الوضع في جزيرة العرب في الإسلام وهجرة كثير من القبائل إلى البلاد المفتوحة، ووجود صناعات فيها ومعادن أثمانها أرخص من أثمان معادن الجزيرة، ثم تقدم العالم بعد ذلك وظهور الثورة الصناعية، كل هذا وأمثاله أثر في وضع التعدين وفي صناعة المعادن في جزيرة العرب، فدثرها، أو تركها مشلولة لا تعمل إلا في حدود مرسومة ضيقة وفي مجال محلي.

وليست دولة الحيوان في جزيرة العرب دولة ضخمة عظيمة، وكيف تكون ضخمة وأكثر أرض الجزيرة عدو للحيوان ولكل ذي روح؟ والجمل هو الحيوان الأليف الوحيد الذي استطاع بعناده وبصلابته على السير بجبروت وبتبختر فوق رمال الصحارى، غير عابىء بالرياح العاتية التي تذرو الرمال في الأعين، وتنقل أكواما منها معها، تكفي لدفن الجمل ومن عليه أو من معه ومع ذلك فإن هذا الحيوان للصبور العنيد. لم يتوفق أيضاً في تحطيم جبروت البوادي في كل مكان، فظل ت بعضها أرضاً حراماً عليه وعلى السابلة، تحطم من يريد التجاوز عليها والاعتداء على استقلالها، بأن تميته عطشاً، فتفتح ذرات رملها الناعم، وعندئذ تغوص قوائم الجمل فيها فيبقى في مكانه حتى ينفق.

والجمل، هو أيضاً من أقدم الحيوانات التي سمعنا بها عند العرب، وأعزّها. وقد صوّر في النصوص الاشورية، عند ذكر معركة "قرقر" ومعارك أخرى، وقعت بين العرب والآشوربين. و طبيعي إن يقرن الجمل بالبادية، وأن يجعل رمزاً لها، فليسن لحيوان آخر القدرة على اجتياز البوادي واختراقها ونحمل مشقاتها وعطشها مثل الجمل. ثم انه مركب العرب، يحملهم، ومحمل تجارتهم وماءهم،وهو ممولهم بالوبر لصنع البيوت حتى قيل للأعراب "أهل الوبر" ومنه يصنعون أكسية عديدة. ولبن الإبل، هو لبن أهل البادية، وإذا احتاجوا إلى لحم، ذبحوا الجمل، فأكلوه، وأفادوا من جلده.

والجمل ثروة، والثري العربي هو من يملك عدداً كبيراً من الإبل، وتقدر ثروته بقدر ما يملكه منها. وقد كان الجمل مقام "النقد"، أي مقام الدينار والدرهم في الغالب، فبعدد من الإبل يقدر مهر الفتاة، وبعدد من الإبل تفض الديّات والخصومات. وهكذا يتعامل به كما نتعامل اليوم بالنقود.

ويرى العلماء إن الإنسان ذلل الجمل حتى صيره أليفاً مطيعاً له في الألف الثانية قبل الميلاد. وقد ذهب بعضهم إلى إن العربية الشرقية كانت الموطن الذي ذلّل فيه هذا الحيوان في الشرق الأدنى، استدلوا على ذلك بإطلاق العراقيين القدماء على الجمل اسم "حمار البحر"، وقالوا إن قصدهم من "البحر" الخليج، وأن لفظة "الجمل" "جملو" "كَمَلو" في "الأكادية" إنما وردت من بادية الشام، ومعظم سكان البادية هم من العرب، وقد كانوا

يستعملون الجمل استعمال الناس للسيارات ولوسائل الركوب في هذا الزمن. وقد استعملوه في الألف الثانية قبل الميلاد،فدخوله من البوادي إلى العراق هو دليل على إن العرب كانوا قد استخدموه أولاً ومنهم انتقل إلى العراق والبلاد الأخرى.

ويرى "البريت" أن البداوة الحقيقية على في ما نعرفها اليوم من السكنى في البوادي والتنقل فيها من مكان إلى مكان، لم تظهر في جزيرة العرب إلا في أواخر النصف الثاني من الألف الثانية قبل الميلاد، وذلك بتذليل الإنسان للجمل وبترويضه له لخدمة أغراضه، ففتح له بذلك أبواب البوادي، وتمكن من التوغل فيها واجتيازها بفضل جمله خادمه المطيع. أما ما قبل الجمل، فقد كان العربي لا يستطيع اجتياز البوادي واختراقها لأن حماره الذي كان واسطة الركوب عنده، لا يتحمل ولوج البادية، ولا يستطيع إن يعيش فيها، وأن يصبر عن شرب الماء أو الأكل صبر الجمل، لذلك كان عرب الجزيرة في الألف الثانية، وقبل وقت تذليل الجمل رعاة في الغالب، وسائط ركوبهم الحمير، ولم يكونوا قد طرقوا البوادي أو توغلوا فيها توغل العرب أصحاب الوبر فيما بعد.

فالجمل أذن هو الذي فتح لأهل جزيرة العرب آفاق البوادي، ووسع البداوة عندهم، حتى جعلها عالماً خاصاً يقابل عالم الحضارة في الجزيرة. وهو الذي صار لهم واسطة لنقل الأموال بالطرق البرية الطويلة التي تربط أجزاء الجزيرة بعضها ببعض، و تربط طرق الجزيرة مع الطرق الخارجية. و بفضل الجمل القادر على تحمل العطش و الصبر على الجوع، و على تحمل الصعاب

صار في امكان العرب التنقل إلى مسافات بعيدة من الجزيرة و حمل أثقاله معه.فأستخدم العرب له هو في الواقع ثورة كبيرة في ذلك العهد بالنسبة إلى وسائط النقل و الحمل و في عالم التجارة و الاقتصاد. و من حق العربي إذا ما عبّر عن الغنى إن يعبر بكثرة ما عند الإنسان من إبل.

وقد عرف الجمل بوجود غزيرة الانتقام فيه، و بعدم نسيانه أذى من يؤذيه، لذلك زعم أنه يبقى حاقدا على المسيء إليه حتى ينتقم من و لو بعد زمن طويل، و يظن بأنها من فعل "كَمَلَ" "جَمَلَ" "كامل" "جامل"، أي انتقم، مع أنها تعني "حَمَلَ" أيضاً. و قالوا أن معنى " الجمل" "المنتقم" وقالوا أنه سمي بذاك لأنه حيوان منتقم. ومن ثم وصف "أرسطو" و "أربان"، الجمل بأنه حيوان لا ينسى الأذى، سريع الانتقام. وقد يكون لأقوالهما ولأقوال غيرهما في الجمل دخل في تكوّن هذه الفكرة عنه عند الناس حتى اليوم.

الجمل المعروف في جزيرة العرب، هو الجمل ذو السنام الواحد. وهناك نوع من الجمال يقال للواحد منها "الهجين"، وهو الجمل المضرب، ويكون أصغر حجماً من الجمل العربي الأصيل، إلا أنه أسرع عدواً منه. وقد عدّ الجمل عند للعبرانين من موارد الثروة والغنى كذاك، ولذلك عدّ "أيوب" من أغنياء زمانه لأنه كان يملك ألفي جمل، وعد "المديانيون" "أهل مدين" وهم من العرب، أغنياء، لأنهم كانوا يملكون عدداً كبيراً من الجمال.

وللجمل في العربية أسماء كثرة. أما في العبرانية وفي اللغات السامية الأخرى، فلا نجد فيها مثل هد الكثرة. ويقال للجمل "كمل" و "بكرة". ويراد ب "كمل" الجمل. أما "بكرة" فالجمل الصغر. والجمل من أقدم الحيوانات المذكورة في التوراة، وذكر أنه كان لإبراهيم عدد كبير من الجمال. وبالرغم من اشتهار جزيرة العرب بجمال خيلها، وبتربيتها لأحسن الخيل، وبتصديرها لها. فإن الخيل في جزيرة العرب إنما هي من الحيوانات الهجينة الدخيلة الواردة عليها من الخارج، ولا ترتقي أيام وصولها إلى الجزيرة إلى ما قبل الميلاد بكثير. قيل أنها وردت إليها من العراق. ومن بلاد الشام، أو من مصر، وإن وطنها الأصلي الأول هو منطقة "بحر قزوين". وهذا لا تجد في الكتابات الآشورية، أو في "للعهد القدم" أو في المؤلفات "الكلاسيكية"، إشارات إلى تربية الخيل في جزيرة العرب،أو استعمال العرب لها في حلهم وترحالهم وفي حروبهم.

وقد بقي العرب إلى ما بعد الميلاد، بل إلى ظهور الإسلام، لا يملكون عدساً كبيراً من الخيل. وفي غزوات النبي ومعاركه مع المشركين، كان عدد الخيل التي اشتركت في المعارك محدوداً معدوداً، مع أنها كانت مهمة جداً وعدة حاسمة في إحراز النصر. وذلك بسبب قلتها إذ ذاك، وعدم تمكن كل الناس من اقتنائها، إلا من كان موسراً منهم، أو في حال حسنة. فقد كانت تكاليف الخيل، كثيرة لا يتحملها إلا ذوو الدخل الحسن، فالخيل في حاجة إلى عناية ورعاية، وطعامها للمحافظة على صحتها يكلف باهظاً. فلا بد من

تقديم الحشائش والحبوب لها ثم إن مجال استعمالها في البادية محدود لأنها لا تستطيع تحمل جوع الصحراء وعطشها تحمل الجمل، كما أنها لا تستطيع السير في رمال البوادي المهلكة المتعبة مسافات بعيدة هذا لم يقبل الأعرابي العادي على شرائها أو تربيتها في تلك الأيام، فصارت من نصيب أهل اليسر والحال الحسنة، يمتلكها ويعتني بها من يملك السيارات في هذه الأيام. كثرتها عند الرجل علامة على ثراء ووجاهته بين الناس.

ونظراً لسرعة الخيل وخفتها في الكر والفر، صارت أهم سلاح لنجاح الغرو وإلحاق الأذى بالعدو، يغير عليها المغير فيباغت خصمه بهجوم سريع خاطف، فيربكه، وهذا أخذت القبائل، ولا سيما القبائل الساكنة في مضارب قريبة من الأرياف ومن الحضر، تشتري الخيل وتعتني بها للمحافظة على حياتها في الدفاع والهجوم. وعدّت القبائل القوية، هي التي تملك عدداً كبيراً من الخيل، وصار للفارس مقام خطير في ذلك الزمن، لشجاعته وصبره في الدفاع عن مواطنيه، فهو بمثابة "الكومندو" في هذه الأيام.

واستعملت الخيل للتسلية واللهو واللعب، فتسابق على ظهورها الفرسان في حلبات السباق، وتراهن الناس على السابق، ولعب الفرسان بعض الألعاب: ألعاب الفروسية وخرجوا على ظهورها للصيد، فالصياد للراكب، أقدر من الصياد الراجل على مطاردة الصيد.

وفي القرآن ذكر للخيل كمصدر من مصادر القوة، يرهب بها المسلمون أعداءهم ومصدر من مصادر الثروة، ومصدر من مصادر الزينة وبهجة الحياة الدنيا. وفي الحديث ذكر لها كذلك وثناء عليها. وعُدّت الخيول من الحيوانات

الشريفة الرفيعة في التوراة، وصورت على شكل خيول من نار فيها، تهبط على أعداء الرب لتنزل بهم الهلاك والدمار.

أما البغال، فإنها من الحيوانات المعروفة بتحملها للمشقات، وقدرتها على السير في المناطق الوعرة، مثل الهضاب والأرضين المتموجة والجبال. وقد استعملت في الحمل وفي الركوب،وهي تؤدي خدمات في هذه المناطق يعسر على الجمل القيام بها، وقد يعجز عنها. أما هي، فإن من الصعب عليها العمل في البوادي ذات الرمال، كما أنها لا تستطيع الصبر صبر الجمل على تحمل الجوع والعطش أياماً متوالية عديدة، لذلك لم يقبل عليها آهل البادية، ولم يعتنوا بها.

وقد حرم قدماء العبرانيين على أنفسهم تربية البغال، و أول من أباح ذلك وجوز لهم استعمالها هو "داوود"، ومنذ ذلك الحين،أقبلوا على تربيتها والاستفادة منها في أرض فلسطين. ويظهر إن قدماء العبرانيين لم يكونوا يعرفون البغال، فلما وجدوها عند أمم وثنية غريبة عنهم، كرهوا استعمالها فحرموها على أنفسهم، حتى انتبه "داوود" لفائدتها ومنافعها، فاستعملها، ثم قلده في ذلك بقية العبرانيين بالتدريج.

ويظهر إن البغال لم تكن كثيرة الاستعمال في جزيرة العرب حتى ظهور الإسلام. فقد ورد في كتب السهر إن "دلدلاً"، بغلة النبي، "أول بغلة رئيت في الإسلام أهداها له المقوقس، وأهدى معها حماراً يقال له عُفير". وورد أيضاً: "أهدي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، بغلة شهباء فهي أول شهباء

كانت في الإسلام". وورد: "أهدي فروة بن عمرو إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، بغلة يقال لها فضة."

وورد في القرآن الكريم: "والخيل والبغال والحمر لتركبوها وزينة.."، مما يدل على إن من الناس من استعمل البغال للركوب وللزينة. قد كان من الأشراف والوجهاء من يتخذ البغال للركوب في الطرق الوعرة. أما من هم دونهم في المنزلة، فكانوا يتخذون الحمير.

وقد ورد في شعر ل "بشر بن أبي خازم الأسدي" ما يفيد أن البغال كانت معروفة في بعض المواضع، وأن أبولها كانت تترك وقيعاً أي أثراً على الأرض. والظاهر انه قصد بعض الأرضين الوعرة التي كان من الصعب على غير البغال السير بها، وذلك مثل بلاد اليمن التي كانت تستعمل البغال للركوب وترفع الأثقال.

والحمير هي أول واسطة للركوب وللحل عند الحضر وأهمها، هي للحضري مثل الجمال للبدوي، وهي مركب مربح لا يسبب ازعاجاً، ولا سيما إذا كان اتاناً، لأنها أهدأ وآمنْ من العثار. هذا، إلى أنها صبورٌ تتحمل المشقات، ولعلّ صبرها وتحملها وسكوتها عند ضربها، قد حمل كل الناس على وسمها بالبلادة. فشبه البليد بالحمار، فإذا أريد تعبير شخص بالبلادة وعدم الفهم قيل إنه "حمار". ليس ذلك عند العرب وحدهم، بل عند غيرهم من الشعوب القريبة منهم مثل العبرانيين، والبعيدة عنهم فشهرة الحمار بالبلادة شهرة عالية. ويقال للحمار حامور في العبرانية. أما الأنثى، فإنها

"أتون" أي "أتان" في العربية. و أما الحمار الصغير، وهو ما يقال له "الكر" أو "الجحش"، فإنه "عير" في العبرانية.

ويظهر من ملاحظات بعض الباحثين إن الحمار في جزيرة العرب هو اقدم عهداً من الجمل ومن الخيل والبغال، إذ كان واسطة الركوب والتنقل في أوائل الألف الثانية قبل الميلاد. فلما حل الجمل محله خفف من واجباته وأعماله، وصار عند العرب في منزلة هي دون منزلة الجمل بكثير.

والبقر من الحيوانات القديمة في بلاد العرب، وهي من الحيوانات الملازمة لأهل الحضر في الغالب، ولا سيما لأهل الريف، أما الأعراب فإن استفادتهم منها غير ممكنة وتكاليفها كثيرة بالنسبة إليهم، ثم إنها لا تستطيع تحمل طبيعة البادية، لذلك لم يقبلوا عليها، ولم يعتنوا بتربيتها، بل ربما نظروا إلى أصحابها نظرة ازدراء وعدم احترام. و يستفاد من ألبانها ومن لحومها وجلودها، كما يستفاد منها في حرث الأرض، وفي سحب الماء من الآبار، وفي جر العربات. وقد عثر على ألواح مكتوبة بالمسند وعليها صور ثيران تقوم بحراثة التربة لتهيئتها للزرع.

والأغنام، هي المادة الرئيسية لتموين الناس باللحوم والصوف. تربى في كل أنحاء جزيرة العرب، ويستفاد من ألبانها كذلك. أما "المعز" فيربى في المناطق المتموجة، أي ذات التلال، وفي الأرضين الجبلية بصورة خاصة. ويستفاد منها مادة للحوم وللحليب وللجلود، ويستعمل شعرها للخيام السود المصنوعة من شعرها في تلك الأزمنة. ولكن هذه الأنواع من الماشية،لا تستطيع العيش في البادية، لذلك كانت من نصيب أهل المدن وحدهم. أما أهل الوبر الضاريون في البادية فإن ماشيتهم الوحيدة الإبل.

وعرفت جزيرة العرب الأسد، الـذي قـلّ وجـوده فيهـا في الإسـلام، ويظهر من كثرة أسمائه في اللغة ومن ورود اسمه في الشعر الجاهلي، أنـه كـان كثيراً فيها، وقد اشتهرت أماكن خاصة منهـا بكثـرة أسـودها حتـى قيـل لهـا "مآسد" والواحدة "مأسدة". ومـن هـذه الأمـاكن "عثّـر"، واليهـا نسـبت "أسود عثر"، و "عتود" وهي قرية نسبت إليها الأسود كـذلك. وقـد عـرف الأسد بشدة بطشه وبقوته وبسيادته على سائر مملكة الحيوان في القـوة، ولهـذا لقبوا الشجاع الذي لا يقهر أسداً.

أما بقية الحيوانات المعروفة باسم الحيوانات الوحشية، أي التي لم تألف الإنسان، فمنها النمر والفهد والثعلـب والـذئب والقـط الوحشيـ والضـبع والبقر الوحشي، أو الرئم والحمار الوحشي، وقد كـان الجـاهليون يصـطادونه ويأكلونه عند الحاجة، حتى حرمه الإسلام، والنعامة والغزال والضَبّ، ولـه ذنب معقد، ويأكله الأعراب. والورل والوزغ، واليربوع، والقنفـد ولا تـزال مواضع من اليمن والحجاز وحضرـموت تحتضـن قـردة تتيـه وحـدها عـلى الجبال والمرتفعات، فخورة بأنها من نسـل تلـك القـرود التـي عاشـت قبـل الإسلام بأمد طويل.

وعرف العقاب والبازي والنسر والصقر والبوم من بين الكواسر التـي تنقض على الطيور الضعيفة والهوام فتعيش عليها، والغراب بأنواعه معروف في جزيرة العرب وله قصص في الأساطير العربية، وهـذا الطـائر قصـص في الآداب الأعجمية كذلك، لها علاقة كما هي عند العرب بالتفاؤل والتشاؤم

بصورة خاصة وكان من الحيوانات التي تركت آثرا في أساطير الشعوب القديمة وما برح الناس يتطيرون من نعيبه. والهدهد المذكور في القرآن الكريم، من الطيور الجميلة المحبوبة، وهناك أنواع عديدة من الحمام والعصافير والقطط والعنادل، وغيرها من الطيور الجميلة ولبعضها أصوات جميلة أخاذة ساحرة، كما إن لبعضها ألوانا زاهية.

والجراد، وان كان طعاما شهياً لكثير من البدو، بلاء على أهل الحضر ـ يأكل زرعهم ويأتي على ما غرسوه فتحل. بهم المجاعة، ويزيد في قساوة الطبيعة على الإنسان. ولذلك عد نقمة توجهها الآلهة على البشر، وتعبيراً عن الغضب الإلهي على الخارجين على طاعة الآلهة، ولما كان يحدثه من أضرار بالزرع والأثمار والأشجار.

والعقارب ذات أحجام وألوان، وهي تلغ من تصيبه فتؤذيه وتؤلمه إيلاماً شديداً، وهي مثال الحقد واللؤم عند العرب. يضرب المثل بطبيعتها، على عكس الأفاعي والحيّات، مع أنها مؤذية كذلك، وقد تميت من تلدغه. والسبب في ذلك أنها أكبر حجماً من العقرب، وفي استطاعة الإنسان رؤيتها وتجنبها، ثم إنها لا تقدم على الإنسان ولا تلدغه إلا إذا شعرت أنها في وضع حرج مخيف بالنسبة إليها. ولهذا ورد في الأمثال: "نحو العقرب لا تقرب، نحو الحية افرش ونم"، وزعم إن العقرب عمياء مع أنها ترى مثل سائر الحيوانات. ولكن صغر حجمها ولونها الذي يقرب من لون التراب، وكثرة

وجودها في البيوت، هي عوامل تجعل الإنسان لا يميزها بسهولة، ولا يشعر بها إلا وقدمه عندها أو فوقها، فتلدغه عندئذ دفاعاً عن نفسها، كما يفعل أي حيوان آخر باستعمال ما عنده من وسائل الدفاع عن النفس.

وقد تركت الأفاعي والحيّات أثراً كبيراً في القصص العربي ولما كان بعضها كبير الحجم، يقفز على من يهاجمه بسرعة خاطفه، أفزع الناس في البوادي والأودية، وترك في مخيلاتهم باقية لا تنسى. جعلهم يربطون بين الحيات والأفاعي والعفاريت، وبين الجن "الجان"، بأن جعلت فصائل منها.

وتعيش في الرمال وفى الغابات وبين الصخور، فصائل من الحيات مختلفة الأحجام، بعضها صغير، يقفز قفز بعض السمك فوق سطح البحر، أو الهوام وبعض الحشرات فوق سطح الأرض. فلا يشعر المار إلا وأمامه حية قافزة تفزعه وترعبه. وقد طار صيتها وانتشر خبرها خارج حدود جزيرة العرب، فوصفت بلاد العرب بكثرة الحيات الطائرة، حتى زعم إن لبعضها أجنحة، وأنها ذات ألوان متعددة، وكوّن وجودها قصصا في مخيلة الآشوريين واليونان والرومان، نرى أثره فيما ذكره "هيرودتس" و "سترابو" عن تلك الحيات.

وقد فزع جيش "أسرحدون" في أثناء اختراقه البادية من كثرة الثعابين والحيات التي كانت تثور عليهم وتقفز أمامهم كما يقول نص "أسرحدون". وذكر إن من بينها ثعابين ذات رأسين، وأن من بينها ما له جناح فيطير. ولما مرّ الجيش بأرض "بوزو" "بازو"، وجد الأرض مغطاة بالثعابين والعقارب، وهي في كثرتها مثل الذباب والبعوض. والظاهر إن البوادي كانت منازل

طيبة للثعابين.وقد تذمر الاسرائيليون من "الثعابين الطائرة" وفزعوا منها عندما كانوا يقطعون البوادي والفيافي في طريقهم إلى فلسطين. وقد أفزعت السياح المحدثين والمستشرقين، ومنهم "لورنس" الذي هاله ما رأى من كثرة الثعابين في الأماكن التي نزل بها وفي جملتها "وادي السرحان".

والسمك هو من أهم مواد. العيش لسكان سواحل الجزيرة، يعيشون عليه ويبيعونه لحماً جافاً ويصدرونه إلى الأماكن البعيدة ويحملون الطري منه إلى الأماكن التي لا تبعد كثيراً عن الساحل. ويجفف ويدق ليكون طعاماً عند الحاجة إليه، كما يكون صعاما لحيواناتهم كذلك. ولا يزال سكان السواحل يصيدون السمك بالطرق التي تعوّد آهل الجاهلية استعمالها في السمك. ويأتي سمك "السردين" أي السمك الصغير في مواسم الشتاء إلى السواحل بكثرة، فيصاد بسهولة وتغذى به الحيوانات. وطالما تنبعث الروائح الكريهة ويتراكم الذباب بدرجة منفرة من تكدس الأسماك المعرضة للشمس لتجفيفها، فتكون من شر الأماكن لمن لم يتعود دخولها.

ومن أنواع السمك الكبر الذي يوجد في البحر الأحمر و في البحر العربي والخليج، نوع يقال له "القرش"، يحتاج صيده إلى مهارة و براعة، و يحمل لبيع لحمه مقطعا في الأسواق.

و قد اشتهرت اليمن و الطائف في الحجاز و مواضع أهل الخضر الأخرى بدباغة الجلود و معالجتها لتحويلها إلى مادة نافعة لصنع الأحذية أو الدلاء أو القُرَب و ما شابه ذلك. و قد تصدَّر الجلود مدبوغة، إلى العراق أو إلى بلاد الشام لبيعها هناك.

وليست لدينا في الـزمن الحـاضر دراسـات علميـة دقيقـة عـن أنـواع الحيوانـات التـي عاشـت في جزيـرة العـرب في العصـور السـحيقة لمـا قبـل الإسلام. فما عثر عليه من بقايا عظام قديم، أو أصداف و محار، هـو قليـل لا يكفي لإعطاء أحكام علمية عن حيوانات جزيرة العرب في العصور البرنزية و الحديدية و الحجريـة، أو مـا قبـل هـذه العصـور التأريخيـة. فلـيس لنـا إلا الانتظار، حتى تأتي الفرص الملائمـة التـي يقـوم فيهـا العلـماء المتخصصـون بالتجوال في مختلف المناطق بحثا عن آثار عظام وهياكل، تكشف القنـاع عـن ذلك العالم الحي، الذي عاش في هذه البقاع قبل آلاف السنين.

وإذا كان الجمل، هو رمز جزيرة العرب، لالتصاقه بهـا، فـإن النخيـل هي رمز آخر لها، وكناية عـن أهـم حاصـل و منتـوج زراعـي تصـدره تلـك البلاد، ولهذا صارت رمزاً لها. وصار "التمر"، عند كثير من المسلمين من أهم ما يتناولونه في شهر رمضان، للإفطار به، لأنه رمز الإسلام ورمز المدينة التي عاش وتوفي فيها الرسول.

وكما أفاد الجمل أهله الفوائد المذكورة المعلومة، من ناحية حمله ولحمـه وجلده ووبره، كذلك أفادت النخلة سكان جزيرة العرب فوائد عديدة، حية وميتة، أفادتهم في تقديم ثمرة صارت إداماً للعرب، وطبّاً يستطبون بها لمعالجة عدد من الأمراض. ومادة استخرجوا منها دبساً وخمراً وشراباً، وأفادهم كـل جزء من أجزائها، حتى أنهم لم يتركوا شيئاً من النخلة يذهب عبثـاً. فهـي إذن رمز الخير والبركة بكل جدارة وحق لأهل جزيرة العرب، لا يدانيها في ذلـك أي نوع من أنواع النباتات النامية في هذه البلاد.

وكائن له هذه الفوائد والمنفعة، ينمو ويثمر بسهولة ويسر، لا بد إن يثمن ويقدر، ويميز على غيره.وهذا صارت النخلة سيدة الشجر، لا عند العرب وحدهم بل عند قدماء الساميين أيضاً، وأحيطت عندهم بهالة من التقديس والتعظيم. وزخرفت معابدهم بصورها واستعمل سعفها الأخضر في استقبال الأعياد والأبطال والملوك وكبار الضيوف، لأنه علامة اليُمن والبركة والسعادة والفرح.ولا يزال السعف زينة تزين بها الشوارع في المناسبات العامة المهمة حتى اليوم. وقد عثر على صورها وصور سعفها على النقود القديمة وفي جملتها نقود العبرانيين الدين يحترمون النخلة احتراما لا يقل عن احترام العرب لها، وهذا ورد ذكرها في مواضع عديدة من، التوراة والتلمود.

والنخيل، هي مثل الجمال ثروة ورأس مال يسر على صاحبه ربحاً وافراً. ومن كان له نخل وافر كان غنياً ثرياً. وقد ربح يهود الحجاز أرباحاً طائلة من اشتغالهم بزراعة النخيل هناك. فالتمر هو مادة ضرورية للأعرابي يعيش عليها ويأتدم بها، و إذ هو لم يكن يفلح ولا يزرع، كان يشتريه مقايضة في الغالب من تجار التمور، فيكسب أصحاب النخيل أرباحا طائلة من بيعهم التمور.ولا يوجد مكان في جزيرة العرب فيه ماء، إلا والنخلة هي سيدة المزروعات فيه، بل تكاد تكون النبات المتفرد بالزرع في أكثر تلك الأمكنة. لا يزاحمها نبات آخر من النبات.

والنخلة هي من أقدم الأشجار التـي احتضـنها السـاميون، وللفوائـد التي حصل الساميون عليها من هذه الشجرة.، هي التي حملتهم على تقديسها وعدّها من إلاشجار المقدسة، فنجد النخلـة مقدسـة. عنـد قـدماء السـامين وعدّوا ثمرها وهو التمر من الثمار المقدسة التي تنفع الناس.

أما الكروم، فقد غرست في مناطق من الجزيرة اشتهرت وعرفـت بهـا مثل الطائف واليمن. و أما الأشجار المثمرة الأخـرى مثـل الرمـان والتفـاح والمشمش وأمثالها، فقد غرست في منـاطق عرفـت بالخصـب، وبتـوافر المـاء فيها، ويميل أهلها إلى الزراعة والاستقرار، مثل مدينـة "الطـائف" مصـيف أهل مكة منذ الجاهليـة، والـيمن. وقـد ذكـر إن الكـروم دخلـت إلى بعـض المناطق حديثاً، فورد أنها دخلت إلى "مسقط" مثلاً في القـرن السـادس عشرـ للميلاد، على أيدي البرتغاليين، ودخلـت إلى الحجـاز في القـرن الرابـع بعـد الميلاد غريبة من بلاد الشام. ويرى بعض البـاحثين إن النـبط واليهـود كـانوا الوسطاء في نقل الأشجار المثمرة إلى الحجاز.

أما أشجار ضخمة تمد الناس بالخشب على نحو ما تجده في الهنـد أو في إفريقية، فلجفاف الجزيرة لا نجد فيها مثل تلـك الأشـجار. لـذلك اسـتورد العرب خشب سفنهم ومعابدهم وبيوتهم من الخارج في الغالب، من إفريقيـة ومن الهند، خلا الأمكنة القريبة من الجبال والمرتفعـات التـي يصـيبها المطـر، وتصطدم بها الرطوبة، فقد نبتت فيها أشجار كونت غابات وأيكات، أفـادت من في جوارها، إذ أمدتهم بما احتاجوا إليه من خشـب لاسـتعماله في مختلـف الأغراض. وقد كانت منطقة "حسمى" وأعالي الحجاز ذات غابات، وقد

تعبّد أهلها لإله اسمه "ذو غابة"، إلهَ الغابات، كما كست الأحراج الطبيعية والغابات جبال اليمن وجبال حضرموت وعُمان.

وما زال أهل العروض ولا سيما سكان الخط، يستوردون أخشاب سفنهم من الهند، لعدم وجود الخشب الصالح لبناء السفن عندهم أو في أماكن قريبة منهم. وهم في ذلك على سنة أجدادهم الذين عاشوا قبل الإسلام بل قبل الميلاد، يذهبون بسفنهم الشراعية إلى سواحل الهند وسيلان تحمل إليها التمور وحاصلات جزيرة العرب والعراق وتعود بهم محملة بحاصلات الهند ومنها الخشب الثمين للاستفادة منه في بناء السفن ولاستعماله في المعابد الضخمة المهمة وفي قصور الملوك.

والسدر من الأشجار المعروفة في جزيرة العرب، وترتفع شجرته أمتاراً عن سطح الأرض، وتكوّن ظلاً يقي من يجلس تحته لهيب الشمس ووهجها المحرق. وتكون له ساق قوية متينة. وهو لا يحتاج إلى سقي دائم، لأن جذوره تمتد عميقة في باطن الأرض، فتمتص الرطوبة، ويعطي ثمراً هو "النبق"، ويستعمل ورقه استعمال الصابون في تنظيف الجسم.

وأشجار مثل السدر ذات ارتفاع وظل، وهي أشجار ذات نفع كبير لأهل البلاد التي تغلب عليها طبيعة الجفاف، لا يمكن إن يقدر أهميتها وفائدتها إلا من ركب الصحراء في يوم حار، ثم جاء فجأة فجلس تحت ظل شجرة تقيه وتقي حيوانه من لهب الشمس، سيرى نفسه في جنة وسط جهنم. فلا عجب إذا ما عبد بعض العرب وبعض الساميين مثل هذه الأشجار،

وتقربوا إليها بالنذور والقرابين، وتوسلوا إليها، أو عدّوها من الأشجار المقدسة، من الأشجار المباركة، من أشجار طوبى، الأشجار التي وعد بها المتقون في الجنة.

وقد عبد قدماء العبرانيين بعض الأشجار المثمرة، وعدّوها إلاهة أنثى، لا إلهاً ذكراً، وذلك لخاصية الحمل التي فيها. وقد تصوروا إن للقمر أثراً في حمل تلك الأشجار، أي في إعطاء الثمرة.

وُقد ذكرت أسماء بعض الفواكه والأثمار والأشجار في القرآن الكريم، ويدل ذلك على وجودها في الحجاز، واستعمال الناس لها، ووقوفهم عليها، مثل التين والزيتون والأعناب والطلح والسدر والرمان وعلى وجودها وزرعها في الحجاز، قبل الإسلام بأمد. ولم يكن الحجاز مثل اليمن وحضرموت في كثرة الأشجار والفواكه، وذلك لجفافه بالقياس إلى جو العربية الجنوبية الذي ساعد على نموّ الأشجار.

والأثل والأدراك والغضى ـ الذي يستخرج منه الفحم، والمعروف بجمره، و"السنط"، والسمح، و"الصعتر"، وأمثالها، هي من الأشجار التي لا تزال تنمو وتعيش في مواضع متعددة من الجزيرة، وبعضها في الأقسام الغربية والجنوبية حيث تنمو وتنبت على المرتفعات، يستخرج منها الناس وقوداً، أو ثمراً برياً يأكلونه، وقد يستفيدون من ورقه فيجففونه ويسحقونه فيبيعونه.

وأمـا الحبـوب والخضر ـ والبقـول، فتحتـاج كلهـا إلى سـقي، لهـذا انحصـرت زراعتها في الأمـاكن التـي تتـوافر فيهـا الميـاه أو تتسـاقط عليهـا الأمطار في المواسم المناسبة.لذلك نجدها في الحجـاز وفي الـيمن وفي العربيـة الجنوبية وفي مواضع المياه من نجد والعروض. والحبوب هي الحنطة والشعر والذرة والأرز، وسأتحدث عنها وعن بقيتها في باب الزراعة عند الجـاهليين. وبعض الخضـر، مستورد من الخارج، أدخل من العراق أو من بلاد الشام أو من إفريقية والهند، فالبطيخ مـثلا المعـروف بـع "الخربـز" عنـد أهـل المدينـة مستورد كما يدل عليه اسمه الفارسي من العراق: استورد قبل الإسلام بأمـد. ويمكن الاستدلال من أسماء الأثمار والخضر، ومن دراسة توزيعهـا وأمـاكن وجودهـا،على الأمـاكن التـي جـاءت منهـا، فـدخلت جزيـرة العـرب قبـل الإسلام.

أما "البخور" واللبان - بترول العالم في ذلك الزمان - والصموغ والمرّ والمنتوجات الزراعية الأخرى التي اشتهرت بهـا العربيـة الجنوبيـة، وكانـت مصدر رخائها، ومصدر تنافس الدول الكبرى عليها في ذلـك الزمـان، فقـد زالت أهميتها بالتدريج، وذهب أثر سحرها بتبدل الأيام. و "ظفار" والمناطق الأخرى" وإن كانت لا تزال ترى أشجار البخور تنبـت عـلى الفطـرة حتـى اليوم، قد زالت دولتها الآن، فلا تأتي للسكان بالـذهب والفضـة، فقـد تغـير ذوق العالم، وتبدلت تجارتـه، وصـار يفـتش عـن الـذهب الأسـود، منتـوج الطبيعة في باطن الأرض.

وفي هذه المواضيع من العربية الجنوبية وفي الأودية وحافات الهضاب والجبال التي كانت تنبت بها تلك المواد الثمينة، والتي لا تزال تنبت على الطبيعة، تشاهد كهوف ومغاور غريبة وآبار وكتابات جاهلية بالمسند، وآثار مقابر تتحدث كلها عن قوم كانوا قد استوطنوا هذه الأماكن قبل الإسلام بزمان طويل. أما الان، فهي خرائب، ترجو من الأحياء توجيه نظرهم إليها لإحيائها ولاستنطاق آثارها وكنوزها لتحدثهم عن ماضيها القديم.

وقد حبت الطبيعة اليمن بمزية جعلتها تحتضن كل النباتات المذكورة، وتنبت اكثر أنواع المزروعات، وذلك بانعامها عليها بجبال وبمرتفعات وبمنخفضات حارة رطبة، هيأت لها ثلاثة جواء، تنتج محصولات ثلاثة أنواع من المناخ: منتوج المناخ المرتفع البارد، ومنتوج المناطق المعتدلة، ومنتوج المناطق الحارة.

وقد عرف أهل اليمن الأذكياء كيف يستغلون تربتهم، فعملوا مدارج على سفوح جبالهم وعلى المرتفعات، أصلحوا تربتها، وذلك لحصر مياه المطر عند نزوله، ضماناً لدخوله التربة وإروائها، وزرعوا تلك المدارج أو السلالم العريضة بمختلف المزروعات وذلك قبل الإسلام بأمد طويل، فأمنوا بذلك خيراً وافراً لهم، جعل اليمن من أسعد بلاد جزيرة العرب، فهي العربية السعيدة والعربية الخضراء بكل جدارة، وهي موطن الحضارة وأرقى مكان نعرفه في الجزيرة في أيام ما قبل الإسلام.

ومن النبات ما هو دخيل استورد من الخارج، من العراق أو من بلاد الشام، وقد احتفظ قسم منه باسمه الأعجمي القديم. ويظهر إن بعضه قد دخل بعد الميلاد. وقد يكون من المفيد دراسة نبات جزيرة العرب قبل الإسلام، لمعرفة الدخيل منه وكيفية وصوله إلى الجزيرة، كما يستحسن دراسة الكتابات الجاهلية لاستخراج ما ورد فيها من أسماء النبات.

و أما البوادي فإن ظروف الخصب و النماء فيها محدودة، تركزت في مواضع المياه و في الأماكن الرطبة التي تكون المياه الجوفية فيها على حافة القشرة، و في أعقاب الأمطار، حيث تخضر الأرض و تلبس حلة سندسية جميلة، لكن لبسها لا يدوم طويلاً، فسرعان ما تمزقها الرياح الجافة و الاهوية الحارة، فتقضي عليها وتظهر حقيقة ما تحتها من تربة جافة عبوس، لا مكان للنبات فيها ولا مجال لزرع فيها في مثل هذه الظروف.

والواحات ومواضع الآبار والمياه في البوادي، هي رحمة للإنسان حمّاً، ومنظر تقرّ به العين. فالواحة في البادية، لؤلؤة وكنز وجنة وسط جحيم، لا يدرك جمالها ولا يعرف قدرها إلا من اضطر إلى ركوب البوادي وتعرض لرياح السموم ووهج الشمس وعواصف الرمال تستقبل الأوجه بذرات الرمل الناعمة، تهاجم العيون والأنوف والأفواه، وتضطر حتى الجمل إلى البطء في سيره والى التوقف، ثم تأتي على ما لدى الإنسان من ماء حرص على حمل أكبر كمية يستطيع حملها للوصول إلى مكانه المقصود لضمان حياته في هذه البادية وحياة حيوانه الذي هو فيها جزء من حياته أيضاً. ولولا الآبار والواحات في هذه البوادي، لما كان من الممكن طرقها وسلوكها، وإلا كان الدمار والهلاك.

وفي هذه المواضع التي حبت مما الطبيعة ب "إكسير الحياة" يستعيد المسافر نشاطه ويتجدد أمله، ويسترد قواه، يعطيه ماؤها قوة تعيد إليه كبرياءه وعظمته وجبروته، ثم تنسيه كل ما تعرض له من مصاعب ومشقات، وما أبداه من عجز وضعف تجاه القوى الخفية القادرة المهيمنة على الصحراء. وعندئذ يتذكر الأية القرآنية: ﴿...وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ...﴾ ويشعر ببحر الماء والخضراء، يسحر هذه الأشجار والشجيرات والأعشاب النامية في هذه التربة بفضل "إكسير الحياة". ومهما كان الإنسان في هذا المكان من السذاجة والبلادة والجهل، فلا بد إن يستولي عليه شعور من حيث لا يشعر بعظمة سحر هذا المكان.

أما الغرباء الذين يعجبون من تقاتل العرب فيما بينهم على موضع صغير فيه بئر أو بركة ماء أو عشب، فإنهم سيدركون سر هذا التقاتل في حياة أهل البادية لو كلفوا أنفسهم يوماً اجتياز تلك البوادي الواسعة العابسة. عندئذ فقط، يدركون إن ذلك القتال الذي وسم أهل البادية بسمة حب الغزو والغارات لم يكن سببه فردية وأنانية، وإنما غريزة إنسانية تغلبت في كل إنسان متى عاش في هذه الظروف القاسية العابسة الفقيرة. إنها غريزة المحافظة على الحياة.

ولا غرابة بعدُ إذا ما تغنى العربي. بمواضع المياه والبادية بعد نزول الغيث عليها، و إذا ما أظهر الحنين إليها، وتوجع في شعره وفي غنائه على الليالي المقمرة يقضيها في باديته يناجي سماءه الصافية ونور قمره الساطع

يغازله وبوحي إليه، ويرسل أليه النسمات العليلة، والى جانبه حبيبته. يذكر حسه هذا في شعره وفي غنائه وفي موسيقاه، حتى ليبدو للغريب، وكأن ما يقوله العربي ويحس به نغمة واحدة ساذجه مكررة تعاد وتعاد من غير معنى ولا سبب.ولكن حسه هذا حس الصحراء، وليس في الصحراء غير نغم واحد، تترنم به الطبيعة، فإما هدوء شامل، و أما نسمة واحدة عليلة مشمرة، و أما عواصف رملية، إذا هدأت عاد إلى الصحراء هدوؤها المعهود.

ومناخ جزيرة العرب - على الهموم - حار شديد الحرارة، جاف، إلا على السواحل، ولا سيما في التهائم، فإن الرطوبة تكون عالية فيها، ولهذا يتضايق الناس من أثر الحر فيهم، مع إن الحرارة ذاتها فيها لا تكون عالية كثيراً، و إنما مبعث هذا التضايق هو من الرطوبة المصحوبة بالحرارة، ولهذا صار بعض مواضع التهائم من شر الأمكنة على وجه هذه الأرض.

ولهذا الجو الرطب الحار أثر في حالة الناس، في صحتهم وفي نشاطهم. فانتشرت الأمراض في الأماكن التي تكثر فيها السباخ والمستنقعات، وفتكت بالناس، وتكدس فيها الذباب وتجمعت الحشرات لملاءمة مثل هذه الأجواء لمعيشة هذه المخلوقات.

ولهذا السبب المذكور، عاشت في هذه الأرضين ونمت النباتات التي تألف المناطق الحارة الرطبة، والأعشاب التي تعيش على المستنقعات وفي الأرض الرطبة، من حشائش وقصب وأعشاب.

أما في الداخل، فإن الحرارة فيهـا تكـون جافـة، ولهـذا فإنهـا لا تكـون حديدة الطبع، على نحو حر السواحل. ويتلطف الجـو في الليـالي في النجـاد، فيكون الليل رحمة للناس ينسيهم قسوة النهار وشدة حرارتـه، وفقـر الحيـاة، لا، سيما إذا كمل القمر، وصار قرصاً يسـحر النـاظرين. فـإن سـحره يكـون عاماً، يشمل الغني والفقير، ويبعث في النفـوس الرقـة والحنـان، ويثـير فيهـا عواطف الشجن المنبعثـة مـن قسـوة الحيـاة وشـحها وفقـر الأرض، فتأخـذ النفوس الرقيقة في مناجاته بقيثارة بسيطة ذات ثقوب، ينفخ فيها لتخرج منها أصواتا تسع القمر فعل سحره في نفس الإنسان المعذب في النهـار المحـروم من طيب الحياة التي ينعم بهـا أهـل الأرضـين الآخـرون، أو بـآلات بسـيطة أخرى صنعوها بأيديهم لتعبر أناملهم وأوتار آلاتهم الساذجة عن إحساسـهم الحزين،ثم لا يكتفي أصحاب هذه النفوس الرقيقة في الغالب بإرسال نغمات الحس العميق من آلة، بل يقرنون تلك النغماتالحزينة بنغمات بشرية تنطـق بـما في قلب الإنسان من حس وألم دفين، يوحيه إليه ألم الحرمان، ودغدغة النسيم العليل، وسحر القمر وتلألؤ مصابيح السماء. فتخرج نغمات شـجية حزينـة، تعاد وتكرر، لتسبح السماء على هذا الجـمال السـاحر، ولتفسرـ للسـامع نـوع الحياة في هذه البقاع التي وهبتهـا الطبيعـة عاطفـة عميقـة، وسـحراً فاتنـاً في الليل، وحرمتها خيرات الدنيا في أثناء النهار، ولتخبره بهذه الـنغمات المعـادة إن الحياة هنا بسيطة لا تعقيد فيها ولا التواء وأنبا معـدودة محـدودة، وعـودة وتكرار.

وقد يعجب الغريب من تغزل العرب ب "ريح الصبا"، ومن مسحهم لها إلى حد يبلغ الإفراط، فليس في أشعار العالم، ولا في نثرهم، شعر أو نثر فيه هذا القدر من التغزل بريح من الرياح. وقد لا يفهم الغريب أي تعليل يقدم إليه ولا يقبله، وخير جواب يقدم إليه هو حضوره بنفسه إلى جزيرة العرب للاستمتاع بلذة "الصبا" في ليلة مقمرة من ليالي الجزيرة، وسيعرف عندئذ سحر دلال "الصبا" وسحر تغزل العرب بها، على عكس "السموم"، التي تشوي الوجوه، وتعمي العيون، فتجعل الشعراء يلعنونها، والناس يتذاكرون ثقلها وشدتها عليهم وما ألحقته بهم من مهالك وأضرار.

والمطر هو غوث ورحمة لسكان جزيرة العرب، يبعث الحياة للأرض، فتنبت العشب والكلا والكمأة والأزهار، ويحول وجهها العابس الكئيب إلى وجه مشرق ضحوك، فيفرح الناس وتفرح معهم ماشيتهم، ويخرج أهل الحضر إلى البادية للتمتع برؤية البساط الأخضر المطرز بالأزهار، وللاستمتاع بالمنظر الساحر الذي كسا الربيع به وجوه البوادي، ولصيد الغزلان والحيوانات الأخرى التي جاءت هي أيضاً من مآويها لتشارك الطبيعة في فرحتها، ولتشبع نفسها بعد جوع وعطش. وتفرح الإبل، ويدر لبنها، ويكثر نسلها، وتتضاعف بذلك ثروة أصحابها، ويسير الجمل متبختراً فخوراً بنفسه معتزاً، بطراً لا يقضم منها إلا ما يعتقد أنه طعام لذيذ له، يقضم من موضع ثم يتركه بطراً إلى موضع آخر، وقد كان قبل ذلك من جوعه يأكل كل ما يقع بصره عليه ويراه. أفليس من حق العرب أذن إن تسمي المطر "غيثاً"؟ وأن تفزع وتتوجع من انحباسه، وأن تفزع إلى آلهتها تتوسل إليها

لإرسال سحب المطر إليها، وتتقرب إليها بالدعاء وبصلوات "الاستسقاء" و "الاستمطار"، لترسل إليها غيثاً يغيثها ويفرج كربتها يدرأ عنها مصيبة تنزل بها إن انحبس المطر ؟ لذلك كان انحباس "الغيث" عنه العرب كارثة يتألم منها النإس، ويكابد من فداحتها الحيوان.

والجفاف هو الصفة الغالبة على جوّ جزيرة العرب، فالأمطار قليلة والرطوبة منخفضة في الداخل إلا التهائم والسواحل، فإنها تنتفع فيها كما ذكرنا. ولكن الطبيعة رأفت بحال بعض المناطق، فجعلت لها مواسم تنزل فيها الغيث، لإغاثة كل حي، وأهمها اليمن. أما عمان، فينزل فيها مقدار منه، ينفع الناس ويعينهم على تصريف أمورهم. و أما باقي الأقسام، فإن أكثرها حظوة ونصيباً من المطر، هي النفوذ الشمالي، وجبل شمر، فتنزل بها الأمطار في الشتاء، فتنبت أعشاب الربيع. و أما الصحارى الجنوبية فلا يصبها من المطر إلا رذاذ، وقد تبخل الطبيعة عليها حتى بهذا الرذاذ.

وينهمر المطر أحياناً من السماء وكأنه أفواه قرب قد تفتحت، فيكوّن سيولاً عارمة جارفة تكتسح كل ما تراه أمامها، وتسبل إلى الأودية فتحولها إلى أنهار سريعة الجريان. وقد لاقت "مكة" من السيول مصاعب كثيرة، وكذلك المدينة والمواضع الأخرى وقد يهلك فيها خلق من الناس، وتسيل مياه السيول إلى مسافات هي تصب في البحر، وقد تبتلعها الرمال فتغوص فيها وتجري في باطن الأرض مكونة مجاري جوفية، تقترب وتبتعد عن قشرة

الأرض على حسب قربها أو بعدها منها، وعلى حسب قرارة المكان الذي تسيل عليه.وقد تبلغ البحر فتدفق عيوناً في قاعه، كالذي نشاهده في الخليد بين الساحل والبحرين. وقد استفاد أهل اليمن بصورة خاصة وأهل حضرموت والحجاز من السيول بأن بنوا سدوداً للسيطرة عليها، ولحبسها إلى حين الحاجة. وسد "مأرب" الشهر هو خير تلك السدود شهرة وصيتاً، وقد غذى بإكسير الحياة مساحات واسعة من أرض سبأ. وقد وجد السياح آثار سدود قديمة في نواحي من الحجاز وتجد والعربية الجنوبية تعود إلى ما قبل الإسلام، بنيت في مواضع ممتازة تصلح جيدا لمنع السيول من الذهاب عبثا، حتى إن المهندسين المحدثين رأوا انشاء سدود جديدة في هذه الامكنة للاستفادة من مياه السيول لإحياء أرضين موات في الزمان الحاضر، يمكن قلبها إلى زارع وجنان حضر.

إن أرض اليمن التي صادقتها الطبيعة قأحسنت اليها ووهبتها تحسدها المناطق الأخرى عليها، وهبتها امطاراً موسمية ووهبتها جوا حاراً رطباً في تهامة اليمن، معتدلاً في المرتفعات، وجواً لطيفاً في الجبال، ووهبتها نباتات كثيرة تنايب تنوع هوائها وحيوانات عديدة كثيرة، ومعادن متنوعة، هي ٪ أرض ذات حظ كذلك بعدد سكانها، فإنها حتى اليوم من أكثف مناطق جزيرة العرب وأكثرها سكانا. وسكانها ثروة مهجة ومصنع غذى بلاد العرب والبلاد الإسلامية بموجات من القبائل، نشرت الإسلام والثقافة العربية في البلاد المفتوحة، كما أنه موّن العراق وبلاد الشام في الجاهلية بقبائل،

استوطنت هناك، فكوّنت حكومات مثل حكومة الحيرة وحكومة الغساسنة، ونسب المناذرة ونسب الغساسنة يرجع إلى اليمن. ولا تزال اليمن تقذف بالألوف من أبنائها كل عام، تقذف بهم في شتى الأنحاء إلى سواحل إفريقية المقابلة، حتى بلغ بعضهم الولايات المتحدةوإنكلترة، فكونوا فيها جاليات يمانية. ويعيش اليوم زْهاء مليون يماني خارج اليمن، هاجروا من بلادهم لظروف مختلفة لا مجال للبحث فيها في هذا المكان. وقد سبقهم أجدادهم قبل الإسلام، فطفروا حدود جزيرة العرب وذهبوا إلى مصر ـ والى بعض جزر اليونان.

ويعد سكان "الجبل الأخضر" سعداء حقاً بالقياس إلى سكان جزيرة العرب الساكنين في العربية الشرقية أو في البوادي الواقعة في جنوب المملكة العربية السعودية، فإن الغيوم المثقلة بالأبخرة تصطدم بمرتفعات هذا الجبل فتضطر إلى تفريغ شحنتها عليه.وهذا توافرت المياه فيها، فاستغلها السكان وزرعوا عليها. وصارت الأودية من مواطن الحضارة القديمة التي تعود إلى ما قبل الإسلام بزمان طويل، كما صارت سفوح الجبال والمرتفعات موارد رزق للزراع، يستهلكون من الحاصل ما يحتاجون إليه، ويصدرون الباقي لمن يحتاج إليه من أهل بقبة جزيرة العرب. وما زال أهل البلاد يزرعون على سنة آبائهم وأجدادهم الأقدمين. وقد شاهد السياح آثار سدود في هذه المناطق شيدها الأقدمون للتحكم في الأمطار التي تسقط بغزارة وتجري سيولاً.

وفي مثل هشه الأمكنة نجد كتابات دونها أصحابها شكراٌ لآلهتهم على إنعامها عليهم بالغلة الوافرة وبالحصاد الغزير،أو لانعامها عليهم بأرض حصبة ولمساعدتها أباهم على حفر بئر زودتهم بماء للسقي وللزرع، ووجود هذه الكتابات دليل ناطق على وجود الحضارة فيها في تلك الأيام.

أما مواطن الحضارة، فقد وزعتها الطبيعة بيدها، وما برح هذا التوزيع معترفاً به. وزعتها عليها توزيعها للنبات والمعادن والماء. ففي المحلات ذوات الحظ للتي أحبها الماء، فطهر فيها واحاتٍ وعيوناً واحساءً أو رطوبات أو نهيرات أو مطرا موسمياً، ظهر الاستقرار، وتولدت الحضارة على قدر إسعاف الماء ومقدار استعداده لوضع نفسه في خدمة الأهلين وفي خدمة حيواناتهم وزراعتهم لا فرق بين إن يكون الماء في باطن الجزيرة أو في الأودية أو في السواحل، ولو إن لموقعه دخلاً في ازدياد ثروة أصحابه وفي تمكينهم من الاتصال بالخارج، فتنفتح عندئذ لهم أبواب العالم، كأن يكون الموضع على طريق، أو على مفترق طرق، أو على ساحل أو مرفأ بحري، أو على مقربة من بلد متحضر مثل العراق أو بلاد الشام. أما إذا كان واحة منعزلة ومحلاً نائياً، فإن الحضارة لا يمكن إن تظهر بالطبع فيه ظهورها في الأماكن المذكورة.

ومن هنا نرى الحضارة والاستقرار والميل إلى الاستقرار في بلاد اليمن وحضرموت أظهر وابرز من أي مكان آخر، نرى فيها حكومات بارز المفهوم من الحكومة قبل الميلاد بأمد طويل، ونرى فيها مدناً عامرة مسوّرة لها حصون وقلاع وتنظيمات وتشكيلات حكومية، ونرى فيها مؤسسات دينية ترعى المسائل الروحية والروابط التي تربط بين البشر وخالقهم، ونرى أنظمة

وقوانين مكتوبة وسدوداً وأبنية عالية مرتفعة وفناً ما زالت جذوره ومظاهره خالدة باقية في دم الناس. ثم نرى مثل ذلك أو قريباً منه في أعالي الحجاز وفي الأرضين الداخلة في هذا اليوم في المملكة الأردنية الهاشمية. اما الواحات والعيون والآبار، فقد صارت مستوطنات لتموين المستقر والقادم بالماء والتمر وبشيء من الحبوب والخضر، واذا كانت على طريق صارت مأوى للقوافل، ولهذا لم يكن من الممكن قيام حكومات كبيرة بها، لعدم توفر الشروط اللازمة لإنشاء الحكومات الكبيرة بها، واضطرت إلى توثيق علاقاتها بأهل البادية، وإلى الارتباط بهم بروابط العهود والمواثيق ودفع الإتاوة لمنعهم من التعرض لهم بسوء.

فالحياة في جزيرة العرب، هي هبة الماء، ولهذا انحصرت في هذه الأماكن المذكورة، وصار فرضاً على رجال القوافل وأصحاب التجارات المرور بها، وهو أي الماء، الذي رسم لأصحاب الجمال خطوط سيرهم إلى المواضع التي يربدون السير إليها، وحدد لهم معالم الطرق. وأقام لهم أماكن الراحة، وما زال الأعراب والتجار يسلكون تلك الطرق، للوصول إلى الأماكَن النائبة بالوسائل القديمة التي استعملها سكان الجزيرة قبل الإسلام، وبالمركب القديم، بطوله وبعرضه وهو الجمل. ولكن وسائط النقل الحديثة التي نافسته وأحلته مكرما على التقاعد واضطرته إلى الانسحاب من بعض الطرق، لا تزال تطارده وتنافسه في الطرق الأخرى، وعندئذ لا بد من حدوث مشكلات بالنسبة إلى تربية هذا الحيوان الصحراوي القديم الذي أخلص للبادية، وبقي على إخلاصه لها، ولكن الأمر ليس بيد البادية، وإنما هو بأيدي قاهر البوادي والأرضين والجواء، السيد الإنسان.

أما السواحل، فخلقت من سكانها رجال بحر، يحبوّن ركوب البحر واستخراج ما فيه للتعيش به ولبيعه وتصريفه في الأسواق، كما جعلتهم أصحاب ضيافة، يقدمون الماء وما عندهم من طعام إلى السفن القادمة إليهم، ويعرضون ما عندهم من سلع فائضة لبيعها لهم، ويشترون من أصحاب تك السفن ما عندهم من بضاعة نافعة، فتحولت إلى أسواق للبيع والشراء، المعاملون بها مزيج من القادمين إليها من أنحاء الجزيرة ومن الوافدين الأجانب القادمين إليها من الخارج، وقد اجتذبت هذه الأمكنة إليها الغرباء، فسكنوا بها، واختلطوا بسكانها، وتولدت بها أجيال مختلطة ممتزجة السماء، كلما كانت قريبة من ساحل مقابل، كان مظهر الاختلاط والامتزاج أظهر وأكثر، وهذا احتضنت تهامة والسواحل العربية الجنوبية عدداً كبيراً من الإفريقيين، هاجروا إليها من السواحل الإفريقية المقابلة واستقروا فيها بكثرة، واختلطوا بأصحاب البلاد الأصليين. أما سواحل عمان والخليج، فقد اجتذبت إليها الهنود والفرس، وقد عُثر في مواضع من سواحل عمان على بقايا عظام بشرية اتضح إنها من بقايا الهنود "الدراوديين"، سكان الهند القدماء. ولم بنس البحارة وأصحاب السفن اليونان سواحل جزيرة العرب، فأقاموا مستعمرات يونانية في مواضع متعددة منها سيأتي الكلام عليها فيما بعد.

وقذفت الطبيعة بالأعراب في كل مكان من أمكنة الجزيرة، حتى زاد عددهم على الحضر. والصفة الغالبة علهم، أنهم لا يرتبطون بالأرض ارتباط المزارع بأرضه، ولا يستقرون في مكان ألا إذا وجدوا فيه الكلأ والماء، فإذا

جفّ الكلأ وقلّ الماء، ارتحلوا إلى مواضع جديدة. وهكذا حياتهم حياة تنقل وعدم استقرار، لا يحترفون الحرف على شاكلة أهل الحضر، ولذلك صارت حياتهم حياة قاسية، يتمثل مجتمعهم في القبيلة. فالقبيلة هي الحكومة والقومية في نظر البدوي.

وإن حياة على هذا الشكل والطراز، حياة لا تعرف الراحة والاستقرار، ولا تعترف إلا بمنطق القوة، حياة جلبت المشقة لأصحابها،والمشتقة لمن يقيم على مقربة منهم من الحضر. فهم في نزاع دائم فيما بينهم، ثم هم في نزاع مع الحضر، وهذا كان خطر البداوة على العرب، يوازي خطر الغرباء البعداء عليهم، وصارت البداوة مشكلة عويصة لكل حكومة، ولا تزال مشكلة حتى اليوم. ولن تحل إلا باقناع الأعراب بان حياة الاستقرار خير لهم وأفضل من حياتهم التي يحيونها، وذلك بوسائل لا يدخل الكلام عليها في حيز هذا الكتاب.

الطرق البرية:

من نتائج غلبة الطبيعة الصحراوية على أرض جزيرة العرب، إن انحصر امتداد شرايين المواصلات فيها في أماكن خططتها الطبيعة نفسها للإنسان، فجعلتها تسير بمحاذاة الأودية ومواضع المياه والآبار، وهي السبل الوحيدة التي يستطيع المسافر ورجال القوافل إن يستريحوا في مواضع منها ويحملوا منها الماء. وتنتهي رؤوس هذه الطرق بالعراق وببلاد الشام في الشمال وبالعربية الجنوبية وبموانئها في الجنوب، وهناك طرق أخرى امتدت

من العربية الشرقية إلى العربية الغربية، ولها مراكز اتصال بالطرق الطولية الممتدة من الشمال إلى الجنوب في الغالب. وقد أقيمت في مواضع من هذه الطرق مواضع سكنى ذات مياه من عيون أو آبار، عاشت ونمت بفضل منة مائها عليها، فصارت منازل مريحة لرجال القوافل يحمدون آلهتهم عليها، ويحمد أصحاب ذلك الماء آلهتهم على منتها عليهم بإعطائهم ذلك الكنز العظيم الذي أعانهم على العيش وجلب لهم كرم التجار.

وفي العقد الحساسة من هذه الطرق نشأت المستوطنات، ومواطن السكنى القديمة انتشرت في أماكن متباعد بعضها عن بعض في الغالب، فكان لهذا التوزيع آثر كبير في الحياة الاجتماعية والحياة السياسية والعسكرية، ولا شك. وما الطرق الحالية التي يسلكها الناس اليوم إلا بقية من بقايا تلك الطرق القديمة التي ربطت أجزاء الجزيرة بعضها ببعض، كما ربطت الجزيرة بالعالم الخارجي. ونجد في مخلفات تلك المستوطنات مواد مستوردة من مواضع بعيدة، هي دليل بالطبع على إن الإنسان كان يقطع الطرق قبل الميلاد بمئات من السنين ليتاجر ويبيع ويشتري دون إن يبالي ببعد المسافة وطول الشقة وصعوبة الحصول على وسائل النقل وما يتعرض له، وهو في طريقه إلى هدفه، من مخاطر وأهوال.

وتعد "نجران" من أهم المواضع المهمة الحساسة في شبكة المواصلات البرية قبل الإسلام، ففيها تلتقي طرق المواصلات الممتدة في الجنوب، وفيها يتصل الطريق البري التجاري المهم الممتد إلى بلاد الشام، فيلتقي بطريق العربية الجنوبية ومنها يسير الطريق المار إلى "الدواسر" فالأفلاج فاليمامة أو ساحل الخليج ومنه إلى العراق.

ولم تموّن الطرق البرية المـارة بالعربيـة الشرـقية أي "سـاحل الخلـيج" العراق بتجارة جزيرة العرب وبالمواد المستوردة إليها مـن الهنـد، بـل موّنتهـا بموجات من البشر منذ آلاف السنين قبل الميلاد. فقد كانت القبائل العربيـة النازحة من الجنوب لأسباب متعددة تحطّ رحالها على هذا السـاحل، انتهـازاً لفرصة ملائمة ترحل خلالها إلى العراق لتستقر فيه. وقد سلكت أكثر القبائل العربية التي استوطنت العراق هذا السبيل حيـنما هـاجرت إليـه قبـل المـيلاد وبعده أيضاً.

الفصل السابع
أنساب العرب

للنسب عند العرب شأن كبير، ولا يزال العربي يقيم له وزناً، ولا سيما عربي للبادية. فعلى نسب المرء في البادية تقوم حقوق الإنسان، بل حياته في الغالب. فنسب الإنسان، هو الذي يحميه، وهو الذي يحافظ علىما حقوقه ويردع الظالم عنه ويأخذ حق المظلوم منه.

وقد يبدو ذلك للمدني الأعجمي أمراً غريباً شاذاً غير مألوف. ولكن هذا المدني نفسه يعمل بالنسب ويأخذ به، وإن كان في حدود ضيقة، فجنسيته هي نسبه، تحميه وتحفظ حقوقه. وليس نسب الأعرابي غير هذه الجنسية، يحتمي به، لأنه يصونه ويحفظ حقوقه ويدافع عنه.وهو مضطر إلى حفظه، وإلى عدّ آبائه وأجداده وذكر عشيرته وقبيلته، لأنه بذلك يسلم، ويحافظ على حياته. فإن أراد شخص الاعتداء عليه، عرف إن وراءه قوماً، يدافعون عنه ويأخذون حقه من المعتدى عليه. وهو لذلك مضطر إلى حفظ نسبه والمحافظة عليه.

وأما كون الحضر أقل عناية بأنسابهم من أهل الوبر، فلأن الحاجة إلى النسب عندهم أقل من حاجة أهل الوبر إليها. فالأمن مستقر، ولدى الحضر في الغالب حكومات تأخذ في المعتدى عليهم من المعتدين. ثم إن مجال الاختلاط والامتزاج عندهم أكثر وأوسع من أهل البوادي وسكان الأرياف،

وكلما كانت الحواضر قريبة من السواحل ومن بلاد الأعاجم، كان الاختلاط أوسع وأكثر، ولهذا ضعفت فيها وشائج الدم والنسب، وكثر فيها التزاوج والتصاهر بين العرب والعجم، فصعب على الناس فيها المحافظة على أنسابهم، وقلت الفائدة من النسب عندهم. ولهذا لم يعتنوا به عناية الأعراب بالأنساب.

فالانتماء إلى عشيرة أو في قبيلة أو حلف، هو حماية للمرء، وجنسية في عرف هذا اليوم. ولهذا صار إخلاص الأعرابي لقبيلته أمراً لازماً له محتماً عيله، وعليه أن يدافع عن قبيلته دفاع الحضري عن وطنه.فالقبيلة هي قومية الأعرابي، وحياته منوطة بحياة تلك القبيلة. ولهذا كانت قومية أهل الوبر قومية ضيقة، لا تتعدى حدودها حدود القبيلة وحدود مصالحها وما يتفق أهل الحل والعقد فيها عليه. ومن هنا صارت القبائل كُتلاً سياسية، كل كتلة وحدة مستقلة، لا تربط بينها إلاّ روابط المصلحة والفائدة والقوة والضعف والنسب.

والعادة انتساب كل قبيلة إلى جدّ تنتمي إليه، وتدعي أنها من صلبه، وإن دماءه تجري في عروق القبيلة، وتتباهى به و تفاخر، فهو بطلها ورمزها، وعلامتها الفارقة التي تميزها عن القبائل الأخرى. وليس ذلك بدعاً في العرب، بل إنّا لنجد الأمم والشعوب الأخرى تنتمي إلى أجداد وآباء. فـ هيلين، هو جدّ أهل "دورس، ومنه أخذ "الهيليون" اسمهم هذا. وكان للرومان وللفرس وللهنود وللأوروبيين أجداد انتموا إليهم واحتموا بهم

وتعصبوا لهم ونسبوا أنفسهم إليهم على نحو ما نجده عند العرب والإسرائيليين وبقية الساميين.

وفي التوراة ولا سيما "أسفار التكوين" منه، أبرز أمثلة على النسب، نجد فيها أنساب الأنبياء والشعوب، وأنساب بني إسرائيل. يسبق النسب في العادة جملة: "وهذه مواليد" "وإله تولدت"، ثم يرد بعدها النسب. أي أسماء من يراد ذكر نسبهم. قد يذكر نسب الأب والزوجة والولد، وقد لا تذكر الزوجة، بل يكتفي بالأب وبأولاده. وقد لا يذكر الولد. والذي يقرأ هذه الأسماء يقرأها وكأنها أسماء أشخاص حقاً. ولكننا إذا قرأناها قراءة نقد، نرى أن بعضها أسماء مواضع ومواقع، أو أسماء قبائل، وعشائر أو أسماء طواطم، أي أسماء حيواناتّ سمت بها القبائل، مثل "ذئب" و "كلب" و "أسد" و "ضبة" وأمثال ذلك، وكلها كناية عن قائل وشعوب عاشت قبل الشروع في تدوين هذه الأنساب أو في أيام التدوين.

ويظهر من كيفية عرض هذه الأنساب وجمعها وتبويبها أن في العبرانيين جماعة من النسابين اختصت بجمع الأنساب وحفظها، ومنهم من كان يعتني بجمع أنساب الغرباء عن بتن إسرائيل، وربما كان كتبة الأسفار من هؤلاء. فلما شرع كتبة أسفار التكوين بقصة الخلق وبكيفية، وزع شعوب العالم وظهور الإنسان على سطح الأرض، كان لابد من ذكر الشعوب وأنسابها على أسلوب كتابة التأريخ في ذلك العهد، فاستعين بما نجمع عند نسابي العبرانيين من علم بالنسب، وأدرج في هذه الأسفار.

وقد وردت في التوراة في أسفار التكوين وفي "أخبار الأيام الأولى" أسماء قبائل عربية، رجعتها إلى مجموعات، مثل مجوعة "يقطن" "يقطان"، ومجموعة الإشماعليين، أي الإسماعيلين، نسل إسماعيل،غير إنها لم تشر كعادتها بالنسبة إلى كل أنساب البشر إلى المورد الذي أخذت منة تلك الأنساب. لذلك لا ندري إذا كانت التوراة قد اقتبست ما ذكرته عن أساب الأمم من الأمم التي تحدثت عن نسها، بأن أوردت تلك الأنساب على نحو ما كان شائعاً متعارفا عند الأمم المذكورة بالنسبة لنسبها، أو أنها روتها على حسب ما كان متعارفاً عند قدماء العبرانيين في أجداد البشر وفي أنسابهم، فدوّنتها على هذا النحو الشائع بين العبرانيين اذ ذاك.

أما النصوص الجاهلية، فإنها لم تتحدث، ويااللاسف، عن مجموعات قبائل على النحو المتعارف عليه عند علماء النسب. ولكنها جاءت بأسماء قبائل عديدة كثيرة، لم يعرف من أمرها أهل الأخبار والنسب شيئاً. فنحن نقف على أسمائها لأول مرة،.بفضل تلك الكتابات.

وقد أفادتنا الكتابات الجاهلية فائدة كبيرة من ناحية دراسة أسماء القبائل الواردة في كتب النسب والموارد الإسلامية الأخرى، إذ مكنتنا من الوقوف على الصلات بينها، وعلى معرفة ما سمي منها بالأب أو الابن أم الأم، كما عرفتنا على مواطن عديدة من مواطن الخطأ التي وقع فيها النسابون وأصحاب الأخبار، وعلى كثير من الوضع الذي، وضع في النسب أو في القصص المروي عن القبائل جهلاً أو عمداً أو ظهوراً بمظهر العلم والإحاطة بأنساب الرب وأخبارهم، الجاهلين منهم والإسلاميين.

ولم أجد في الشعر الجاهلي هذه القحطانية والعدنانية التي يراها أهل النسب والأخبار، وأقصى ما وجدته فيه قصيدة للأخنس بن شهاب بن شريق التغلبي حوت أسماء قبائل وأسماء مواطنها ومواضعها، هي: "معد" و"لكيز" و"بكر" و"تميم" و"كلب" و"غسان" و"بهراء" و"إياد" و"لخم". وهي قبائل بعضها عدنانية وبعضها قحطانية في اصطلاح أهل النسب، إلا أنني لم أجد فيها أسماء آباء هذه القبائل ولا أجدادها، ولم أستطع أن أفهم منها أن هذه القبيلة، هي قبيلة عدنانية، وأن تلك قبيلة قحطانية، فقد جاءت الأسماء متداخلة وكل ما وجدته فيها مما يخص النسب، **هذا البيت**:

فوارسها من تغلب ابنة وائل حماة كماة ليس فيها أشائب

ولم يرتفع الأخنس بنسب تغلب إلى ما وراء وائل من آباء وأجداد.

والحق أن من يقرا هذه القصيدة دون أن يقرأ اسم صاحبها، يرى أنها من قصائد الشعراء المتكلفين الذين ظهروا في أيام الدولة العباسية، ولن يخطر بباله أبداً أنها من نظم شاعر جاهلي. وأنا أريد أن أتجاسر فأقول: إني أشك في صحة نظم ذلك الشاعر هذه القصيدة، وأسلوب نظمها يأبى أن يرجعها إلى ذلك العهد.

وقد خصص "ابن النديم" في كتابه "الفهرست، فصلاً بـ "أخبار الأخباريين والنسابين وأصحاب الأحداث"، ذكر فيه أسماء بعض من عرف واشتهر بحفظه للأنساب، ولا سيما من ألف فيهم تأليفاً في النسب. وقد طبعت بعض مؤلفات المذكورين، وهي متداولة بين الناس. والذين ذكرهم "ابن النديم" هم من اشتهر وعرف وذاع خبره في العراق وفي البيئة التي

اتصل بها "ابن النديم"، وهم من أهل الحواضر في الغالب، إلا أن بين أهل البوادي والأماكن القصية النائية المنعزلة جماعة كانت قد تخصصت بالنسب، انحصرت شهرتها في البيئة التي عاشت فيها. ولهذا لم يصل خبرهم إليه والبنا، وكثير منهم لم يؤلف في النسب تأليفاً، و إنما حفظه حفظاً، شأنهم في ذلك شأن النَسّابين الجاهلين، أو الذين أدركوا الإسلام.

ونجد في كتب الأدب والتواريخ قصصاً عن بعض النسابين في الجاهلية وفي الإسلام، يثير الدهشة من قدرة وشدة الحافظة عند أولئك النسابين في حفظ الأنساب. وقد عرف أحدهم ب "النَسّابة"، فقيل: "فلان النَسّابة"أو "النسابة". وقد كان لهم شأن خطير بين قومهم، لأنهم المرجع في الأحساب والأنساب، واليهم المفزع عند حصول اختلاف في الأمور المتعلقة بها. ويذكر أن الخليفة "عمر" أمر بتسجيل الأنساب وتبويبها وتثبيتها في ديوان، وذلك عند فرضه العطاء، " فبدأ بالترتيب في أصل النسب، ثم ما تفرع عنه، فالعرب عدنان وقحطان. فقدم عدنان على قحطان لأن النبوة فيهم وعدنان تجمع ربيعة ومضر، فقدم مضر على ربيعة لأن النبوّة فيهم، ومضر تجمع قريشاً وغير قريش، فقدم قريشاً لأن النبوة فيهم، وقرش تجمع بني هاشم وغيرهم، فقدم بني هاشم لأن النبوة فيهم، فيكون بنو هاشم قطب الترنيب، ثم بمن يليهم من أقرب الأنساب إليهم حتى استوعب قريشاً، ثم بمن يليهم في النسب حتى استوعب جميع عدنان. وقد كان هذا التسجيل سنة خمس عشرة للهجرة، في رواية، أو سنة عشرين في رواية أخرى.

وذكر أن الخليفة قال: "أيما حي من العرب كانوا في حي من العرب أسلموا معهم فهم معهم، إلا أن يعترضوا، فعليهم البيّنة، كالذي فعله مع "بجيلة" رهط جرير بن عبد الله بن جابر، وكانوا قد تفرقوا، واغتربوا بسبب حروب وقعت بينهم والتحقوا بقبائل أخرى. وروي أن عوف بن لؤي بن غالب ألحق نسبه بـ "غطفان"، والتحق نسب بنيه "بني مُرّة" بَغَطفان، ويقال أن الخليفة قال لو كنت مستلحقاً حياً من العرب، لاستلحقت ينـي مُرًة، لما كنا نعرف فيهم من الشرف البين، مع ما كنا نعرف من موقع عوف بن لؤي بتلك البلاد. ثم قال بعض أشرافهم: إن شئتم أن ترجعوا لنسبكم من قريش، فافعلوا. ولكنهم كرهوا أن يتركوا نسبهم في قومهم، ولهم فيهم من الشرف والفضل ما ليس لغيرهم."

وقد ضاعت أصول الجرائد التي دوّنت عليها الأنساب في ذلك الديوان، ولم يبق منها شيء. ويظهر إن أهل الأخبار لم ينقلوا صورها، و إنما أخذوا الأسس التي قام عليها التسجيل على نحو ما ذكرت، وبالجملة فإن في إشارتهم إلى تلك الأسس والقواعد التي سار عليها الخليفة في اتخاذ القربى بالرسول والوضع القائم للقبائل، فائدة كبيرة لدراسة أسس تثبيت الأنساب عند العرب في صدر ا لإسلام.

ويذكر إن الذي قام بوضع مخطط الأنساب وبتسجيل القبائل والعشائر وفق الخطة التي أشرت إليها، هو "عقيل بن أبي طالب"، وهو من الثقات في معرفة الأنساب، ومعرفة بن نوفل، وجبير بن مطعم، وإن الذي أشار عليه

بتدوين النسب في الدواوين هو "الوليد بن هشام بـن المغـيرة" لمـا رآه من عمل الروم في تسجيل العطاء في بلاد الشام.

ولم يقتصر التسجيل المذكور على تسجيل نسـب القبائـل وحـدها، بـل شمل ذلك نسب أهل القرى أيضـاً، كنسـب أهـل مكـة والمدينـة والطـائف وغرهـا. وذلـك لأن سـكانها وإن كـانوا مـن أصـحاب المـدر، وقـد أقـاموا واستقروا في بيوت ثابتة، إلا أنهم كانوا كالأعراب مـن حيـث الانتسـاب إلى الآباء والأجداد. وقد رأينا أن عمر كان قد بدأ بقوم الرسول، وقومه حضـر، من أهل مكة، إلا أنهم كانوا لا يختلفون عن أهل الوبر في التعلـق بالأنسـاب وفي حفظهـا، لأن حيـاتهم الاجتماعيـة وإن كانـت في قريـة، إلا أن غريـزة المحافظة على النفس والدفاع عن الحقوق حملتهم مثل الأعراب على التمسك بالعصبية، بعصبية النسـب، ليتمكنـوا مـن المحافظـة عـلى الأمـن والسـلامة والمال، لعدم وجود حكومة قوية تقوم اذ ذاك بتأمين هذه الواجبـات. ثـم إن هذه الأماكن محاطة بالأعراب، وبين أهل مكة من كان شـبه حضـري، وبيئـة مثل هذه لا بد لهـا مـن الاحـتماء بعصـية النسـب، وبـالتزاوج معـالأعراب، لتكوين رابطـة دمويـة، تـؤدي إلى عصـبية تضـطر الطـرفين إلى الـدفاع عـن مصالحهما المشتركة وتكوين كتلة واحدة تستجيب للنخوة ولنـداء الاسـتغاثة في ساعة الحاجة والضرورة. ولهذا كان لتزاوج عنـد العـرب أهميـة كبـيرة في السياسة. ومن هنا نظر سادات القوم والملوك إلى التزوج مـن بنـات سـادات القبائل الكبيرة نظرة سياسية في الدرجة الأولى وذلك لشد عضدهم ولتثبيت

ملكهم ولضبط القبائل، وبضبطها يستتب الأمن وينتصر على الأعداء.
وقد كان لزواج معاوية في الإسلام من "كلب" أثر كبير في السياسة الأموية وفي تثبيت ملكه وملك ابنه يزيد وملك مروان الذي انتصر بهم في معركة "مرج راهط" على القيسيين.

وعلى الرغم من التسجيل المذكور الذي كان للعطاء، أي لأغراض حكومية رسمية، فإن أنساب القبائل لم تثبت ولم تستقر إلا بعد ذلك بأمد. وآية ذلك ما نجده من خروج قبائل في العصر الأموي من نسب قديم، ودخولها في نسب آخر جديد. وقد كان شروع النسابين في تسجيل علمهم وتسوينه، مما ساعد كثيراً ولا شك في تثبيت هذه الأنساب وإقرارها، ولا سيما أنساب القبائل المشهورة المعروفة، وقد وصلت بعض كتب الأنساب، وطبع قسم منها.

وقد وضع بعض المؤلفين، مثل الواقدي أبي عبد الله محمد بن عمر المتوفى سنة "٢٠٧هـ"، مؤلفاً في "وضع عمر الدواوين، وتصنيف القبائل ومراتبها وأنسابها"، إلا إنها ضاعت، فحرمنا الاستفادة منها، ولو بقيت مثل هذه المؤلفات اذن لكان لنا علم قيّم ورأي في كيفية تصنيف القبائل في تلك الأيام.

وقد كان بعض النسابين قد تخصص بنسب جماعة من العرب، جماعة قومه ومن يرتبط بهم في الغالب. مثل "الزبير بن بكّار" صاحب "كتاب نسب قريش وأخبارها"، ومثل "عقيل بن أبي طالب"، وكان قد تخصص بنسب قريش، ومثل "أبي الكناس الكندي"، وكان أعلم الناس بنسب كندة،

ومثل "النجاربن أوس العَدْواني"، وكـان مـن أحفـظ النـاس لنسـب "معد ابن عدنان"، ومثل "عديّ بن رثاث الإيادي"، وكان عالماً بإياد، ومثل "خراش بن إسماعيل العِجْلي"، وكـان عالمـاً بنسـب ربيعـة. وعـن هـؤلاء وأمثالهم أخذ أهل الأنساب علمهم بالأنساب، ووضعوا كتباً في نعشا القبائل أو في أنساب العرب، أو في انساب جماعة منهم.

ولتسجيل "عُمَر" للأنساب شأن كبير بالنسـبة إلى البـاحثين في تطـور النسب عند العرب، لأنه ثبت بذلك الأسس ووضـع القواعـد للنسـابين في الإسلام وقيل من الاضطراب الذي كان يقع في النسب، بسـبب الاخـتلاط، وعليه سار المسلمون في تقسـيم العـرب إلى أصـلين. ولا بـد أن يكـون لهـذا التقسيم أصل قديم، يرجع إلى ما قبل عمر. أقره الخليفة، وجعله أساساً له في التقسيم الذي بقيا مرعياً متعارفاً عليـه بـين النسـابين إلى اليـوم. ويمكـن أن نقارن هذا العمل، أي تسجيل النسب وتثبيه في سجلات، بالعمل الذي قـام به "عزرا" في تثبيت أنساب اليهود وتدينها، وفي تـدوين انسـاب الغربـاء، لتستقر بذلك الأنساب فسار من جاء بعده من النسابين في تعيين النسب عـلى أساس ذلك التدوين.

وفي القرآن الكريم آيات تشير إلى عنايـة القـوم بأحسـابهم وأنسـابهم، ولكنه لم يتعرض لبيان وجهة نضرهم بالنسبة إليها، ولا يشـعر في موضـع مـا منه بوجود تلك الفكرة التي ألحّ على وجودها أهل الأخبـار، وهـي انقسـام العرب إلى ثلاث طبقات أو طبقتين، ووجود نسبين أو جملة أنساب للعرب،

ولم يرد فيه اسم "عدنان" ولا "قحطان"، ولا أي من هذه الأشياء التي يتمسك بها أهل الرواية والأخبار، ويقصونها لنا على أنها من الحقائق الثابتة في أنساب العرب، وعلى أن العرب كانوا حقاً من جدّين هما: عدنان وقحطان.

بل كان ما ورد في القرآن يشعر أن العرب كانوا ينظرون إلى أنفسهم أنهم من جد أعلى واحد، هو: "إبراهيم" وأن "إبراهيم" أبو العرب: "وجاهدوا في الله حق جهاده. هو اجتباكم. وما جعل عليكم في الدين من حرج، ملة أبيكم إبراهيم. هو سماكم المسلمين ". فلم يفرق بين عرب "قحطانيين وعرب عدنانيين. ورُوي: إن الرسول قال: "كل العرب من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام."

بل حتى الشعر الجاهلي، لا نجد فيه إشارة واحدة تفيد اعتقاد الجاهليين بوجود أصلين أو ثلاثة أصول أو أكثر لهم. وكل ما ورد فيه هو فخر بقحطان وفخر بعدنان أو معدّ أو غير ذلك من الأسماء التي تعد من أسماء الأجداد التي ينتهي إليها "الشعب" أو "الجذم". وأما التفصيلات الأخرى والأسماء الواردة في تحب النسب أو الأخبار والتواريخ، فهي من روايات الإسلاميين. ثم إن من الشعر الجاهلي ما لا يصح أن يكون جاهلياً، ومنه ما قيل قبل الإسلام، ولا يصح كل الشعر الجاهلي أن يكون شاهداً على آراء أهل الجاهلية البعيدين عن الإسلام.

كذلك لا نجد في شعر الجاهلية سلسلة نسب شحطان أو عدنان. ولا نجد في الأخبار ما يفيد وقوف أهل الجاهلية عليها ر وهي سلسلة أخذت اسماؤها من التوراة، وبعضها أسماء محرفة موضوعة على شاكلة الأسماء التوراتية. أما في الحديث النبوي، فقد ورد أن الرسول انتسب إلى "أسد"، وهو والد "عدنان"، ثم قال: "كذب النسابون". و في كل ذلك دلالة على أن أسماء آباء قحطان وعدنان، إنما دونت وتثبت في الإسلام. أما قبل الإسلام، فلعل بعضهم وفي أيام الرسول، كان قد تلقن من اليهود نسب قحطان، وان بعض اليهود لقن العرب نسباً لعدنان، فلما لاكت الألسنة تلك الأنساب، وسمعها الرسول قال: "كذب النسابون".

أما أسماء أبناء قحطان وعدنان فما دون ذلك، فإنها أسماء عربية في الغالب، و ينقطع منها أثر التوراة وأثر الأسماء التوراتية، مما يدل على أن النسابين العرب كانوا على علم وبصيرة بتلك الأسماء، وأنها كانت معروفة عندهم. وهي أسماء لا ترد في التوراة ولا خبر لها عند أهل الكتاب.

وقد ذهب "دوزي" إلى وجود فروق أساسية بين القحطانيين والعدنانيين، حتى ذهب إلى وجود اختلاف بين نفسهية كل جماعة من الجماعتين. وأنا لا أريد أن أنكر عليه وجود العداء الذي كان قد استحكم بين القبائل التي تنتسب إلى معد أو إلى قحطان، ولا أريد أن أنكر عليه نهجا شعراء اليمن على قبائل معد، أو عدنان، ولا نهجم شعراء عدنان على قبائل اليمن المنتمية إلى قحطان، ولا أريد أن أنكر افتخار اليمانيين بانتسابهم إلى اليمن، ولا افتخار العدنانين بانتسابهم إلى عدنان أو مضر أو معد أو غير

ذلك من أسماء الشعوب والأجذام، لا أريـد أن أنكـر شـعر "امـرىء القيس" في افتخاره بنسبه في الـيمن، ولا أن أنكـر شـعر غـيره مـن الشـعراء اليمانيين أو الشعراء العدنانيين في الافتخار باليمن أو بمضر أو بمعد. ولكنني لا أريدّ أن أنكر في الوقت نفسه افتخار القبائل القحطانية بعضها على بعـض، وافتخار القبائل العدنانية بعضها عليبعض، وهجاء القبائل القحطانية بعضها لبعض، وهجاء القبائل العدنانية بعضها لبعضـها هجـاء لا يقـل عـن هجـاء اليمن لمعد أو هجاء معد لليمن. فهل يصح أن يتخذ هذا الهجاء سبباً لوضـع نظرية في اختلاف أجناس هذه القبائل؟ وهل يصـح أن نجعـل هـذا الهجـاء حجة على تباين أصل القحطانيين، وعلى تبـاين أصـل العـدنانيين ؟ إن جـاز ذلك، وجب علينا إذن إعادة النظر في كل ما هو مكتوب عن أصول القبائـل وفي كل ما هو مدوّن في كتب النسب والأخبار.

هذا "سلامة بن جندل السعدي"، وهو من مضر، يحل في شـعره عـلى معدّ، ويهجوها هجاًء مراً، وهذا "قي س بن الخطـيم" لسـان الأوس يحمـل على الخزرج، ويردد ذكريات الأيام التي كانت بـين الأوس والخـزرج بمثـل الشدة التي تجـدها في شـعر الهجـاء الـذي قالـه العـدنانيون في القحطـانيين، والقحطانيون في العدنانيين. إنه ذكر تلك الأيام لا لمجرد الفخـر والتبـاهي، بل ليثير في نفوس الأوس الأحقاد القديمة، وليزيد في تلك النيران نيراناً. لقد ذكرهم "بيوم الربيـع"، وذكـرهم بـــ "يـوم السـرارة"، وذكـرهم ب "يـوم مضـرس ومعبس"، وهو يوم دارت فيـه الأيـام دورتهـا عـلى الأوس، فقتـل منهم عدد كبير، وانهزم أكثرهم إلى بيوتهم وآطابهم، حتى خرج الناس من

طوائفهم إلى مكة يستعينون على الخزرج، وذكرهم بأيـامهم الأخـرى. كل ذلك بلهجة عنيفة شديدة، ليس فيها لين ولا رفق. إنه ينظـر إلى الخـزرج نظرة عداء وحقد، نظرة تشعر منها أن الأوس جنس وأن الخزرج من جـنس بعيد آخر. لقد ذكر قريشاً بخير، وذكر أنها سـتحمل عـنهم حـرب الخـزرج، وذكر أنهم لو التحقوا بأبرهة اليماني أو بنعمان أو عمرو، لنالوا من هؤلاء كـلّ قدير، ولجعلوا لهم جاهاً أي جاه.

ذكر أبرهة حاكم اليمن، وذكر غسان ولخماً، وذكلر أهم من ذلـك كلـه قريشاً على أنها ستحمل الحرب وستقابل الخـزرج عـما قريـب. وقـريش مـن عدنان، والأوس والخزرج من قحطان، ولم نجد في شـعره مـا يـذكر برابطـة النسب بـين الخـزرج والأوس. ولم يـرد في شـعره اسـم قحطـان أو عـدنان. والقصيدة التي ذكر فيها هذا اليوم هي من أقدم قصـائد هـذا الشـاعر الـذي اضطرت قبيلته "للظفر"، ومعها "عبد الأشهل" إلى مغادرة يثرب والتفتيش عن حليف يساعدها في العودة إلى ديارها، فذكر قـيس قريشـاً، وكأنـه يـذكر قبيلة قريبة من قبيلته، مع إنها من نسب آخر في رأي النسابين.

وفي كتب الأدب والدواوين شـعر كثـير ينسـب إلى شـعراء جـاهليين وشعراء مخضرمين وشعراء إسلاميين، فيه هجاء عنيف مـن شـاعر قحطـاني لقبائل قحطانية، ومن شاعر عدناني لقبيلة عدنانية، وفيه مدح وفيه إغراق من شاعر قحطاني لقبائل عدنانية، وهجوم عنيف على القحطانيين، وهكذا. ولـو أردنا شرح ذلك وسرد الأمثلة، لأخذ ذلك منا وقتاً طويلا يخرجنا عن صلب الموضوع، وينقلنا إلى أمور أخرى لا صلة لها بهذا البحث.

ثم إن علينا أن نحسب حساباً لأمر هذا الشعر المروي في المدح والفخر وفي الذم والهجاء، وهو عندي أوسع باب من أبواب الشعر محتمل النقد، و إثارة الشكوك حوله. وقد خبرنا من الكتب أن القبائل كانتّ تستأجر الشعراء لقول المدح أو الذم، و إنها كانت تعد الشاعر منحة من منح الله على القبيلة، لأنه لسانها الناطق والذائد عنها بشعره، يدافع عن قبيلته، و يهاجم أعداءها،ويتهمهم بكل ما يصل إليه فنه من الهجاء ورمي التهم، كائنين ما كانوا قحطانيين أو عدنانيين. وقد اقتضت طبيعة الخصومة التي زادت حدتها في الإسلام بين يمن ومضر وضع شيء كثير من هذا الشعر شعر المنافرة والمفاخرة بين عدنان وقحطان، وهذا أمر وقع، مفروغ منه، لا شك في صحته وثبوته، اقتضته ظروف السياسة، فيجب الانتباه له حين التحدث عن نزاع قحطان وعدنان.

وترينا الأخبار أن ما نسميه بنزاع قحطاني وعدناني لم يكن شديداً في الجاهلية بين القبائل التي كانت تقيم في الأنحاء الشمالية من جزيرة العرب، أي بين تلك القبائل التي رجع النسابون نسبها بحق أو بغير حق إلى عدنان أو قحطان، بمثل تلك الشدّة التي تظهر في النزاع الذي تحدثوا عنه بين القبائل التي كانت تعيش في اليمن أو في الحجاز. وهذا أمر ذو بال، يجب أن يحسب له كل حساب عند الحديث عن نزاع عدنان وقحطان.

وترينا الأخبار كذلك أن الخصومات التي وقعت بين القبائل العدنانية نفسها، أو بين القبائل القحطانية نفسها، لم تكن أقل عنفاً وضراوةً من ذلك

النزاع الذي وقع بين من نسميهم بالقحطانيين ومن نسميهم بالعدنانيين. لقد اتخذ شكلا عنيفاً،شكلاً يجعلك تشعر أن تلك القبائل كانت تشعر إنها قبائل متباعدة لايجمعها شمل، ولا يربط بينها نسب، ولا تجمعها جامعة دماء على النحو الذي يرويه ويذكره أهل الأنساب والأخبار.

والغريب أنك في كل ذلك النزاع المرء العنيف، لا تسمع فيه انتساب كل العرب إلى عدنان أو قحطان، و إنما تسمع فيه فخراً بأسماء القبائل أو بأسماء الأحلاف الداخلة في عدنان أو في قحطان، تسمع فيه اسم "معد" أو اسم "يمن" أو "نزار" أو "مضر" أو غير ذلك، ولا تسمع فيه اسم الجدَّين الأكبرين المذكورين. فماذا يعني هذا ؟ وعلام يدل ؟ ويمن عند أهل الأنساب والأخبار وفي العرف، كناية عن "قحطان"، و "قحطان" عندهم أيضاً و في العرف كناية عن "يمن" وعن الشعوب التي ترجع نسبها إلى "يمن" أما "معد" و"مضر" و"نزار"، فكناية عن "عدنان" أو عن أحلاف من أحلاف عدنان.

وأنت إذا ما أردت أن ترسيم حدوداً فاصلةٌ بين "قحطان" و"عدنان"، أي بين "يمن" و "معد"، فإنك تستطيع أن ترسمها بسهولة إذا ما اعتبرت "قحطان" كناية عن اليمن، وإن "عدنان" كناية عن "قريش" والقبائل التي ترجع نسبها إلى نسب قريش. وحدود أرض قريش وحدود أرض اليمن معروفة واضحة. أما إذا أردت إن ترسم حدوداً فاصلة، وأن تضع معالم واضحة بينة بين القبائل القحطانية والقبائل العدنانية، استناداً إلى

روايات أهل الأنساب والأخبار وإلى الشجرات التي رسموها لأنساب العرب طرّاً، فإنلك ستخفق حتماً، وسيخيب عملك من غير شك. ذلك لأن أهل الأنساب لم يسيروا في تقسيمهم العرب على وفق قواعد ثابتة وأسس واضحة مرسومة، مثل اختلاف في ملامح جسمانية، أو تمايز في أمور عقلية أو نفسية أو لغوية، أو اختلاف في مواقع جغرافية، بل ساروا وفقاً للعرف والشائع، فسجلوا الأنساب على وفق الشائع بين الناس عن النسب في ذلك العهد.

وأنت إذا أردت تطبيق ما عندك من علم في "الأثنولوجيا" وفي "الأنتروبولوجي" وفي العلوم المشابهة الأخرى، على التقسيم الثنائي للعرب، فستجد نفسك حائراً تائهاً لا مجال لقواعد علمك في هذا المكان. فبين القبائل التي تنتمي إلى "قحطان" مثلاً تباين كبير في الملامح وفي العقلية وفي اللغة، ويجعل من غير الممكن تصور وجود وحدة دموية تجمع شمل هذه القبائل، وجدّ واحد انحدر من صلبه هؤلاء، وبين القبائل العدنانية اختلاف كذلك في الملامح وفي اللغة، يضطرك إلى القول بفساد نظرية النسابين في أصل هذه القبائل. ولا بد عندئذ من اعتبار هذا انسب رمزاً أخذ من صراع قديم، أو من أحلاف قديمة، فصير جدّ ين لجماعتين. وكيف تتمكن من إقناع الباحث الحديث في العلوم المذكورة بوجود وحدة في الملامح الجسمية وفي الصفات العقلية، ووحدة في اللسان بين القبائل القحطانية الجنوبية، الضاربة في اليمن وفي بقية العربية الجنوبية وبين القبائل القحطانية الشمالية، مثل غسان ولخم

وكلب وكندة وغيرها، على حين يرى بين الجماعتين فروقاً واضحة بيّنة في كل شيء. حتى إنه يستطيع أن يشير إلى القحطاني الجنوبي حالاً عند رؤيته له، على حين لا يستطيع أن يميز القحطاني الشمالي من العدناني، ولا أن يعرفه إلا بالاستفسار منه. الصحيح إننا إذا أخذنا بالملامح وبالأمور الأخرى المذكورة، خلصنا إلى نتيجة تقول لنا إن الفروق بين القحطانيين والعدنانيين هي أقل جداً من الفروق التي نراها بين القحطانيين الشماليين والقحطانيين الجنوبيين. وهي نتيجة ليست في مصلحة أهل الأنساب بالطبع، تبين لنا إن قضية قحطان وعدنان قضية اعتبارية لا غير.

بل خذ القحطانيين الجنوبيين، وهم لبّ القحطانية ومادتها، ترَأن القحطاني الساكن على السواحل الجنوبية يختلف في سحنته عن القحطاني الساكن في المرتفعات والهضاب، والجبال. وان الساكن على السواحل المقابلة للسواحل الأفريقية يختلف في ملامحه الجسمية عن الساكن على السواحل المقابلة للهند، وان سكان حضرموت أو عمان أو مسقط يختلفون في الملامح والسحن عن إخوانهم القحطانيين الساكنين في اليمن وفي نجران وفي الأقسام الجنوبية من المملكة العربية السعودية. فهل يكون هذا الاختلاف دليلاً على قحطانية بالمعنى الذي يزعمه أهل الأنساب.

ولقد ذهب بعض الباحثين في علم الأجناس البشرية "الأنتروبولوجي" إلى إن العرب الجنوبيين هم من أصل حامي، وان وطنهم الأصلي هو أفريقية. وقد ذهب بعض آخر إلى وجود شبه كبير في الملامح وفي الخصائص البشرية بين العرب الجنوبيين والقبائل الإفريقية الساكنة على الساحل الإفريقي من

البحر الأحمر والصومال، إلا أنه نسب ذلك إلى إن تلك القبائل كانت عربية في الأصل، هاجرت من جزيرة العرب عن طريق باب المندب إلى أفريقية، فسكنت هناك. ومن ثم وقع هذا التشابه. بين تلك القبائل والعرب الجنوبيين.

ورأى آخرون أن العربية الجنوبية هي مزيج من الأجناس البشرية واضح المعالم، وذلك منذ أقدم أيامها. فنرى فيها قبائل تشبه جماعة الفيديد الهندية، وهي من للسلالات الهندية القديمة، يسكن بعضها في أرض "سيهان" و "معارة" من حضرموت، ونرى فيها عناصر مما يطلق عليها اسم "الجنس الشرقي وهو الجنس الذي يكثر وجوده بين العرب الشماليين، وعناصر أخرى تمثل إنسان حوض البحر المتوسط أو الأجناس الأوروبية، حيث وجد بعض السياح بين بعض قبائل اليمن جماعة من الناس لها عيونُ زرق وشعر أشقر وبشرة بيضاء أو تميل إلى البياض وملامح أوروبية بينة، وتتراوح نسبة هؤلاء بين ٨ إلى ١٢ بالمئة.

ووجد الباحثون بين قبائل العربية الجنوبية، جماعات لها ملامح آشورية وجماعات ذات ملامح تشبه ملامح سكان آسية الصغرى، وجماعات ذات ملامح أفريقية. وقد وجد الدكتور "سليمان أحمد حزين" أن بين أهل شمال اليمن وبين أهل جنوب اليمن إلى المحيط اختلافات بارزة في الملامح وفي المظاهر الجسمية يخرجنا البحث عنها هنا من حدود التأريخ العام. ووجد غيره مثل ذلك. كما وجد هذا الاختلاط بارزاً في بقايا الهياكل البشرية القديمة التي عثر عليها في العاديات.

وما هذه المظاهر والملامح التي رأيناها من الجماجم وبقية الهياكل البشرية ومن أشكال التماثيل والصور، ومن دراسات الباحثين "الأنتروبولوجيين" للقبائل الحاضرة، إلا حكاية واضحة صريحة عن عملية امتزاج أجناس بشرية متعددة في العربية الجنوبية، بسبب الهجرات والحروب والاتصال البحري والتجارة وعوامل أخرى، ونجد مثل ذلك بالطبع بين من نسميهم بالعرب الشماليين.وسوف نرى إن الدول القديمة كانت تنقل البشر نقلاً من مناطق إلى مناطق فتزرعهم فيها، وان أكثر أفراد الجيوش التي كانت ترسل لمحاربة القبائل أو للتوسع في الجزيرة كانت تبقى وتستقر في المواضع التي ترسل إليها، فتتطبع بطباع من نزلت بينهم، وتكون في النهاية منهم، أضف إلى ذلك الرقيق.

وقد ذكر أن جماعة من "بني الحارث بن كعب" وفدت على الرسول، فنظر إليهم، فقال: " من هؤلاء الذين كأنهم من الهند؟". وقد كان "قيس بن عمرو" الشاعر المعروف بـ "النجاشي" من هؤلاء. وسواء أكان ما نسب إلى الرسول من قوله المذكور صحيحاً أم موضوعاً، فإن الأخبار تذكر أن بشرة "بني الحارث بن كعب"، كانت تميل إلى السمرة الشديدة، بل إلى السواد الذي يشبه سواد بشرة الإفريقيين، أفلا يجوز أن يكون أصلهم من إفريقية؟. وقد عرفت جماعة كبيرة من أهل مكة بالأحابيش، لأن أصلهم من رقيق الحبشة والسواحل الإفريقية المقابلة لجزيرة العرب؟ فدعوى وجود جنس "أنتروبولوجي" واحد أو جنسين منفصلين، لكل منهما خصائص جسمية وملامح "فسيولوجية" معينة للعرب، وبالمعنى العليم المفهوم اليوم عند

علماء الأجناس، هي دعوى غير مقبولة، لأن البحوث العلمية والمختبرية لا تؤيدها ولا تثبتها، ولأن البحوث التاريخية الحديثة تعارضها أيضاً، وكل ما نقوله هو أن ما نسميه اليوم بالجنس هو جنسية ثقافية فكرية، لا جنسية دموية تقوم على وحدة الملامح والمظهر والدم.

فما يذكره أهل الأنساب عن النسبين، وما يتصوره بعض الناس من صفاء الجنس العربي صفاءً تاماً ونقائه من كل دم غريب، دعوى لا يمكن الاطمئنان إليها في هذا اليوم. لن يضير العرب قول مثل هذا، فصفاء الأجناس البشرية صفاءً تاماً، من القضايا التي عجز حتى القائلون بنظرية العنصريات مثل النازيين عن إثباتها في هذا اليوم. وسيظهر ضعفها في المستقبل ظهوراً أوضح مما هو عليه الآن.

لقد كان "نولدكه" أول من شك من المستشرقين في هذا النسب العام الذي وضعه أصحاب الأنساب للعرب، وكان أول من نبه على أثر اليمانيين في وضعه وفي محاولتهم رجعه إلى عهود قديمة قبل الإسلام. وذهب "هاليفي" إلى أبعد من ذلك، فرأى إن كل ما قيل في هجرة القبائل اليمانية إلى الشمال هو أسطورة، وان ما يزعم من انتساب تلك القبائل إلى اليمن هو حديث خرافة لا يركن إليه.

ونحا مستشرقون آخرون هذا المنحى، فرأوا إن للنسابين يداً في ترتيب هذه الشجرة العظيمة للأنساب،أو الشجرتين بتعبير أصح: شجرة نسب أبناء قحطان، وشجرة نسب أبناء عدنان. ولذلك نهم لا يطمئنون إليها، ولا

يصدقون بكثير من هذه الأنساب المروية وبالأخبار والروايات الواردة في هجرة القبائل القحطانية نحو الشمال.

إذن، فقحطان ليس بجدّ لكل القبائل القحطانية المعروفة، وعدنان لم يكن جداً لجميع القبائل العدنانية، و إنما ما كنايتان عن مجموعة قبائل، تدعى عند العرب "بالحلف"، وقد أخذ أهل النسب قحطانهم من التوراة، وهو هناك كناية عن مجموعة قبائل مواطنها في العربية الجنوبية. أما "عدنان" فلم يرد اسمه في التوراة، ولا نعرف من أمره شيئاً في الزمن الحاضر، والظاهر أنه كناية عن حلف، ويظهر أنه ظهر للوجود قبيل الإسلام. وعدم وقوفنا على أخباره، لا يسوغ لنا نكران وجوده، فلعل الأيام تكشف لنا عن كتابات نرى فيها اسمه، كما حدث بالنسبة إلى أسماء أخرى شك فى أصلها بعض المستشرقين، ثم تبين أنها كانت معروفة، بدليل ورودها في بعض كتابات الجاهليين.

ولا أعتقد إن التوراة ابتدعت فكرة "يقطان" ونسل يقطان، اذ لا يعقل تصور ذلك. والذي أراه إنها حكت نسباً كان يجمع شمل القبائل العربية المذكورة عند العرب، وصل خبره إلى العبرانيين فسجله كتبة التوراة في الأسفار، مع أنساب الشعوب. كما إنها أخذت من العرب أيضاً نسب "الإشماعيليين" على نحو ما كان م معروفاً يومئذ، وكذلك نسب أبناء "قطورة". فتكون التوراة قد ذكرت أنساب ثلاث مجموعات أو أحلاف عربية كبيرة، كانت قائمة في ذلك الزمن.

وقد يكون من الخير الاتيان بأمثلة من أيام الإسلام، تساعدنا في شرح موضوع النسب عند الجاهليين وتفسيره. فإن الزمن وان تغير وتبدل في الإسلام وتباعد عن الجاهلية، إلا أن الأفكار القبلية بقيت هي هي عند تلك القبائل بالنسبة إلى النسب وتكوين الأحلاف. فقبيل ظهور الإسلام كان بين "يثرب" و"مكة" نزاع شديد. ولما هاجر الرسول إلى "يثرب" عرف أتباعه الذين تبعوه بالمهاجرين.

وقد دامت الهجرة إلى عام الفتح: "فتح مكة". وأما أهل المدينة الذين آووا الرسول ونصروه، فقد عرفوا بالأنصار لانتصارهم للرسول ولتقديم مساعداتهم له وللمسلمين. وللقضاء على الخصومة، آخى الرسول بين الأنصار والمهاجرين. غير أن العداء عاد فتجدد بين الأنصار والمهاجرين، بعد وفاة الرسول، ويظهر أثره في شعر حسان بن ثابت والنعمان بن بشير والطّرمّاح بن حكيم، وهم شعراء يثرب وألسنتها، وفي الأشعار الأخرى التي جمعا في دواوين الأنصار.

وقد صيّر النزاع المذكور لفظة "الأنصار" علماً خاصاً على أهل المدينة، حتى كادت تكون نسباً، واصطبغت الدعوة بصبغة يمانية، فنجد في شعر الأنصار فخراً باليمن، واعتزازاً بأصلهم اليماني، ومجاهرة بأنهم يمانيون صرحاء وبأنهم من أقرباء الغساسنة ومن ذوي رحمهم. كما انهم استعملوا لفظة الأنصار مقابل قريش ومعده ومضر ونزار، وأطلقوا على لسانهم حسان بن ثابت شاعر الأنصار، وشاعر اليمن، وشاعر أهل المقرى.

ونبد في أيام معاوية وفي أيام ابنه يزيد قصصا عن هذا النزاع اليثربي المكي، النزاع الذي سمي نزاع الأنصار مع المهاجرين، أو نزاع الأنصار مع قريش، ويلاحظ إن هذا القصص لم يستعمل لفظة "مهاجرين" في مقابل "الأنصار" إلا نادراً، إنما استعمل الألفاظ المذكورة.وقد عرفت وفودهم فيه بـ "وفود الأنصار" أو "الأنصار". فصارت تلك اللفظة وكأنها نسبٌ أو علم من أعلام القبائل، حتى تضايق من ذلك رجال قريش. قيل بينما كان "عمرو بن العاص" عند "معاوية" يوماً، إذ دخل عليه حاجبه يقول: "الأنصار بالباب"، فتضايق من ذلك عمرو، وقال: "ما هذا اللقب الذي قد جعلوه نسب؟ أرددهم إلى نسبهم". فقال له معاوية: إن علينا في ذلك شناعةً. قال: وما في ذلك؟ إنما هي كلمة مكان كلمة، ولا مرد لها.

فقال معاوية لحاجبه: أخرج، فنادِ: مَنْ كان بالباب من ولد عمرو بن عامر، فليدخل. فخرج، فنادى بذلك، فدخل من كان هناك منهم سوى الأنصار، فقال له: أخرج، فناد: من هنا من الأوس والخزرج، فليدخل. فخرج فنادى ذلك، فوثب النعمانَ بن بشير، **فأنشأ يقول**:

يا سعد، لا تعد الدعاء، فما لنا	**نسب نجيب به سوى الأنصار**
نسب تخيره الإلهَ لقومنا	**أثقل به نسباً إلى الكفار**
إن الذين ثووا ببدر منكم	**يوم القلَيب همُ وقود النار**

وقام مغضباً. فبعث معاوية، فرده، وترضاه وقضى حوائجه وحوائج من كان معه من الأنصار. وكان النعمان بن بشير حامل لواء الأنصار قد غضب في مجلس من مجالسه مع معاوية، ولاحظ معاوية عليه الغضب فضاحكه طويلاً، ثم قال له: "إن قوماً أولهم غسان، و آخرهم الأنصار، لكرام". وكان أهل يثرب يلحقون نسبهم بنسب غسان، ويرجعون نسهم ونسب غسان إلى الأزد. ونسب الأزد إلى اليمن.

لقد كان من المعقول استعمال لفظة "المهاجرين" في مقابل "الأنصار"، إلا أن الجانبين لم يستعملاها إلا قليلاً، و إنما استعملا لفظتي قريش ومعد، كما استعملا "قريشاً" في مقابل "يمن". وقد افتخرت قريش بمعد، وبالنبوة. فأجابهم الأنصار بأن أم الرسول من بني النجار أخوال النبي، وهم من المدينة، وبأنهم كانوا أول من آمن به ونصره، وبأن المتنبيين كانوا من قبائل معد.

ولو كتب لمصطلح "الأنصار" بالبقاء، ولو كان عهد التدوين بعيداً عنه، لصار ولا شك نسباً من الأنساب، ولصارت اللفظة اسم أب لقبيلة، كما صارت الألفاظ المذكورة التي خلدت لأنها الألفاظ الجاهلية، فلما صار التدوين، كان الناس يتداولونها على أنها أنساب وأسماء.

واستعملت لفظة "اليمانية" في مقابل "النزارية"، في العصر الأموي. ويظهر أنها تغلبت على لفظة "الأنصار" وقضت عليها. وهي تعني القبائل التي ترجع أن أنسابها إلى اليمن. أما "النزارية" فقد عنت كل القبائل العدنانية.

وقد كان بين الحزبين نزاع شـديد. ولكـلٍّ شـيعة نسـابون ومـدافعون ومهاجمون. وقد أثر هذا النزاع تاثيراً خطيراً في وضع الأنساب.

ويرجع بعض الباحثين انقسـام العـرب إلى قحطـانيين و عـدنانيين إلى هذا النزاع: نزاع "يثرب" ومكة قبل الإسلام، ويرجعـه آخـرون إلى التنـازع الطبيعي الذي هو بين البداوة والحضارة. فقد كان أهـل يثـب أي الـيمن كـما يقولون أصحاب حضارة وملك. أما أهـل مكـة ومـن والاهـم، فقـد كـانوا أعراباً أو شبه أعراب. ومن هنا اختلفت طبيعة أهل يثرب عـن طبيعـة أهـل مكة، ووقع النزاع والتنافس بين الجماعتـين، وتحـول إلى نسـبين. وزعمـوا إن هذا النزاع هو نزاع الحظارة مع البداوة، نزاع أهل المدر مع آهل الـوبر، نـزاع "بني مدراء"، أو "أهل القارية" كـما يقـال لهـم أيضـاً، لأنهـم "قـارون" أي سكان القرية والقرى مع أهل البادية أي البادون نزلة البادية. قالوا: ومن هنا قيل: الحضـر خلاف البدو، والحـاضر خـلاف البـادي، و"أهـل الحـاضرة" و"أهل البادية" و"الحاضرة"، خلاف البادية وهي المـدن والقـرى والريـف، وهو تقسيم، يرونه، قديماً، يرجع إلى الجاهلية. روي أن الرسول قـال، حـين وفد عليه قيس بن عاصم: "هـذا سـيد أهـل الـوبر ". ونجـد مثـل ذلـك في النصوص اليمانية الجاهليـة، إذ أشـارت إلى الأعـراب كطبقـة خاصـة قائمـة بنفسها، تمتاز عن الحضر المستقرين.

ومن ثم كانت غالبية القبائل العدنانية التي يذكر أهل الأخبار أسماءها قبائل أعرابية، أي قبائـل بدويـة، أو قبائـل غلبـت البـداوة عليهـا، وغالبيـة القحطانية قبائل مستقرة أو قبائل شبه حاضرة تنخت في أماكن ثابتة ومالت

إلى حياة الحضارة. ولما كان الحضر أرقى فكرياً من أهل الوبر، صارت إليهم السيادة في الغالب، فتحكموا في القبائل العدنانية، وملكوا القبائل المعدية. فحكم المناذرة والغساسنة وآل كندة وغيرهم ممن يرجع نسبه النسابون إلى قحطان، قبائل عدنانية، ولم يحكم العدنانيون القحطانيين قبل الإسلام.

هذا هو رأي من يرى أن القحطانية والعدنانية كفاية عن الحضارة والبداوة، وتعبر عن أهل المدر وأهل الحضر. يستدلون على رأيهم هذا بما قلته من غلبة الحياة الحضرية والاستقرار على القبائل التي يرجع النسابون نسبها إلى قحطان، وغلبة البداوة أو شبه البداوة على القبائل العدنانية.

وللحكم على هذه النظرية، يجب تكوين جدول. بأسماء القبائل الجاهلية العدنانية منها والقحطانية، ودراسة أحولها الاجتماعية والمواضع التي عاشت فيها في مختلف الأزمنة، وعند ذلك نستطيع الحكم على ما فيها من قوة أو ضعف، فإن في القحطانيين قبائل متبدية، وفي العدنانيين قبائل مستوطنة وأصحاب قرى. ولهذا لن تصدق تلك النظرية إلا بمثل هذه الدراسة.

ولفهم النزاع القحطاني العدناني، أو نزاع يثرب ومكة، لا بد من البحث عن موارد جاهلية و إسلامية نستعين بها على فهم طبيعة هذا النزاع. أما الموارد الجاهلية، أي الكتابات، فليس فيها حتى الساعة شيء ما محدثنا عن هذا النزاع، وأما الموارد الإسلامية، فإن شعر حسان بن ثابت، أو الشعر المنسوب إلى هذا الشاعر بتعبير أصدق واصح، هو المرجع الأول الذي يحدثنا

عن طبيعة هذا النزاع أو التحاسد الذي كان بين مكة ويثب قبل ظهور الإسلام وعند ظهوره، إذ كان حسان نفسه من المناضلين فيه الحاملين للواء يثرب في نزاعها مع مكة. ونرى القحطانيين يروون شعره ويذكرونه في افتخارهم على العدنانيين. وقد حمل شعره جلّ مواضع فخر قحطان على عدنان، ومفاخر أهل يثرب على أهل مكة، حتى نستطيع أن نقول إنه أحد نجاة النزاع القحطاني العدناني، باعتبار إنه أقدم مشارك فيه يصل خبره إلينا، وأن أكثر ما تذكره القحطانية من دعاوى مركزة في شعر هذا الشاعر مذكورة فيه.

وقد وصل جلّ شعر حسان إلينا، وطبع في ديوان. راجعناه وراجعنا ما يحمل من شعر، فلم نجد فيه ذكراً لعدنان، و إنما نجد فيه اسمي "قحطان" و"معد". ولم "رد فيه اسم الأول إلا مرة واحدة في قوله:

فلو سُئِلَتْ عنه معد بأسرها   وقحطان أو باقي بقية جرهما

وأما اسم الثاني، أي "معد"، فقد ورد في مواضع بلغت سبعاً في الديوان.

غير إننا نرى في الجزء الأول من "الإكليل"، أبيات شعر نسبها "الهمداني" لحسان، ورد فيها ذكر لقحطان، وفخر به، **وانتسب إليه**:

لقد كان قحطان العلا القرم جدّنا   له منصب في يافع الملك يشهر

ورثنا سناءً منه برزاً ومحتداً منيف   الذرى فخر الأرومة يذكر

ينال نجوم السعدِ إن مدّ كفه   تفلّ أكف عند ذاك وتقصر

ونرى أبياتاً أخرى من هذا النوع من الفخر، في مكان آخر من هذا الكتاب، نسبها أيضاً هذا الشاعر، هي هذه:

فنحن بنو قحطان والملك والعل — ومنا نبيّ الله هود الأخاير

شعيب و الياس وذو الكفل كلهم — ولا مثل ذي القرنين أبناء عابر

وصالح والمرحوم يونس بعد ما — يمانون قد فازوا بطيب السرائر

وإدريس ما إن كان في الناس مثله — ألات به حوت بأخلب زاخر

ونرى أبياتاً أخرى نسبها "الهمداني" إلى "حسان" أيضاً، فيها نشر بقحطان وبقوم الشاعر، رواها على هذا النحو:

فمن يك عنّا معشر الأزد سائلاً — فإنا بنو الغوث بن نبت بن مالك

ابن زيد بن كهلان نما سبأ له — إلى يشجب فوق النجوم الشوابك

ويعرب ينميه لقحطان ينتمي — لهود نبيّ الله فوق الحبائك

يمانون عاديون، لم يلتبس بنا — مناسب شابت من إلى وأولئك

والأبيات المذكورة، لا يمكن أن تكون من نضم حسان، فأسلوبها غير أسلوبه في شعره، وفي بعضها ركة وضعف، ولفظة "المرحوم" عن الاصطلاحات الحادثة المتأخرة، كما أن التفاخر بالأنبياء المذكورين لم يكن معروفاً على عهده.

وأما الشعر المبتدئ بهذا البيت:

فمن يك عنا معشـر الأزد سـائلاً ... فإنا بنو الغوث بن نجت بـن مالـك

ففيه إضافات لا تجدها في الديوان.

وفي المضاف إليه تباين ظاهر مع أسلوب حسان في شعره، وركة بينـة، وطابع الصنعة ظاهر عليه. وقد ورد في ديوانه على هذا النحو:

فإن تك عنا معشر الأسد سـائلاً ... فنحن بنو الغوث بن زيد بن مالك

لزيد بن كهلان الذي نـال عـزّه ... قـديماً دراري النبـوم الشـوابـك

إذا القوم عدّوا مجدهم وفعالـهـم ... وأيامهم عند التقاء المـنـاسـك

وجدت لنا فضلاً يقر لنا بـه ... إذا ما فخرنا كل باق وهالك

فأنت ترى أن الأبيات في الديوان خالية من نسب "سبأ" و"يشـجب" و"يعرب" و"قحطان" و"هود" وغير ذلك، وأن أسلوب صياغة هذا الـنظم لا يمكن أن يكون من أسلوب شاعر جاهلي أو شاعر مخضرـم، بـل لا بـد أن يكون من نظم المتأخرين، إضافته بعض المتعصبين للـيمن إلى شـعر حسـان، ونظمه على وزن البيت الأول وطريقته، يكون أوقع في الـنفس، ودلـيلاّ عـلى قدم ذلك النزاع.

ولا أعتقد إن هنالك حاجة تدعوني إلى إلفات نظر القارئ إلى أن الأبيات المتقدمة الواردة في ديوانه، "هي الأبيات المتقدمة عليها نفسها، أي الأبيات التي أخذتها من كتاب الإكليل للهمداني رويت بشكل آخر، بشكل يرينا أن لم الرواة مهما حاولوا اظهار انهم على حرص تام في المحافظة على أصالة الشعر والمحافظة على الأصل، فإنهم لا يتمكنون من ذلك.

ونسب بعض الرواة إليه هذه الأبيات:

تعلمتم من منطق الشيخ يعرب أبينا، فصرتم معربين ذوي نفر

وكنتم قديماً ما بكم غير عجمة كلام، وكنتم كالبهائم في القفر

وهي أبيات لم ترد في ديوانه، شْعر إن "يعرب"، وهو جد القحطانيين، هو أول من أعرب في لسانه، وأول من نطق بالعربية، فهو أول متكلم بها، وأول من أوجدها وكوّنها، وان العدنانيين تعلموها من أبنائه، بعد إن كان لسانهم لساناً أعجمياً. وأما من ناحية صحة نسبتها إلى شاعر الإسلام وشاعراً وفي الأنصار، فإن في أسلوب نظمها وفي صياغة البيت الأول وجملة "منطق الشيخ يعرب"، ما فيه الكفاية لإظهار أنها مصنوعة، حملت عليه حملاً، ولا يمكن أن يكون هذا النظم من نظم أول الإسلام، حتى وان كان من شاعر من شعراء أهل المدر في ذلك العهد.

وزعم إن حساناً ذكر القيل "ذو ثات"، وهو من أقيال حمـير، **فقال هذا البيت:**

وفي هكر قد كـان عـز ومنعـة   وذو ثبات قَيْلٌ ما يكلـم قائلـه

ولم يرد هذا البيت في ديوانه. أما أسلوب نظمه، فينبئك أن قائلـه يجـب أن يكون شخصاً آخر من المتأخرين عن حسان، ممن كانوا يضعون الشعر على ألسنة غيرهم على نحو ما وضعوا على ألسنة التبابعة وآدم والجن.

هذا ولحسان شعر لم يرد في ديوانه، بل ورد في موارد أخرى. منه ما هو مقبول ومنه ما هو مردود، لأنه متحول وقد حمل على حسان وألصـق بـه، ولم يغفل العلماء عنه، بل أشاروا إليه ونبهوا إن بعض الناس قد تعمـدوا وضـعه وحمله عليه لمآرب. قال الأصمعي في ذلك: " تنسب إليه أشياء لا تصح عنـه. وهذا فيما يظهر صحيح، وكثيراً ما رأيت في سيرة ابن هشام أبياتاً لحسان مـن هذا القبيل يعقبها صاحب السيرة بقوله: وأهل العلـم ينفيهـا عـن حسـان". وقد نسب الجمحي الوضع على حسان إلى بعض قريش للغـض منـه، فقـال: "وقد حمل عليه ما لم يحمل على أحد. لمتا تعاضهت قريش، واستبّت، وضعوا عليه أشعاراً كثيرة، لا تليق به". وقد كان ذلك لتعرضه بهم، ولتعصبه المفرط ليثرب، وافتخاره بهم على قريش.

هذا و مع إفراط "حسان" في التعصب ليثرب، لا نـراه يـذكر قحطـان إلا مرة واحدة، أما عدنان فلم يذكره في شـعره قـط. ولهـذه الملاحظـة أهميـة كبيرة، لتكوي ن رأي في فكرة "قحطان" وعدنان في ذلك العهد، إذ أنها تدل

على أن القحطانية والعدنانية لم تكن عنده على النحو الذي صارت فيه فيما بعد، بعد اشتداد النزاع بين الأنصار وأهل مكة ومن حولها في خلافة بني أمية خصوصاً، وهم عصب العدنانيين، وانه في كل فخره بالنسب لم يتجاوز الأزد، ابناء "الغوث بن زيد بن مالك بن زيد بن كهلان"، وغسان و آل نصر.

وأما بعد إسلامه، فقد حوّل فخره وتباهيه إلى فخر بالأنصار على قريش ومضر ومعد، أي أهل مكة، بنصرة قوم للإسلام، وبنصر النبي حين خذلوه وقاوموه. فكانوا ملوك الناس قبل محمد، فلما أتى الإسلام، كان لهم النصر في نصرته. ونجد هذا الفخر واضحاً قوياً في شعره، فهو فخر أهل يثرب على أهل مكة. فخر الأنصار على مضر ومعد وقريش، فلم يصل الفخر بقومه عنده إذن إلى حد الفخر بقحطان، أو باليمن كلها على عدنان. وأما ما ورد منه أكثر من ذلك، كما نرى في الأبيات المنسوبة إليه في الجزء الأول من الإكليل، إنه عندي من ذلك النوع المنحول الذي اضيف إليه. فالتكلف ظاهر عليه، والأسلوب مختلف عن أسلوبه، وهو من النظم المتأخر عن أيام حسان، من نظم وضّاح يتكلف قول الشعر ولا يحسن صناعته.

خذ قصيدته التي تمثل منتهى فخره بقومه، نره يقول:

ألم ترنا أولاد عمرو بن عامر لنا شرف يعلو على كل مرتقي

رسا في قرار الأرض، ثم سمت له فروع تسامى كل نجم محلق

ملوك وأبناء الملوك، كأننا ... سوارى نجومٍ طالعات بمشرق

إلى أن يقول:

كجفنة والقمقام عمرو بن عامرٍ ... وأولاد ماء المزن وابني مُحرّق

وحارثة الغطريف أو كابن منذرٍ ... ومثل أبي قابوس ربّ الخورنق

فلا تجد فخره بها يتعدى حدود الفخر بالأزد وبالغساسنة وآل نصر، أي ملوك الحيرة. وهو ما وجدناه في أشعاره الأخرى. وقد عاب في هذه القصيدة "قيساً" و"خندفاً" لأنهما قاومتا الرسول وآذتاه. مما يدل على أن هذين الاسمين كانا معروفين قبل الإسلام.

هذا، وقد أضاف أهل الأخبار إلى قصيدة حسان التي مدح فيها الملك "جبلة بن الأيهم"، ومطلعها: لمن الدار أقفرت بمغان بين أعلى اليرموك والصمان

هذا البيت:

أشهرنها فإن ملكك بالشا ... م إلى الروم فخر كل يماني

ولم يرد ذكر هذا البيت في الديوان. وهو بيت يتحدث كما ترى عن فخر باليمن: أصل الغساسنة، وأهل يثرب، وكل قحطان. وأغلب ظني أنه من الأبيات المدسوسة، وضعه أحد المتعصبين لليمن ودسّه في القصيدة.

هذا وقد نسب إلى النعمان بن بشير الأنصاري شعر قيل إنه قاله في هذا الباب.ونسب إلى الطرماح بن حكيم مثل ذلك، وهو أيضاً شاعر من شعراء الأنصار.وعلينا أن ندرس شعرهما، وشعر أمثالهما، وشعر شعراء قريش أيضاً دراسة نقد وتمحيص نميز بها بين صحيحه وفاسده، لنتمكن بذلك من تكوين رأي علمي صحيح في القحطانية والعدنانية وتأريخ ظهورهما. ولو تيسر لنا ديوان الأنصار أو دواوين الأنصار، لزادت معارفنا، ولا شك، في هذا الباب وتمكنا من تكوين رأي في تلك العصبية القبلية بصورة أصح وأدق ولا شك.

لقد حارب الإسلام العصبية الجاهلية، وآخى الرسول بين المهاجرين والأنصار، وحالف بين قريش وأهل يثرب، ونهى عن أحلاف الجاهلية، وروي عنه إنه قال: "لا حلف في الإسلام"، لما ينتج عنه من فتن ومن قتال بين القبائل وغارات، ولأن الإسلام قد عوّض عن الحلف، وزاده شدة بنزوله. "وما كان من حلف في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة". وعدّ "التعرب" بعد الهجرة، أي أن يعود المرء إلى البادية ويقيم مع الأعراب، كبيره من الكبائر، حتى عدّ من يعود إلى موضعه من البادية بعد الهجرة كالمرتد. ومع ذلك، لم يكن من الممكن تنامي العصبيات، وغسل آثار الجاهلية، وطمس معالمها تماماً، فتحزبت القبائل وتكتلت، وكانت تحارب على أنها همدان، أو ربيعة، أو طيء، أو مضر، أو قريش، أو قيس، او الأزد، أو ربيعة، أو تميم، أو غير ذلك من أسماء قبائل.

القحطانية والعدنانية في الإسلام:

الحق إن ما نسميه قحطانية أو عدنانية إنما هو صفحة من صفحات النزاع الحزبي عند العرب في الإسلام، شاء أصحابه ومثيروه رجعه إلى الماضي البعيد، ووضع تأريخ قديم له، فجعلوا له أصولاً زعموا إنها ترجع إلى ما قبل الإسلام بكثير، ورووا في ذلك شعراً لا يخرج في نظرنا عن هذا الشعر الذي يحفظه الرواة على لسان آدم و هابيل وقابيل والجن.

وفي هذا الصراع القحطاني العدناني العنيف شرع في تدوين الأنساب وتثبيتها في القراطيس والكتب. فكان لهذا الصراع ولوضع القبائل وتكتلاتها في هذا الوقت أثر خطير في تثبيت أنساب القبائل وتسجيلها، ليس في هذا العهد فقط، بل في تثبيت أنساب قبائل الجاهلية وتسجيلها أيضاً. إذ سجلت هذه الأنساب: جاهلية و إسلامية على الرأي السائد في النسب يوم شرع في التسجيل والتدوين، أي في أوج هذه العصبية الضيفة التي عمت الناس في صدر الإسلام. ومن هنا كان لا بد لفهم الفكرة القحطانية العدنانية من الإلمام بنزاع قحطان وعدنان في ا الإسلام.

والذين قاموا بتسجيل الأنساب وتدوينها وتثبيتها في الكتب، كانوا هم أنفسهم من أصحاب العصبية لنزار أو لليمن ومن المتأثرين بالأحوال السياسية لذلك العهد. ولهذا نجد في أقوال بعضهم تحزباً وتطرفا وميلاً إلى تأييد فريق على فريق. ومن هنا كان لا يد لنا من التنبه لهذه العصبية، واتخاذ الحيطة والحذر عند دراسة هذا النزاع القحطاني العدناني.

وقد استعملت في هذا العهد "مضر" في مقابل "الأزد"، كما استعملت الأزد في مقابل تميم، وورد "أهل اليمن" أو اليمانية. ولكننا قلما نسمع في نداء القبائل وأخبار هذه الفن أو الحروب التي وقعت في هذا العهد استعمال كلمة "عدنان" في مقابل "قحطان"، ويقال مثل ذلك في الأشعار أيضاً، في مثل شعر "الفرزدق" الذي استعمل كلمة "قحطان" في مقابل كلمة "نزار" وكلمة "لحن" في مقابل "نزار" أو "الأزد" في مقابل "نزار". كما استعمل الحكم بن عبدل "قحطان" في مقابل "معد". وقد ذكر الأعشى في شعر له: "ومن معدّ قد أتى ابن عدنان"، وذلك في مقابل "قحطان". وفي أيام معاوية وابنه "يزيد" و"مروان بن الحكم"، نالت "كلب" مركزاً سامياً، لتزوج معاوية امرأة من كلب، هي "ميسون بنت بحدَل"، فأصبحت هي والقبائل التي تؤيدها مقربة عند الخلفاء، مع أن الخلفاء من قريش، وقريش من قيس. وهذا مما أغضب قيساً المعروفة بعدائها لكلب .وقد كانت لفظة "قيس" في هذا العهد ترادف كلمة "معد" و"مضر" و "نزار". وأما "كلب"، فترادفه اليمن.وقد عرفت المعركة التي وقعت في "مرج راهط" بين مروان وابن الزبير بأنها معركة "قيس" و "كلب" لأن قيساً حاربت فيها عن "ابن الزبير". أما كلب، فقاتلت عن مروان، و قد أوجد هذا الانتصار حقداً كبيراً بين "قيس" وحلفائها من القبائل، وبين كلب وأنصارها من القبائل التي أدعت إنها من اليمن، فوقعت حروب بن قيس وكلب هلك فيها خلق كثير من الفريقين. ولعب دوراً مهماً في تكتل القبائل وفي تجمع القحطانيين والعدنانين.

وقد أسهم الخلفاء الذين جاؤوا بعد "عبد الملك"، ويا للأسف، في هذا النزاع، متأثرين بعاطفتهم وبدمهم من الأمهات، فكان بعضهم يؤيد القيسيين إذا كانت أمهم من قيس، وكان آخرون يؤيدون "كلباً" إذا كانت أمهم من اليمن. وسار على هذه السياسة الولاة والعمال، فكانت النتيجة تكتل القبائل وانقسامها إلى معسكرين "قيس" و"يمن"، وتزعمت "أزدعمان" في البصرة وخراسان حزب "يمن" في مقابل "قيس" و"تميم."

ووقعت وقائع دموية بين يمن و قيس، أنهكت العرب جميعاً، وصارت من جملة العوامل، التي عجلت بسقوط الأمويين.

وحمل الشعراء مشاعل هذا النزاع، وأمدّوا ناره بوقود غزير. نظموا القصائد في مدح قيس وفي ذم يمن وذم قيس بحسب قبيلة الشاعر ونسبه. ساهم فيه الأخطل والكُميت ودِعْبل الخزاعي وجرير بن عطية بن الخَطَفَى التميميّ وإسحاق بن سويد العَدوَي وغيرهم، فكان مدح وكان ذم، وكان تباه وافتخار، وكان قذع وهجاء. وبدلاً من أن يتدخل الحكام ومسيرو الأمة في إخماد نار هذه الفتنة و إسكات الشعراء جمعاً للصف، ساهموا هم أنفسهم كما قلت في هذه المعركة وشجعوا المحاربين فيها، ففرقوا بين العرب بسياستهم هذه وأطمعوا الأعاجم فيهم، وجعلوا العرب يقاتل بعضهم بعضاً، وبذلك توقفت الفتوحات العربية الإسلامية، نتيجة لهذه السياسة المفرقة الخرقاء.

ولم يقـف هـذا النـزاع عـلى التبـاهي بقحطـان وعـدنان وبالأيـام وبالشجعان، بل تجاوز ذلـك إلى التبـاهي بارتبـاط كـل فريـق بجماعـة مـن الأعاجم بروابط الدم والنسب والثقافـة، فـافتخرت النزاريـة بـالفرسّ عـلى اليمانية، وعدوهم من ولد "إسحاق ابن إبـراهيم" وافتخـروا بـإبراهيم جـد العرب والفرس. ونظم "جرير بن عطيـة ابـن الخَطَفَـى التميمـي"، في ذلـك شعراً، جاء فيه:

أبونـا خليـل اللـه لا تـنكـرونـه	فأكرم بإبراهيم جـداً ومـفـخـرا
وأبناء إسحاق الـليوث إذا ارتـدوا	حمائل موت لابسـين السّـنَّـورا
إذا افتخروا عدّوا الصـبهبذ مـنـهـم	وكسرى وعدّوا الهرمزان وقيصرا
أبونا أبـو إسـحاق بجـمـع بـيـنـنـا	أب لا نبالي بعـده مـن تـأخـرا
أبونـا خليـل اللـه، واللـه ربـنـا	رضينا بما أعطـى الإلـهَ وقـدرا

ومن هذا القبيل، قول إسحاق بن سويد العدوي:

إذا افتخرت قحطان يوماً بسـؤدد	أتى فخرنا أعلى عليهـا وأسـودا
ملكناهم بداً بإسحـاق عّـمـنـا	وكانوا لنا عوناً على الدهر أعبـدا
ويجمعنـا والغـر أبـنـاء فـارس	أب لا نبـالي بعـده مـن تـفـردا

□

وقول بعض النزارية:

وإســحاق وإسماعــيل مــدا ... معــالي الفخــر والحســب اللبابــا

فــوارس فــارس وبنــو نــزار ... كــلا الفــرعين قــد كــبرا وطابــا

ولم يقف النزاريون عند هذا الحدّ، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك، فزعموا أن هذا النسب قديم، وأن قرابة الفرس بالعدنانيين قديمة، وأن الفرس كانت في سالف الدهر تقصد إلى البيت الحرام بالنذور العظام تعظيماً لإبراهيم الخليل بانيه، وانه عندهم أجل الهياكل السبعة العظيمة والبيوت المشرفة في العالم، وأن رجلاً تولاه وأعطاه العدة والبقاء، واستشهدوا على صحة دعواهم بشعر زعموا أن قائله هو أحد شعراء الجاهلية:

زمزمــت الفــرس عــلى زمــزم ... وذاك في ســـالفها الأقـــدم

وترتب على هذا وضع نسب الفرس يتصل بنسب العرب العدنانيين، فزعموا أن "منوشهر" الذي ينتسب اليه الفرس هو "منشخر بن منشخرباغ"، و"هو يعيش بن ويزك"، و"ويزك" هو اسحاق بن إبراهيم الخليل، واستشهدوا على زعمهم هذا بشعر، قالوا إن بعض شعراء الفرس في الإسلام قاله مفتخراً:

أبونــا ويــزك وبــه أســامي ... إذا افتخــر المفــاخر بــالولاده

أبونــا ويــزك عبــد رســول ... لــه شرف الرســالة والزهــاده

أما "يعيش بن ويزك" جد الفرس الجديد، فهو "عيسو"، وفي العبرانية ومعناها "مشعر" أو "خشن"، وهو شقيق يعقوب وجد الأدوميين في التوراة وابن إسحاق. وأما "ويرزك" فهو "يزك" أو "إيزك " وهو "إسحاق"، وهو في العبرانية "يصحق" "يصحك" يصحاك أي الضحاك. و يرى علماء التوراة أن الأصل اسم قبيلة كان يقال لها "يصحقيل" "يصحق الـ" يضحك الـ "Yishakil" "Yishhakel"، وهو والد "عيسو" و "يعقوب."

وقد أسهم بعض الفرس أنفسهم في إذاعة هذا النسب ونشره، وقد استشهد على صحة دعواه بالأشعار المذكورة التي تفتخر بالفرس على اليمانية، وانهم ولد أبيهم إبراهيم. ولعلهم قالوا ذلك تقرباً إلى الحكومة، وهي عدنانية، ولعوامل سياسية أخرى، منها تقريب الفرس من العرب، وضمان تعاونهم مع الخلافة في وجه النعرات القومية التي ضهرت في إيران.

ولم يكتف العدنانيون بقرابتهم للفرس و للإسرائيليين، بل زعموا أن الأكراد من أقربائهم كذلك، وأنهم من نسل ربيعة بن نزار بن بكر بن وائل، أو انهم من نسل ربيعة بن نزار بن معد، أو أنهم من نسل مضر بن نزار، أو من ولد كرد بن مرد بن صعصعة بن هوازن، وأنهم انفردوا في قديم الزمان لوقائع ودماء كانت بي نهم وبين غسان، وأنهم اعتصموا بالجبال فحادوا عن اللغة العربية لما جاورهم من الاسم، وصارت لغتهم أعجمية، فذلك على رأي أسل الأخبار بدء نسب الأكراد.

وقد لقي هذا النسب الجديد للأكراد تشجيعاً من بعض الأكراد في أيام العباسيين، وربما في أيام أواخر الدولة الأموية كذلك، فأيدوه وانقسموا أيضاً فرقاً في شجرات النسب، فمنهم من أخذ بشجرة كرد بـن مـرد، ومـنهم مـن أخذ بانتسابهم إلى سبيع بن هوازن، ومنهم من انتسب إلى ربيعة ثم إلى بكر بن وائل.

وكان مـن الطبيعـي أن يجعـل القحطـانيون أعـداء الفـرس مـن ذوي أرحامهم، وهم اليونان فقالوا: إن يونان أخ لقحطان، وإنه من ولـد عـابربن شالخ، إنه خرج من أرض اليمن في جماعة من ولده وأهله ومـن انضـاف إلى جملته حتـى و أقـاصي بـلاد المغـرب فأقـام هنـاك، وانسـل في تلـك الـديار، واستعجم لسانه ووازى من كان هنـاك في اللغـة الأعجميـة مـن الافرنجـة، فزالت نسبته، وانقطع نسبه وصـار منسـياً في ديـار الـيمن. وقـالوا أيضـاً إن الاسكندر من تبع. وكان من الطبيعـي انزعـاج العـدنانيين مـن ربـط نسـب قحطان بيونان، فانبروا للرد عليه، وكيف يرضون أن يكون للقحطانيين أبناء عمّ على شاكلة اليونانيين، وقد كانوا أمهر من الفرس، ولهم دولة كبرى.

فقال أحدهم، وهو أبو العباس ا لناشئ:

وتخلط يوناناً بقحطان ضـلّةً لَعَمْري لقد باعدت بينهما جداً

وأضاف القحطانيون الأتراك اليهم أيضاً، فزعموا أن معظـم أجنـاس الترك وهـم "التبت" من حمير، وأن التبع "شمر يرعش" أو تبعـاً آخـر ربـتهم هناك، و أن "شمر يرعش" هو الذي أمربناء "سمرقند"، إلى غير ذلك من

أقوال لا ترضى العدنانيين بالطبع، وفي ذلك يقول "دِعْبلِ بن علي الخُزاعي" في قصيدته التي يردّ بها على "الكميت"، و فخر فيها بمن سلف من ملوكهم وسير في الأرض، وأن لهم من الفضل ما ليس لمعدّ بن عدنان، فقال في شعره:

همو كتبوا الكتاب بباب مَروٍ   وباب الصين كانوا الكاتبينا

وهم جمعوا الجموع بسمرقندٍ   وهم غرسوا هناك التبتينا

وأضافوا "الضحّاك" إليهم، وصيروه من "الأزد"، والأزد من اليمن، فهو يماني إذن أصيل. و"الضحّاك" هو "بيوراسب أ عند أهل الأخبار. وقد ملكوه ألف سنة. وهو بطل أسطوري عند الفرس. وقد أخذ أهل الأخبار "ضحّاكهم" هذا من "إسحاق"، كما أخذ العدنانيون "ويزكهم" من "إسحاق" فصيروه "منشخر" على نحو ما ذكرت. وقد قلت إنّ معنى "إسحاق" في العبرانية الضحّاك. فالقحطانيون فعلوا هذا فعل العدنانيين، لجأوا إلى إسحاق فصيروه "الصحّاك"، وبدلاً من أن يقولوا أنه "ويزك" من اسم "إسحاق"في العبرانية أخذوا معنى الاسم فصيروه اسماً عربياً هو الضحاك، وجعلوه قحطانياً من الأزد.

وكان كل فريق يرد على مزاعم الفريق الآخر، حين يضيف إليه أمة من الأمم. فلما ادعى العدنانيون انهم هم و الإسرائيليون والأعاجم من نسب واحد، نرى "دعبل الخزاعي" يرد عليهم في قصيدة ساخرة يقول فيها:

□

فـإن يـك آل إسرائيـل منكــم ... وكنـتم بالأعــاجم فاخـرينـــا

فـلا تــنسَ الخنــازير اللواتـــي ... مسـخن مـع القـرود الخاسـئينا

بأيلــة والخلــيج لهـــم رســوم ... وآثـــار قـــدمن ومـــا محينـــا

لقــد علمــت نــزار إن قومـــي ... إلى نصـــر النبـــوة فاخرينـــا

قال هذه القصيدة في الـرد عـلى "الحميـت"، وهـو لسـان مـن ألسـنة النزارية، وقد تعرضى فيها باليمانية وتهكم عليهم.

حتى الموالي، وهم كما نعلـم مـن أصـل غـير عـربي، أسـهموا في هـذه المعركة، وحاربوا في الصفوف الأولى منها، تعصب كل منهم للجانـب الـذي دخل في ولائه. هذا "أبو نواس"، وهو مولى "بني حكم بن سعد العشـيرة"، يتعصب للقحطانية ويدافع. كل قواه عنها، لأن "بنـي الحكـم" مـن الـيمن. وقد حمله تعصبه لهم على نظم قصيدة هجا فيها قبائـل نـزار بأسرهـا وافتخـر بقحطـان وقبائلهـا، وقـد أوجعـت النـزاريين وآلمـتهم، فشـكوه إلى الخليفـة الرشيد، وهو منهم، فأمر بحبسه بسببها، وقيل أنه حده لأجلها، **وأولها**:

لست لدار عفـــت وغـيرّهـــا ... ضربان مـن قطرهـا و حاصـبها

ثم قال مفتخراً باليمن وذاكراً للضحاك:

فـنحن أربـاب ناعـــظ ولـنـــا ... صـــنعاء والمســك في محاربهـــا

وكان منا الضحاك يعبـــده الــ ... خايـــل والطـــير في مساربهـــا

□

ثم يستمر فيقول في هجاء نزار:

واهــج نــزارا وافــرِ جلــدتها　　　وكشــف الســتر عــن مثالبهــا

وأثارت هذه القصيدة جماعة من النزارية، فـردت عليـه. وكـان مـنهم رجل من "بني ربيعة بن نزار"، فقال يذكر نزاراً ومناقبها، واليمن ومثالبها في قصيدة أولها:

دع مــدح دار خبــا وانتهــى　　　عهــد معــدّ بــزعم عاتبهــا

ثم استمر، فقال:

فامدح معـداً وافخـر بمنصـبها الـ　　　عـالي عـلى النـاس في مناصـبها

وهتــك الســتر عــن ذوي يمــن　　　أولاد قحطــان غــير هائبهــا

وقد أنتج هذا النزاع القحطاني العدناني قصصاً وحكايات وشعراً دُوّن في الكتب، وأنتج "حديثاً" زعم أن قائله هو الرسول، قاله في مـدح قحطـان أو في مدح عـدنان، وأحيانـاً في مـدح القبائـل، مثـل: حمـير ومـذحّج و همـدان وغسّان، وقبائل أخرى أو في مدح بيوتات معينة من مثل هذه القبائل.

لقد تلوّن هذا النزاع بلون أدبي زاه لا يخلو من طرافة وأن كان قد أساء من الناحية السياسية إلى هذه الأمة أيـما اسـاءة. فقـد لـوّن اليمانـون تـأريخهم القديم بألوان زاهية جميلة من القصص والحكايـات والأخبـار، فهـم الـذين زعموا أن قحطان هو ابن هود النبي، فأوصلوا نسبهم بالأنبياء، وهم الذين

أوصلوا نسب قحطان إلى إسماعيل، فنّفوا بذلك أي فضل كان للعدنانيين على القحطانيين في الآباء والأجداد، وهم المسؤولون عن هذا التقسيم المشهور المعروف للعرب وجعل القحطانيين في الطبقة الأولى من العربية بالنسبة إلى العدنايين، وهم الذين نظموا في الإسلام تلك الأشعار والقصائد التي ذكرها الرواة على أنها من نظم التبابعة وملوك القحطانيين، وهم الذين ساقوا تلك الحكايات عن الفتوحات العظيمة لملوك اليمن وعن حكم القحطانيين للعدنانيين و استذلالهم إياهم.

وقد استغل العدنانيون ظهور الرسول بينهم، فاتخذوا من هذا الشرف ذريعة للتفاخر والتباهي على القحطانيين. وقد أجابهم اليمانيون على ذلك بأفهم هم الذين كان لهم شرف نصرة الرسول وإعلاء كلمة الله، وهم الذين كوّنوا مادة الجيش الإسلامي، وهم الذين آووا الرسول وفتحوا مكة. و تمسك العدنانيون بأذيال إبراهيم وعدّوه جدهم الخاص بهم، مع إنه جدّ العرب عامة، كما في القرآن الكريم، ونفوا كل مشاركة للقحطانيين في هذا النسب الشريف. وقد كان لهم ما يساعدهم في تقوية حجتهم، فقد كان الرسول من صلب إسماعيل والرسول منهم، فإبراهيم هو أبو المختص بهم. ولرد دعوى الإسماعيليين هذه من اختصاص إسماعيل وإبراهيم بهم. وصل بعض رواتهم نسب قحطان بإسماعيل وإبراهيم، ولم يكتفوا بذلك فلا بد لهم من شرف زائد، ورجحان على العدنانيين الذين لم يبدأ ملكهم إلا في الإسلام، فاختصوا هوداً بهم، وجعلوه نبياً يمانيا. ثم لم يقبلوا بنبي واحد زيادة على الأنبياء الذين اختص بهم العدانانيون فأضافوا إليهم صالحاً النبي

وقالوا: إنه من صميم حمير وإنه صالح بن الهميع بن ذي ماذن نبي حمير من آل ذي رعين، وزعموا أن ثقفياً كان غلاماً له، وحصلوا بـذلك عـلى نبـي وطعنوا في ثقيف، وهم من العدنانيين في الوقت نفسه، وأضـافوا إلـيهم نبيـاً آخر من صميم حمير سموه أسعد تبع الكامل بن ملكي كرب بن ج تبع الأكبر ابن تبع الأقرن، و قالوا إنه ذو القرنين الذي قال الله تعالى فيـه: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [سورة الدخان: الآية ٣٧] وذكروا أنه كان من أعظم التبابعة وأفصح شعراء العرب، ولذلك قال بعض العلماء فيـه ذهب ملك تبع بشعره، ولولا ذلك لما قدم عليه شاعر من العرب وقالوا: نهى النبي عن سبه، لأنه آمن به قبل ظهوره بسبع مئة عام، وليس ذلك إلا بـوحي من الله عز وجلّ. وهو أول من كسا اليت، وجعـل لـه مفتاحـاً مـن ذهـب. وأوردوا له أشعاراً لإثبات إيمانه بالرسول تمنى فيها لو أدرك أيامه إذن لآمـن به، ولكان له وزيراً وابن عم، ولألزم طاعته كل من عـلى الأرض مـن عـرب وعجم، ورووا له أبياتاً في البيت الحرام، وكيـف كـان يقصـده فيمكـث فيـه تسعة أشهر، وكيف كان ينحر في العام سبعين ألفاً من البدن.

وزعموا فوق هذا كله إنه تنبأ بعودة ملـك حمـير حيـث يظهـر المهـدي منهم، وهو رجل حميري سبئي الأبوين، يعيد الملك إلى حمـير بالعـدل، **في هذه الأبيات التي رواها عُبَيْد بن شَرْيَةَ الجُرهمي:**

ومـــن العجـــائب أن حـــم ... يـــر ســـوف تعـــلى بـــالقهور

ويســـودها أهـــل الـمـــوا ... شي مـــن نضـــير أو نضـــر

يعني النضر بن كنانة، وهو قريش.

ويثيرهـــا المنصـــور مـــن ... جنبـــي أزال كالصـــقور

وهـــو الإمـــام المرتجـــى الم ... ذكـــور مـــن قـــدم الـــدهور

وأنه قال:

بمنصـور صـير الـمـرتـجـى ... يعود من الملك ما قـد ذهـب

ويرجـع بالعـدل سلـطـانـهـا ... على الناس في عجمها والعرب

و قالوا إن المنصور هو لقب القائم المنتظر الذي سيظهر ليعيد ملك حمير المسلوب.

وذكروا إنه كان في جملة ما قاله من شعر قوله:

وأعلم بنيَّ بـأن كـل قبـيلة ... سـتذل إن نهضـت لهـا قحطـان

إلى غير ذلك من أشعار نسبت إليه وإلى غيره من التبابعة تتحدث عن حقد القحطانيين على العدنانيين، وعن ألمهم الشديد لفراق ملكهم وانتقال الحكم منهم إلى المكيين، وقد كانوا من أتباعهم بالأمس. فعللوا أنفسهم

بالتحدث عن الماضي، ثم صبروا أنفسهم بالحديث عن ملك سيعود، وعن دولة ستأتي، وعن مهدي يأخذ بالثأر، كالذي يفعله المغلوبون. وجعلوا ذا القرنيين الذي ورد اسمه في سورة الكهف منهم، فقالوا: هو الهميسع بن عمرو بن زيد ابن كهلان، أو الصعب بن عبد الله بن مالك بن زيد بن سدد بن حمير الأصغر، أو تبع الأكبر بن تبع الأقرن، أو تبع الأقرن، وكان مؤمناً عالماً عادلاً، ملك جميع الأرض وطافها، ومات في شمال بلاد الروم حيث يكون النهار ليلاً إذا انتهت الشمس إلى برج الجدي. وقد كان يقول الشعر، وهو الذي بشر بالنبي في شعره، وطبيعي أن يكون واضعو هذه الأشعار أناساً من الأنصار ومن بقية فروع قحطان.

وتعلق متعصبو اليمانية بالأبنية الفخمة وبالمدن الكبرى، فجعلوها من أبنية ملوكهم أو من أبنية أسلافهم العرب العاربة. وقد ذكر المسعودي إن من اليمانية من يرى أن الهرمين الذين في الجانب الغربي من فُسطاط مصر، هما قبرا "شداد بن عاد وغيره من ملوكهم السالفة الذين غلبوا على بلاد مصر في قديم الدهر، وهم العرب العاربة من العماليق وغيرهم". و نسبوا لملوكهم الفتوحات الفخمة في الشرق والغرب.

وأضافوا إليهم لقمان الحكيم، زعموا إنه لقمان الحميري، وقالوا إنه كان حكيماً عالماً بعلم الأبدان والأزمان، وهو الذي وقّت المواقيت، وسمى الشهور بأسماء مواقيتها، وزعموا أن ياسر ينعم ملك بعد سليمان بن داوود،

وسمي ينعم، لأنه ردّ الملك إلى حمير.بعد ذهابه، وان الضحاك ملك من الأزد كان في وقت إبراهيم فنصره. وبذلك كانت للقحطانيين منة قديمة على إبراهيم وعلى العدنانيين بصورة خاصة. وقالوا أشياء أخرى كثيرة، قد يخرجنا ذكرها من صلب هذا الموضوع من أعمال وفتوحات لشمر يرعش وغيره من التبابعة.

وقد إوّن العدنانيون تأريخهم، واستعانوا بالشعر، فوضعوا منه ما شاءوا في الرد على القحطانيين. قال ابن سلام "نظرت قريش فإذا حظها من الشعر قليل في الجاهلية، فاستكثرت منه في الإسلام"، و عقبوا على الروايات القحطانية. فلما ادعى اليمانيون مثلاً إن تبعهم "أيا كرب" فتح العراق والشام والحجاز، وانه امتلك البيت الحرام، ونكل بالعدنانيين شر تنكيل، وأنه قال شعراً، **منه**:

لست بالتبع اليماني إن لم تركض الخيل في سواد العراق

أو تؤدي ربيعة الخرج قسراً أو تعذني عوائق العواق

قال العدنانيون: نعم، وقد كانت بين تبع هذا وقبائل نزار بن معد وقائع وحروب، واجتمعا عليه معد من ربيعة ومضر وإيراد وأنمار، فانتصرت عليه، وأخذت الثأر منه، **وفي ذلك قال أبو دواد الإيادي**:

ضربنــا عــلى تبــعّ حــربـــه   حبـال الـبرود وخـرج الـذهب

وولى أبـــو كـــرب هـاربـــاً   وكـــان جبانـــاً كثـير الرهـــب

وأتبعتــه فهـــوى للـجبـــين   وكـــان العزيـــز بهـــا مـــن غلـــب

إلى غير ذلك من القصص والحكايات التي وضعها الرواة في الإسلام حين احتدم الخلاف بين الانصار وقريش، سجلت في الكتب، ورويت للناس، وانتشرت بينهم على إنها أمور واقعية، وان العرب كانوا من أصلين: قحطان وعدنان.

وقد كان لكل فريق رواة وأهل أخبار يقصون عد الناس قصصاً وأخباراً في أخبار النزاع القحطاني العدناني. فوضع "عُبيد بن شَرية الجُرهمي" كثيراً من القصص من والأشعار عن العرب الأولى وعن القحطانيين، وضع ذلك لمعاوية ابن سفيان، وكان معاوية مغرماً بسماع أساطير الأولين وأخبار الماضين، كما سبق أن أشرت إلى ذلك.

ووضع "يزيد بن ربيعة بن مفرغ" المتوفى سنة "٦٩" للهجرة، وهو شاعر متعصب لليمن، قصص "تبع". جاء في كتاب الأغاني: "سئل الأصمعي عن شعر تبع و قصته ومن وضعها، فقال: ابن مفرغ. وذلك إن يزيد بن معاوية لما سيره إلى الشام وتخلصه من عبيد الله بن زياد، أنزله الجزيرة وكان مقيماً برأس عين، وزعم أنه من حمير، ووضع سيرة تبع وأشعاره. وكان النمر بن قاسط يدعي أنه منهم."

وظهـرت كتـب ضـمت أخبـار التبابعـة وقصصـهم، أشـار إليهـا المسعودي، دعاها ب "كتب التبابعة". وقد وقف عليها ونقل منها، وهي كما يظهر من نقله ومن نقل غيره منها من هذه الأساطير المنسوبة إلى عبيد ووهب ويزيد ابن المفرغ وأمثالهم من أصحاب القصص والأساطير.

وكان بين العدنانيين والقحطانيين جـدل وكـلام في لغـة "إسـماعيل"، فاليمانيون ومنهم "الهيثم بن عدي الطائي" كانوا يرون أن لسان "إسـماعيل" الأول هو اللسان السرياني، ولم يعرف العربية. فلما جاء إلى مكة وتصاهر مـع جرهم، أخذ لسانهم وتكلم به، فصار عربيا. أما النزارية، فكانت تنفي ذلـك نفياً قاطعاً، وترده رداً شديداً، وتقول لو كان الحال كما تزعمون: "لوجـب أن تكون لغته موافقة للغة جرهم أو لغيرها ممن نزل مكة. وقد وجـدنا قحطـان سرياني اللسان، وولده يعرب بخلاف لسانه. وليست منزلة يعـرب عنـد الله أعلى من منزلة إسماعيل، ولا منزلة قحطان أعلى من منزلة إبـراهيم، فأعطـاه فضيلة اللسان العربي التي أعطيها يعرب بن قحطان". فنفوا النزارية العربيـة عن قحطان أيضاً وصيروه كإسماعيل سرياني اللسان.

وقد عقب "المسعودي" على هـذا النـزاع النـزاري القحطـاني بقولـه: "ولولد نزار وولد قحطان خطب طويل ومناظرات كثيرة لا يأتي عليها كتابنا هذا في التنازع والتفاخر بالأنبياء والملوك وغير ذلك مما قد أتينا على ذكر جمـل من حجاجهم و ما أدلى به كل فريق فهم ممن سـلف وخلـف". ونجـد جمـلاً كثيرة من هذا النوع مبثوثة في كتابيـه: مـروج الـذهب، والتنبيـه و الأشراف، تتحدث عن ذلك النزاع المرّ المؤسف الذي وقع بين العرب في تلك الأيام.

ولعل هذه العصبية الجاهلية، هي التي حملت جماعة من المتكلمين منهم "ضرار بن عمرو بن ثمامة بن الأشرس" و "عمرو بن بحر الجاحظ" على الرغم إن "النبط" خير من العرب، لأن الرسول منهم، ففضلوهم ذلك على العدنانيين والقحطانيين. وهو قول رد العدنانيون و القحطانيون عليه. قال به المتكلمون متأثرين بآراء أهل الكتاب في أنساب أبناء إسماعيل وبآرائهم الاعتزالية التي تكره التعصب في مثل هذه الأمور. وقد ذكر "المسعودي" شيئاً من الرد الذي وضعه القحطانيون و العدنانيون ضد هؤلاء.

العرب العاربة والعرب المستعربة:

أما مصطلح "العرب العاربة" و"العرب المستعربة"، فهما على ما يتبين من روايات علماء اللغة والأخبار من المصطلحات القديمة التي تعود إلى الجاهلية، ولكننا لو درسنا تلك الروايات خرجنا منها، ونحن على يقين بأن الجاهليين لم يطلقونهما يالمعنى الذي ذهب إليه الإسلاميون، بل قصدوا بهما القبائل البعيدة عن أرض الحضارة، والقبائل القريبة منها، فقد عرفت القبائل النازلة ببلاد الشام والساكنة في أطراف الإمبراطورية البيزنطية بـ "المستعربة". و"المستعربة" مصطلح أطلق على هذه القبائل و على القبائل النازله في سيف العراق من حدود نهر الفرات إلى بادية الشام، فهو يشمل إذن القبائل النازلة على طرفي الهلال الخصيب وفي طرفي القوس الذي يحيط بحدود الإمبراطوريتين. ومن المستعربة غسان وإياد وتنوخ. وقد فضلت

غالبية هذه المستعربة السكنى في أطراف المدن في مواضع قريبة من البوادي والصحارى، عرفت عندهم بـ "الحاضر"، فكان في أكثر مدن بلاد الشام حاضر يقيم به العرب من تنوخ ومن غير تنوخ.

وقد وجدت في تأريخ الطبري خبراً زعم أنه جرى بين "خالد بن الوليد"، وبين "عدي بن عدي بن زيد العبادي"، يفهم منه أن العرب: عرب عاربة وأخرى متعربة. وقد جرى بينهما على هذا النص و: "قال خالد: ويحكم: ما أنتم ؟ أعرب ؟ فما تنقمون من العرب ؟ أوعجم، فما تنقمون من الانصاف والعدل؟ فقال له عدي: بل عرب عاربة وأخرى متعربة. فقال: لو كنتم كما تقولون لم تحادّونا وتكرهوا امرنا، فقال له عدي: ليدلك على ما نقول: أنه ليس لنا لسان إلا بالعربية". فيفهم من هذا الحديث إن العرب: عرب عاربة و عرب متعربة. وهم أناس تعربوا فصاروا عرباً. وهو كلام معقول مقبول، ولا سيما بالنسبة إلى الحيرة والعراق وبلاد الشام، حيث تعرب فيها كثير ممن لم يكن عربياً في الأصل فصاروا عرباً، لسانهم لسان العرب. ولا يفهم من هذا الكلام بالطبع ؤتقسيم العرب بالمعنى المفهوم عند أهل لأخبار والتاريخ، أي عرب قحطانيون وعرب عدنانيون. وكل ما قصد به إن صح إن هذا الكلام "و كلام "خالد" وكلام " عدي" حقاً تعنيف وتأنيب لعدي بن عدي بن زيد على وقوفه هو وقومه و أهل الحيرة موقفا معاديا للمسلمين، و تأييدهم للفرس و لدفاعهم عنهم، مع انهم عجم بعيدون عنهم. فكأنه قال لهم: لو كنتم عربا فكيف تؤيدون عجما علينا و نحن عرب؟ و "عدي" من العرب، و أبوه من تميم كما يقول النسابون. فهو

ليس من العرب الاخرى المتعربة، و لكن من العرب العاربة، أي عرب بالاصالة، كما إن خالداً نفسه من العرب العاربة، لأنه عربي أصلاً وأن كان عدنانياً. فلم يقصد بالعرب العاربة هنا العرب القحطانيين، ولا بالعرب المتعربة العرب العدنانيين. فالعرب المتعربة إذن هم المتعربون من أهل الحيرة و غيرهم، ممن كانوا من النبط و بني إرم أو غيرهم ثم دخلوا بين العرب و لحقوا بهم فصار لسانهم لساناً عربياً مثل العرب الآخرين و تعربوا بذلك.

ويلاحظ إن "غسان" قد أدخلت في المستعربة؛ مع أنها من العرب العاربة، أي من العرب القحطانيين في عرف النسابين. وفي ذلك على أن مدلول العرب العاربة والعرب المستعربة لم يكن في الجاهلية وفي صدر الإسلام بالمعنى الذي صار عليه عند علماء النسب و أهل الأخبار، وأن تخصيص العرب العربة بالقبائل التي ترجع نفسها إلى اليمن، و العرب المستعربة بالقبائل التي يرجعون نسبها إلى عدنان، قد وقع من النسابين في أيام الأمويين فما بعد.

الفصل الثامن

اقتصاد العرب قبل الاسلام

إن المجتمع القرشي الذي ظهر فيه الاسلام كان قائماً على التجارة. والتجارة في سبيل تطورها تتعارض مع أية قيود سياسية واقتصادية، ولذلك كان الربا يعمل على تراكم رأس المال التجاري .

إن الاسلام في بدايته راح يمتدح التجارة القرشية، واستهدف محمد أغنياء قريش للدخول في الاسلام قبل الفقراء. وكان يعتبر أن مال قريش وتجارتها هما النصير الحقيقي للاسلام، وأن الاسلام لن ينهض إلا باغنياء قريش وبمالها. ولعل قصة محاولة إقناع الرسول لواحد من كبار تجار قريش وأغنيائها (الوليد بن المغيرة)بالدخول في الاسلام وازدرائه للفقير الأعمى الذي جاء يطلب صدقة أثناء ذ لك، خير دليل على ذلك ، فقد أخبرتنا سورة (عبس) بما جرى.

كانت التجارة هي العمل الرئيسي الذي يجيده العرب واشتهروا به وبخاصة قريشاً. كان الموقع الجغرافي للحجاز ومكة وقربهما من اليمن، المركز التجاري القديم، إضافة الى كونها المركز الرئيسي للعبادات قبل الإسلام والمسخرة لصالح التجارة وازدهار المال العربي، قد اهل عرب الحجاز لكي ياخذوا بالتجارة ويؤسسوا لها قبل أكثر من قرنين من ظهور الإسلام، بدءاً من قبيلة (جرهم) ومرورا بقبيلة (خزاعة) وانتهاء بقريش.

إن الوضع التاريخي الملائم للجزيرة العربية قد أهل مكة لكي تكون عاصمة التجارة العربية قبل الاسلام .كما أن الوضع التاريخي الملائم أباح انتقال طرق التجارة من الشرق إلى غرب الجزيرة العربية لأسباب خمسة هي:

١. نشوب الحروب الطويلة بين الروم والفرس في أوائل القرن السادس الميلادي.

٢. ظهور مملكة الغساسنة الذي أدى الى تاجيج الصراع، ومنع التجارة عبر الفرات من أن تزدهر.

٣. اشتراك الأحباش في السياسة الدولية، وتركهم لأمور التجارة وهم الذين كانوا منافسين للفرس في تجارة الحرير.

٤. هبوط اليمن وصعود مكة وتمرسها في تنظيم التجارة بسبب الغزو الحبشي (عام الفيل) وأثره في حزب التنظيم الحميري.

٥. تحول طرق التجارة من الشرق الى غرب الجزيرة العربية، تحاشياً لنظام مراقبة التصدير والاستيراد الذي يمر عبر الشام والعراق، مما جعل التجارة تتخذ لنفسها طرقا تجنبها المراقبة الشديدة، أو توفر عليها بعض الجمارك .كما أن موقع مكة القريبة من بلاد الشام ومن الإمبراطورية البيزنطية وكذلك موقعها القريب من الإمبراطورية الفارسية قد مكن مكة أن تتصل بهاتين الحضارتين وتتعلم منهما، وترتقي بالتجارة ارتقاء كبيراً إلى جانب ذلك كان لاجتماع التجارة

والدين في مكة هو الذي أهلها على مدن عربية أخرى خاضت غمار تنظيم التجارة الدولية من قبل .فلم يكن ان تنشط التجارة في مكة بدون وجود الكعبة ولولا قبيلة قريش ذات الهيبة والسطوة المالية والدينية.

ولاهمية التجارة في مكة ورد ذكرها في القران في أكثر من ١٢٥ آية . إلا أن تجارة العرب قد كسدت وتراجعت فيما بعد لانشغال العرب بالفتوحات التي كانت تدر عليهم مالاً أكثر وأسرع وأقل تكلفة من مال التجارة.

لقد أهل الموقع الجغرافي لبلاد الحجاز وتوسطها بين الشام واليمن لأن تصبح سوقاً تجارية ضخمة، وأن تنشيء مايسمى (طريق البخور) على غرار (طريق الحرير) الأسيوي.

إن موقع الجزيرة و إطلالتها البحرية على ثلاث بحار لم يعزز موقعها التجاري ولكنه ابقاها مركزا للتجارة البرية العالمية وللاسباب التالية:

١. إن المواصلات البحرية لم تكن وسيلة مفضلة لدى التجار في ذلك الوقت وذلك بسبب العوائق الطبيعية والتطور التقني المحدود.
٢. وقع البحر الأحمر تحت حكم البطالسة في مصر الذين كانوا القوة المسيطرة على البحر الأحمر، مما كان يهدد التجارة وطرقها البحرية.
٣. عدم صلاحية مياه البحر الأحمر للملاحة، بسبب مجموعة من المعوقات الطبيعية والشعاب التي كانت تهدد الملاحة، واقتصار التجارة البحرية مع مصر والحبشة فقط.

٤. عدم وجود أمن بحري ، وكثرة انتشار القرصنة في البحر الأحمر.هذه العوامل جميعها أدت الى تعزيز طرق التجارة البرية كطرق أمنة، كما عززت بالتالي من موقع الحجاز، ومكة على وجه الخصوص، وجعلت مكة منطقة نفوذ تجاري ومالي كبير،ومركزا عالميا للترانزيت والتجارة بين الشمال والجنوب.

وكان وضع مكة اشبه مايكون بجمهورية تجارية تحكمها مجموعة من التجار الأثرياء كما قال المستشرق هنري لامنس. وكان وضعها اشبه بوضع هونك كونك ودبي اليوم. واستدعى ذلك ان تكون هذه المنطقة مستقرة سياسياً وامنة اجتماعياً، وليس فيها مايكدر صفو التجارة التي لاتزدهر إلا في ظل أمن اجتماعي واستقرار سياسي.

وأخيراً استطاعت التجارة أن تشكل من المجتمع القرشي قبل الإسلام مجتمعاً تجارياً متميزاً بإخلاقه الكريمة، وعاداته المحمودة وقوانينه المتميزة .فقد كانت قريش قبل الاسلام محافظة على حسن المعاملة والامانة والاحسان واداء الحقوق.

كما كانت قريش قبل الاسلام تتميز بخصائص ذهنية متاتية من التجارة منها : اللباقة وحسن التصرف بالكلام والخطاب وبالبديهية الحاضرة وسرعة الجواب. وكانت قريش تطبع كل من يسكن مكة ويعمل بالتجارة بهذا الطابع الاخلاقي القويم .وكانت تجارة قريش تفرض عليها إجارة كل غريب (الدخالة) حتى وان كان صعلوكا او خليعا او مستهترا بالعرف او الاخلاق، أو قاتلاً غادرا ، املا في الاستفادة منهم ، وفي عدم التحرش

برجالها ان خرجوا متاجرين يحملون اموالهم لبيعها في الاسواق البعيدة .ولاستخدامهم في حمايتهم ممن قد يتحرش بهم من الاعداء والاعراب. كذلك لم يكن المجتمع المكي قبل الاسلام فوضويا لا امن فيه ولا استقرار. كما لم يكن يسوده الغش والخداع والخيانة. ولو كان ذلك لما ازدهرت تجارته على النحو الذي كانت عليه انذاك .

لقد كان المجتمع المكي التجاري قبل الاسلام مجتمعا يسوده الأمن والاستقرار. والمؤرخون الاسلاميون المستنيرون المعاصرون يقدمون لنا صورة مشرقة وناصعة للمجتمع المكي التجاري قبل الاسلام .حيث كان امنا من الداخل والخارج وحوادث العدوان على الانفس والاموال قليلة وكان الانسان يحس دائما ان هناك نظاما مستقرا وان سكان مكة ومن حولها يتمتعون بسلام ورخاء نسبيين .وان الغش والخداع والخيانة لاتترك دون عقوبة أبداً. والمحالفات والعهود مرعية بين القبائل المتجاورة بعناية وان رجال مكة قبل الاسلام كانوا عقلاء أكفاء.

فعندما اصطدمت قريش مع الاسلام تصرفت قريش في عقل وبنظام. وبرغم اجتهاد المؤرخين المسلمين في تشويه صورة قريش ،فان حقيقة الصورة واضحة ،فالنظام مستتب وهناك قانون عرفي عام متبع .

إن المال العربي الذي فرض على المجتمع المكي القرشي قبل الاسلام هذه الاخلاقيات ،كانت له مصادر مختلفة منها:

- التجارة، وكانت هي المورد الرئيسي للمال العربي قبل الإسلام .

- الأعمال المصـرفية ، وكان يحتكرها اليهود والملأ الأعـلى مـن قـريش الزراعة، وكانت بدائية جدا ومحدودةولاتكفي للاستهلاك المحلي
- الصـناعة ، وكانـت محـدودة ايضـا ،ولاتنـافس صـناعات الفـرس والرومان.
- مال الكهانة، مـن العطايـا والهـدايا والأمـوال التـي كانـت توهـب للمعابد.

المهم في مال قريش أنه لم يكن كمال العرب الاخـرين متمـثلاً بالأنعـام من الابل والخيل والماشية ،وبالعقارات فقط ، وانما كان مالاً متمثلاً بالـذهب والفضة ومختلف البضائع مـن الاقمشـة والعطـور والتوابـل الثمينـة. وكـان الاغنياء من قريش كالوليد بن المغيرة يملكـون امـوالا طائلـة. فقـد قـدرت ثروته بمئة الف دينار ،وقدرت ثروة سعيد بـن العـاص بمئتـي الـف دينـار. وكانت قيمة الدينار الشرائية عالية. فقد كان الدينار انذاك يشتري زوجا مـن الابل. وكان الرجل يحتاج الى درهم او درهمين في اليوم ليعيش مع عائلتـه في سعة وبحبوحة .وكان بعض القرشيين يسـاهمون في العـير التجاريـة بعشرـة دنانير ، وكانوا يعتبرون في ذلك الوقت من الموسرين.كما بلغـت قيمـة تجـارة قريش السنوية حوالي ربع مليون دينار ذهبي سنويا.

ما كان للعرب صناعةٌ سـوى مـا كانـت تغـزل نسـاؤهم، ومـا كـانُوا يحيكونه ويدبغونه في اليمن، والحيرة، ومشارف الشام، وتناثرت بقاعٌ متفرقـة يشتغل أهلُها بالزِّراعة، أمَّا الرَّعي فكان مهنـة منتشرـة-عـلى شـقائها-لقلـةِ الكلأ ونُدرةِ العشب، وانصرف العَرَبُ إلى التِّجارةِ، فكانت أكبرَ وسيلةٍ

للتكسب والرِّزقِ، وشهدت أرضُ الجزيرة رحلاتهم الدَّائبةَ شمالاً وجنوبًا، صيفاً وشتاءً، إلى الشام و اليمن، ترويجاً لتجارتهم المهمة، التي كانُوا يعتمدُون عليها، ويُقيمون لها الأسواقَ الشَّهيرةَ:كعكاظ، وذي المجاز، ومجنة، وغيرها، إلا أن تجارتهم هذه، وأسواقهم تلك،كانت تتهددها حروبُهم الدَّائمةُ، ومعاركهم الشرسة، وقبائل متناثرة في الصحراء، لا تعرف لها حرفةً سوى قطع طريق القوافل ونهبها؛ لذا فإنَّ تجارتهم الخافتة ما كادت تضيء إلا في الأشهر الحرم، وكان أهلُ الحجاز-العرب واليهود -يتعاطون الرِّبا، ويبالغون فيه مبالغة شديدة، ولا يعتبرونه غُبناً أو منقصة خُلُقٍ، إنما يرونه تجارةً محضةً، فقد سرتْ فيهم سريانَ الحياةِ الطبيعيةِ.

أمَّا الأحوالُ الاقتصاديةُ في شبه جزيرة العرب، فقد كانتِ البادية تعتمد على الاقتصاد الرعوي، فالقبائل العربية تستقر في الأماكن التي يتوفر فيها الماء وتصلح لرعي الإبل والأغنام والماعز. وعندما يشح الماء فإنها تضطر للانتقال مما يجعلها في حروب مع بعضها للحصول على المورد الأفضل. وتوجد في شبه جزيرة العرب واحات زراعية متناثرة يستقر فيها السكان لكنها عرضة لغزو البدو لها. ويقوم في المدن نشاط تجاري وزراعي وصناعي، وقد يغلب عليها نوع من هذه النشاطات، فمكة كان يغلب عليها النشاط التجاري؛ لأنها تقع بواد غير ذي زرع، وتتحكم بطرق التجارة بين اليمن والشام حيث تمر القوافل محملة بالتوابل والبخور والعطور، وقد استفادت مكة من مكانة الكعبة الدينية عند العرب في حماية قوافلها التجارية وعقد"الإيلاف"مع القبائل التي تجتاز ديارها، واشتهرت برحلة الصيف إلى

الشام ورحلة الشتاء إلى اليمن.أما المدينة-وكانت تعرف قبل الإسلام بيثرب-فكان يغلب عليها الاقتصاد الزراعي حيث اشتهرت ببساتين النخيل والأعناب والفواكه الأخرى والحبوب والخضروات.أما الطائف فقد غلبت عليها الزراعة وخاصة بساتين الأعناب والفواكه و الخضروات، وكذلك الصيد حيث تتوافر فيها الحيوانات البرية كالبقر الوحشي والحمار الوحشي والغزلان والظباء والأرانب. وأما اليمامة فاشتهرت بزراعة القمح الذي كان يزيد عن حاجاتها فتصدر منه إلى الحجاز. وأما اليمن ففيها زراعة واسعة ومناطق رعوية طبيعية إضافة إلى قيامها بالنشاط التجاري الكبير بنقل التوابل والبخور والعطور، والأبنوس، والعاج، والحرير، من الهند، إلى بلاد العرب، والشام. وكانت السواحل الشرقية لشبه جزيرة العرب تربط تجارة الصين والهند بالهلال الخصيب (العراق وسوريا).وكانت شبه جزيرة العرب تستورد الدقيق والزيت والأقمشة من الشام، كما تستورد التمور والأُدم من العراق. وقد ساعدت أسواق العرب في الجاهلية على نشاط التبادل التجاري، واشتهرت منها أسواق عكاظ، ومجنَّة، وذي المجاز، ودومة الجندل، ونطاة-بخيبر-وبدر، وحباشة. واستعمل العرب الدينار البيزنطي والدرهم الفارسي في التبادل التجاري،كما استعملوا المكاييل والموازين ومقاييس الطول في عمليات البيع والشراء. أما الصناعة في شبه الجزيرة العربية، فقد اشتهرت اليمن بصناعة البرود اليمانية. وعُرفت المدينة بصياغة الحلي الذهبية والفضية ؛ وصناعة السيوف والرماح والقسي والنبال والدروع والحراب،كما قامت في المدن العربية حرف التجارة، والحدادة، والصياغة،

والدباغة، والغزل، والنسيج، والخياطة، والصباغة. ولكن معظم الحرفيين كانوا من الموالي والعبيد ولم يكونوا عرباً. وقد شاع التعامل بالربا في مكة والطائف ويثرب ونجران، ومارسه اليهود وانتقل منهم إلى العرب، وكان على نوعين: ربا النسيئة؛ وهو زيادة المبلغ على المدين مقابل تأجيل الدفع. وربا الفضل وهو الزيادة التي تترتب على بيع العينات المتماثلة بسبب اختلاف جودتها. وكانَ الرِّبا يُؤخذ أضعافاً مضاعفة، وقد حَرَّمَهُ الإسلامُ بنوعيه،قال-تعالى-وأَحَلَّ اللهُ البيعَ وحرَّم الرِّبا البقرة ٢٧٥.وكان العرب يعرفون أنواعاً من المعاملات المالية كالقراض، والمضاربة، والرهن، وكان الغرر يحيط بكثير من عقود البيع والشراء كالمنابذة، والملامسة، والنجش، وبيع الحاضر للبادي. وكذلك كان الاحتكار يدخل في معاملاتهم التجارية، كما تفرض عليها المكوس الباطلة. وقد حرَّم الإسلامُ البيوعَ التي فيها غَرَرٌ أو ضَرَرٌ كَمَا حَرَّمَ الرِّبا والاحتكارَ؛ تحقيقاً للعدلِ بينَ النَّاسِ.فَعَاشَ النَّاسُ في خيرٍ ورَفَاهِيةٍ لما تمسكوا بهدي الإسلامِ في سياستِهم واقتصادِهم، وأصابهم الضَّنكُ والضِّيقُ لَمَّا تنكبوا الصِّراطَ المستقيمَ.

نستنتج مما سبق أن بلاد العرب بأقسامها الآنفة الذكر لم يكن فيها اقتصاد ذو قيمة تُذْكَرُ؛ فيغلب عليها أنها بَوَادٍ صحراويَّةٌ، إلا ما كان من بلاد اليمن فقد كانت بلاداً خِصْبةً في الجملةِ، ولاسيما أيام سد مأرب حيثُ ازدهرتِ الزِّراعةُ والفِلاحةُ عامة بصورةٍ تدعُو إلى العجب، وقد ذكرها في القرآن الكريم إذ قال-تعالى :-لقد كان لسبأٍ في مسكنهم آية . سبأ، الآية:١٥. فلم يشكروا وأعرضوا عن طاعة الله ورسوله فسلبهم الله-تعالى-

ما أعطاهم فخرب سدهم، وأحدبت أرضـهم، ورحـل عنهـا أكثرهـا فـالتحق بعضــهم بـالعراق، وبعضــهم بيثـرب ومــنهم الأوس والخــزرج، وآخرون بالشمال والشام. ومع هذا فقد وجدت في اليمن صناعات فاخرة في وقتها كصناعة الكتان، والسلاح من سيوف وحـراب ودروع وغيرهـا. هـذا بالنسبة إلى أهل اليمن، أما القبائل العدنانية فكان جلهـا يعـيش في الصـحراء ينتجع الكلأ والعشب لماشيته ويعيش على ألبانهـا ولحومهـا إلا مـا كـان مـن قبائل قريش القاطنين بالحرم فإنهم يعيشـون عـلى رحلتـي الشـتاء إلى الـيمن والصيف إلى الشـام، وقـد امـتن الله تعـالى ذلـك علـيهم في قولـه : لإيـلاف قريش ... فكانوا في رغـد مـن العـيش، عـلى خـلاف غـيرهم، فـإنهم كـانوا يعيشون على شظف العيش وضيقه، وما كان لقريش من سعة الرزق إنما كان لها من أجل حماها للحرم وتقديسها له، كما هو كرامة الله لأرحـام وأصـلاب ينتقل فيها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ.

نتائج واستنباطات من الكلام السابق:

(١) بيان أن الاقتصاد في بلاد العرب بصورة عامة لا يُعتَبر شيئاً يُـذْكَرُ إلى جانبِ غيرِهِ في البلادِ الأُخرى.

(٢) بيان أنَّ شمال بلاد اليمن كان ذا اقتصادٍ لا بأس به؛ لوجود خِصْـبٍ وصناعةٍ.

(٣) خراب سد مأرب، وهجرة أهله من بلادهم كان نقمةً إلهيـةً؛ سـببها الكفرُ والإعراضُ عن طاعةِ اللهِ ورسولِهِ.

(٤) بيانُ إكرامِ الله-تعالى-لقريشٍ بتحقيقِ أهمِّ هَـدَفٍ للإنسـان في هـذه الحياةِ، وهو الأَمنُ من الخوفِ، والإطعام من الجوع

وجـوبُ شـكرِ الله -تعـالى- عـلى نعمِـهِ، إذ طلـب ذلـكَ مـن قُـريشٍ بقولِـهِ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴾ [سـورة قـريش: الآيـة ٣] والعبـادةُ هِـيَ الشُّكْرُ، وأعظمُها إقامةُ الصَّلاةِ، فَمَنْ لم يُصَلِّ مَا شَكَرَ.

اشتغل العرب قبل الإسلام بـالرعي، والزراعـة حـول مـوارد الميـاة، إضافة إلى بعض الصناعات كصـناعة الأواني الفخاريـة والرمـاح والسـيوف وبعض الأقمشة من الصوف، إلى جانب النشاط التجاري حيث عمـل أهـل اليمن بالتجارة العالميـة، في الوقـت الـذي انهمـك فيـه عـرب الشـمال بنقـل البضائع عبر الصحراء، وكانت قبيلة قريش في مكة الوسيط التجاري، حيث كانت تنظم رحلتي على مـدار السـنة رحلـة الشـتاء إلى بـلاد الـيمن ورحلـة الصيف إلى بلاد الشام .

ونظم العرب الأسواق التجارية في البيئات البدوية، والبيئات الحضرية في موسم معين، قصدها أصحاب الشأن مـن أنحـاء شـبة الجزيـرة العربيـة، ويقضون فيها أياما، يبيعون ويشترون، حتي يأتي موسم الحـج، فيحجـون إلى الكعبة، ومن أشهر أسواقهم سوق عكاظ الذب كان يـنظم قـرب مكـة، ولم يقتصر دوره على التبادل التجاري فقط، وإنما كـان ميـدانا للتنـافس الأدبي في مجالات الشعر والخطابة بين القبائل العربية .

الفصل التاسع
العقائد الدينية في شبه الجزيرة العربية قديماً

شبه جزيرة العرب:

تبلغ مساحتها ثلاثة ملايين كيلومتر مربّع، وهي بلاد أكثرها صحارى، وأهمّ أقسامها اليمن وحضرموت والحجاز، وقد سمّيت بشبه الجزيرة لإحاطة البحار والأنهار بها، وكان سكّانها من العرب .

أصلُ العرب:

العرب من الشعوب السامية، وفي تأريخهم يوجد مصطلح العرب البائدة والعرب الباقية .

١. **العرب البائدة:** كعاد وثمود وطسم وجويس، وهؤلاء لم يصل إلينا شيء عن آثارهم وأخبارهم إلاّ ما ذكره القرآن الكريم .
٢. **العرب الباقية:** وهم القحطانيّون، ويسمّون العرب العاربة، والعدنانيّون يسمّون العرب المستعربة .

كانت لبلاد الحجاز أهميتها من الناحية الدينية، ففيها تلاقت جميع الأديان الوثنية وعبدة الكواكب والنار إلى جانب اليهودية والنصرانية، وقد كان بعض العرب يقدّسون الحيوان ويعبدونه لتحصيل البركة ويتسمّون بأسماء الحيوان، أو بأسماء طيور أو أسماء حيوانات مائية أو بأسماء نباتات أو بأسماء أجزاء من الأرض أو بأسماء حشرات، فهذه الأسماء تدل على تقديس العرب للحيوانات والنبات إلى جانب تفاؤلهم بها، كذلك كانوا يتعمدون تسمية أبنائهم بمكروه الأسماء وتسمية عبيدهم بمحبوب الأسماء، وكانت هذه التسميات تتسم بطابع الحياة التي كان يعيشها المجتمع العربي آنذاك.

ومن اللافت للانتباه أنّ العربي في تلك الحقبة كان يتجنب قتـل بعـض الحيوانات اعتقاداً منه أنه لو قتله جوزِيَ بقتله، بالإضافة إلى ذلك، فإنـه كـان يتفاءل ببعض الطيور كالحمام ويتشاءم من بعضها كالغراب، وأكثر من ذلك، فإنه كان يؤمن بوجود قوى خفية روحية مـؤثرة في العـالم والإنسـان، وهـذه تكمن في بعض الحيوانات والطيور والنبات والجماد وبعض مظـاهر الطبيعـة المحيطة به كالكواكب، الأمر الذي أدى به إلى أن يـربط بـين هـذه الكائنـات والموجودات وبين القوى الخفية.

ولكن هذه الحالة الاعتقادية ما لبثت أن تطـورت ممثلـة بالوثنيـة التـي تجاوزت حـدود المعقـول، وأدت إلى عبـادة قطـع مـن الصـخور التـي كـان يستحسن مظهرها وهيئتها، وهذا بدوره أدى إلى نسج الأسـاطير والقصـص بالموجودات التي تحيط به، كالجبال والآبار والأشجار.

ولم يكن تقديسه لهذه المظاهر الطبيعية وعبادته لها باعتبارها تمثل أرباباً، ولكنه كان يشعر تجاهها بنوع مـن الإجـلال والتقـدير، وقـد تنوّعـت طـرق تعاطيه معها، فتارة يقدسها، وأخرى يستقسم بها وثالثة يأكلها حين الجوع.

أ. عبدة الأصنام والأوثان:

كان العرب في الجاهلية يعبدون الأصنام والأوثـان والأنصـاب التـي تحوّلت كما يبدو إلى أصنام، وكانت الأصنام على أشكال متنوعة، منها ما هـو على صورة إنسان أو حيوان أو طير، ومن أشـهرها (ود، وسـواع، ويغـوث، ويعوق، ونسرا، واللات والعزى، ومنآة، وهبل).

ب. عبدة الكواكب والنار:

لم تقتصر الحياة الدينية في شبه الجزيرة العربية على عبادة الأصنام والأوثان، بل وجدت بعض الفئات الأخرى التي انصرفت إلى عبادة الكواكب والنجوم بأشكالها المتعددة كالشمس والقمر والزهرة وعطارد والثريا وغيرها..

وقد عرفت هذه الجماعة بالصابئة التي استمدّت أصولها الاعتقادية كما تدعي بالأخذ من محاسن ديانات العالم وإخراج القبيح منها قولاً وفعلاً، ولهذا سموا بـ"الصابئة"، وقد وجد إلى جانب هؤلاء عبدة النار "المجوسية"، وكانت قد عرفت هذه الديانة عن طريق الفرس في الحيرة واليمن، كما انتشرت الزندقة بين صفوف سكان شبه الجزيرة في الحيرة.

والزنادقة قوم أنكروا الخالق والبعث، ومنهم من أنكر الرسالة وأنكر بعث الأنبياء، وإلى جانب هذه النظرات الاعتقادية وعبادة الأوثان، نجد أنه كان للعرب آراء ومعتقدات خرافية، فمثلاً كانت لهم في الجاهلية مذاهب في النفوس، فمنهم من زعم أنّ النفس هي الدم وأن الروح هي الهواء، وزعمت طائفة أن النفس طائر ينبسط في جسم الإنسان فإذا مات لم يزل مطيفاً به في صورة طائر يصرخ على قبره مستوحشاً ويسمونه "إلهام" و"الواحدة"، كما أنهم كانوا يعتقدون بالوهميات كالغول وغير ذلك.

ج. الديانات السماوية:

وجد إلى جانب الديانات السالفة الذكر أديان أخرى كالمسيحية واليهودية، حيث كانت الجزيرة العربية منذ أقدم الأزمنة معبراً للقوافل وعلى اتصال وثيق بجيرانها، فانتقلت إليها الأديان، الأمر الذي كان له أثر كبير في التلونات الاعتقادية في شبه الجزيرة، وقد تجلى هذا التأثير في اعتناق بعض أبناء الجزيرة للمسيحية واليهودية إلى جانب الحنيفية.

✓ **اليهودية:**

انتشرت اليهودية على وجه الخصوص في اليمن عن طريق اتصال ملوك حمير بيهود يثرب، وتذكر المصادر أن جماعات منهم هاجرت إلى بلاد العرب الشمالية والحجاز بعد أن دمر الرومان أورشليم "القدس"عام ٧٠ للهجرة، واستقرت في يثرب ووادي القرى وخيبر وفدك وتيماء.

وبالرغم من اختلاط هؤلاء اليهود بالعرب وتعايشهم معهم واحتكارهم لبعض الصناعات والحرف كالتجارة والصناعة والحدادة وصناعة الأسلحة القديمة والصيرفة وتعربهم بحكم احتكاكهم بالعرب وتجاورهم، إلا أنهم لم ينجحوا في نشر اليهودية بين العرب لأسباب منها عدم اهتمامهم بالتبشير، لاعتقادهم بأنهم "شعب الله المختار" الذي يتميز عن باقي الشعوب، ومنها احتقار العرب لهم باعتبارهم عملاء للفرس في اليمن، ولما عرفوا به من صفات ذميمة منها نقض العهود، واتّباع أساليب الغدر، والتهافت على جمع المال وخاصة عن طريق الربا وما إلى ذلك .

✓ المسيحية:

تطلق المسيحية على الدين المنزل من الله. على عيسى، وكتابها الإنجيل، وأتباعها يقال لهم النصارى نسبةً إلى بلدة الناصرة في فلسطين، أو إشارة إلى صفة، وهي نصرهم لعيسى.، وتناصرهم فيما بينهم، وكانت هذه الصفة تخصّ المؤمنين منهم في أول الأمر، ولم يلبث أن أطلقت عليهم كلهم على وجه التغليب.

كان النصارى يجمعون على أن مريم حملت بالمسيح وولدته في بيت لحم في فلسطين، وأنكر عليها اليهود ذلك، ففرّت به إلى مصر ـ ثم عادت به إلى الشام وعمره آنذاك اثنتا عشرة سنة، فنزلت به القرية المسماة ناصرة، وبقي فيها إلى أن ألقى الرومان القبض عليه وسعوا به إلى عامل قيصر ملك الروم على الشام.

كان له اثنا عشر حوارياً بعثهم رسلاً إلى الأقطار للدعاية إلى دينه، أشهرهم أربعة الذين تصدوا لكتابة الإنجيل، وهم مرقس ومتى ولوقا ويوحنا، تعرضوا فيها لسيرة المسيح. من حين ولادته إلى حين رفعه، وكتب كل منهم نسخة على ترتيب خاص بلغة من اللغات.

انتشرت الديانة المسيحية في بادئ الأمر في المناطق التي عاش فيها العرب جنباً إلى جنب مع عناصر يونانية أو رومانية، ويرجع انتشارها في تلك المناطق إلى التأثيرات التي مارستها ثلاث مراكز مسيحية مجاورة لبلاد العرب (الشام، العراق، الحبشة).

وانتشرت المسيحية في بلاد الشام عـن طريـق الغساسـنة وتأصـلت في الرها وغيرها، ووصلت إلى أدنى الفرات وعبرت دجلـة ومنهـا وصـلت إلى البحرين وعُمان عن طريق البعثات التبشيرية، وهكذا انتشرت المسيحية أيضاً في الحيرة التي تحوّل قسم من عربها إلى المسيحية وعرفـوا بالعبّـاد، وانتشرـت عن طريق الحبشة في اليمن والحجاز.

✓ **الحنيفيـة:**

هي دين النبي إبراهيم. القائم على التوحيد، والأشخاص الذين كـانوا على الحنيفية، كما تشير إليهم المصادر، كانوا خليطاً عجيبـاً مـن أمـم مختلفـة، بعضهم عرب وبعضهم شعوب أخرى، وكان أصحاب الحنيفيـة جماعـة مـن عقلاء العرب سمت نفوسهم عـن عبـادة الأوثـان ولم يجنحـوا إلى اليهوديـة والنصرانية، وإنما قالوا بوحدانية الله وكانوا يسمون "الأحنـاف" (أو الحنفـاء أو المتحنفين)، وهي جمع حنيف صفة النبي إبراهيم .

كان المتحنفون يشككون الناس في الديانات الوثنية، ويصـرفونهم عن التفكير في عبادتهم إلى التوحيد وعبادة الله خـالق السـموات والأرض، وقـد ساحوا في الأرض بحثاً عن الدين الصحيح، وزهدوا من المجتمعات الوثنية، واعتزلوا عن الناس في كهف للتأمل والعبادة، واعتقدوا بوحدانيـة الله تعـالى سبحانه وتعالى، كالوحدانية التي نادى بها النبـي إبـراهيم. دون أن يشـركوا فيها أحداً، ولقد كان لهذه الأفكـار أعظـم الأثـر في تقـريض الوثنيـة في شـبه الجزيرة العربية، فأخذت الأفكار الوثنية تتداعى أمام هذه الأفكار.

وشهدت شبه الجزيرة العربية عدداً من العقائد الدينية السابقة على الرسالات السماوية، وقد تأثرت هذه المعتقدات بما حولها من عقائد الحضارات المجاورة وأبرزها حضارتا العراق ومصر.

وقد تناول أهم هذه التأثيرات الدكتور علاء شاهين، رئيس قسم الآثار المصرية بجامعة القاهرة، في بحث رصد فيه أهم العقائد المبكرة في هذه المنطقة خلال الفترة الزمنية التي بدأت من عصور ما قبل التاريخ حتى الألف الثالث قبل الميلاد.

معابد ومواقع:

من خلال الحصر الأثري والنصي تبيّن وجود منشآت دينية هامة في شبه الجزيرة العربية تؤرخ للعقائد التي سادت في المنطقة حتى الألف الثالث قبل الميلاد. وقد ذكر شاهين في بحثه المذكور والمنشور في مجلة اتحاد الأثريين العرب، في نوفمبر ٢٠٠٦، في ٣٦ صفحة، وهو أحد الأبحاث التي عُرضت في مؤتمر الاتحاد الذي عُقد في مقرّ جامعة الدول العربية في ذلك العام تحت عنوان "دراسات في آثار الوطن العربي، ذكر أنه عُثر على منشآت تعود إلى الألف الثاني ومنتصف الألف الأول قبل الميلاد في بعض المناطق مثل جزيرة "فيلكة" بالكويت، وكانت العبادة فيها مكرّسة لإله المياه المشهور المسمى في النصوص العراقية "إنكي" أو "انزاكي."

كما ذكر أن أعمال الحفائر في منطقة جزيرة البحرين كشفت عن العديد من المواقع الأثرية من بينها معابد كانت مخصصة لآلهة مشهورة، وعُثر بين أنقاض تلك المعابد على بعض الآثار التي ارتبطت بالطقوس والشعائر

الدينية التي مورست، ولعل أشهر تلك المعابد هو ما عُرف اصطلاحاً بمعابد "بار بار" وأيضاً معبد آخر عثر عليه في موقع "سار."

كذلك عُثر، كما كتب شاهين، على معبد يُعرف باسم معبد "شميس" في إمارة "أم القيوين" في دولة الإمارات العربية المتحدة ويعود تاريخه إلى العصر الحديدي، وفي اليمن عُثر على مواقع هامة قدمت نموذجاً للعمارة الدينية بالمنطقة في ذلك الوقت خاصة ما ارتبط بحضاراتها القديمة المشهورة المعروفة باسم "السبئية" و"المعينية" و"القنبانية" و"الحضرمية."

ومن بين أشهر تلك المعابد معبد "مراوح" ومحرم "بلقيس" حيث خُصصت العبادة فيه للإله القمري المعروف باسم "الموقة"، وكذلك معبد "معربم" الذي اكتُشف على مسافة ٢٧ كيلومتراً من مدينة مأرب، ومعبد الإله "عثترم" في موقع "تمنح" وينتمي إلى العصر القنباني، والمعبد المخصص للإله "سين."

وكشفت أعمال الحفريات عن تماثيل في هذه المعابد لكهنة شاركوا في خدمة تلك الآلهة. وفي حالات استثنائية كان للمرأة دور في تلك الخدمة الدينية. حسبما قال شاهين مشيراً إلى أن مصادر دخل تلك المعابد تنوعت ما بين النذور والقرابين والعطايا الملكية أو عطايا الأفراد، وكذلك غنائم الحرب.

ثالوث ديني:

وأوضح شاهين لرصيف٢٢ أن العقائد الدينية في تلك الفترة استندت إلى فكرة أن هنالك قوى خارقة خيّرة وأخرى شريرة تتحكم في مصير

الإنسان الذي عليه أن يتواصل ويتقرب إلى القـوى الخـيرة للاسـتعانة بها على قضاء حوائجه ولمواجهة القوى الشريرة. وتطورت هذه الفكرة في مـا بعد إلى تخيل الإنسـان لشـكل الآلهـة المعبـودة ثـم ظهـرت مرحلـة الأوثـان والتماثيـل إلى أن جـاءت بعـد ذلـك مرحلـة الـديانات السـماوية اليهوديـة والمسيحية والإسلامية.

وقد ارتبطت هذه العقائد القديمة بصفة أساسية بثالوث ديني مقـدس لعب الإله القمري فيه دوراً هاماً، وعُـرف هـذا الإلـه في النصـوص الدينيـة بأسماء متنوعة ولعب دور الأب أو الـزوج في مفهـوم الأسرة البشريـة للإلـه "الشمس" التي حفظت النصوص اليمنية أسماءها مثـل "حـر عفـر"، ومـن زواجهما كان الإبن "عثتر"، مما يعتـبر نموذجـاً في العقائـد اليمينـة للثـالوث المقدس، حسبما كشف شاهين.

واستُمدّت معظم الآلهة التي كانت معبودة في شبه الجزيرة العربية مـن مجمع الآلهة العراقيـة مثـل "عشـتار" و"انزاكـى" و"ايناتـا". وقـال شـاهين لرصيف٢٢ إن ذلك يرجع بصفة أساسية إلى أن العراق في ذلك الوقت كـان له نشاط بحري ضخم جداً في المنطقة، ومن ثم كان هنالك تواصل دائم عـبر التجارة، وساعد ذلك في نقل العقائد العراقية القديمة إلى الجزيرة العربية.

وأوضح أن أغلب المعابد المكتشفة بالمنطقة تتشابه في تخطيطها المعماري مع معابد الحضارة العراقية القديمة.

وهناك بعض التأثيرات غير المباشرة للحضارة المصرية القديمة على العقائد الدينية في الجزيرة العربية. ويظهر ذلك بوضوح في "الجعران" (نوع من الخنفساء كان يقدسها المصريون القدماء ويضعونها فى مقابرهم)، وقد كان له أهمية كبرى في العقيدة المصرية، ووُجدت مجموعة منه في حفائر أجريت في البحرين والسعودية واليمن، لكن ليس بمفهوم الدلالة العقائدية في الحضارة المصرية، حسبما قال شاهين.

وأضاف لرصيف٢٢ أن تأثير الحضارة الفرعونية وُجد أيضاً في شكل وتصميم المقابر خاصة في منطقة "عالي" بالبحرين، حيث صُممت وفق شكل من أشكال المقابر المصرية القديمة التي وجدت في معبد الوادي في جنوب مصر، واعتمدت فكرة بنائها على الأعمدة المربعة وزاوية البناء إضافة إلى الجذر الذي كان مربوطاً على شكل حرف "L" حتى لا يتشقق المبنى أو يقع.

وفي موقع "شيتان" اليمني، قال شاهين، وُجد أحد أشكال التحنيط لكن ليس على غرار مفهوم التحنيط عند المصريين القدماء الذي كان يقوم على فكرة البعث والخلود والتجدد.

وظهر التأثير في صورة أخرى في ظل ما رجحه بعض علماء التاريخ والآثار القديمة من ارتباط الإلهين المصريين "مين" و"حور" بعقائد شبه الجزيرة العربية.

وأوضح لرصيف٢٢ أن تأثير العقائد المصرية القديمة في عقائد اليمن كان أكثر من تأثيرها في عقائد باقي مناطق الجزيرة العربية، نظراً لوجود علاقات بشرية كانت تربط مصر القديمة بممالك وحضارات اليمن مثل سبأ ومعين وحضرموت.

وتابع أنه عندما نريد الوقوف على علاقة بلد بآخر علينا البحث في أمرين، الأول هو التجارة والثاني هو حالة السلم والحرب، ولم تكن هناك علاقات تجارية بين مصر والجزيرة العربية، ولم تكن أيضاً هنالك أي علاقات سلمية أو حربية خاصة أن المنطقة كانت شبه خالية حتى القرن الثالث قبل الميلاد. ومن ثم اقتصرت العلاقات بالمنطقة على اليمن بحكم وقوعها في طريق التجارة الفرعونية التي كانت تمر إلى بلاد بنت (الصومال حالياً)، ولذلك انتقلت إليها بعض التأثيرات العقائدية المصرية ومنها إلى باقي شبه الجزيرة ولكن التأثير الأكبر كان لبلاد ما بين النهرين بحكم قربها من المنطقة.

ووُجدت بعض النقوش العربية في طريق التجارة بين مصر واليمن سواء في سيناء أو في طريق الصعيد الذي كان يبدأ من منتصف محافظة المنيا ثم يتجه شرقاً ناحية البحر الأحمر مما يشير إلى علاقات قوية بين مصر واليمن قديماً، حسبما يقول أستاذ الآثار.

وأوضح أن بعض تأثيرات مصر الفرعونية انتقلت بشكل غير مباشر أيضاً من خلال الفينيقيين الذين أخذوا من مصر بعض الأفكار العقائدية ونقلوها بدورهم إلى المنطقة بحكم ارتباطهم بها بعلاقات تجارية.

في دراسته المذكورة، لفت شاهين إلى أن صعوبات كثيرة قابلته أثناء إعداد بحثه. وقال إن بعضها ارتبط بعدم وجود معلومات كافية عن العقيدة سواء نصياً بصفة رئيسية أو أثرياً بصفة جانبية خاصةً خلال معظم فترة الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد، إضافة إلى ندرة ما ذُكر عن هذه المعبودات في المراجع الإسلامية، وكذلك قلة ما أوردته نصوص الشعر الجاهلي عن آلهة العرب القديمة وارتباط معظم تلك الإشارات بآلهة في مرحلة زمنية تالية للإطار الزمني للبحث. كذلك لم تتضمّن نصوص القرآن الكريم الكثير من العقائد العربية القديمة، فضلاً عن عدم العثور على نصوص مدوّنة بلغة محلية لأهل حضارات المنطقة.

وعلى الرغم من إيمان أهل الجزيرة العربية في بادئ الأمر بدين إبراهيم عليه السلام الحنيفية السمحة، وانتشار القيم والأخلاق، فإنه بمرور الوقت بدأ الإيمان يندثر، وذلك مع بقاء بعض المبادئ والشعائر.

تاريخ ظهور الأصنام عند العرب:

حدث تطوُّر سلبي خطير عندما ظهر على الساحة السياسية والدينية عمرو بن لُحَيٍّ زعيم قبيلة خزاعة، الذي أحبه الناس ودانوا له، ظنًّا منهم أنه من أكابر العلماء وأفاضل الأولياء؛ بينما لم يكن على هذه الصورة مطلقًا! فقد سافر عمرو إلى الشام، ورآهم يعبدون الأوثان، فاستحسن ذلك؛ وعاد إلى الجزيرة العربية ومعه هُبَل، أحد الأصنام في الشام، وجعله في جوف الكعبة، وكان هُبَل من العقيق الأحمر على صورة إنسان، مكسور اليد اليمنى، أدركته قريش كذلك، فجعلوا له يدًا من ذهب، وكان أول صنم للمشركين وأعظمه وأقدسه عندهم.

ثم توالى ظهور الأصنام في العرب، فكان من أقدمها كلها مَناة، وكانت لهُذَيْل وخزاعة، وكانت على ساحل البحر الأحمر ناحية المُشَـلَّل بقُدَيْـد، ثـم اتخذوا اللات في الطائف، وكانت لثقيف، ثم اتخذوا العُـزَّى -وهـي أَحْـدَثُ من اللات ومناة- بوادٍ من نخلة الشامية فوق ذات عِرْق، وكانت لقريش مع كثير من القبائل الأخرى.

وكانـت هـذه الأصـنام الثلاثـة -بالإضـافة إلى هُبَـل- أكـبر أوثـان العرب،ثم كثر فيهم الشرك، وكثرت الأوثان في كل بُقعة.

ويُذْكَر أن عمرو بن لحي كان له رئيٌّ من الجن، فأخبره أن أصنام قـوم نوح -ودًّا وسواعًا ويغوث ويعوق ونسرًا- مدفونة بجُدَّة، فأتاها فاستثارها، ثم أوردها إلى تهامة، فلما جاء الحج دفعها إلى القبائل، فذهبت بها إلى أوطانها؛ فأمـا ودٌّ فكانـت لكلـب، بجَـرَش بدَوْمَـة الجنـدل مـن أرض الشـام مما يلي العراق، وأما سواع فكانت لهذيل بن مُدْرِكة بمكان يقال له: رُهَـاط مـن أرض الحجاز، من جهة السـاحل بقـرب مكـة، وأمـا يغـوث فكانـت لبنـي غُطَيف من بني مراد، بالجُرْف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمـدان في قريـة خَيْوان من أرض الـيمن، وخيـوان: بطـن مـن همـدان، وأمـا نسر فكانـت لحمير لآل ذي الكلاع في أرض حمير. وقد اتخذوا لهذه الطواغيت بيوتًا كـانوا يُعَظِّمُونها كتعظيم الكعبة، وكانت لها سدنة وحجاب، وكانت تهـدى لهـا كـما يهدى للكعبة، مع اعترافهم بفضل الكعبة عليها.

انتشار الأصنام في جزيرة العرب:

وقد سارت قبائل أخرى على الطريق نفسها، فاتخذت لها أصنامًا آلهة، وبنت لها بيوتًا مثلها، فكان منها ذو الخَلَصَة لدَوْس وخَثْعَم وبُجَيْلَة، ببلادهم من أرض اليمن، بتَبَالة بين مكة واليمن، وكانت فِلْس لبني طيئ ومن يليها بين جبلي طيئ سلمى وأجأ، وكان منها ريام، بيت بصنعاء لأهل اليمن وحمير، وكانت منها رضاء، بيت لبني ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد، مناة بن تميم، وكان منها الكَعَبَات لبكر وتغلب ابني وائل، ولإياد بِسَنْدَاد. وكان لدَوْس -أيضًا- صنم يقال له: ذو الكفين، ولبني بكر ومالك وملكان أبناء كنانة صنم يقال له: سعد، وكان لقوم من عذرة صنم يقال له: شمس، وكان لخولان صنم يقال له: عُمْيانِس.

ومع انتشار الأصنام في طول الجزيرة العربية وعرضها، فإن العرب لم تزل تُعَظِّم الكعبة المشرفة؛ وكانت لكل قبيلة من قبائل العرب صنمها عند الكعبة.

هل كان العرب يؤمنون بالله؟

ولم يكن العرب يؤمنون أن الأصنام هي التي خلقتهم أو خلقت الكون؛ بل كانوا يؤمنون بالله خالقًا، وقد صرَّح القرآن بذلك في مواطن عديدة؛ فقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٦١] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة لقمان: الآية ٢٥] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [سورة الزُّخرُف: الآية ٨٧].

ولكن الشيطان وسدنة الأصنام ألقوا في روعهم أنها تُقَرِّبُهم من ربِّهم؛ أي واسطة بينهم وبين الله -تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا- قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [سورة الزُّمَر: الآية ٣] فهم إذن يؤمنون بالله، ولكنهم يُشرِكون معه أصنامهم التي لا تضرُّ ولا تنفع.

هل كان العرب يعرفون الجن والشياطين؟

وكان العرب يعرفون الجن والشياطين فكانت الشياطين في الجاهلية تعزف الليل أجمع بين الصفا والمروة، فعن ابن عباس.. رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ..﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٨] قال: كانت الشياطين في الجاهلية تعزف الليل أجمع بين الصفا والمروة، وكانت

فيهما آلهة لهم أصنام، فلما جاء الإسلام قال المسلمون: يا رسول الله لا نطوف بين الصفا والمروة؛ فإنه شيء كنا نصنعه في الجاهلية. فأنزل الله: ﴿ .. فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٨] وكانوا يتعاملون مع الجنِّ تعاملاً حقيقيًّا، فكانوا يعوذون برجال من الجنِّ ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [سورة الجن: الآية ٦]، وجعل أهل الجاهلية الجنَّ شركاء لله؛ ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٠٠]

العرب ومعرفتهم الكهانة والكهان:

وكان في أهل يثرب كاهنة فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: "أَوَّلُ خَبَرٍ جَاءَنَا بِالْمَدِينَةِ مَبْعَثَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ كَانَ لَهَا تَابِعٌ مِنَ الْجِنِّ، جَاءَ فِي صُورَةِ طَيْرٍ، حَتَّى وَقَعَ عَلَى جِذْعٍ لَهُمْ، فَقَالَتْ لَهُ: أَلاَ تَنْزِلُ إِلَيْنَا فَتُحَدِّثُنَا، ونُحَدِّثُكَ، وتُخَذِّرُنَا ونُحَذِّرُكَ؟ فَقَالَ: لاَ، إِنَّهُ قَدْ بُعِثَ بِمَكَّةَ نَبِيٌّ حَرَّمَ الزِّنَى، وَمَنَعَ مِنَّا الْقَرَارَ. ...

وكانوا يتحاكمون إلى الكهَّان، فعن ابن جريج: ﴿ ...فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ ...﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٦] قال: كهان تنزل عليها شياطين، يُلقون على ألسنتهم وقلوبهم. وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، أنه سمعه يقول –وسئل عن الطواغيت التي كانوا يتحاكمون إليها، فقال:

كان في جهينة واحد، وفي أسلم واحد، وفي كل حي واحد، وهي كهان ينزل عليها الشيطان.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله إنَّ الكهَّان كانوا يُحَدِّثُونَنَا بالشَّيء فنجده حقًّا. قال: "تِلْكَ الْكَلِمَةُ الْحَقُّ، يَخْطَفُهَا الْجِنِّيُّ فَيَقْذِفُهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ، وَيَزِيدُ فِيهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ".

وانتشرت الكهانة بين العرب فدخل عليها الدجل والخداع والاحتيال؛ حتى كانوا يتكهنون وما يحسنون الكهانة، فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: "كَانَ لأَبِي بَكْرٍ غُلاَمٌ يُخْرِجُ لَهُ الخَرَاجَ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يَأْكُلُ مِنْ خَرَاجِهِ، فَجَاءَ يَوْمًا بِشَيْءٍ فَأَكَلَ مِنْهُ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ لَهُ الغُلاَمُ: أَتَدْرِي مَا هَذَا؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: كُنْتُ تَكَهَّنْتُ لإِنْسَانٍ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَمَا أُحْسِنُ الكِهَانَةَ، إِلاَّ أَنِّي خَدَعْتُهُ، فَلَقِيَنِي فَأَعْطَانِي بِذَلِكَ، فَهَذَا الَّذِي أَكَلْتَ مِنْهُ، فَأَدْخَلَ أَبُو بَكْرٍ يَدَهُ، فَقَاءَ كُلَّ شَيْءٍ فِي بَطْنِهِ".

وعن ابن عباس قال: مَا قَرَأَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم عَلَى الْجِنِّ وَمَا رَآهُمْ، انْطَلَقَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَى سوق عكاظ وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ. وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ. فَرَجَعَتِ الشَّيَاطِينُ إِلَى قَوْمِهِمْ فَقَالُوا: مَا لَكُمْ. قَالُوا: حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ. قَالُوا: مَا ذَاكَ إِلاَّ مِنْ شَيْءٍ حَدَثَ، فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، فَانْظُرُوا مَا هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ. فَانْطَلَقُوا يَضْرِبُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، فَمَرَّ النَّفَرُ الَّذِينَ أَخَذُوا نَحْوَ تِهَامَةَ -وَهُوَ بِنَخْلٍ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ وَهُوَ يُصَلِّي

بِأَصْحَابِهِ صَلاَةَ الْفَجْرِ- فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ اسْتَمَعُوا لَهُ، وَقَالُوا: هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ. فَرَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ، فَقَالُوا: يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا. فَأَنْزَلَ اللهُ تعالى عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [سورة الجن: الآية ١]

زيد بن عمرو بن نفيل:

وعلى الرغم من ذلك الشرك البيِّن فقد بقي من العرب مَنْ كان يعبد الله تعالى على دين إبراهيم عليه السلام؛ مثل زيد بن عمرو بن نفيل؛ لكنه لم يكن ليقدر على الدعوة إلى الحنيفية وسط صناديد الكفر في قريش، فكان كل ما يقدر على فعله هو العيب على ذبائحهم، وإنكار معبوداتهم؛ وهو ما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن زيد بن عمرو بن نفيل كان يقول: "إِنِّي لَسْتُ آكُلُ مِمَّا تَذْبَحُونَ عَلَى أَنْصَابِكُمْ، وَلاَ آكُلُ إِلاَّ مَا ذُكِرَ اسْمُ الله عَلَيْهِ. وَأَنَّ زَيْدَ بْنَ عَمْرٍو كَانَ يَعِيبُ عَلَى قُرَيْشٍ ذَبَائِحَهُمْ، وَيَقُولُ: الشَّاةُ خَلَقَهَا اللهُ، وَأَنْزَلَ لَهَا مِنَ السَّمَاءِ الْمَاءَ، وَأَنْبَتَ لَهَا مِنَ الأَرْضِ، ثُمَّ تَذْبَحُونَهَا عَلَى غَيْرِ اسْمِ الله. إِنْكَارًا لِذَلِكَ وَإِعْظَامًا لَهُ".

لذلك فقد ترك العرب زيدًا وشأنه إلى حد ما؛ ما دام أنه لا يَتَدخَّل بصورة واقعية بشكل كبير في حياتهم ومعبوداتهم، أو كانوا يتركونه وشأنه على سبيل الاستهزاء والسخرية، وكذلك كان ورقة بن نوفل الذي كان يدين بالنصرانية، ولم يُرْوَ عنه أنه كان داعيًا إليها، أو متحدِّثًا عنها بين أهله في قريش!

هكذا صارت الدعوة إلى الله تعالى في الجزيرة العربية معدومة تمامًا، أو شبه معدومة على أقلِّ تقدير، ولقد ترتَّب على هذا الأمر عدم وجود مضايقات عقدية بين أهل التوحيد وأهل الشرك؛ إذ لم يكن هناك إلاَّ قلَّة من أهل التوحيد، الذين كانوا يَنْأَوْنَ بأنفسهم عن بطش الكَفَرَة في الجزيرة العربية، ولم يظهر الاضطهاد الديني الحقيقي في الجزيرة العربية إلاَّ عند مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وعلى كلٍّ؛ فقد بقي الأمر في الجزيرة العربية على حاله، كلٌّ يَتَّبع ما يراه مناسبًا لحاله ونفسه، ولم يكن هناك جدال أو نقاش أو صدام بين أتباع الديانات والرسالات وبين عابدي الأصنام والأحجار، حتى جاءت رسالة الإسلام محرِّكة للركود العقدي الذي طال أمده في الجزيرة العربية.

الفصل العاشر

أسواق العرب المعروفة قبل الإسلام

قد كان للعرب في الجاهلية أسواق يقيمونها في شهور السنة وينتقلون من بعضها الى بعض ويحضرها سائر قبائل العرب من بعد منهم ومن قرب فكانوا ينزلون دومة الجندل أول يوم من ربيع الاول فيقيمون أسواقها بالبيع والشراء والأخذ والعطاء فيعشرهم رؤساء آل بدر في دومة الجندل وربما غلب على السوق بنو كلب فيعشرهم بعض رؤساء كلب فتقوم سوقهم الى آخر الشهر ثم ينتقلون الى سوق هجر وهو المشهور في ربيع الآخر فتقوم أسواقهم بها وكان يعشرهم المنذر بن ساوى أحد بني عبد الله بن دارم ثم يرتحلون نحو عمان بالبحرين فتقوم سوقهم بها ثم يرتحلون فينزلون ارم وقرى الشحر فتقوم اسواقها بها أياما ثم يرتحلون فينزلون عدن من اليمن أيضا فيشترون منه اللطائم وانواع الطيب ثم يرتحلون فينزلون الرابية من حضرموت ومنهم من يجوزها الى صنعاء ثم تقوم السواقهم بها ويجلبون منها الخز والادم والبرود وكانت تجلب اليها من معافر ثم يرتحلون الى هكاظ في الاشهر الحرم فتقوم اسواقهم بها ويتناشدون الاشعار ويتحاجون ومن له اسير سعى في فدائه ومن له حكومة ارتفع الى الذي يقوم بأمر الحكومة وكان الذي يقوم بأمر الحكومة فيها من بني تميم كان احدهم الاقرع بن جابس ثم يقفون بعرفة ويقضون مناسك الحج ويرجعون الى أوطانهم.

أشهر أسواق العرب في الجاهلية:

للعرب أسواق عديده كان بعض هذه الأسواق ثابتاً وهي التي تكون في المدن والقرى ومنها ما هو موسمي وهي التي تعقد في مواسم معينه منها ما هو خاصاً بما يجاورها من القرى كسوق هجر وحجر اليمامة والبعض الأخر كان عاماً يتوافد اليه الناس من كل مكان مثل سوق عكاظ وسوق ذي المجاز وهذه الأسواق لم تكن أسواقاً عادية مقتصره على البيع والشراء بل كانت أشبه ما تكون بالملتقيات الثقافية والتي كان لها دور كبير في الحياة الدينية والثقافية والإقتصادية والسياسية والإجتماعية يتناشدون فيها الأشعار ويتفاخرون ويتنافرون ويتفادون.

وقد بقيت هذه الأسواق زمناً في صدر الإسلام ومما يدل على بقاء هذه الأسواق حتى صدر الإسلام قول إبن عباس رضى الله عنه.

وعن ابن عباس: كانت عكاظ ومَجَنَّة، وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية فتأَثَّمُوا أنْ يَتَّجِرُوا في المواسم فنزلت: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ...﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٨] في موسم الحج. اهـ.) (التحرير والتنوير سورة البقرة آية ١٩٨ وما جاء في سنن أبي داود).

حدثنا مُحَمَّدُ بنُ بَشَّارٍ أخبرنا حَمَّادُ بنُ مَسْعَدَةَ أخبرنا ابنُ أبي ذِئْبٍ عن عَطَاءِ بنِ أبي رَبَاحٍ عن عُبَيْدِ بنِ عُمَيْرٍ عن عَبْدِ الله بنِ عَبَّاسٍ ،: «أنَّ النَّاسَ في أوَّلِ الْحَجِّ كَانُوا يَتَبَايعُونَ بِمِنًى وَعَرَفَةَ وَسُوقِ ذِي المَجَازِ وَمَواسِمِ الْحَجِّ فَخافُوا الْبَيْعَ وَهُمْ حُرُمٌ، فأَنْزَلَ الله سُبْحَانَهُ ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ...﴾ سنن أبي داود – باب الكرى – جزء٥ – صفحة ١٥٨

وكلمة سوق من سوق الناس اليها بضائعهم؛ جاء في مقاييس اللغة باب السين والواو وما يثلثهما:

(سوق وهو حَدْوُ الشَّيءِ. يقال ساقه يسُوقه سَوقاً، والسَّيّقة: ما استيق من الدوابّ، ويقال سقتُ إلى امرأتي صَدَاقها، وأسَقْتُه؛ والسُّوق مشتقةٌ من هذا، لما يُساق إليها من كلِّ شيء، والجمع أسواق، والساق للإنسان وغيره)

وجاء في جمهرة اللغة باب السين والقاف:

(السَّوْق: مصدر سُقْتُ البعيرَ وغيرَه أسوقه سَوْقاً. والسَّوَق: غِلَظ الساقين؛ رجل أسْوَقُ وامرأة سَوْقاءُ. والسُّوق: معروفة، تؤنّث وتُذكّر، وأصل اشتقاقها من سَوْق الناس إليها بضائعهم. وسُوَيْقَة: موضع، معرفة لا تدخلها الألف واللام. وجَوّ سُوَيْقَة: موضع).

أشهرها ومواقعها:

✓ سوق عكاظ:

ويعد أشهر هذه الأسواق وكانت بداية هذه السوق بعد عام الفيل ببضع عشر سنة وسبب تسمية بذلك لأن الناس يعكظ فيه بعضهم بعض بالمفاخرة أي يغلبه.

(وعُكاظ : سُوق للعرب كانوا يَتَعاكَظُون فيها؛ قال الليث:سميت عكاظا لأَن العرب كانت تجتمع فيها فيَعْكِظ بعضُهم بعضاً بالمُفاخَرة أَي يَدْعَكُ، وقد ورد ذكرها في الحديث؛ قال الأَزهري: هي اسم سُوق من أَسْواق العرب ومَوْسمٌ من مواسم الجاهلية، وكانت قبائل العرب

تـجتمع بها كل سنة، ويتفاخرون بها ويَحْضُرها الشعراء فـيتناشدون ما أَحدثوا من الشِّعر، ثم يَتفرّقون، قال: وهي بقرب مكة، كان العرب يجتمعون بها كل سنة، فـيُقـيمون شهراً يَتبايعُون ويتفـاخرون ويتناشـدون، فلـما جـاء الإِسلام هَدَمَ ذلك؛) لسان العرب باب العين.

التحديد النهائي لموقع سوق عكاظ:

وقد تضاربت الأراء حول موقعه حتى تم تشكيل لجنه وزارية تكونت لتحديد موقع السوق رسمياً، منها: وزارة المعـارف ووزارة الزراعـة ووزارة العدل ووزارة الشؤون البلدية والقروية.

وتوصلت اللجنة إلى ترجيح الموقع شـمالا شرق الطـائف عـلى مسـافة ٤٥ كيلو متراً. وقد أعقب صاحب السمو الملكي الأمير نايف بن عبـدالعزيز ببرقية حول اعتماد الموقع وإنهاء القضية، وتفيد البرقية القطع بـالموقع المحـدد مـن قبـل اللجنـة وعـدم التعـرض لـه والتعـدي عليـه وكانـت بتـاريخ ٢٩/ ١/ ١٤١٦هـ

✓ سوق مجنة:

إسمها مستق من الجن أو الجنون أو الجنة التـي هـي البسـتان وكانـت ذات خضرة ونضرة ومياه وكان العرب تأتي اليها بعـد عكـاظ ويقضـون بهـا أخر أيام ذي القعدة (قيل عشرـة وقيـل عشرـين) قبـل أن يتحولـون الى ذي مجاز .

يقال أن موقعها هو ما يعرف الأن بوادي فاطمة.

مَجَنَّةُ: بالفتح، وتشديد النون، اسم المكان من الجنة وهو السّتر والإخفاء، ويقال: به جنونٌ وجِنّةٌ ومَجَنَّةٌ، وأرضٌ مَجَنّة: كثيرة الجنّ؛ ومَجَنّةُ:

اسم سوق للعرب كان في الجاهلية وكان ذو المجاز ومجنّة وعُكاظ أسواقاً في الجاهلية، قال الأصمعي: وكانت مجنة بمرّ الظهران قرب جبل يقال له الأصفر وهو بأسفل مكة على قدر بريد منها، وكانت تقوم عشرة أيام من آخر ذي القعدة والعشرون منه قبلها سوق عُكاظ وبعد مجنة سوق ذي المجاز ثمانية أيام من ذي الحجة ثم يعرّفون في التاسع إلى عرفة وهو يوم التروية، وقال الداودي: مجنة عند عرفة؛ وقال أبو ذؤيب:

سُلافةُ راحٍ ضُمّنَتْها إداوةٌ مقيَّرةٌ ردفٌ لمؤخرة الرحلِ

تزوّدها من أهل بُصرى وغزّة على جَسرة مرفوعة الذّيل والكِفْلِ

فوافَى بها عُسفانَ ثم أتى بها مَجَنّةَ تصفو في القلال ولا تغلي

وقيل: مجنة بلد على أميال من مكة وهو لبني الدُّئِل خاصة، وقال الأصمعي: مجنة جبل بني الدُّئِل خاصة بتهامة بجنب طفيل، وإياه أراد بلال فيما كان يتمثّل:

ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلة بواد وحولي إذخر وجليلُ

وهل أرِدَنْ يوماً مياه مجنّةٍ وهل يَبْدُوَنْ لي شامَةٌ وطفيلُ

معجم البلدان باب الميم والجيم وما يليهما.

سوق ذي المجاز:

يأتي في المرتبة الثانية من حيث الأهمية بعد سوق عكاظ وسمي بذلك لأن العرب كانت تتجتاز منه إلى عرفات.

كانت العرب تنتقل اليه بعد رؤية هلال ذي الحجة ويمكثون به الى اليوم الثامن وتقع على مسافة ثلاثة أميال من عرفة بناحية جبل كبكب

(**وسوق ذي المجاز**): بفتح الميم والجيم المخففة وبعد الألف زاء وكانت بناحية عرفة إلى جانبها. وعند ابن الكلبي مما ذكره الأزرقي، أنه كان لهذيل على فرسخ من عرفة. وقول البرماوي كالكرماني موضع بمنى كان له سوق في الجاهلية (عون المعبود شرح سنن أبي داود – كتاب المناسك – جزء٥ – صفحة١٥٨).

ذي المجاز: هو موضع عند عرفات كان يُقامُ به سُوقٌ من أسواق العرب في الجاهلية. والمجاز: موضع الجواز، والميم زائدة. قيل سُمّي به لأن إجازة الحاجّ كانت فيه.) النهاية في غريب الحديث – باب الجيم مع الواو

مجنون ساحر كاهن. كذاب.

لا يخلوا ذكر شئ من أمور الدنيا الإ بذكر الحبيب صلى الله عليه وسلم خير من مر بالأسواق وخير من وطئت قدمه أرضها كان صلوات ربي وسلامه عليه يطوف بالقبائل في المواسم يدعوهم الى الإيمان بالله والى نصرته حتى يبلغ دين ربه وأن يمنعوه من أذي المشركين وما يرمونه به من الجنون والسحر والكهانة والكذب.

قال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن أبي العباس، حدثنا عبد الرحمن بـن أبي الزناد عن أبيه قال: أخبرني رجل يقال له ربيعة بن عباد مـن بنـي الـديل وكان جاهلياً فأسلم قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في الجاهليـة في سوق ذي المجاز وهو يقول : «يـا أيهـا النـاس قولـوا لا إلـه إلا الله تفلحـوا» والناس مجتمعون عليه ووراءه رجل وضيء الوجه أحول ذو غديرتين يقـول: إنه صابىء كاذب، يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه فقالوا هذا عمه أبو لهـب). (تفسير إبن كثير تفسير – سورة المسد – آية ١ – جزء ٨ – صفحة ٤٨٥).

وجاء في تهذيب الكمال للحافظ المزي على لسان حكيم بـن حـزام أنـه قال:(وكلّ هذِه الأسواق ألقَى بها رسول الله في المَواسِـم يسْـتعرِض القبائـلَ قبـيلةً قَبـيلةً، يَدعوهم إلى الله، فلا يَـرى أحـداً يَسْـتجيب لـه، وأُسْرَتُـه أشـدُّ القبائل عليه، حتَّى بعَثَ ربُّه لَه قوْماً أراد بهم كرامتَهُ، هذا الحيّ مِن الأنصـار، فبايَعوه، وصدَّقوا به، وآمنوا به، وبَذَلوا أنفُسَهم وأموالَهم، فجَعَـلَ الله لـه دار هِجْرةٍ وملْجَأ، وسَبَق مَن سَبَق إليه، فالحمـدُ لله الـذي أكـرَمَ محمَّـداً بـالنُّبوة) (تهذيب الكمال – حكيم – جزء ٤).

✍ **كان للعرب في هذه الأسواق حكام يفصلون بين المتنافسين:**

وحُكَّامُ العَرَبِ في الجاهِلِيَّةِ: أكْـثَمُ بـنُ صَـيْفِيٍّ، وحاجِـبُ بـنُ زُرارَةَ، والأَقْرَعُ ابنُ حابِسٍ، ورَبيعةُ بنُ مُخاشِنٍ، وضَمْرَةُ بنُ أبي ضَمْرَةَ لتَميمٍ، وعامِرُ بنُ الظَّرِبِ، وغَيْلانُ بنُ سَلَمَة لِقَيْسٍ، وعبدُ المُطَّلِبِ، وأبو طالِـبٍ، والعـاصِي بنُ وائِلٍ، والعَلاءُ بنُ حارِثَةَ لقُرَيْشٍ، ورَبيعَـةُ بـنُ حِـذارٍ لأَسَـدٍ، ويَعْمُـرُ بـنُ الشَّدَّاخِ وصَفْوانُ بنُ أُمَيَّةَ، وسَلْمَى ابنُ نَوْفَلٍ لِكِنانَةَ

وكان أشهر هؤلا الحكام قاطبة بل كان هو الحكم المسود بين الشعراء بلا منازع النابغة الذبياني.

قَالَ الأَصْمَعِيُّ: كَانَ النَّابِغَةُ الذُّبْيَانِيُّ تُضْرَبُ لَهُ قُبَّةٌ مِنْ أَدْمٍ بِسُوقِ عُكَاظٍ فَتَأْتِيهِ الشُّعَرَاءُ فَتَعْرِضُ عَلَيْهِ أَشْعَارَهَا فَأَوَّلُ مَنْ أَنْشَدَهُ الأَعْشَى، ثُمَّ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ، ثُمَّ أَنْشَدَتْهُ الشُّعَرَاءُ، ثُمَّ أَنْشَدَتْهُ الْخَنْسَاءُ أَبْيَاتَهَا الَّتِي تَقُولُ فِيهَا:

وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتَمُّ الْهُدَاةُ بِهِ ... كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ

فَقَالَ: وَاللهَّ لَوْلا أَنَّ أَبَا بَصِيرٍ أَنْشَدَنِي آنِفًا لَقُلْت إنَّك أَشْعَرُ أَهْلِ زَمَانِك مِنْ الْجِنِّ وَالإِنْسِ، فَقَامَ حَسَّانُ فَقَالَ لأَنَا وَاللهَّ أَشْعَرُ مِنْهَا وَمِنْك وَمِنْ أَبِيك، فَقَالَ لَهُ النَّابِغَةُ حَيْثُ تَقُولُ مَاذَا؟ **فَقَالَ حَيْثُ أَقُولُ**:

لَنَا الْجَفَنَاتُ الْغُرُّ يَلْمَعْنَ بِالضُّحَى ... وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمًا

وَلَدْنَا بَنِي الْعَنْقَاءِ وَابْنَيْ مُحَرِّقٍ ... فَأَكْرِمْ بِنَا خَالا وَأَكْرِمْ بِنَا ابْنَ مَا

فَقَالَ لَهُ: يَا بُنَيَّ إنَّك قُلْت لَنَا الْجَفَنَاتُ فقللت عَدَدَك، وَقُلْت يَلْمَعْنَ بِالضُّحَى وَلَوْ قُلْت فِي الدُّجَى لَكَانَ أَفْخَرَ، لأَنَّ الضِّيفَانَ يَكْثُرُونَ بِاللَّيْلِ، وَقَلَّلْت عَدَدَ أَسْيَافِك وَقُلْت يَقْطُرْنَ وَلَوْ قُلْت يَجْرِينَ لَكَانَ أَكْثَرَ لِلدَّمِ، وَفَخَرْت بِمَنْ وَلَدْته، وَلَمْ تَفْخَرْ بِمَنْ وَلَدَك .) (غذاء الألب شرح منظومة الأدب – كلام البيضاوي في الهداية).

ولنا هنا وقفة تأمل فقد أستطاع النابغة الذبياني أن يغيير بعض كلمات هذه الأبيات وهي لم يتجاوز البيتين تغيير لم يخل لا بالوزن ولا القافية ولكنه تغيير يحل المعنى الى الأفضل من حيث القوة والجزاله اللفضية وهذا يدل على إحتلال العرب منزلة رفيعة وبلوغهم شأواً عظيماً من حيث الفصاحة والبلاغة رغم ذلك وقفوا عاجزين أمام القرآن الكريم فلم يستطيعوا ان يغيروا ولا حتى حرفاً واحد من حروفه فسبحان الله العظيم.

✍الجن في الأسواق:

هل كانت الجن تغشى هذه الأسواق العلم عند الله سبحانه وتعالى ولكن جاء في تفسير الطبري سورة الأحقاف آية ٢٩القول في تأويل قوله تعالى :﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾

يقول تعالى ذكره مقرّعا كفار قريش بكفرهم بما آمنت به الجنّ وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ يا محمد نَفَرا مِنَ الجِنّ يَسْتَمِعُونَ القُرْآنَ ذكر أنهم صرفوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحادث الذي حدث من رَجْمهم بالشهب. ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن حُمَيد، قال: ثنا جرير، عن مغيرة، عن زياد، عن سعيد بن جُبير، قال: كانت الجنّ تستمع، فلما رُجِموا قالوا: إن هذا الذي حدث في السماء لِشيء حدث في الأرض، فذهبوا يطلبون حتى رأوا النبيّ صلى الله عليه وسلم خارجا من سوق عكاظ يصلي بأصحابه الفجر، فذهبوا إلى قومهم .

حدثنا محمد بن عبد الأعلى، قال: ثنا ابن ثور، عن معمر، عن أيوب، عن سعيد بن جُبير، قال: «لما بعث النبيّ صلى الله عليه وسلم حُرِست السماء، فقال الشيطان: ما حُرِست إلا لأمر قد حدث في الأرض فبعث سراياه في الأرض، فوجدوا النبيّ صلى الله عليه وسلم قائما يصلي صلاة الفجر بأصحابه بنَخْلة، وهو يقرأ، فاستمعوا حتى إذا فرغ وَلَّوْا إلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ. إلى قوله مُسْتَقِيمٍ)

حدثني محمد بن سعد، قال: ثني أبي، قال: ثني عمي، قال: ثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس، قوله: وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَرا مِنَ الجِنّ يَسْتَمِعُونَ القُرْآنَ. إلى آخر الآية، قال: لم تكن السماء تحرس في الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم، وكانوا يقعدون مقاعد للسمع فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم حرست السماء حرساً شديداً، ورُجِمت الشياطين، فأنكروا ذلك، وقالوا: لا نَدْرِي أَشَرّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأرْضِ أمْ أرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدا فقال إبليس: لقد حدث في الأرض حدث، واجتمعت إليه الجنّ، فقال: تفرّقوا في الأرض، فأخبروني ما هذا الخبر الذي حدث في السماء، وكان أوّل بعث ركب من أهل نصيبين، وهي أشراف الجنّ وساداتهم، فبعثهم إلى تهامة، فاندفعوا حتى بلغوا الوادي، وادي نخلة، فوجدوا نبيّ الله صلى الله عليه وسلم يصلي صلاة الغداة ببطن نخلة، فاستمعوا فلما سمعوه يتلو القرآن، قالوا: أنصتوا، ولم يكن نبيّ الله صلى الله عليه وسلم علم أنهم استمعوا إليه وهو يقرأ القرآن فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين .

واختلف أهل التأويل في مبلغ عدد النفر الذين قال الله وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَرا مِنَ الجِنّ فقال بعضهم: كانوا سبعة نفر. (تفسير الطبري سورة الأحقاف آية ٢٩ جزء ٢٦ صفحة ١٩).

أخيراً دعاء دخول السوق:

حدّثنا أبو بكر إسماعيل بن محمد الفقيه بالري و أبو أحمد بكر بن محمد الصيرفي بمرو قالا: ثنا الحارث بن أبي أسامة، ثنا يزيد بن هارون، أنبأ أزهر بن سنان القرشي، ثنا محمد بن واسع قال: قدمت المدينة فلقيت بها سالم بن عبد الله بن عمر، فحدّثني عن أبيه، عن جدّه عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن رسول الله قال: «مَنْ دَخَلَ السّوقَ فقالَ: لا إِلٰهَ إِلا الله وَحْدَهُ لا شَريكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ يُحْيِي وَيُميتُ بِيَدِهِ الخَيْرُ، وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ، كَتَبَ الله لَهُ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ وَمَحا عَنْهُ أَلْفَ أَلْفِ سَيِّئَةٍ وَبَنى لَهُ بَيْتاً في الجَنَّةِ

هكذا رواه عبد الله بن وهب، ورواه إسماعيل بن عياش عن عمر بن محمد بن زيد عن سالم.

الفصل الحادي عشر
حاتم الطائي

حاتم الطائي سيد من سادات طيء، وشاعر من شعراء الجاهلية، ويعتبر كذلك فارساً من أكبر فرسانها. كان رجلاً يكتنفه الشرف وتسمه الشجاعة وعفة النفس وكرم الأخلاق. كما اتصف بالروح النبيلة والعاطفة الإنسانية. يتزين بالسخاء والجود وحب الضيافة بأسمى زينة ولم يكن همه إلا إكرام الضيف.. ينحر لهم الأغنام ويجود عليهم، ويرفه عن المرملين، وينقذ الأسرى.

وكان الكرم طبعاً فيه وغريزة متمكنة، ولم يضرب به المثل في الكرم عن عبث.

ويستدل من أخباره أنه اكتسب الكرم من أمه وأخذه عنها إذ قيل أنها كانت في الجود كابنها لا تدخر شيئاً ولا يسألها أحد شيئاً فتمنعه ويروى عنها انهم وهبوها قطعة من الإبل، فجاءتها امرأة من هوازن، كانت تأتيها في كل سنة تسألها، فقالت لها: دونك هذه القطعة من الإبل فخذيها، فوالله لقد عضني من الجوع، ما لا أمنع معه سائلاً أبداً، **ثم أنشدت تقول:**

لعمري، لقد ما عضني الجوع عضة	**فآليت ألا امنعُ، الدهرَ، جائعاً**
فقولا لهذا اللائمي: اعفني فإن	**أنت لم تفعل، فعض الأصابعا**
فماذا عساكم أن تقولوا لأختكمُ	**سوى عذلكم، أو عذل من كان مانعا؟**
وماذا ترونَ اليوم إلا طبيعة	**فكيف بتركي، يا ابن أمّ الطبائعا؟**

ولم تتوقف جرثومة الكرم عند حـاتم، ولكنهـا تعدتـه وتناولـت ابنتـه سفانة، ويقال أنها كانت من أجود نساء العرب... وذكر أن أباها كان يعطيها الصـرمة (أي القطعة من الإبل) بعد الصرمة من إبله ولكنها لم تكن لتحـتفظ بها بل تهبها للناس. وذات يوم استدعاها وقال لهـا: يـا بنيـة، أن القـرينين إذا اجتمعا في المال أتلفاه. فإما أن أعطي وتمسـكي، أو امسـك وتعطـي، فإنـه لا يبقى على هذا شيء.فأجابته: والله لا أمسك أبداً! قال: وأنا لا أمسك. قالت: لا نتجاور فقاسمها ماله وتباينا.

روى ابن الأعرابي عن مولد حاتم أسطورة قال فيها:

أن أم حاتم أتيت، وهي حبلى، في المنام، فقيل لها: أغلام سمح يقال لـه حاتم أحب إليك أم عشرة غلمة كالناس، ليوث ساعة البأس، ليسوا بأوغال (ضعفاء أدنياء) ولا أنكاس (جبناء)؟ فقالت: حاتم، فولدت حاتمـاً، ولـيس اختيارها لحاتم إلا تلبية لطبع الكرم فيها.

ولد حاتم في قبيلة طيء، وهو ابن عبد الله بن سعد بن الحشرـج، أحـد سادات قبيلته، وأمه عتبة بنت عفيف. وكانت كنيتـه تعـرف بـأبي سـفانة أي اللؤلؤة.. وسفانة هي أكبر ولده، كما كني بأبي عدي.

توفي والده وهو لا يزال صغيراً فعاش في حجر جده سعد بن الحشـرج ولم يكن هذا الأخير ليستطيع أن يتحمل إسراف حفيـده، وجنونـه في الجـود والكرم. قيل أنه لما ترعرع جعل يخرج طعامه، فإن وجد من يأكله معـه أكـل، وإن لم يجد طرحه. وعندما رأى جده أنه يهلك طعامه قال لـه: إلحـق بالإبـل! فخرج إليها، ووهب له جارية وفرساً وفلوها.. فلما أتـى الإبـل طفـق يبغـي الناس.وإذا به يلتقي ذات يوم بقوم فأتاهم فسألوه: يا فتى! هل من قرى؟

فقال: تسألوني عن قرى، وقد ترون الإبل؟ ويقال أن الذين التقاهم كانوا ثلاثة هم: عبيد بن الأبرص، وبشر بن أبي خازم، والنابغة الذبياني، وكانوا يبغون النعمان، فنحر لهم ثلاثة من الإبل، فقال عبيد: إنما أردنا بالقرى اللبن، وكانت تكفينا بكرٌ، إذا كنت لا بد متكلفاً لنا شيئاً. فقال حاتم: قد عرفت، ولكنني رأيت وجوهاً مختلفة وألواناً متفرقة.

فامتدحوه وشكروه وذكروا فعاله، وهنا قل لهم حاتم: أردت أن احسن إليكم، فكان لكم الفضل عليّ، وأنا أعاهد الله أن أضرب عراقيب إبلي عن آخرها، أو تقدموا إليها فتقتسموها.. ففعلوا.

وما أن سمع جده بما حدث حتى جاءه يقول: أين الإبل؟ فقال له حاتم طوقتك بها طوق الحمامة، مجد الدهر وكرماً لا يزال الرجل يحمل بيت شعر أثني به علينا عوضاً من إبلك. اغتاظ الجد وقال: والله لا أساكنك أبداً.. فخرج بأهله وترك حاتماً، ومعه جاريته وفرسها وفلوها.

✍ **كان حاتم شاعراً بالإضافة إلى كونه كريماً جواداً.**

كان شعره شخصياً.ينطق بشخصية صاحبه على اختلاف مزاياها.. كما كان فارساً من أشجع الفرسان وأقواها.. ولعل أجمل وصف نستطيع أن نعطيه إياه هو ما قاله ابن الأعرابي: " كان حاتم من شعراء العرب، وكان جواداً يشبه شعره جوده، ويصدق قوله فعله، وكان حيثما نزل عرف منزله، وكان مظفراً، إذا قاتل غلب، وإذا غنم انهب، وإذا سئل وهب، وإذا ضرب بالقدح فاز،وإذا سابق سبق، وإذا أسر أطلق، وكان يقسم بالله أن لا يقتل

واحد أمه، وكان إذا أهل شهر الأصم، الذي كانت مضر تعظمه في الجاهلية، ينحر كل يوم عشرة من الإبل، فأطعم الناس واجتمعوا إليه.

كان موفور الحظ، يأتيه رزقه أحياناً، وهو نائم، وهو لا يدري من أين؟ وهذه هي أسطورة يرويها يعقوب بن السكيت فيقول: فبينما حاتم، بعد أن انهب ماله، وهو نائم، إذا تشابه وحوله مائتا بعير، أو نحوها، تجول وتحطم بعضها بعضاً، فساقها إلى قومه، فقالوا: يا حاتم! ابقِ على نفسك، فقد رزقت مالاً، ولا تعودن إلى ما كنت عليه من الإسراف قال: فأنها نهبي بينكم، فانتهبت، **فأنشأ حاتم يقول:**

تداركني جدي، بسفح متالعٍ فلا ييأسنْ ذو نوفةٍ أن يغنما

وهكذا نرى أن حاتم ظل على حاله من الجود والكرم حتى نهاية حياته وهذه أسطورة جديدة عن جوده، اخترعوها بعد موته فقالوا: كان رجل يقال له أبو الخيبري، مر في نفر من قومه بقبر حاتم، وحوله أنصاب متقابلات من حجارة كأنهن نساء نوائح، فنزلوا به فبات أبو الخيبري ليلته كلها ينادي: أبا جعفر اقرِ أضيافك، فيقال له: مهلاً! ما تكلم من رمة بالية. فقال: إن طيئاً يزعمون أنه لم ينزل به أحد إلا قراه فلما كان آخر الليل نام أبو الخيبري، حتى إذا كان في السحر، وثب، فجعل يصيح: واراحلتاه! فقال له أصحابه: ويلك مالك؟ قال: خرج والله حاتم بالسيف وأنا أنظر إليه حتى عقر ناقتي، قالوا: كذبت. قال: بلى، فنظروا إلى راحلته فإذا هي منخزلة لا تنبعث، فقالوا: قد والله قراك، فظلوا يأكلون من لحمها ثم أردفوه، فانطلقوا، فساروا ما شاء الله.

ثم نظروا إلى راكب، فإذا هو عدي بن حاتم راكباً قارناً جملاً أسود فلحقهم فقال: أيكم أبو الخيبري فقالوا هو هذا. فقال: جاءني أبي في النوم فذكر لي شتمك إياه وأنه قرى راحلتك لأصحابك، وقد قال في ذلك أبياتاً ورددها حتى حفظتها وهي:

أبا الخيبري، وأنت امرؤٌ حسود العشيرةِ، شتامها

فماذا أردت إلى رمةٍ بدويةٍ، صخب هامها

تبغي أذاها وإعسارها وحولك غوثْ، وأنعامها

وإنا لنطعم أضيافنا من الكوم بالسيف نعتامها

وصية حاتم:

ويروى عن أبي صالح: أن حاتماً أوصى عند موته فقال: إني أعهدكم من نفسي بثلاث: ما خاتلت جارة لي قط أراودها عن نفسها. ولا اؤتمنت على أمانة إلا قضيتها. ولا أتى أحد من قبلي بسوءة أو قال بسوء.

كان حاتم رجلاً طويل الصمت، وكان يقول: إذا كان الشيء يكفيكه الترك فاتركه.

الفصل الثاني عشر

أيّام داحس والغبراء وهي بين عبس وذبيان

يوم أوارة الثاني:

كان عمرو بن المنذر اللخمي قد ترك ابناً له اسمه أسعد عند زراة بن عدس التميمي؛ فلما ترعرع مرت به ناقةٌ سمينة فعبث بها فرمى ضرعها، فشد عليه ربها سويدٌ أحد بني عبد الله بن دارم التميمي فقتله. وهرب فلحق بمكة فحالف قريشاً. وكان عمرو بن المنذر غزا قبل ذلك ومعه زرارة فأخفق، فلما كان حيال جبلي طيء قال له زرارة: أي ملكٍ إذا غزا لم يرجع ولم يصب، فمل على طيء فإن بحيالها، فمال إليهم فأسر وقتل وغنم، فكانت في صدور طيء على زرارة، فلما قتل سويد أسعد، وزرارة يومئذ عند عمرو، قال له عمرو بن ثعلبة بن ملقط الطائي يحرض عمراً على زرارة:

من مبلغٌ عمراً بأن الـ ... مرء لم يخلق صباره

ها إنّ عجزة أمّة ... بالسفح أسفل من أواره

فاقتل زرارة لا أرى ... في القوم أوفى من زراره

فقال عمرو: يا زرارة ما تقول؟ قال كذبت، قد علمت عداوتهم فيك. قال: صدقت. فلما جن الليل سار مجداً إلى قومه ولم يلبث أن مرض. فلما حضرته الوفاة قال لابنه: يا حاجب ضم إليك غلمتي في بني نهشل. وقال لابن أخيه عمرو بن عمرو: عليك بعمرو بن ملقط فإنه حرض علي الملك. فقال له: يا عماه لقد أسندت إلي أبعدهما شقةً وأشدهما شوكة.

فلما مات زرارة تهيأ عمرو بن عمرو في جمع وغزا طيئاً فأصاب الطريفين: طريف بن مالك، وطريف بن عمرو، وقتل الملاقط؛ **فقال علقمة بن عبدة في ذلك:**

ونحن جلبنا من ضريّة خيلنا نجنّبها حدّ الإكام قطاقطا

أصبنا الطريف والطريف بن مالك وكان شفاء الواصبين الملاقطا

فلما بلغ عمرو بن المنذر وفاة زرارة غزا بني دارم، وقد كان حلف ليقتلن منهم مائة، فسار بطلبهم حتى بلغ أوارة، وقد نذروا به فتفرقوا. فأقام مكانه وبث سراياه فيهم، فأتوه بتسعة وتسعين رجلاً سوى من قتلوه في غاراتهم فقتلهم، فجاء رجل من البراجم شاعر ليمدحه فأخذه ليقتله ليتم مائة، ثم قال: إن الشقي وافد البراجم! فذهبت مثلاً.

وقيل: إنه نذر أن يحرقهم فلذلك سمي محرقاً، فأحرق منهم تسعة وتسعين رجلاً واجتاز رجل من البراجم فشم قتار اللحم فظن أن الملك يتخذ طعاماً فقصده. فقال: من أنت؟ فقال: أبيت اللعن أنا وافد البراجم. فقال: إن الشقي وافد البراجم؛ ثم أمر به فقذف في النار، **فقال جرير للفرزدق:**

أين الذين بنار عمروٍ أحرقوا أم أين أسعد فيكم المسترضع

وصارت تميم بعد ذلك يعيرون بحب الأكل لطمع البرجمي في الأكل، فقال بعضهم:

إذا ما مات ميتٌ من تميم　　فسرّك أن يعيش فجيء بزاد

بخبزٍ أو بلحمٍ أو بتمرٍ　　أو الشيء الملفّف في البجاد

تراه ينقّب البطحاء حولاً　　ليأكل رأس لقمان بن عاد

قيل: دخل الأحنف بن قيس على معاوية بن أبي سفيان فقال له معاوية: ما الشيء الملفف في البجاد يا أبا بحر؟ قال: السخينة يا أمير المؤمنين. والسخينة طعام تعير به قريش كما كانت تعير تميم بالملفف في البجاد. قال: فلم ير متمازحان أوقر منهما.

ذكر قتل زهير بن جذيمة وخالد بن جعفر بن كلاب والحارث بن ظالم المري وذكر يوم الرحرحان.

كان زهي بن جذيمة بن رواحة بن ربيعة بن مازن بن الحارث بن قطيعة بن عبس العبسي، وهو والد قيس بن زهير صاحب حرب دحس والغبراء، سيد قيس عيلان، فتزوج إليه ملك الحيرة، وهو النعمان بن امرئ القيس جد النعمان بن المنذر لشرفه وسؤدده، فأرسل النعمان إلى زهير يستزيره بعض أولاده، فأرسل ابنه شأساً فكان أصغر ولده، فأكرمه وحباه، فلما انصرف إلى أبيه كساه حللاً وأعطاه مالاً طيباً. فخرج شأس يريد قومه فبلغ ماءً من مياه غني بن أعصر فقتله رباح بن الأشل الغنوي وأخذ ما كان معه وهو لا يعرفه، وقيل لزهير: إن شأساً أقبل من عند الملك وكان آخر العهد به بماء من مياه غني. فسار زهير إلى ديار غني، وهم حلفاء في بني عامر ابن صعصعة، فاجتمعوا عنده، فسألهم عن ابنه، فحلفوا أنهم لم يعلموا خبره،

قال: لكني أعلمه، فقال له أبو عامر: فما الذي يرضيك منا؟ قال: واحدة من ثلاث: إما تحيون ولدى، وإما تسلمون إلي غنياً حتى أقتلهم بولدي، وإما الحرب بيننا وبينكم ما بقينا وبقيتم. فقالوا: ما جعلت لنا في هذه مخرجاً، أما إحياء ولدك فلا يقدر عليه إلا الله، وأما تسليم غني إليك فهم يمتنعون مما يمتنع منه الأحرار، وأما الحرب بيننا فوالله إننا لنحب رضاك ونكره سخطك، ولكن إن شئت الدية، وإن شئت تطلب قاتل ابنك فنسلمه إليك أو تهب دمه فإنه لا يضيع في القرابة والجوار. فقال: ما أفعل إلا ما ذكرت. فلما رأى خالد بن جعفر بن كلاب تعدي زهير على أخواله من غني قال: والله ما رأينا كاليوم تعدي رجل على قومه. فقال له زهير: فهل لك أن تكون طلبتي عندك وأترك غنياً؟ قال: نعم؛ فانصرف زهير وهو يقول:

فلولا كلاب قد أخذت قرينتي ... بردّ غنيٍّ أعبداً ومواليا

ولكن حمتهم عصبة عامريّة ... يهزّون في الأرض القصار العواليا

مساعير في الهيجا مصاليت في الوغى ... أخوهم عزيز لا يخاف الأعاديا

يقيمون في دار الحفاظ تكرّماً ... إذا ما فنيّ القوم أضحت خواليا

ثم إنه أرسل امرأةً وأمرها أن تكتم نسبها وأعطاها لحم جزور سمينة وسيرها إلى غني لتبيع اللحم بطيب وتسأل عن حال ولده. فانطلقت المرأة إلى غني وفعلت ما أمرها، فانتهت إلى امرأة رباح بن الأشل وقالت لها: قد زوجت بنتاً لي وأبغي الطيب بهذا اللحم، فأعطتها طيباً وحدثتها بقتل زوجها

شأساً.فعادت المرأة إلى زهير وأخبرته، فجمع خيله وجعل يغير على غني حتى قتل منهم مقتلة عظيمة، ووقعت الحرب بين بني عبس وبني عامر وعظم الشر.

ثم إن زهيراً خرج في أهل بيته في الشهر الحرام إلى عكاظ، فالتقى هو وخالد بن جعفر بن كلاب. فقال له خالد: لقد طال شرنا منك يا زهير! فقال زهير: أما والله ما دامت لي قوة أدرك بها ثأراً فلا انصرام له. وكانت هوازن تؤتي زهير بن جذيمة الإتاوة كل سنة بعكاظ، وهو يسومها الخسف، وفي أنفسها منه غيظ وحقدٌ، ثم عاد خالد وزهير إلى قومهما، فسبق خالد إلى بلاد هوازن فجمع إليه قومه وندبهم إلى قتال زهير، فأجابوه وتأهبوا للحرب وخرجوا يريدون زهيراً وهم على طريقه، وسار زهير حتى نزل على أطراف بلاد هوازن، فقال له ابنه قيس: انج بنا من هذه الأرض فإنا قريب من عدونا. فقال له: يا عاجز وما الذي تخوفني به من هوازن وتتقي شرها؟ فأنا أعلم الناس بها. فقال ابنه: دع عنك اللجاج وأطعني وسر بنا فإني خائف عاديتهم.

وكانت تماضر بنت الشريد بن رياح بن يقظة بن عصية السلمية أم ولد زهير وقد أصاب بعض إخوتها دماً فلحق ببني عامر، وكان فيهم، فأرسله خالد عيناً ليأتيه بخبر زهير، فخرج حتى أتاهم في منزلهم، فعلم قيس ابن زهير حاله وأراد هو وأبوه أن يوثقوه ويأخذوه معهم إلى أن يخرجوا من أرض هوازن، فمنعت أخته، فأخذوا عليه العهود ألا يخبرهم وأطلقوه فسار إلى خالد ووقف إلى شجرة يخبرها الخبر، فركب خالد ومن معه إلى زهير

وهو غير بعيد منهم، فاقتتلوا قتالاً شديداً، والتقى خالد وزهير فاقتتلا طويلاً ثم تعانقا فسقطا على الأرض، وشد ورقاء بن زهير على خالد وضربه بسيفه فلم يصنع شيئاً لأنه قد ظاهر بين درعين، وحمل جندح ابن البكاء، وهو ابن امرأة خالد، على زهير فقتله، وهو خالد يعتركان، فثار خالد عنه وعادت هوازن إلى منازلها، وحمل بنو زهير أباهم إلى بلادهم، **فقال ورقاء بن زهير في ذلك:**

رأيت زهيراً تحت كلكل خالد ... فأقبلت أسعى كالعجول أبادر

إلى بطلين يعتران كلاهما ... يريد رياش السيف والسيف نادر

فشلّت يميني يوم أضرب خالداً ... ويمنعه منّي الحديد المظاهر

فيا ليت أنّي قبل أيّام خالدٍ ... وقبل زهير لم تلدني تماضر

لعمري لقد بشّرت بي إذ ولدتني ... فماذا الذي ردّت عليك البشائر؟

فلا يدعني قومي صريحاً بحرّةٍ ... لئن كنت مقتولاً ويسلم عامر

فطر خالدُ إن كنت تستطيع طيرةً ... ولا تقعن إلاّ وقلبك حاذر

أتتك المنايا إن بقيت بضربة ... تفارق منها العيش والموت حاضر

وقال خالد يمن على هوازن بقتله زهيراً:

أبلغ هوازن كيف تكفر بعدما ... أعتقتهم فتوالدوا أحرارا

وقتلت ربّهم زهيراً بعدما ... جدع الأنوف وأكثر الأوتارا

وجعلت مهر نسائهم ودياتهم ... عقل الملوك هجائناً وبكارا

وكان زهير سيد غطفان، فعلم خالد أن غطفان ستطلبه بسيدها، فسار إلى النعمان بن امرئ القيس بالحيرة فاستجاره، فأجاره. فضرب له قبةً، وجمع بنو زهير لهوازن، فقال الحارث بن ظالم المري: اكفوني حرب هوازن فأنا أكفيكم خالد بن جعفر.

وسار الحارث حتى قدم على النعمان فدخل عليه وعنده خالد، وهما يأكلان تمراً، فأقبل النعمان يسائله، فحسده خالد، فقال للنعمان: أبيت اللعن! هذا رجل لي عنده يد عظيمة، قتلت زهيراً وهو سيد غطفان فصار هو سيدها. فقال الحارث: سأجزيك على يدك عندي، وجعل الحارث يتناول التمر ليأكله فيقع من بين أصابعه من الغضب، فقال عروة لأخيه خالد: ما أردت بكلامه وقد عرفته فتاكاً؟ فقال خالد: وما يخوفني منه؟ فوالله لو رآني نائماً ما أيقظني.

ثم خرج خالد وأخوه إلى قبتهما فشرجاها عليهما، ونام خالد وعروة عند رأسه يحرسه، فلما أظلم الليل انطلق الحارث إلى خالد فقطع شرج القبة ودخلها وقال لعروة: لئن تكلمت قتلتك! ثم أيقظ خالداً، فلما استيقظ قال:

أتعرفني؟ قال: أنت الحارث. قال: خذ جزاء يدك عندي! وضربه بسيفه المعلوب فقتله، ثم خرج من القبة وركب راحلته وسار.

وخرج عروة من القبة يستغيث وأتى باب النعمان فدخل عليه وأخبره الخبر، فبث الرجال في طلب الحارث.

قال الحارث: فلما سرت قليلاً خفت أن أكون لم أقتله فعدت متنكراً واختلطت بالناس ودخلت عليه فضربته بالسيف حتى تيقنت أنه مقتول وعدت فلحقت بقومي؛ **فقال عبد الله بن جعدة الكلابي:**

يا حار لو نبّهته لوجدته ... لا طائشاً رعشاً ولا معزالا

شقّت عليه الجعفرية جيبها ... جزعاً وما تبكي هناك ضلالا

فانعوا أبا بحر مجرّبٍ ... حرّان يحسب في القناة هلال

فليقتلنّ بخالد سرواتكم ... وليجعلن لظالمٍ تمثالا

تالله قد نبّهته فوجدته ... رخو اليدين مواكلاً عسقالا

فعلوته بالسيف أضرب رأسه ... حتّى أضلّ بسلحه السربالا

فجعل النعمان يطلبه ليقتله بجاره، وهوازن تطلبه لتقتله بسيدها خالد، فلحق بتميم فاستجار بضمرة بن ضمرة بن جابر بن قطن بن نهشل بن دارم، فأجاره على النعمان وهوازن، فلما علم النعمان ذلك جهز جيشاً إلى بني دارم عليهم ابن الخمس التغلبي، وكان يطلب الحارث بدم أبيه لأنه كان قتله.

ثم إن الأحوص بـن جعفـر أخـا خالـد جمـع بنـي عـامر وسـار بهـم، فاجتمعوا هم وعسكر النعمان على بني دارم وساروا، فلما صاروا بـأدنى ميـاه بني دارم رأوا امرأةً تجني الكمأة ومعها جمـل لهـا، فأخـذها رجـلٌ مـن غنـي وتركها عنده. فلما كان الليـل نـام فقامـت إلى جملهـا فركبتـه وسـارت حتـى صبحت بني دارم وقصدت سيدهم زرارة بن عدس فأخبرته الخـبر وقالـت: أخذني أمس قوم لا يريدون غيرك ولا أعـرفهم. قـال: فصـفيهم لي. قالـت: رأيت رجلاً قد سقط حاجباه فهو يرفعهما بخرقة، صغير العينين، وعن أمـره يصدرون. قال: ذاك الأحوص وهو سيد القوم. قالت: ورأيت رجـلاً قليـل المنطق إذا تكلم اجتمع القوم كما تجتمع الإبل لفحلها، أحسن النـاس وجهـاً، ومعه ابنان له يلازمانه. قال: ذلك مالـك بـن جعفـر وابنـاه عـامر وطفيـل. قالت: ورأيت رجلاً جسيماً كأن لحيته محمرةٌ معصفرةٌ. قـال: ذاك عـوف بـن الأحوص. قالت: ورأيت رجلاً هلقاماً جسيماً. قال: ذاك ربيعة بـن عبـد الله بن أبي بكر بن كلاب. قالت: ورأيت رجلاً أسـود أخـنس قصـيراً إذا تكلـم عذم القوم عذم المخوس. قال: ذاك ربيعة بن قرط بن عبد الله بـن أبي بكـر. قالت: ورأيت رجلاً أقرن الحاجبين، كثير شعر السبلة، يسيل لعابه على لحيتـه إذا تكلم. قال: ذاك جندح بن البكاء. قالت: ورأيـت رجـلاً صـغير العينـين ضيق الجبهة يقود فرساً له معه جفيرٌ لا يفارق يده. قال: ذاك ربيعة بن عقيـل بن كعب. قالت: ورأيت رجلاً معه ابنـان أصـبهان إذا أقـبلا رماهمـا النـاس بأبصارهم، فإذا أدبرا كانا كذلك. قال: ذاك الصعق بن عمرو بن خويلـد بـن نفيل وابناه يزيد وزرعة. قالت: ورأيت رجلاً لا يقول كلمـة إلا وهـي أحـد من شفرة. قال: ذاك عبد الله بن جعدة بن كعب.

وأمرها زرارة فدخلت بيتها وأرسل زرارة إلى الرعاء يأمرهم بإحضار الإبل، ففعلوا. وأمرهم فحملوا الأهل والأثقال وساروا نحو بلاد بغيض، وفرق الرسل في بني مالك بن حنظلة فأتوه، فأخبرهم الخبر وأمرهم، فوجهوا أثقالهم إلى بلاد بغيض، ففعلوا وباتوا معدين.

وأصبح بنو عامر وأخبرهم الغنوي حال الظعينة وهربها فسقط في أيديهم واجتمعوا يديرون الرأي، فقال بعضهم: كأني بالظعينة قد أتت قومها فأخبرتهم الخبر، فحذروا وأرسلوا أهليهم وأموالهم إلى بلاد بغيض وباتوا معدين لكم في السلاح فاركبوا بنا في طلب نعمهم وأموالهم فإنهم لا يشعرون حتى نصيب حاجتنا وننصرف. فركبوا يطلبون ظعن بني دارم، فلما أبطأ القوم عن زرارة قال لقومه: إن القوم قد توجهوا إلى ظعنكم وأموالكم فسيروا إليهم. فساروا مجدين فلحقوهم قبل أن يصلوا إلى الظعن والنعم، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فقتلت بنو مالك بن حنظلة ابن الخمس التغلبي رئيس جيش النعمان، وأسرت بنو عامر معبد بن زرارة، وصبر بنو دارم حتى انتصف النهار، وأقبل قيس بن زهير فيمن معه من ناحية أخرى، فانهزمت بنو عامر وجيش النعمان وعادوا إلى بلادهم ومعبد أسير مع بني عامر، فبقي معهم حتى مات. وفي تلك الأيام أيضاً مات زرارة بن عدس.

وقيل في استجارة الحارث ببني تميم غير ذلك، وهو أن النعمان طلب شيئاً يغيظ به الحارث بعد قتل خالد وهربه، فقيل له: كان قصد الحيرة ونزل على عياض بن ديهث التميمي وهو صديق له، فبعث إليه النعمان فأخذ إبلاً له، فركب الحارث وأتى الحيرة متخفياً واستنقذ ماله من الرعاء، ورده عليه

وطلب شيئاً يغيظ به النعمان، فرأى ابنه غضبان فضرب رأسه بالسيف فقتله، وبلغ النعمان الخبر فبعث في طلبه فلم يدرك، **فقال الحارث في ذلك:**

أخصيي حمار بات يكدم نجمةً ... أتؤكل جاراتي وجارك سالم

فإن تك أذواداً أصبت ونسوةً ... فهذا ابن سلمى رأسه متفاقم

علوت بذي الحيّات مفرق رأسه ... ولا يركب المكروه إلاّ الأكارم

فتكت بهن كما فتكت بخالدٍ ... وكان سلاحي تحتويه الجماجم

بدأت بتلك وانثنيت بهذه ... وثالثة تبيضّ منها المقادم

حسبت أبا قابوس أنك مخفري ... ولّما تذق ثكلاً وأنفك راغم

كذا قال بعضهم، وقيل: إن المقتول كان شرحبيل بن الأسود بن المنذر، وكان الأسود قد ترك ابنه شرحبيل عند سنان بن أبي حارثة المري ترضعه زوجته. فمن هناك كان لسنان مال كثير، وكان ابنه هرم يعطى منه، فجاء الحارث متخفياً فاستعار سرج سنان ولا يعلم سنان، ثم أتى امرأة سنان

فقال: يقول بعلك ابعثي بشرحبيل ابن الملك مع الحارث بن ظالم حتى يستأمن به ويتخفر به وهذا سرجه علامة. فزينته ودفعته إليه، فأخذه وقتله وهرب.

فغزا الأسود بني ذبيان وبني أسد بشط أربك فقتل فيهم قتلاً ذريعاً وسبى واستأصل الأموال وأقسم ليقتلن الحارث، فسار الحارث متخفياً إلى الحيرة ليفتك بالأسود، فبينما هو في منزله إذ سمع صارخةً تقول: أنا في جوار الحارث بن ظالم، وعرف حالها، وكان الأسود قد أخذ لها صرمةً من الإبل، فقال لها: انطلقي غداً إلى مكان كذا، وأتاه الحارث. فلما وردت إبل النعمان أخذ مالها فسلمه إليها وفيها ناقة تسمى اللقاع، فقال الحارث في ذلك:

إذا سمعت حنّة اللقاع فادعي أبا ليلى فنعم الداعي

يمشي بعضبٍ صارمٍ قطّاعٍ يفري به مجامع الصّداع

ثم أقبل يطلب مجيراً فلم يجره أحد من الناس وقالوا: من يجيرك على هوازن والنعمان وقد قتلت ولده؟ فأتى زرارة بن عدس وضمرة بن ضمرة فأجاراه على جميع الناس.

خبر الحارث وعمرو بن الاطنابة:

ثم إن عمرو بن الإطنابة الخزرجي لما بلغه قتل خالد بن جعفر، وكان صديقاً له، قال: والله لو وجده يقظان ما أقدم عليه، ولوددت أني لقيته. وبلغ الحارث قوله وقال: والله لآتينه في رحله ولا ألقاه إلا ومعه سلاحه، فبلغ ذلك ابن الإطنابة **فقال أبياتاً، منها:**

أبلــغ الحــارث بــن ظــالمٍ المــو　　عــد والنــاذر النّــذور عليّــا

إنّـــما تقتـــل النيـــام ولا تـــق　　تـــل يقظـــان ذا ســـلاح كميّـــا

فبلغ الحارث شعره فسار إلى المدينة وسأل عن منزل ابن الإطنابة، فلـما دنا منه نادى: يا ابن الإطنابة أغثني! فأتاه عمرو فقال: من أنت؟ قال: رجـل من بني فلان خرجت أريد بني فلان فعرض لي قوم قريباً منـك فأخـذوا مـا كان معي فاركب معي حتى نستنقذه. فركب معه ولبس سلاحه ومضى معه، فلما أبعد عن منزله عطف عليه وقال: أنائمٌ أنـت أم يقظـان؟ فقـال: يقظـان. فقال: أنا أبو ليلى وسيفي المعلوب، فألقس ابن الإطنابة سيفه، وقيـل: رمحـه، وقال: قد أعجلتني فأمهلني حتى آخذ سيفي. فقال: خـذه. قـال: أخـاف أن تعجلني عن أخذه. قال: لك ذمة ظالم لا أعجلك عـن أخـذه. قـال: فوذمـة الإطنابة لا آخذه ولا أقاتلك! فانصرف الحارث وهو يقول أبياتاً، منها:

بلغتنــا مقالــة المــرء عمــروٍ　　فالتقينـــا وكـــان ذاك بـــديا

فهممنــــا بقتلـــه إذ برزنــــا　　ووجـــدناه ذا ســـلاح كميّـــا

غـير مـا نـائمٍ يـروّع بالفـت　　ك ولكـــن مقلّـــداً مشرـــفيّا

فمننّـــا عليـــه بعـــد علـــوّ　　بوفـــاء وكنـــت قـــدماً وفيّـــا

ثم إن الحارث لما علم أن النعمان قد جد في طلبه وهوازن لا تقعد عن الطلب بثأر خالد خرج متنكراً إلى الشام واستجار بيزيد بن عمرو، فأكرمه

وأجاره وكان ليزيد ناقة محماة في عنقها مديةٌ وزناد وملح ليمتحن بذلك رعيته، فوحمت زوجة الحارث واشتهت شحمها ولحمها ورفع منه. وفقدت الناقة فطلبت فوجدت عقيرة بالوادي، فأرسل الملك إلى كاهن فسأله عنها، فذكر له أن الحارث نحرها، فأرسل امرأةً بطيب تشتري من لحمها من امرأة الحارث، فأدركها الحارث وقد اشترت اللحم فقتلها ودفنها في البيت. فسأل الملك الكاهن عن المرأة، فقال: قتلها من نحر الناقة، وإذا كرهت أن تفتش بيته فتأمر الرجل بالرحيل، فإذا رحل فتشت بيته. ففعل ذلك، فلما رحل الحارث فتش الكاهن بيته فوجد المرأة، وأحس بيته. ففعل ذلك، فلما رحل الحارث فتش الكاهن بيته فوجد المرأة، وأحس الحارث بالشر فعاد إلى الكاهن فقتله، فأخذ الحارث وأحضر عند الملك، فأمر بقتله، فقال: إنك قد أجرتني فلا تغدر بي. فقال: إن غدرت بك مرة واحدة فقد غدرت بي مراراً. فقتله.

أيّام داحس والغبراء وهي بين عبس وذبيان:

وكان سبب ذلك أن قيس بن زهير بن جذيمة العبسي سار إلى المدينة ليتجهز لقتال عامر والأخذ بثأر أبيه، فأتى أحيحة بن الجلاح يشتري منه درعاً موصوفةً. فقال له: لا أبيعها ولولا أن تذمني بنو عامر لوهبتها منك ولكن اشترها بابن لبون. ففعل ذلك وأخذ الدرع، وتسمى ذات الحواشي، ووهبه أحيحة أيضاً أدراعاً، وعاد إلى قومه وقد فرغ من جهازه. فاجتاز بالربيع بن زياد العبسي- فدعاه إلى مساعدته على الأخذ بثأره فأجابه إلى ذلك.فلما أراد فراقه نظر الربيع إلى عيبته فقال: ما في حقيبتك؟ قال: متاع

عجيب لو أبصرته لراعك، وأناخ راحلته، فأخرج الدرع من الحقيبة، فأبصرها الربيع فأعجبته ولبسها، فكانت في طوله. فمنعها من قيس ولم يعطه إياها، وترددت الرسل بينهما في ذلك، ولج قيس في طلبها، ولج الربيع في منعها. فلما طالت الأيام على ذلك سير قيس أهله إلى مكة وأقام ينتظر غرة الربيع.

ثم إن الربيع سير إبله وأمواله إلى مرعى كثير الكلإ وأمر أهله فظعنوا، وركب فرسه وسار إلى المنزل، فبلغ الخبر قيساً فسار في أهله وإخوته فعارض ظعائن الربيع وأخذ زمام أمه فاطمة بنت الخرشب وزمام زوجته. فقالت فاطمة أم الربيع: ما تريد يا قيس؟ قال: أذهب بكن إلى مكة فأبيعكن بها بسبب درعي. قالت: وهيفي ضماني وخل عنا، ففعل. فلما جاءت إلى ابنها قالت له في معنى الدرع، فحلف أنهن لا يرد الدرع، فأرسلت إلى قيس أعلمته بما قال الربيع، فأغار على نعم الربيع فاستاق منها أربعمائة بعير وسار بها إلى مكة فباعها واشترى بها خيلاً، وتبعه الربيع فلم يلحقه، فكان فيما اشترى من الخيل داحس والغبراء.وقيل: إن داحساً كان من خيل بني يربوع، وإن أباه كان أخذ فرساً لرجل من بني ضبة يقال له انيف بن جبلة، وكان الفرس يسمى السبط، وكانت أم داحش لليربوعي، فطلب اليربوعي من الضبي أن ينزي فرسه على حجره فلم يفعل. فلما كان الليل عمد اليربوعي إلى فرس الضبي فأخذه فأنزاه على فرسه، فاستيقظ الضبي فلم ير فرسه فنادى في قومه، فأجابوه، وقد تعلق باليربوعي، فأخبرهم الخبر، فغضب ضبة من ذلك، فقال لهم: لا تعجلوا، دونكم نطفة فرسكم فخذوها. فقال القوم:

قد أنصف. فسطا عليها رجل من القوم فدس يده في رحمها فأخذ ما فيها، فلم تزد الفرس إلا لقاحاً فنتجت مهراً فسمي داحساً بهذا السبب.

فكان عند اليربوعي ابنان له، أغار قيس بن زهير على بني يربوع فنهب وسبى، ورأى الغلامين أحدهما على داحس والآخر على الغبراء فطلبهما فلم يلحقهما، فرجع وفي السبي أم الغلامين وأختان لهما وقد وقع داحس والغبراء في قلبه، وكان ذلك قبل أن يقع بيته وبين الربيع ما وقع. ثم جاء وفد بني يربوع في فداء الأسرى والسبي، فأطلق الجميع إلا أم الغلامين وأختيهما وقال: إن أتاني الغلامان بالمهر والفرس الغبراء وإلا فلا. فامتنع الغلامان من ذلك، فقال شيخ من بني يربوع كان أسيراً عند قيس، وبعث بها إلى الغلامين، وهي:

إنّ مهراً فدى الرباب وجملاً	**وسعاداً لخير مهر أناس**
ادفعوا داحساً بهنّ سراعاً	**إنّها من فعالها الأكياس**
دونها والذي يحجّ له النا	**س سبايا يبعن بالأفراس**
إنّ قيساً يرى الجواد من الخيـ	**ـل حياةً في متلف الأنفاس**
يشتري الطّرف بالجراجرة الجـ	**ـلّة يعطي عفواً بغير مكاس**

فلما انتهت الأبيات إلى بني يربوع قادوا الفرسين إلى قيس وأخذوا النساء.وقيل: إن قيساً أنزى داحساً على فرس له فجاءت بمهرة فسماها الغبراء.ثم إن قيساً أقام بمكة فكان أهلها يفاخرونه، وكان فخوراً، فقال لهم: نحوا كعبتكم عنا وحرمكم وهاتوا ما شئتم. فقال لعبد الله بن جدعان:

إذا لم نفاخرك بالبيت المعمور وبالحرم الآمن فيم نفاخرك؟ فمل قيس مفاخرتهم وعزم على الرحلة عنهم، وسر ذلك قريشاً لأنهم قد كانوا كرهوا مفاخرته، فقال لإخوته: ارحلوا بنا من عندهم أولاً وإلا تفاقم الشر بيننا وبينهم، والحقوا ببني بدر فإنهم أكفاؤنا في الحسب، وبنو عمنا في النسب، وأشراف قومنا في الكرم، ومن لا يستطيع الربيع أن يتناولنا معهم. فلحق قيس وإخوته ببني بدر، **وقال في مسيره إليهم:**

أسير إلى بني بدرٍ بأمرٍ	**هم فيه علينا بالخيار**
فإن قبلوا الجوار فخير قومٍ	**وإن كرهوا الجوار فغير عار**
أتينا الحارث الخير بن كعب	**بنجران وأي لجا بجار**
فجاورنا الذين إذا أتاهم	**غريبٌ حلّ في سعة القرار**
فيأمن فيهم ويكون منهم	**بمنزلة الشّعار من الدّثار**
وإن نفرد بحرب بني أبينا	**بلا جار فإنّ الله جاري**

ثم نزل ببني بدر فنزل بحذيفة، فأجاره هو وأخوه حمل بن بدر، وأقام فيهم، وكان معه أفراس له ولإخوته لم يكن في العرب مثلها، وكان حذيفة يغدو ويروح إلى قيس فينظر إلى خيله فيحسده عليها ويكتم ذلك في نفسه، وأقام قيس فيهم زماناً يكرمونه وإخوته، فغضب الربيع ونقم ذلك عليهم وبعث إليهم بهذه الأبيات:

ألا أبلــغ بنــي بــدرٍ رســولاً عــلى مــا كــان مــن شــنإ ووتــر

بـــأنّي لم أزل لكـــم صـــديقاً أدافــع عــن فــزارة كــلّ أمــر

أســـالم ســـلمكم وأردّ عـــنكم فــوارس أهــل نجــران وحجــر

وكــان أبي ابــن عمّكــم زيــاد صــفيّ أبــيكم بــدر بــن عمــرو

فألجأتم أخــا الغــدرات قيســاً فقــد أفعمــتم إيغــار صــدري

فحسبي من حذيفة ضمّ قــيس وكان البــدء مــن حمــل بــن بــدر

فإمّــا ترجعــوا أرجــع إلــيكم وإن تأبوا فقد أوسعت عــذري

فلم يتغيروا عن جوار قيس. فغضب الربيع وغضبت عبس لغضبه ثـم إن حذيفة كره قيساً وأراد إخراجه عنهم فلم يجـد حجـةً، وعـزم قـيس عـلى العمرة فقال لأصحابه: إني قد عزمت على العمرة فإياكم أن تلابسوا حذيفـة بشيء، واحتملوا كل ما يكون منه حتى أرجع فإني قد عرفت الشـر في وجهـه وليس يقدر على حاجته منكم إلا أن تراهنـون عـلى الخيـل. وكـان ذا رأي لا يخطئ في ما يريده، وسار إلى مكة. ثم إن فتىً من عبس يقال له ورد ابن مالك أتى حذيفة فجلس إليه، فقال له ورد: لو اتخذت من خيل قيس فحـلاً يكـون أصلاً لخيلك. فقال حذيفة: خيلي خير من خيل قـيس، ولجـا في ذلـك إلى أن تراهنا على فرسين من خيل قيس وفرسين من خيل حذيفـة، والـرهن عشرـة أذواد.

وسار ورد فقدم على قيس بمكـة فأعلمـه الحـال، فقـال لـه: أراك قـد أوقعتني في بني بدر ووقعت معي وحذيفة ظلوم لا تطيب نفسه بحق ونحـن لا نقر له بضيم. ورجع قيس من العمـرة، فجمـع قومـه وركـب إلى حذيفـة وسأله أن يفكر الرهن، فلم يفعل. فسأله جماعة فزارة وعـبس فلـم يجـب إلى ذلك، وقال: إن أقر قيس أن السبق لي وإلا فلا، **فقال أبو جعدة الفزاري**:

آل بــدرٍ دعــوا الرّهــان فإنّــا   قد مللنـا اللجـاج عنـد الرهـان

ودعــوا المــرء في فــزارة جـاراً   إنّ مــا غــاب عــنكم كالعيــان

ليت شعري عن هاشم وحصين   وابــن عــوف وحــارث وســنان

حــين يــأتيهم لجاجــك قيســاً   رأي صــاحٍ أتيــت أم نشــوان

وسأل حذيفة إخوته وسادات أصحابه في ترك الرهان ولج فيه، وقـال قيس: علام تراهنني؟ قال: على فرسـيك داحـس والغـبراء وفـرسي الخطـار والحنفاء، وقيل: كان الرهن على فرسي داحس والغبراء. قال قـيس: داحـس أسرع. وقال حذيفة: الغبراء أسرع، وقال لقيس: أريد أن أعلمك أن بصـري بالخيل أثقب من بصرك؛ والأول أصح. فقال له قيس: نفس في الغاية وارفـع في السبق. فقال حذيفة: الغايـة مـن أبـلى إلى ذات الإصـاد، وهـو قـدر مائـة وعشـرين غلوةً، والسبق مائة بعير، وضمروا الخيل. فلما فرغوا قـادوا الخيـل إلى الغاية وحشدوا ولبسوا السلاح وتركوا السبق على يد عقال ابن مروان بن الحكم القيسي وأعدوا الأمناء على إرسال الخيل. وأقام حذيفة رجلاً من بني

أسد في الطريق وأمره أن يلقى داحساً في وادي ذات الإصاد إن مر به سابقاً فيرمي به إلى أسفل الوادي.

فلما أرسلت الخيل سبقها داحس سبقاً بيناً والناس ينظرون إليه وقيس وحذيفة على رأس الغاية في جميع قومهما. فلما هبط داحس في الوادي عارضه الأسدي فلطم وجهه فألقاه في الماء، فكاد يغرق هو وراكبه ولم يخرج إلا وقد فاتته الخيل. وأما راكب الغبراء فإنه خالف طريق داحس لما رآه قد أبطأ وعاد إلى الطريق واجتمع مع فرسي حذيفة، ثم سقطت الحنفاء وبقي الغبراء والخطار، فكانا إذا أحزنا سبق الخطار وإذا أسهلا سبقت الغبراء. فلما قربا من الناس وهما في وعث من الأرض تقدم الخطار، فقال حذيفة: سبقك يا قيس. فقال: رويدك يعلون الجدد؛ فذهبت مثلاً. فلما استوت بهما الأرض قال حذيفة: خدع والله صاحبنا. فقال قيس: ترك الخداع من أجرى من مائة وعشرين؛ فذهبت مثلاً.

ثم إن الغبراء جاءت سابقة وتبعها الخطار فرس حذيفة، ثم الحنفاء له أيضاً، ثم جاء داحس بعد ذلك والغلام يسير به على رسله، فأخبر الغلام فيساً بما صنع بفرسه، فأنكر حذيفة ذلك وادعى السبق ظالماً، وقال: جاء فرساي متتابعين، ومضى قيس وأصحابه حتى نظروا إلى القوم الذين حبسوا داحساً واختلفوا.

وبلغ الربيع بن زياد خبرهم فسره ذلك وقال لأصحابه: هلك والله قيس، وكأني به إن لم يقتله حذيفة وقد أتاكم يطلب منكم الجوار، أما والله لئن فعل ما لنا من ضمه من بد.

ثم إن الأسدي ندم على حبس داحس فجاء إلى قيس واعترف بما صنع، فسبه حذيفة. ثم إن بني بدر قصروا بقيس وإخوته وآذوهم بالكلام، فعاتبهم قيس، فلم يزدادوا إلا بغياً عليه وإيذاءً له.

ثم إن قيساً وحذيفة تناكرا في السبق حتى هما بالمؤاخذة، فمنعهما الناس، وظهر لهم بغي حذيفة وظلمه، ولج في طلب السبق، فأرسل ابنه ندبة إلى قيس يطالبه به، فلما أبلغه الرسالة طعنه فقتله وعادت فرسه إلى أبيه ونادى قيس: يا بني عبس الرحيل؟! فرحلوا كلهم، ولما أتت الفرس حذيفة علم أن ولده قتل، فصاح في الناس وركب في من معه وأتى منازل بني عبس فرآها خاليةً ورأى ابنه قتيلاً، فنزل إليه وقبل بين عينيه ودفنوه.

وكان مالك بن زهير أخو قيس متزوجاً في فزارة وهو نازلٌ فيهم، فأرسل إليه قيس: أني قد قتلت ندبة بن حذيفة ورحلت فالحق بنا وإلا قتلت. فقال: إنما ذنب قيس عيه، ولم يرحل، فأرسل قيس إلى الربيع ابن زياد يطلب منه العود إليه والمقام معه إذ هم عشيرة وأهل، فلم يجبه ولم يمنعه، وكان مفكراً في ذلك.ثم إن بني بدر قتلوا مالك بن زهير أخا قيس، وكان نازلاً فيهم، فبلغ مقتله بني عبس والربيع بن زياد، فاشتد ذلك عليهم، وأرسل الربيع إلى قيس عيناً يأتيه بخبره، **فسمعه يقول:**

أينجو بنو بدرٍ بمقتل مالك	**ويخذلنا في النائبات ربيع**
وكان زيادق قبله يتّقى به	**من الدهر إن يومٌ ألمّ فظيع**

فقل لربيعٍ يحتذي فعل شيخه وما النّاس إلاّ حافظٌ ومضيع

وإلاّ فما لي في البلاد إقامةٌ وأمر بني بدرٍ عليّ جميع

فرجع الرجل إلى الربيع فأخبره، فبكى الربيع على مالك وقال:

منع الرّقاد فما أغمّض ساعةً جزعاً من الخبر العظيم الساري

أفبعد مقتل مالك بن زهير يرجو النساء عواقب الأطهار

من كان مسروراً بمقتل مالكٍ فليأت نسوتنا بوجه نهار

يجد النساء حواسراً يندبنه ويقمن قبل تبلّج الأسحار

يضربن حرّ وجوههنّ على فتىً ضخم الدسيعة غير ما خوّار

قد كنّ يكننّ الوجوه تستّراً فاليوم حين برزن للنظّار

وهي طويلة؛ فسمعها قيس فركب هو وأهله وقصدوا الربيع بن زياد وهو يصلح سلاحه، فنزل إليه قيس وقام الربيع فاتنقا وبكيا وأظهرا الجزع لمصاب مالك، ولقي القوم بعضهم بعضاً فنزلوا. فقال قيس للربيع: إنه لم يهرب منك من لجأ إليه، ولم يستغن عنك من استعان بك، وقد كان لك شر يومي فليكن لي خير يوميك، وإنما أنا بقومي وقومي بك وقد أصاب القوم مالكاً، ولست أهم بسوء لأني إن حاربت بني بدر نصرتهم بنو ذبيان، وإن حاربتني خذلني بنو عبس إلا أن تجمعهم علي، وأنا والقوم في الدماء سواءٌ،

قتلت ابنهم وقتلوا أخي، فإن نصرتني طمعت فيهم، وإن خذلتني طمعوا في. فقال الربيع: يا قيس إنه لا ينفعني أن أرى لك من الفضل ما لا أراه لي، ولا ينفعك أن ترى لي ما لا أراه لك، وقد مال علي قتل مالك وأنت ظالم ومظلوم، ظلموك في جوادك وظلمتهم في دمائهم، وقتلوا أخاك بابنهم، فإن يبؤ الدم بالدم فعسى أن تلقح الحرب أقم معك، وأحب الأمرين إلي مسالمتهم ونخلو بحرب هوازن. وبعث قيس إلى أهله وأصحابه، فجاؤوا ونزلوا مع الربيع، وأنشدهم عنترة بن شداد مرثيته في مالك:

فلله عينا من رأى مثل مالكٍ ... عقيرة قومٍ أن جرى فرسان

فليتهما لم يطعما الدهر بعدها ... وليتهما لم يجمعا لرهان

وليتهما ماتا جميعاً ببلدةٍ ... وأخطاهما قيسٌ فلا يريان

لقد جلبا جلباً لمصرع مالكٍ ... وكان كريماً ماجداً لهجان

وكان إذا ما كان يوم كريهةٍ ... فقد علموا أنّي وهو فتيان

وكنّا لدى الهيجاء نحمي نساءنا ... ونضرب عند الكرب كلّ بنان

فسوف ترى إن كنت بعدك باقياً ... وأمكنني دهري وطول زماني

فأقسم حقّاً لو بقيت لنظرة ... لقرّت بها عيناك حين تراني

وبلـغ حذيفـة أن الربيـع وقيسـاً اتفقـا، فشـق ذلـك عليـه واسـتعد للبلاء. وقيل: إن بلاد عبس كانت قـد أجـدبت فـانتجع أهلهـا بـلاد فـزارة، وأخذ الربيع جواراً من حذيفـة وأقـام عنـدهم. فلما بلغـه مقتـل مالـك قـال لحذيفة: لي ذمتي ثلاثة أيام. فقال حذيفة: ذلك لك. فانتقل الربيـع مـن بنـي فزارة. فبلغ ذلك حمل بن بدر فقال لحذيفة أخيه: بئس الـرأي رأيـت! قتلـت مالكاً وخلّيت سـبيل الربيـع! والله ليضرمنها عليـك نـاراً! فركبـا في طلـب الربيع، ففاتهما، فعلما أنه قد أضمر الشر.

واتفق الربيع وقيس، وجمع حذيفة قومه وتعاقدوا عـلى عـبس، وجمـع الربيع وقيس قومهما واسـتعدوا للحـرب، فأغـارت فـزارة عـلى بنـي عـبس فأصابوا نعماً ورجالاً، فحميت عبس واجتمعت للغارة، فنذرت بهـم فـزارة. فخرجوا إليهم فالتقوا على ماء يقال له العذق، وهي أول وقعة كانت بيـنهم، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وقتل عوف بن يزيد، قتله جندب بـن خلـف العبسي. وانهزمت فزارة وقتلوا قتلاً ذريعاً، وأسر الربيع بـن زيـاد حذيفـة ابـن بـدر، وكان حر بن الحارث العبسي قد نذر إن قدر على حذيفة أن يضربه بالسـيف، وله سيف قاطع يسمى الأصرم، فأراد ضربه بالسـيف لمـا أسر وفـاء بنـذره، فأرسل الربيع إلى امرأته فغيبت سيفه ونهوه عن قتله وحـذروه عاقبـة ذلـك، فأبى إلا ضربه، فوضعوا عليه الرجال، فضربه، فلم يصنع السيف شيئاً وبقي حذيفة أسيراً.

فاجتمعت غطفان وسعوا في الصلح، فاصطلحوا على أن يهدروا بدر بن حذيفة بدم مالك بن زهير، ويعقلوا عوف بن بدر، ويعطوا حذيفة عن ضربته التي ضربه حر مائتين من الإبل، وأن يجعلوها عشاراً كلها، وأربعة أعبدٍ، وأهدر حذيفة دماء من قتل من فزارة في الوقعة وأطلق من الأسر.

فلما رجع إلى قومه ندم على ذلك وساءت مقالته في بني عبس، وركب قيس بن زهير وعمارة بن زياد فمضيا إلى حذيفة وتحدثا معه. فأجابهما إلى الاتفاق وأن يرد عليهما الإبل التي أخذ منهما، وكانت توالدت عنده. فبيناهم في ذلك إذ جاءهم سنان بن أبي حراثة المري فقبح رأي حذيفة في الصلح وقال: إن كنت لا بد فاعلاً فأعطهم إبلاً عجافاً مكان إبلهم واحبس أولادها. فوافق ذلك رأي حذيفة، فأبى قيس وعمارة ذلك.

وقيل: إن الابل التي طلبوها منه هي إبل كان قد أخذها سبقاً من قيس. وقيل أيضاً: إن مالك بن زهير قتل بعد هذه الوقعة المذكورة؛ قال حميد ابن بدر في ذلك:

قتلنا بعوفٍ مالكاً وهو ثأرنا ... ومن يبتدع شيئاً سوى الحقّ يظلم

وجعل سنان يحث حذيفة على الحرب، فتيسروا لها.

ثم إن الأنصار بلغهم ما عزموا عليه، فاتفق جماعةٌ من رؤسائهم، وهم: عمرو بن الإطنابة، ومالك بن عجلان، وأحيحة بن الجلام، وقيس ابن الخطيم، وغيرهم، وساروا ليصلحوا بينهم، فوصلوا إليهم وترددوا في الاتفاق، فلم يجب حذيفة إلى ذلك وظهر لهم بغيه، فحذروه عاقبته وعادوا عنه.

وأغار حذيفة على عبس، وأغارت عبس على فزارة، وتفاقم الشر، وأرسل حذيفة أخاه حملاً فأغار وأسر ريان بن الأسلع بن سفيان وشده وثاقاً وحمله إلى حذيفة فأطلقه ليرهنه ابنيه وجبير ابن أخيه عمرو بن الأسلع، ففعل ريان ذلك، ثم سار قيس إلى فزارة فلقي منهم جمعاً فيهم مالك بن بدر، فقتله قيس وانهزمت فزارة، فأخذ حينئذ حذيفة ولدي ريان فقتلهما وهما يستغيثان: يا أبتاه! حتى ماتا، وأما ابن أخيه فمنعه أخواله.

ولما قتل مالك والغلامان اشتدت الحرب بين الفريقين وأكثرها في فزارة ومن معها. ففي بعض الأيام التقوا واقتتلوا قتالاً شديداً ودامت الحرب بينهم إلى آخر النهار، وأبصر ريان بن الأسلع زيد بن حذيفة فحمل عليه فقتله، وانهزمت فزارة وذبيان، وأدرك الحارث بن بدر فقتل، ورجعت عبس سالمةً لم يصب منها أحدٌ. فلما قتل زيد والحارث جمع حذيفة جميع بني ذبيان وبعث إلى أشجع وأسد بن خزيمة فجمعهم، فبلغ ذلك بني عبس فضموا أطرافهم، وأشار قيس بن زهير بالسبق إلى ماء العقيقة، ففعلوا ذلك، وسار حذيفة في جموعه إلى عبس، ومشى السفراء بينهم، فحلف حذيفة: أنه لا يصلح حتى يشرب من ماء العقيقة. فأرسل إليه قيس منه في سقاء وقال: لا أترك حذيفة يخدعني. واصطلحوا على أن تعطي بنو عبس حذيفة ديات من قتل له، ووضعوا الرهائن عدنه إلى أن يجمعوا الديات، وهي عشر، وكانت الرهائن ابناً لقيس بن زهير، وابناً للربيع بن زياد، فوضعوا أحدهما عند قطبة بن سنان والآخر عند رجل من بكر بن وائل أعمى. فعير بعض الناس حذيفة بقبول الدية، فحضر هو وأخوه حمل عند قطبة بن سنان

والبكري وقالا: ادفعا إلينا الغلامين لنكسوهما ونسرحهما إلى أهلهما. فأما قطبة فدفع إليهما الغلام الذي عنده، وهو ابن قيس، وأما البكري فامتنع من تسليم من عنده، فلما أخذا ابن قيس عادا فلقيا في الطريق ابناً لعمارة بن زياد العبسي وابن عم له، فأخذاهما وقتلاهما مع ابن قيس.

فلما بلغ ذلك بني عبس أخذوا ما كانوا جمعوا من الديات، فحملوا عليه الرجال واشتروا السلاح، ثم خرج قيس في جماعة فلقوا ابناً لحذيفة ومعه فوارس من ذبيان فقتلوهم. فجمع حذيفة وسار إلى عبس، وهم على ماء يقال له عراعر، فاقتتلوا، فكان الظفر لفزارة ورجعت سالمةً. وجد حذيفة في الحرب وكرهها أخوه حمل وندم على ما كان، وقال لأخيه في الصلح فلم يجب إلى ذلك، وجمع الجموع من أسد وذبيان وسائر بطون غطفان وسار نحو بني عبس، فاجتمعت عبس وتشاوروا في أمرهم، فقال لهم قيس بن زهير: إنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به وليس لبني بدر إلا دماؤكم والزيادة عليكم، وأما من سواهم فلا يريدون غير الأموال والغنيمة، والرأي أننا نترك الأموال بمكانها ونترك معها فارسين على داحس وعلى فرس آخر جوادٍ ونرحل نحن ونكون على مرحلة من الماء، فإذا جاء القوم إلى الأموال سار إلينا الفارسان فأعلمانا وصولهم، فإن القوم يشتغلون بالنهب وحيازة الأموال، وإن نهاهم ذوو الرأي عن ذلك فإن العامة تخالفهم وتنتقض تعبيتهم ويشتغل كل إنسان بحفظ ما غنم ويعلقون أسلحتهم على ظهور الإبل ويأمنون. فنعود نحن إليهم عند وصول الفارسين فندركهم وهم على حال تفرق وتشتتٍ فلا يكون لأحدهم همة إلا نفسه.

ففعلوا ذلك وجاء حذيفة ومن معه فاشتغلوا بالنهب، فنهاهم حذيفة وغيرهم فلم يقبلوا منه، وكانوا على الحال التي وصف قيس. وعادت بنو عبس وقد تفرقت أسد وغيرهم، وبقي بنو فزارة في آخر الناس، فحملوا عليهم من جوانبهم فقتل مالك بن سبيع التغلبي سيد غطفان، وانهزمت فزارة وحذيفة معهم وانفرد في خمسة فوارس وجد في الهرب. وبلغ خبره بني عبس، فتبعه قيس بن زهير والربيع بن زياد وقرواش بن عمرو بن الأسلع وريان بن الأسلع الذي قتل حذيفة ابنيه، وتبعوا أثرهم في الليل، وقال قيس: كأني بالقوم وقد وردوا جفر الهباءة ونزلوا فيه، فساروا ليلتهم كلها حتى أدركوهم مع طلوع الشمس في جفر الهباءة في الماء، وقد أرسلوا خيولهم فأخذوا بجمعها، فحال قيس وأصحابه بينهم وبينها، وكان مع حذيفة في الجفر أخوه حمل بن بدر وابنه حصن بن حذيفة وغيرهم. فهجم عليهم قيس والربيع ومن معهما وهم ينادون: لبيكم لبيكم! يعني أنهم يجيبون نداء الصبيان لما قتلوا ينادون: يا أبتاه! فقال لهم قيس: يا بني بكر كيف رأيتم عاقبة البغي؟ فناشدوهم الله الرحم، فلم يقبلوا منهم. ودار قرواش ابن عمرو حتى وقف خلف ظهر حذيفة فضربه فدق صلبه، وكان قرواش قد رباه حذيفة حتى كبر عنده في بيته، وقتلوا حملاً أخاه وقطعوا رأسيهما واستبقوا حصن بن حذيفة لصباه. وكان عدد من؟ قتل في هذه الوقعة من فزارة وأسد وغطفان ما يزيد على أربعمائة قتيل، وقتل من عبس ما يزيد على عشرين قتيلاً، وكانت فزارة تسمي هذه الوقعة البوار؛ **وقال قيس ابن زهير:**

أقام على الهباءة خير ميتٍ   وأكرمه حذيفة لا يريم

لقد فجعت به قيسٌ جميعاً   موالي القوم والقوم الصميم

وعمّ به لمقتله بعيدٌ   وخصّ به لمقتله حميم

وهي طويلة؛ وقال أيضاً:

ألم تر أنّ خير الناس أمسى   على جفر الهباءة لا يريم

فلولا ظلمه ما زلت أبكي   عليه الدهر ما طلع النجوم

ولكنّ الفتى حمل بن بدر   بغى والبغي مرتعه وخيم

✍ وأكثروا القول في يوم الهباءة.

ثم إن عبساً ندمت على ما فعلت يوم الهباءة، ولام بعضهم بعضاً، فاجتمعت فزارة إلى سنان بن أبي حارثة المري وشكوا إليه ما نزل بهم، فأعظمه وذم عبساً وعزم على أن يجمع العرب ويأخذ بثأر بني بدر وفزارة، وبث رسهل. فاجتمع من العرب خلقٌ كثير لا يحصون، ونهى أصحابه عن التعرض إلى الموال والغنيمة وأمرهم بالصبر، وساروا إلى بني عبس. فلما بلغهم مسيرهم إليهم قال قيس: الرأي أننا لا نلقاهم، فإننا قد وترناهم فهم يطالبوننا بالذحول والطوائل، وقد رأوا ما نالهم بالأمس باشتغالهم بالنهب والمال فهم لا يتعرضون إليه الآن، والذي ينبغي أن نفعله أننا نرسل الظعائن والأموال إلى بني عامر، فإن الدم لنا قبلهم فهم لا يتعرضون لكم ويبقى أولو

القوة والجلد على ظهور الخيل ونماطلهم القتال، فإن أبوا إلا القتال كنا قد أحرزنا أهلينا وأموالنا وقاتلناهم وصبرنا لهم، فإن ظفرنا فهو الذي نريـد، وإن كانت الأخرى كنا قد احترزنا ولحقنا بأموالنا ونحن على حامية. ففعلـوا ذلك.

يوم ذات الجراجر وسارت ذبيان ومن معها فلحقـوا بنـي عـبس عـلى ذات الجراجر فاقتتلوا قتالاً شديداً يومهم ذلك وافترقوا. فلما كان الغد عادوا إلى اللقاء فاقتتلوا أشد من اليوم الأول، وظهرت في هذه الأيام شجاعة عنترة ابن شداد. فلما رأى الناس شدة القتال وكثرة القتلى لاموا سنان بن أبي حارثة على منعه حذيفة عـن الصـلح وتطـيروا منـه وأشـاروا عليـه بحقـن الـدماء ومراجعة السلم، فلم يفعل وأراد مراجعة الحرب في اليوم الثالـث. فلـما رأى فتور أصحابه وركونهم إلى السلم رحل عائداً. فلما عاد عنهم رحل قيس وبنو عبس إلى بني شيبان بن بكر وجاوروهم وبقوا معهم مـدةً، فـرأى قـيس مـن غلمان شيبان ما يكرهه من التعرض لأخذ أموالهم فرحلوا عنهم، فتبعهم جمع من شيبان، فلقيتهم بنو عبس واقتتلوا، فانهزمت شـيبان وسـارت عـبس إلى هجر ليحالفوا ملكهم، وهو معاوية بن الحارث الكندي، فعزم معاويـة عـلى الغارة عليهم ليلاً، فبلغهم الخبر فساروا عنه مجـدين، وسـار معاويـة مجـداً في اثرهم، فتاه بهم الدليل عـلى عمـد لـئلا يـدركوا عبسـاً إلا وهـم قـد لحقهـم ودوابهم النصب، فأدركوهم بالفروق فاقتتلوا قتالاً شـديداً، فـانهزم معاويـة وأهل هجر وتبعـتهم عـبس فأخـذت مـن أمـوالهم وقتلـوا مـنهم مـا أرادوا ورجعوا سائرين فنزلوا بماء يقال له عراعر عليه حي من كلب، فركبوا

ليقاتلوا بني عبس، فبرز الربيع وطلب رئيسهم، فبرز إليه، واسمه مسعود بن مصاد الكلبي. فاقتتلا حتى سقطا إلى الأرض، وأراد مسعود قتل الربيع، فانحسرت البيضة عن رقبته، فرماه رجل من بني عبس بسهم فقتله، فثار به الربيع فقطع رأسه، وحملت عبس على كلب والرأس على رمح فانهزمت كلب وغنمت عبس أموالهم وذراريهم، فساروا إلى اليمامة فحالفوا أهلها من بني حنيفة وأقاموا ثلاث سنين، فلم يحسنوا جوارهم وضيقوا عليهم فساروا عنهم، وقد تفرق كثير منهم وقتل منهم وهلكت دوابهم ووترهم العرب فراسلتهم بنو ضبة وعرضوا عليهم المقام عندهم ليستعينوا بهم على حرب تميم، ففعلوا وجاوروهم.

فلما انقضى الأمر بين ضبة وتميم تغيرت ضبة لعبسٍ وأرادوا اقتطاعهم، فحاربتهم عبس فظفرت وغنمت من أموال ضبة وسارت إلى بني عامر وحالفوا الأحوص بن جعفر بن كلاب، فسر بهم ليقوى بهم على حرب بني تميم لأنه كان بلغه أن لقيط بن زرارة يريد غزو بني عامر والأخذ بثأر أخيه معبد، فأقامت عبس عند بني عامر، فقصدتهم تميم، وكانت وقعة شعب جبلة.

ثم إن ذبيان غزوا بني عامر بن صعصعة وفيهم بنو عبس فاقتتلوا، فهزمت عامر وأسر قرواش بن هني العبسي ولم يعرف. فلما قدموا به الحي عرفته امرأةٌ عنهم، فلما عرفوه سلموه إلى حصن بن حذيفة فقتله. ثم رحلت عبس عن عامر ونزلت بتيم الرباب، فبغت تيم عليهم، فاقتتلوا قتالاً شديداً وتكاثرت عليهم تيم فقتلوا من عبس مقتلة عظيمة. ورحلت عبس وقد ملوا

الحرب وقلت الرجال والأموال وهلكت المواشي، فقال لهم قيس: ما ترون؟ قالوا: نرجع إلى أخواننا من ذبيان فالموت معهم خير من البقاء مع غيرهم. فساروا حتى قدموا على الحارث بن عوف بن أبي حارثة المري، وقيل: على هرم بن سنان بن أبي حارثة ليلاً، وكان عند حصن ابن حذيفة بن بدر. فلما عاد ورآهم رحب بهم وقال: من القوم؟ قالوا: إخوانك بنو عبس، وذكروا حاجتهم. فقال: نعم وكرامة أعلم حصن ابن حذيفة. فعاد إليه وقال: طرقت في حاجة، قال: أعطيتها، قال بنو عبس: وجدت وفودهم في منزلي. قال حصن: صالحوا قومكم، أما أنا فلا أدي ولا أتدي، قد قتل آبائي وعمومتي عشرين من عبس؛ فعاد إلى عبس وأخبرهم بقول حصن وأخذهم إليه، فلما رآهم قال قيس والربيع ابن زياد: نحن ركبان الموت. قال: بل ركبان السلم، إن تكونوا اختللتم إلى قومكم فقد اختل قومكم إليكم. ثم خرج معهم حتى أتوا سناناً فقال له: قم بأمر عشيرتك وأصلح بينهم فإني سأعينك. ففعل ذلك وتم الصلح بينهم وعادت عبس.

وقيل: إن قيس بن زهير لم يسر مع عبس إلى ذبيان وقال: لا تراني غطفانيةٌ أبداً وقد قتلت أخاها أو زوجها أو ولدها أو ابن عمها، ولكني سأتوب إلى ربي، فتنصر وساح في الأرض حتى انتهى إلى عمان فترهب بها زماناً، فلقيه حوج بن مالك العبدي فعرفه فقتله وقال: لا رحمني الله إن رحمتك.

وقيل: إن قيساً تزوج في النمير بن قاسط لما عادت عبس إلى ذبيان، وولد له ولد اسمه فضالة، فقدم على النبي، صلى الله عليه وسلم، وعقد له على من معه من قومه، وكانوا تسعة وهو عاشرهم.

الفصل الثالث عشر
حروب وأيام العرب في الجاهلية

ومبادئ الاسلام أما الحروب الواقعة بينهم في الجاهلية فأكثر من أن تحصى ومنها عدة وقائع مشهورة.

يوم البسوس: وهو من أعظم حروب العرب كان بين بكر بن وائل وتغلب بن وائل وكان للبسوس خالة جساس ناقة فرآها كليب بن ربيعة قد كسرت بيض حمام في حماه كان قد أجاره فرمى ضرعها بسهم فوثب جساس على كليب فقتله فهاجت الحروب بسبب ذلك ودامت بين الفريقين أربعين سنة.

بوم داحس: وكان لعبد القيس على فزارة وقد تقدم ذكر سببه.

يوم النسار: وكان بين ضبة وبني تميم.

أيام الفجار: بكسر الفاء والجيم - بين بكر بن وائل وبين تميم وكان أربعة أيام بين بني كنانة وهوازن بين قريش وكنانة بين كنانة وبين نصر بن معاوية ولم يكن في كبير قتال وهو الاكبر كان بين قريش وهوازن وكان بينه وبين مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ست وعشرون سنة وشهده رسول الله وهو ابن اربع عشرة سنة.

يوم ذي قار: كان من أعظم أيام العرب كان سنة أربعين مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل في عام البدر وكان لبني شيبان وكان كسرى ابرويز قد أغزاهم جيشا فظفر به بنو سنان وهو أول يوم انتصرت فيه العرب على العجم.

يوم ذي قار: كان بين بني عبس وذبيان ابني بغيض.

يوم رحرحاتن: كان بين بني دجارم وعامر بن صعصعة والثاني بين تميم وبني عامر.

يوم الفلج: كانت فيه وقعتان. الأولى لبني عامر على بني حنيفة والأخرى لبني حنيفة على بني عامر وأهل اليمامة.

يوم اللهابة: كان بين بني كعب وعبد شمس.

يوم طخفة: كان لبني يربوع على قابوس بن المنذر بن ماء السماء.

يوم تومرت: كان بين غنم وبني قشير.

يوم ارام: كان لتغلب على بني يربوع وقيل أرب.

يوم اراطة: بين بني حنيفة وبني جعدة.

يوم عاقل: كان بين بني جشم وحنظلة.

يوم درني: كان لبني طهية على تيم اللات.

يوم العضالى: كان لبني بكر بن وائل وتميم وهو آخر أيامهم وقيل يوم الفضال.

يوم الغبيط: كان لبني يربوع دون مجاشع.

يوم الكفافة: كان بين فزارة وبني عمرو وبني تميم.

يوم القرين: بين خثعم وكنانة.

يوم بسيان: كان لبني فزارة على تميم

يوم قرار: كان لمجاشع على بكر بن وائل.

يوم الحسي: كان لبكر على تغلب وقيل: يوم الحنو.

يوم السربات: كان بين عبس وبني حنظلة وقيل: يوم السربان.

يوم الستار: كان بين الغوث وجديلة وقيل: يوف الفساد.

يوم فيف الريح: كان بين خثعم وبني عامر.

يوم البيداء: من أقدم أيام العرب كان بين حمير وكلب.

يوم غول: كان لضبة على كلاب.

يوم السلان: كان لربيعة على مذحج.

يوم درحرح: كان بين سعد وغسان.

يوم الستار: كان بين بكر وتغلب حلق فيه أحد الفريقين رؤوسهم لتكون علامة لهم.

يوم الصليب: كان بين بكر بن وائل وبين عمرو بن تميم.

يوم ظهر: كان بين بني عمرو بن تميم وبني ضبة حنيفة.

يوم الدثينة: كان لبني مازن على سليم.

يوم ذات الحرمل: كان لني عامر على بني عبس.

يوم القرعاء: كان بين بني مالك وبني يربوع.

يوم ملهم: كان بين بني تميم وبني حنيفة.

يوم داب: كان لبني يربوع على بني كلاب قيل: يوم منفح.

يوم زرود: كان بين بني تغلب وبني يربوع.

يوم الرقم: كان بين بني فزارة وبني عامر.

يـوم بعـاث: كـان بـين بنـي الاوس والخـزرج ولـه ذكـر في صـحيح البخاري.

يوم النباج: كان لبني تميم على بني شيبان.

يوم الدرك: كان بين الأوس والخزرج.

يوم الوقد: كان لبني تميم على بني عامر بن صعصعة.

يوم الهرير: كان بين بني بكر وبني تميم.

يوم الهبات: كان لعبس على فزارة.

يوم نجران: كان لبني تميم على بني الحارث بن كعب.

يوم واردات: كان بين بكر وتغلب.

يوم ذي الابل: كان لتغلب على لخم وعمرو بن هند.

يوم الذنائب: كان لغسان على لخم ونجران.

يوم سفوان: كان لجعدة وقتير على النعمان بن المنذر ولخم.

يوم قبا: كان بين الاوس والخزرج.

يوم الغصيبة: ويقال القصيبة كان لعمرو بن هند على تميم.

يوم النصيح: كان لقيس على أهل اليمن وقيل: يوم المضيح.

يوم سنجار: كان لتغلب على قيس.

يوم دارة مأسل: كان لضبة على كلاب.

يوم مزلق: كان لسعد على عامر بن صعصعة وقيل: يوم مرفق.

يوم قادم: كان لضبة على كلاب.

يوم الفروق: كا ن لقيس على سعد تميم.

يوم الزخيخ: كان لقيس على أهل اليمن وقيل: يوم الرخيخ.

قال الناشر علي الخاقاني: وهناك أيام للعرب لم يذكرها المؤلف القلقشندي أو ذكر بعضها بغير اسم وهي: يوم الصفقة: وهو من أيام العرب والرس وسمي الصفقة لأن كسرى اصفق الباب على بني تميم في حصن المشقر ويسمى أيضًا يوم المشقر والمشقر حصن بالبحرين.

يوم البردان: وهو من أيام القحطانيين فيما بينهم وقع لحجر آكل المرار من كندة على زيد بن الهبولة من قضاعة. والبردان: علم على مواضع كثيرة ذكرها ياقوت في معجم البلدان ولم يعين الموضع الذي وقع فيه ذلك اليوم.

يوم الكلاب الأول: والكلاب اسم ماء بين الكوفة والبصرة. وقع لسلمة بن الحارث بن عمرو - عين اباغ - وعين اباغ وارد الانبار على طريق الفرات الى الشام وقع للحارث الاعرج بن جبلة ملك العرب بالشام على النذر بن ماء السماء ملك العرب بالحيرة.

يوم حليمة: هي بنت الحارث وفي هـذا اليـوم ضرب المثـل: مـا يـوم حليمة بسر. وقع أيضًا للحارث على المنذر.

يوم اليحاميم: واليحاميم ماء على طريق مكة. وقع لغوث على جديلة وكلاهما من طي ويعرف بقارات حوق.

حرب سمير: وقع بين الاوس والخزرج ابنا حارثة بن عمرو ومزيقيـا بن عامر ابن ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امـرئ القـيس بـن ثعلبـة بـن مازن بن الازد وقد نسبت بينهم تلك الحروب في الجاهليـة وهـذه أشـهرها. ومنها: حرب كعب بن عمرو وحرب حاطب.

يوم سحب: وسحب موضع في ديار بني الحـارث بـن كعـب. وهـذا وإن اتصل بالإسلام. إلا أنه جاهلي في ظروفه وأسبابه ولذلك وضع في مجمع الأمثال في الايام الجاهلية.

يوم خزاز: وهو لمعد على مذحج وخزاز جبل ما بين البصـرة إلى مكة. وهو من أعظم أيام العرب في الجاهلية وكانت معد لا تستنصـف مـن الـيمن ولم تزل اليمن قاهرة لها حتى هذا اليوم فانتصرت معد ولم تزل لها المنعة حتـى جاء الاسلام.

يوم الكلاب: وهو لتميم على مذحج. والكلاب اسم ماء بين الكوفـة والبصرة.

يوم النهى: وهو من أيام حرب البسوس. والنهى ماء لبني شيبان وقع لتغلب على بكر.

يوم عنيزة: لتغلب على بكر وقد تكافأ فيه. وعنيزة موضع في اليمامة.

يوم القصيبات: وهو أيضًا لتغلب على بكر والقصيبات: موضع في ديار بكر وتغلب.

يوم الوقيط: لبكر من ربيعة على تميم والوقيط: المكان الصلب الذي يستنقع فيه الماء.أطلق على موضع.

يوم ثيتل: لتميم على بكر وثيتل: ماء على عشر مراحل من البصرة ويسمى يوم النباح وهو موضع قريب من ثيتل. وقد ذكر المؤلف يوم النباح.

يوم جدود: لبني منقر من تميم على بكر من ربيعة وجدود: اسم موضع في بلاد بني تميم قريب من حزن بني يربوع على سمت اليمامة فيه الماء الذي يقال له الكلاب. قال ابن منظور في لسان العرب: وكانت فيه وقعة مرتين. وقد يسمى بعضهم يوم الكلاب الأول يوم جدود لذلك.

يوم ذي طلوح: لبني يربوع من تميم على بكر من ربيعة وذو طلوح: موضع في حزن بني يربوع بين الكوفة وفيد وهو يوم الصمد ويوم أود – وأد.

يوم الاياد: أيضًا لبني يربوع على بكر وأياد موضع بالحزن لبني يربوع بين الكوفة وفيد ويسمى أيضًا – يوم العظالة – ويوم الافاقة – ويوم مليحة – ويوم اعشاش – وانما سمي يوم العظالي لأنه تعاظل على الرياسة بسطام وهانئ بن قبيصة ومفروق بن عمرو في هذا اليوم.

يوم قشاوة: لشيبان على يربوع وقشاوة: موضع قال عنه ياقوت: كانت به وقعة لبني شيبان على يربوع وهو يوم نعف قشاوة.

يوم زبالة: وهو لشيبان على تميم وزبالة منزل بطريق مكة الى الكوفة.

يوم مبايض: وهو أيضًا لشيبان على تميم ومبايض ماء من مياه بني تميم.

يوم الشيطين: لبكر على تميم والشيطان: واديان.

يوم الوقبي: لتميم على بكر والوقبي: ماء لمازن على طريق المدينة من البصرة وهو من الايام التي تعد في الجاهلية.

يوم الشباك: لبني القصاف من تميم على بني تيم الله بن ثعلبة من بكر والشباك: طريق حاج البصرة وهذا أيضًا يعد من أيام الجاهلية.

يوم منعج: من أيام قيس فيما بينها. وهو لعبس على غني وتسميته بيوم منعج لصاحب العقد الفريد وقال أبو عبيد: ويقال له يوم الردهة وفي مجمع الأمثال للميداني: لبني يربوع على بني كلاب.

يوم النفراوات: لعامر على عبس والنفراوات هكذا ذكره أبو الفرج في الأغاني.

أما ابن عبد ربه فسماه النقراوات وقال البكري في كتابه معجم ما استعجم: نفري بفتح أوله واسكان ثانيه بعده راء مهملة مقصور على وزن فعلى ويمد: موضع في بلاد غطفان.

قال السكري: هي حرة قال مالك بن خالد الحفاعي: ولما رأوا نفرى تسيل اكامها بأرعن جرار وحاميةٍ غلب ورواه السكوتي: نقري بالقاف.

قال أبو الفتح: أراد نقري فخفف للضرورة.

قال أبو صخر فجمعها على نقريات: فلما تغشى نقريات سحيلة ودافعه من شامه بالواجب يريد بالاصابع يصف سحابا.

يوم النتاءة: لغطفان على عامر والنتاءة نخيلات لبني عطارد وهو النتأة كهمزة في القاموس وفي ابن الاثير هو يوم النبأة وفي معجم البلدان والأغاني النتاءة.

يوم حوزة الأول: لسليم على ذبيان وحوزة: واد بالحجاز.

يوم حوزة الثاني: لسليم على بني مرة من ذبيان.

يوم اللوى: لغطفان على هوزان واللوى واد من أودية بني سليم وسببه ان غزا عبد الله بن الصمة ومعه بنو جشم وبنو نصر أبناء معاوية بن بكر ابن هوزان (غطفان) فظفر بهم وساق اموالهم في يوم يقال له يوم اللوى ومضى بها.

يوم ابن ضبا: لبني ابي بكر بن كلاب على بني جعفر بن كلاب وكلاهما من عامر وابن ضبا رجل من بني أسد.

يوم هراميت: للضباب على بني جعفر وكلاهما من بني عامر والهراميت: آبار مجتمعة بناحية الدهناء.

يوم الكديد: وهو من أيام قيس وكنانة وهو لبني سليم على كنانة والكديد: موضع على اثنين واربعين ميلا من مكة.

يوم برزة: لبني فراس على بني سليم وبرزة: موضع وقد اتصل به يوم الفيفاء وهو لبني سليم على بني فراس وأصل الفيفاء: المفازة لا ماء فيها واطلقت على موضع.

حروب الفجار: بين كنانة وقيس وسميت الفجار لانها كانت في الاشهر الحرم وهي الشهور التي يحرمونها ففجروا فيها وهي فجاران الفجار الأول ثلاثة أيام والفجار الثاني خمسة أيام في أربع سنين وقد حضر النبي صلى الله عليه وسلم يوم عكاظ مع أعمامه وكان يناولهم النبل وانتهت سنة ٥٨٩ م وتعرف أيام الفجار الثاني: يوم نخلة، يوم شمطة، يوم ٧ ، يوم شعب جبلة - لعامر من قيس وحلفائهم من عبس على تميم وحلفائهم من ذبيان وأسد وغيرهما وجبلة: جبل طويل له شعب عظيم واسع لا يرقى الجبل إلا من قبله.

ويوم جبلة من أعظم أيام العرب وأشدها وكان قبل الإسلام بسبع وخمسين سنة.

يوم ذي نجب: لبني تميم على بني عامر من قيس وذو نجب ذكره ياقوت فقال: موضع كانت وقعة لبني تميم على بني عامر نب صعصعة. وكان هذا اليوم بعد مرور عام على يوم جبلة.

يوم الصرائم: بين عبس ويربوع ويسمى يوم بني جذيمة وذات الجرف أيضًا والصرائم: اسم موضع كما في معجم البلدان. والجرف موضع في نواحي اليمامة.

يوم الرغام: لبني يربوع من تميم على كلاب من قيس. والرغام اسم رملة بعينها من نواحي اليمامة.

يوم جزع ظلال: لفزارة من قيس على تميم وجزع ظلال: موضع وسببه ان اغارت بنو فزارة ورئيسهم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر ومعه مالك بن حمار الشمخي متساندين هذا من بني عدي بن فزارة وذلك من بني شمخ بن فزارة على التيم وعدي وثور أطحل من بني عبد مناة فملأوا أيديهم غنائم وابلا ونساءً وأخذ يومئذ شريك بن مالك بن حذيفة أربعين امرأة ٢ - يوم المروت - لتميم على عامر من قيس والمروت: موضع في ديار بني تميم.

يوم بزاخة: لضبة على أياد وبزاخة: ماء وسببه ان أغار محرق الغساني وأخوه أياد وطوائف من العرب من تغلب وغيرهم على بني ضبة بن أد ببزاخة فاستاقوا النعم فأتى الصريح بني ضبة فركبوا فأدركوه واقتتلوا قتالا شديدا ثم ان زيد الفوارس حمل على محرق فاعتنقه وأسره وأسروا أخاه حبيش بن دلف السيدي فقتلهما بنو ضبة وهزم القوم وأصيب منهم ناس كثير فقال في ذلك ابن القائف اخو بني ثعلبة: نعم الفوارس يوم جيش محرق لحقوا وهم يدعون يال ضرار ٤ - يوم النقيعة - لضبة على عبس والنقيعة: أرض تنبت الشجر بين بلاط سليط وبني ضبة. ويسمى هذا اليوم يوم أعيار.

يوم جديس: لجديس على طسم وهما من العرب البائدة.

يوم ذات الاثل: لأسد على سليم وذات الأثل: موضع في بلاد تيمالله بن ثعلبة.

يوم صوءر: لبني حنظلة على بني رياح وكلاهما من تميم وصوءر: ماء لكلب فوق الكوفة مما يلي الشام وهو من الايام التي تحسب على أيام الجاهلية وان كانت تحسب من حيث الزمن بالإسلام. انتهى كلام الناشر علي الخاقاني.

قال المؤلف: وأما الحروب الكائنة في الإسلام فغزوات النبي صلى الله عليه وسلم وغزواته معروفة مشهورة وقد جرت أيام مشهورة في الاسلام بعدها منها: - يوم السقيفة - وهو الذي مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم واجتمع الأنصار على سعد بن عبادة يريدون مبايعته ثم بايعوا أبا بكر الصديق.

يوم الدار: وهو الذي قتل فيه أمير المؤمنين عثمان بن عفان.

يوم الجمل: وهو ما كان بين علي وعائشة ام المؤمنين راكبة عليه.

يوم صفين: كان بين امير المؤمنين علي وبين معاوية بن ابي سفيان.

يوم اغواث: كان للعرب على الفرس.

يوم الحرة: كان ليزيد بن معاوية على أهل المدينة.

يوم مرج راهط: بالشام لمروان بن الحكم على الضحاك بن قيس الفهري.

يوم الشرثار: كان بين قيس وتغلب.

يوم شعب بوان: كان للمهلب بن ابي صفرة على الازارقة.

يوم قرقيا: كان لعبد الملك بن مروان على زفر بن الحارث.

يوم وادي القرى: كان لمروان الحمار على الخوارج.

يوم الذات: كان لمروان بن محمد على الخوارج. وبقيت أيام أخرى لا حاجة بهذا الكتاب الى ذكرها.

قال الناشر علي الخاقاني: أما الأيام التي بقيت فهي مهمة جدا ولا أدري لماذا لم يسجلها المؤلف القلقشندي وهي: - يوم بدر - وهو من الايام التي قلبت تاريخاً واسعاً فقد انتصر المسلمون على المشركين وكان ذلك في السنة الثانية من الهجرة.

وبدر: ماء مشهور بين مكة والمدينة بينه وبين البحر ليلة.

يوم أحد: من أشهر أيام العرب في الاسلام. وقع في السنة الثالثة من الهجرة.

وأحد: جبل تلقاء المدينة.

يوم الرجيع: كان في السنة الرابعة للهجرة والرجيع: ماء لهذيل وسببه أنه قدم على النبي صلى الله عليه وسلم بعد وقعة أحد رهط من عضل والقارة.

فقالوا يا رسـول الله: إن فينـا إسـلاماً وخـيرًا فابعـث معنـا نفـرا مـن أصحابك يفقهوننا في الدين ويقرئوننا القرآن ويعلموننا شرائع الاسلام.

فيعث النبي صلى الله عليه وسلم معهم ستة من اصحابه وأمـر علـيهم مرثد بن ابي مرثد الغنوي فخرج مرثد مع القوم حتى اذا كـانوا عـلى الرجيـع غدروا بهم واستصرخوا عليهم - يوم بشر معونة - كان في السنة الرابعة مـن الهجرة وبئر معونة: بين أرض بني عامر وحرة بني سليم.

يوم بني النضير: وقع أيضًا في السنة الرابعـة وبنـو النضـير حـي مـن اليهود سكن المدينة.

يوم الخندق: وقع في السنة الخامسة من الهجرة وفيها انتصر المسلمون.

على قريش عندما حضرهم اليهود وكان النصر على يد الامام علي بن أبي طالب فقد ضايقهم في السبخة التـي بـين سـلع والخنـدق وهنـاك ضرب فارسهم عمرو بن ود ضربة واحدة فانهزموا جميعا.

يوم بني قريظة: وقع للنبي على اليهود بعـد منصرـفه مـن الخنـدق الى المدينة ولما كان الظهر أمر رسول الله مؤذنا فأذن في النـاس مـن كـان سـميعا مطيعا فلا يصلين العصر الا في بني قريظة.

وقدم رسـول الله عـلي بـن أبي طـال برايتـه إلى بنـي قريظـة ودنـا مـن حصونهم وحـاصرهم خمسـاً وعشرـين ليلـة وقـذف الله في قلـوبهم الرعـب وأيقنوا أن رسول الله غير منصرف عنهم حتى ينـاجزهم فعـرض كعـب بـن أسد على اليهود خلالًا ثلاثا فوافقوا على واحدة واستسلموا.

يوم ذي قرد: كان في ذي الحجة من السنة السادسة وذو قرد: موضع قرب المدينة.

يوم بني المصطلق: كان في السنة السادسة من الهجرة وبنو المصطلق: جماعة من خزاعة.

يوم الحديبية: كان أيضًا في السنة السادسة للهجرة والحديبية: موضع بينه وبين مكة مرحلة ١

يوم مؤتة: كان في السنة الثامنة للهجرة ومؤتة: موضع بالشام على مرحلتين من بيت المقدس.

يوم الفتح: كان في شهر رمضان سنة ثمان من الهجرة.

وقع بين بني بكر وخزاعة بعد صلح الحديبية والتحاق خزاعة في عقد رسول الله أما بنو بكر فقد لحقوا بعقد قريش.

يوم حنين: كان في الثامنة للهحرة وقد ورد ذكره في القرآن الكريم عندما انتصر السملمون على المشركين.

وحنين: واد إلى جنب ذي المجاز ويسمى غزوة أوطاس وهوازن.

يوم تبوك: كان في رجب سنة تسع من الهجرة. وتبوك: موضع من أدنى أرض الشام وسميت أيضًا غزوة العسرة لقوله تعالى والذين اتبعوه في ساعة العسرة وتعرف بالفاضحة لافتضاح المنافين فيها.

يوم ذي القصة: لبني بكر على عبس وذبيان كان في عـام ١١ للهجـرة وذو القصة: موضع بينه وبين المدينة أربعـة وعشرـون مـيلا في طريـق نجـد. وبهذا اليوم عز الاسلام وذل المشركون وكان نصر المسلمين يشبه نصرهم يوم بدر.

يوم بزاخة: لخالد بن الوليد على أسد وغطفان كان في سنة ١١ للهجرة ويعرف بيوم الردة وبزاخة ماء لبني أسد وهو غير يوم بزاخـة الـذي وقـع في الجاهلية وذكر برقم ٤٣.

يوم البطاح: وقع لخالد بن الوليد على بني تميم وكان أيضا في عام ١١ للهجرة والبطاح: ماء في ديار بني أسد.

يوم اليمامة: وقع لخالد بن الوليد على بني حنيفة وكان أيضـا عـام ١١ للهجرة واليمامة: معدودة في نجد بينها وبين البحرين عشرة أيـام وتعـد هـذه الموقعة من المواقع الفاصلة في حروب الردة.

يوم جؤاثا: وقع للعلاء بن الحضرـمي عـلى ربيعـة عـام ١١ للهجـرة وجؤاثا حصن لعبد القيس.

يوم صنعاء: وقع للمهاجر بن أبي امية وعكرمة بن ابي جهل على قيس ابن عبد يغوث عام ١١ للهجرة. وصنعاء من مدن اليمن.

يوم ذات السلاسل: وقع لخالد بن الويد على هرمز في شهر المحرم عام ١٢ للهجرة وسميت ذات السلاسل لأن الفرس اقترنوا في السلاسل حتى لا يفروا أو لأن ما جمعه خالد من غنائمهم من السلاسل كان وقر بيعر وبعض المؤرخين يسميه يوم كاظمة نسبة الى أقرب قرية من المكان الذي وقع فيه.

يوم الثنى: وقع خالد بن الوليد على قارن بن قريانس من الفرس في شهر صفر عام ٢ للهجرة والثنى: نهر في المذار. والمذار: بلدة بينها وبين البصرة أربعة أيام الى الشمال بالقرب من واسط وتسمى أيضًا وقعة المذار.

يوم الولجة: لخالد بن الوليد على الاندر زغر الفرس وقعت في شهر صفر من عام ٢ للهجرة والولجة: من أرض كسكر في الشمال من المذار.

يوم أليس: لخالد بن الوليد على يهمن جاذويه الفرس وقعت أيضًا في صفر من عام ٢ للهجرة وأليس: قرية من قرى الأنبار في منتصف الطريق بين الحيرة والابله.

يوم الحيرة: وقع لخالد بن الوليد على أهل الحيرة في ربيع الأول من عام ١٢ للهجرة والحيرة: موضع على ثلاثة أميال من الكوفة وقرب النجف.

يوم ذات العيون: لخالد بن الوليد على شيرزاذ الفرس وقع عام ١٢ للهجرة وسميت ذات العيون لما وقع فيها من فقوء عيون الاعداء.

يوم عين التمر: لخالد بن الوليد على مهران بن بهرام وعقة بن أبي عقة وقع عام ٢ للهجرة وعين التمر بلدة قريبة من الأنبار وكربلاء غربي الكوفة.

يوم دومة الجندل: لخالد بن الوليد على اكيدر بن عبد الملك والجـودي ابن ربيعة كان عام ٢ للهجرة ودومة الجندل: على سبع مراحل من دمشق.

يوم اليرموك: للعرب على الروم وقع عام ١٣ للهجرة واليرموك: واد بناحية الشام بنتهي إلى نهر الأردن.

يوم النمارق: لأبي عبيـد عـلى هرمـز الفـرس وقـع عـام ١٣ للهجـرة والنمارق: موضع قرب الكوفة من جمهورية العراق.

يوم السقاطية: لأبي عبيد على نرسي والجالنوس الفرس وقع عـام ١٣ للهجرة والسقاطية: ناحية بأرض كسكر قريبة من واسط.

يوم قس الناطف: للفرس بهمن على العرب ابي عبيـد وقـع عـام ١٣ للهجرة وقس النـاطف: موضـع قريـب مـن الكوفـة عـلى شـاطئ الفـرات الشـرقي. ويسمى أيضاً يوم المروحة وهو موضـع بشـاطئ الفـرات الغـربي. وقد يسمى يوم الجشر لما كان من قطعه وراء المسلمين.

يوم البويب: للعرب المثنى بن حارثة على الفرس مهران الهمذاني وقع عام ١٣ للهجرة والبويب: نهر بالعراق يأخذ من الفـرات. وقـد يسـمى يـوم مهران ويسمى يوم الاعشار لأن مائة رجل من العرب قتل كل واحـد مـنهم عشـرة من الفرس.

يوم القادسية: وقع للعرب على الفرس عام ١٤ للهجرة وفيه انهزم الفرس وقتل رستم. والقادسية: موضع بينه وبين الكوفة خمسة عشر فرسخا.

يوم ارماث: أيضًا للعرب على الفرس وأرماث قال ياقوت: لا أدري أهو موضع أم أرادوا البيت وارماث: جمع رمث وهو من نبات البادية.

يوم عماس: من أيام القادسية وهو للعرب المسلمين على الفرس وقع بين هاشم بن عتبة والقعقاع وبين أهل فارس.

يوم بابل: وقع عام ١٥ للهجرة للعر بعلى الفرس ويعتبر من أيام القادسية بين سعد وأهل فارس. وبابل مدينة قفديمة بناها الكلدان على الجانب الأيسر من الفرات.

يوم بهرسير: كان في ذي الحجة من عام ١٥ للهجرة أيضا من أيام العرب على الفرس وبهرسير: من نواحي سواد بغداد قرب المدائن.

يوم المدائن: للعرب على الفرس وقع عام ١٦ للهجرة والمدائن: عاصمة الفرس بناها انوشروان بن قباذ وأقام بها هو ومن كان بها من ملوك ساسان.

يوم جلولا: للعرب على الفرس عام ١٦ للهجرة: وقع بعد هزيمة الفرس من المدائن وكان على رأسهم ملكهم يزدجرد مهران وعلى رأس الجيش العربي سعد بن أبي وقاص.

وجلولاء موضع يبعد عن شمال المدائن مائة ميلا وهو معسكر للجمهورية العراقية اليوم.

يوم تكريت: للعرب على الفرس وقع عام ١٦ للهجرة وتكريت من أقضية الجمهورية.

يوم ماسبذان: لضرار بن الخطاب على الفرس وقع عام ١٦ للهجرة وماسبذان: موضع عن يمين حلوان الى همذان.

يوم قرقيسياء: كان في رجب من عام ١٦ للهجرة وفيه تغلب العرب على الفرس وقرقيسياء: بلد عند ملتقى نهر الخابور والفرات على تخوم ما بين العراق والشام.

يوم الأهواز: وفيه تغلب العرب على الفرس وقع عام ١٧ للهجرة والاهواز: إقليم عربي واسع يتكون من سبع كور بين البصرة وفارس.

يوم طاووس: وفيه تغلب العرب على الفرس وقع أيضًا عام ١٧ للهجرة وطاووس: موضع بنواحي فارس.

يوم تستر: للعرب على الفرس وقع عام ١٧ للهجرة وتستر: أكبر مدينة بعربستان.

يوم فتح السوس: أيضًا للعر بعلى الفرس وقع عام ١٧ للهجرة أيضًا والسوس: بلد بعربستان.

يوم نهاوند: للنعمان بن مقرن على الفرس وقع عام ٢١ للهجرة ونهاوند: من بلدان الفرس قرب همذان.

يوم النهروان: وقع عام ٣٧ للهجرة وفيه تغلب الامام علي بن أبي طالب على الخوارج وكأن على رأسهم زرعة بن البرج الطائي وحرقوص بن زهير السعدي. والنهروان: كورة واسعة بين بغداد وواسط من الجانب الشرقي.

يوم كربلاء: وقع عام ٦١ للهجرة وفيه خرج الإمام الحسين السبط صلى الله عليه وسلم طالباً للأصلاح في أمة جده الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم بعد أن استبد بالأمر يزيد ابن معاوية وعاث في الامة فسادا فجهز له جيشا عظيماً بقيادة عمر بن سعد التقى معه في كربلاء فقتل فيه الامام واخوته واولاده وأولاد أخيه الامام الحسن السبط وأولاد جعفر وعقيل وسبعون من أصحابه الصفوة. بعد أن قتل الآلاف من أهل الكوفة. وكربلاء أحد ألوية الجمهورية العراقية اليوم وفيه قبر الامام الحسين وأصحابه يزوره الملايين من المسلمين في كل عام سبع مرات.

يوم عين الوردة: وقع بعد مقتل الامام الحسين بين عبيد الله بن زياد وسليمان بن صرد الخزاعي وأصحابه التوابين عام ٦٥ للهجرة وكانت الغلبة فيه لسليمان أولاً غير أن جيش الشام أدرك ابن زياد واعانه فكانت الغلبة أخيراً له.

وعين ورده: بلد في وسط الجزيرة.

يوم بنات تلي: لعبيد الله بن زياد المختار الثقفي وقد بسط هذه الواقعة الطبري في تأريخه ج ٧ ص ١١٢.

يوم جبانة السبيع: وقع للمختار الثقفي على أهل الكوفة ممن شارك بقتل الحسين عليه.

يوم خازر: وقع لابراهيم بن مالك الاشتر على عبيد الله بن زياد عام ٦٧ للهجرة وفيه قضى ابراهيم على آخر مجرم شارك بقتل الامام الحسين وخازر: نهر الى جنب قرية بينها وبين الموصل خمسة فراسخ.

يوم دير الجماجم: للحجاج على عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث بدأ في شعبان من عام ٢ للهجرة وقيل ٨٣ للهجرة ودير الجماجم دير بظاهر الكوفة على طريق البر الذي يسلك الى البصرة وسمي بدير الجماجم بوقعة أياد على أعاجم كسرة بشاطئ الفرات الغربي حيث قتل جيشه فلم يفلت منهم إلا الشريد وجمعوا جماجمهم فجعلوها كالكوم فسمي ذلك المكان دير الجماجم.

يوم الهاشمية: وقع عام ١٣٦ - أو - ١٣٧ للهجرة لأبي جعفر المنصور في قتاله للمسودة وابن هبيرة.

وكان معن بن زائدة وحاجبه أبو الخصيب قد نهياه عن قتاله وأن الناس لا يأتون إلا بالأموال فلم يأخذ بنصيحتهما وركب دابته وتجمع الناس عليه فتغلب على خصومه. والهاشمية: قريبة من الكوفة أسسها السفاح العباسي وهي اليوم قضاء في جمهورية العراق.

النار في الجاهلية:

وهي ثلاث عشرة ناراً:

نار المزدلفة: وهي نار توقد في المزدلفة ليراها من دفع من عرفته وأول من أوقدها قصي بن كلاب وهي توقد الى الآن.

نار الاستمطار: كانوا في الجاهلية الأولى اذا احتبس المطر عنهم جمعوا البقر وعقدوا في أذنابها وعراقيبها السلع والعشر ثم يصعدون بها في الجبل الوعر ويشعلون فيها النار ويزعمون ان ذلك من اسباب المطر.

نار الحلف: كانو إذا أرادوا عقد حلف أوقودا النار وعقدوا الحلف عندها ويذكرون خيرها ويدعون بالحرمان والمنع من خيرها على من ينقض العهد ويحل العقد. قال أبو هلال العسكري: وانما كانوا يخصون النار بذلك لأن منفعتها تختص بالانسان لا يشاركه فيها غيره من الحيوان.

نار الطرد: فانهم كانوا يوقدونها خلف من مضى ولا يحبون رجوعه.

نار الأهبة للحرب: كانوا اذا أرادوا حربا أو توقعوا جيشاً أوقدوا ناراً على جبلهم ليبلغ الخبر أصحابهم فيأتونهم.

نار الحرثين: كانت في بلاد عبس فاذا كان الليل فهي نار تسطع وفي النهار دخان يرتفع وربما بدر منها عنق فاحرق من مر بها فمر خالد بن سنان المتنبي فدفنها فكانت معجزة له.

نار السعالى: وهي نار ترتفع للمقفر والمتغرب فيتبعها فتهوى بها الغول على زعمهم كما تقدم في الكلام على اوابد العرب.

نار الصيد: وهي نار توقد للظباء تغشاها لتعشي اذا نظرت اليها.

نار الأسد: وهي نار توقد اذا خافوا الأسد لينفر عنهم فان من شأنه النفار عن النار لانه اذا رأى النار حدث له فكر يصده عن قصده.

نار السليم: توقد للملدوغ كانو يوقدون النار للملدوغ اذا لدغ يساهرونه بها وكذلك اذا نزف دمه والمضروب بالسياط ومن عضه كلب كي لا يناموا فينتابهم الأمر حتى يؤدي بهم إلى التهلكة.

نار القرى: وهي نار توقد ليلا ليراها الاضياف فيهتدوا اليها.

نار الفداء: كان الملوك منهم إذا سبوا نساء قبيلة خرجت اليهم السادة للفداء والاستيهاب فيكرهون أن يعرضوا النساء نهاراً فيفتضحن أو في الظلمة فيخفى قدر ما يحسبون لأنفسهم من الصفى فيوقدون الناء لعرضهن.

نار الوسد: وهي النار التي يسم بها لارجل منهم خيله وابله فيقال له ما سمة ابلك فيقول نار كذا.

أسواق العرب المعروفة قبل الإسلام:

قد كان للعرب في الجاهلية اسواق يقيمونها في شهور السنة وينتقلون من بعضها الى بعض ويحضرها سائر قبائل العرب من بعد منهم ومن قرب فكانوا ينزلون دومة الجندل أول يوم من ربيع الاول فيقيمون أسواقها بالبيع والشراء والأخذ والعطاء فيعشرهم رؤساء آل بدر في دومة الجندل وربما غلب على السوق بنو كلب فيعشرهم بعض رؤساء كلب فتقوم سوقهم الى آخر الشهر ثم ينتقلون الى سوق هجر وهو المشهور في ربيع الآخر فتقوم

أسواقهم بها وكان يعشرهم المنذر بن ساوى أحد بني عبد الله بـن دارم ثم يرتحلون نحو عمان بالبحرين فتقوم سوقهم بها ثـم يرتحلـون فينزلـون ارم وقرى الشحر فتقوم اسواقها بها أياماً ثم يرتحلون فينزلـون عـدن مـن الـيمن أيضاً فيشترون منه اللطائم وانواع الطيب ثـم يرتحلـون فينزلـون الرابيـة مـن حضـرموت ومنهم من يجوزها إلى صنعاء ثم تقـوم السـواقهم بهـا ويجلبـون منها الخز والادم والبرود وكانت تجلب اليها من معافر ثم يرتحلون الى هكاظ في الاشهر الحرم فتقوم أسواقهم بها ويتناشدون الاشعار ويتحاجون ومن لـه اسير سعى في فدائه ومن له حكومة ارتفع الى الذي يقوم بأمر الحكومة وكـان الذي يقوم بأمر الحكومة فيها من بني تميم كان أحدهم الاقرع بن جابس ثـم يقفون بعرفة ويقضون مناسك الحج ويرجعون الى أوطانهم.

المراجع

- جمال سلامة، النظام السياسي والبناء الاجتماعي.
- جمال سلامة، النظام السياسي والحكومات الديمقراطية.
- نيكتيا ايليسيف، الشرق الإسلامي في العصر الوسيط.
- هاشم يحيى الملاح، الوسيط في تاريخ العرب قبل الإسلام.
- جواد العلي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام.
- صابر عبدا لرحمن طعيمة، الإسلام في العهد المدني والخصومات القديمة المتجددة.
- النويري، نهاية الأدب في فنون الأدب،
- مطالبة معاوية بني ابي سفيان بعد مقتل الخليفة عثمان، بالثأر، والاقتصاص، الطبري، تاريخ الطبري ؛ ابن الاثير، الكامل في التاريخ ؛ ابن العربي، العواصم من القواصم.
- جريدة الشرق الأوسط نسخة محفوظة ١٤ مارس ٢٠٠٩ على موقعWayback Machine. نسخة محفوظة ٢٧ نوفمبر ٢٠١٢ على موقعWayback Machine.
- صحيفة ٢٦ سبتمبر نسخة محفوظة ١١ نوفمبر ٢٠١٦ على موقع Wayback Machine.
- جريدة عكاظ نسخة محفوظة ٢٤ سبتمبر ٢٠١٥ على موقع Wayback Machine.
- Potts (٢٠٠٨)
- سورة إبراهيم:٣٧
- تكوين ١٧-٢٠

- جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، دار المعارف، ص١١ : الحاشية
- أجواد الفاسي، المرأة في الجزيرة العربية قبل الإسلام: الأنباط، ص.٥
- انظر: السيرة النبوية بأبي شهبة (١/ ٩٧)
- انظر: نظرات في السيرة للإمام حسن البنا، ص١٤ .
- بلوغ الأرب (١/ ٣٩-٤٠)
- تعدى إلى الأعلى ل:اب انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٩٥)
- ديوان عنترة، ص٢٥٢.
- ديوان عنترة: د. فاروق الطباع ص٨٢.
- Herodotus, vol, I, p. ٢٥٤
- الولث: الوعد الضعيف.
- بلوغ الأرب (١/ ١٥٠)
- رواه مسلم، كتاب الأضاحي، رقم ١٩٧٨ .
- انظر: مدخل لفهم السيرة ص ٩١ .
- تاريخ الطبري عن يوم ذي قار (٢/ ٢٠٧)
- موقع .Wayback Machine نسخة محفوظة ٢٩ نوفمبر ٢٠١٤ على موقع .Wayback Machine

- A.F.L. Beeston: “The Religions of Pre-Islamic Yemen,” pp. ٢٥٩_٢٦٩
- Arabs, Dumbarfon Oaks, Washington, D.C. ١٩٨٤
- H. I. MacAdam, N. J. Munday, Cicero's Reference to Bostra (AD Q. FRAT. ٢. ١١. ٣), Classical Philology, pp.١٣١-١٣٦, ١٩٨٣
- Giumlia-Mair et al.,٢٠٠٢; Keall,٢٠٠٤
- Adolf Grohmann, Arabien. s. ٢٥٧
- Strabo ١٦.٣.٣
- Potts ١٩٩٠, II: ٨٥-٩٧
- UAE-Interact نسخة محفوظة ٠١ مايو ٢٠١٧ على موقع Wayback Machine

- ^ Mishna Yadayim, I, ٣, Yebamoth, ٤, ١٣, Tosephta Berachoth, ٤, ٢٤, Sanhedr, ١٢, ٣, Besa, ٢, ١٩, Bab. Talmud, Zebachim, ٣٢ b. Baba Gamma, ٩٠, b. Besa, ٢١a Tarrey, pp. ٢٦ Margoliouth, p. ٦٨.
- Archaeological, linguistic and historical sources on ancient seafaring: A multidisciplinary approach to the study of early maritime contact and exchange in the Arabian peninsula ,Nicole Boivin, Roger Blench & Dorian Fuller data/Arabia/Boivin, Blench & Fuller final.pdf pdf; also see Aramco Article of ٤July/August ١٩٩٢ [٢]